مقابلات وتأملات في زمن الحرب
ذاكرة الحروب، حاضر التهجير
ومستقبل الطائفة...

أمم للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

أدهم جابر

مقابلات وتأملات في زمن الحرب
ذاكرة الحروب، حاضر التهجير ومستقبل الطائفة...

مقدمة

فرضت الحرب التي نشَبت بين حزب الله وإسرائيل، في العام ٢٠٢٤، واقعًا مختلفًا بالنسبة إلى الطائفة الشيعية. وكان لها بالغ الأثر في امتحان الخطاب الثوري، وشعار «وحدة الساحات»، لما يسمّى «محور المقاومة»، وتحديدًا حزب الله الذي عمل على تكريس هذه الرؤية على مدى نحو أربعة عقود من الزمن. وبالتالي كان من الطبيعي أن تُختبَر هذه الرؤية عمليًّا لمعرفة مدى صوابيتها، خصوصًا أنها مسّت بطائفة بأكملها وبكل طوائف لبنان، على حدٍّ سواء، والتي تحمّلت بطريقة أو بأخرى وِزر حرب كانت لا ترغب في وقوعها.

إن تداعيات الحرب الأخيرة ونتائجها المباشرة وغير المباشرة، وضعت الطائفة الشيعية في موقف لا تُحسد عليه، لكنها في الوقت نفسه، فتحَت الباب أمام نقاش فعلي، داخل الطائفة وخارجها، حول الأسباب التي أدّت إلى ما جرى، ثم كان البحث في النتائج والآثار على المديَين القريب والبعيد، وذلك انطلاقًا من واقع سيطرة حزب الله وحركة أمل أو ما يُطلق عليه «الثنائي الشيعي»، على قرار الطائفة، وبالتالي تركّز النقاش على ضرورة إعادة قراءة تجربة الطائفة الشيعية، والبحث المعمّق فيها، لإدراك مدى صوابية خطابها الثوري وخياراتها، خصوصًا في ظلِّ، ما رآه البعض، من حالة الانكفاء التي تعيشها بفعل الضرَبات القاسية، إذا لم نقُل القاتلة، التي تعرّض لها حزب الله في حرب ٢٠٢٤.

هذا الواقع المستجد، دفع بالكثيرين من مثقفي وإعلاميي وأكاديميي الطائفة، إلى البحث في أوضاعها، انطلاقًا من الظروف الطارئة التي ألمّت بأبنائها. وعليه كانت هذه الحوارات مع نُخبة من المثقفين والإعلاميين والأكاديميين من مختلَف مشارِب الطائفة الذين عاشوا معاناة الحروب المتعدّدة؛ من الحرب الأهلية، إلى الحروب الإسرائيلية المتكرِّرة، أو على الأقل الذين اطّلعوا على تلك المعاناة من خلال طبيعة عملهم، ومدى تأثير تلك الحروب على المكان والذكريات المرتبطة به، خصوصًا أن الطائفة الشيعية تكاد تكون الوحيدة في لبنان التي عانت من ويلات الحروب على اختلاف أنواعها، ودفعت الثمن باهظًا لأسباب عدّة، أهمها واقعها الجغرافي في جنوب لبنان، على الحدود مع فلسطين المحتلة، الأمر الذي عرَّضها لتحمُّل تبِعات الاعتداءات الإسرائيلية، كما كانت خزّان المقاومة لفترات كثيرة، ولعبت دورًا كبيرًا في مساندة القضية الفلسطينية ودعمها منذ بدئها.

اخترنا في هذه الدراسة التوجُّه إلى عدد من الشخصيات الإعلامية والثقافية والأكاديمية، أبناء الطائفة الشيعية، الذين كان لبعضهم ذكريات كثيرة مع الحرب، وبلغ عدد الذين تمَّ التواصل معهم نحو ١٠٠ شخصية. رفَض عدد منهم المشاركة، بلباقة، بسبب الظروف المرتبطة بالحرب والنزوح، والبعض الآخر بسبب الانشغال أو عدم الرغبة في التحدُّث عن الموضوع المطروح، خصوصًا أن الحوارات جرَت في الفترتين، ما قبل انتهاء الحرب ووقف إطلاق النار وما بعدها. أما البعض الآخر فرفض، علمًا أن هدفنا لم يكن، كما ذكرت سابقًا، سوى استطلاع الآراء المتنوّعة، حول واقع الطائفة الشيعية خلال حرب ٢٠٢٤ وبَعدها، وأننا لم نكن نرغب بتوجيه الإجابات إلى حيث نريد، بل كنّا ملتزمين بنقل وجُهات النظر كما هي، من دون تدخُّل في الآراء. لكن بطبيعة الحال فإن مَن اختاروا التعاون معنا، كانوا ٥١ شخصية، وكانوا حقًّا من حمَلة الأفكار التي يُعتدّ بها، كما تميّزوا بأنهم يتحدّثون من منطلق وطني جامع، فهُم وإن انتموا إلى الطائفة الشيعية، إلّا أنهم أجابوا انطلاقًا من انتمائهم الوطني اللبناني الجامع، القائم على التوحّد لا على التفرقة والتميُّز.

لذلك، كان الهدف من هذا الاستفتاء، استطلاع آراء المشاركين في بعض القضايا، على شكل أسئلة كانت موحَّدة في المضمون، وإن اختلفت في الشكل في بعض الأحيان، مع بعض الشخصيات التي جرى الحوار معها مباشرة. وتركّزت الأسئلة حول هوية الشخصية في البداية وما تحمله من ذكريات تتعلّق بالمكان خلال الحروب المختلفة التي عاشتها الطائفة الشيعية، أو فُرضت عليها، وكذلك حول الواقع الشيعي، وما كسبت الطائفة الشيعية وما هي خسائرها، انطلاقًا من الحرب الأخيرة في العام ٢٠٢٤، وحول إعادة ترتيب البيت الداخلي للطائفة الشيعية، وعلاقاتها مع الطوائف الأخرى داخل الوطن، ثم الرؤية المستقبلية للطائفة، وما إذا كان هناك ضرورة لإعادة النظر في بلوَرتها، من قِبل أبنائها.

لقد جاءت الإجابات متنوِّعة باختلاف المشارب الفكرية للمشاركين في الدراسة، إذ أبرزت اختلاف وجُهات النظر

بشكلٍ أظهر التنوُّع داخل الطائفة الشيعية، بحيث لا تبدو ككتلة واحدة، كما يحاول البعض تصويرها، وقد لمسنا هذا التنوُّع لدى المعارضين الشيعة، وكذلك لدى التابعين والموالين لـ«الثنائي الشيعي»، والذين لم يكن تصوُّرهم موحَّدًا بالنظرة إلى الانخراط في تلك الحرب، ولا حتى لمستقبل الطائفة الشيعية. وبالتالي، كان من جملة أهدافنا إبراز هذا التنوُّع وليس الحصول على نتيجة موحَّدة. وعلى هذا الأساس كان الاستفتاء عبارة عن أسئلة وأجوبة، لم نقُم بالتدخل في مضمونها، بل كانت الفكرة أن نجعل الشخصية تتحدَّث بالطريقة التي تناسبها، فلم يكن هدفنا «قَولبة» الإجابات أو توجيهها لتبنّي وجهة نظر معيّنة، خصوصًا أننا تعامَلنا مع شريحة نخبَوية من المثقفين والإعلاميين وصنّاع القرار والناشطين السياسيين والاجتماعيين، وهذا يعكس غِنى التنوِّع في الإجابات، علمًا أن آراء هذه الشخصيات قد تتقاطع كثيرًا مع المزاج الشعبي داخل الطائفة الشيعية.

أُجريَت المقابلات بطُرق مختلفة، البعض قابلناهم شخصيًّا، والبعض الآخر اختار الإجابة بصيغة مكتوبة، وآخرون عِبر رسائل صوتية، ومنهم مَن فضَّل كتابة النصّ والإجابات لا الالتزام بصيغة السؤال والجواب، فكانت نصوصهم مميّزة، تطرح وجُهات نظرهم بشكل مختلف.

استنادًا إلى ما سبَق، فقد جاءت الإجابات متنوِّعة، وإن كانت في غالبيتها حمّلت مسؤولية ما آلت إليه الطائفة الشيعية لقيادة حزب الله، إلّا أنها رفضت أن تختزل الطائفة بحزب واحد أو بحزبيْن، خصوصًا أنها تُعتبر بالنسبة إلى العديد من أبنائها المثقفين مصدَر غنًى من النواحي الوطنية والعلمية والثقافية.

ولا أُخفي أنني كنت خلال كل حوار أجرَيته، أعيش تجربتي الشخصية، وعلى وجه التحديد في الجوانب المتعلِّقة بذكريات الحرب، وتأثيرها على أماكن السكن. فحالتي كجنوبيّ من قرية محيبيب الحدودية، لا تختلف عن الكثيرين من أبناء الطائفة الذين عاشوا حالة عدم الاستقرار بمختلف أشكالها وأنواعها. فمحيبيب هي أول قرية نسَفها الجيش الإسرائيلي خلال حرب ٢٠٢٤ وأبادها عن بكرَة أبيها، حتى المدافن فيها لم تسلَم من الخراب والدمار، وليَ فيها أهل يرقُدون تحت التراب، بينهم والدي وعمي إبراهيم جابر شهيد الحزب الشيوعي اللبناني الأول في معاركه ضد إسرائيل. ومع هذا الخراب، نسَفت إسرائيل، كل ذكرياتي في مرحلة الطفولة، إذ كنت قد أمضيت في قريتي سنوات قليلة، قبل أن ننزح عنها مُجبَرين من قِبل عملاء الجيش الإسرائيلي، فكانت رحلتي مع النزوح والانتقال من مكان إلى آخر طويلة ومريرة، إلى أن استقرَّينا في إحدى بلدات قضاء النبطية في دير الزهراني سنة ١٩٨٦، وفي تلك البلدة عشت وَيلات حربَي ١٩٩٣ و١٩٩٦، لكن في حرب الـ٢٠٠٦، كنت في قطر، وبالتالي كان تأثيرها الجسَدي عليّ خفيفًا، وإن كان التأثير النفسي أصعب وأمرّ، فعندما يكون المرء مُغتربًا فيما تعيش عائلته تحت وطأة الموت في وطنه، يشعر بمرارة لا تُوصف. أما في الحرب الأخيرة ٢٠٢٤، فقد عِشتها عن قُرب وخبِرت وَيلاتها، كنت أراقب من شُرفة منزلي في منطقة غاليري سمعان، الصواريخ التي تنسف العمارات والمنازل في ضاحية بيروت الجنوبية، وأسمع أصوات القذائف تمرّ من فوق منزلي، وهي تنهال بكثرة وبلا رحمة على منطقة تضمّ نحو مليون و١٠٠ ألف إنسان، كلّهم تحوّلوا إلى نازحين بطُرفة عَين.

في خضمٍّ هذا الواقع الأليم كانت الأسئلة تتردّد في رأسي بسرعة البَرق، لم أكن أملك أجوبة عليها، تراكمت الأسئلة وكانت تبدأ جميعها بـ«لماذا؟». كان الأصعب هو في ما يمكن أن أجيب به ولَديَّ، وهما يستمعان إلى أصوات القذائف من دون خوف أشعرني بالصدمة. طفلان عمِلا على تقوَيتي ولم يعيشا حربًا من قَبل. لكن بقيتُ حائرًا ولا أجد أجوبة شافية، فمَن ذا الذي كتَب على الطائفة الشيعية أن تتأبَط البندقية ما دامت...؟ ومن الذي سيسخر منها إن هي جنّبت نفسها وأبناءها ويلات الحروب؟ ولماذا الشعور بالتقصير إن هي امتنعت عن مساندة القضية الفلسطينية في حين أن هنالك ملايين العرب والمسلمين وقفوا متفرِّجين؟ لم أحصل على أجوبة على كل تلك الأسئلة، لكنني كنت على قناعة بأن حزب الله، ألبس الطائفة عِمّة ليست لها، وحوّل أبناءها إلى رهائن لمشروع إيراني بلا مقابل، سوى الدمار والموت، أراد لها أن تعيش الحرب دائمًا وأبدًا وأن تخسر خيرة أبنائها، أراد للطائفة أن تبقى منغمسة في بحور الدماء ليبقى مهيمِنًا ومسيطِرًا ومصادِرًا لقرارها، هذه الطائفة الولّادة والتي أنجبت مفكّرين وشعراء وعلماء، من بينهم أهمّ المفكرين، كحسين مروة ومهدي عامل، وأهمّ عالمَين عرفهما لبنان، حسن كامل الصباح ورمال رمال، وغيرهم الكثير من دكاترة وأطباء ورجال قانون وأساتذة جامعات وفلاسفة؛ أُريد لها أن تعيش خِدعة «الثنائي» رغمًا عنها. ربما كان الحزب صادقًا مع نفسه، واختار توجُّهاته الدينية والعقائدية، ذلك حقٌّ له نظريًّا، لكن ما لم يكن مقبولًا هو أن يفرض خياراته على بقية أبناء الطائفة، بل وأبناء الطوائف الأخرى، في هذا البلد المحكوم بالعيش المشترك.

تحت وطأة هذه المشاعر أَجريتُ الحوارات، ورافقني في هذه الرحلة المتواضعة الزميل الذي أشكره على سِعة صدره ورحابته وجهده الكبير، نجيب العطار، الذي كان معي في كل الحوارات من خلف الكواليس، وكان خير مساعد. كما أتوجّه بالشكر إلى «أمم للتوثيق والأبحاث»، التي أخذت على عاتقها رفع مِشعل النور في هذا الظلام الدامس الذي تعيشه الطائفة الشيعية، من خلال إصرارها على تسليط الضوء على القضايا التي تشغَل بال أبناء تلك الطائفة، وأخصُّ بالشكر منهم، الأستاذ محمود حمادي والأستاذين علي منصور وعباس هدلا، الذين أعطوا من وقتهم الكثير، وساهموا بدفْع هذه الدراسة إلى الأمام. كما أتوجَّه بالشكر إلى كل المشاركين، من زملاء إعلاميين أو مثقفين أو أكاديميين والذين تعاونوا معي بكل محبّة وامتنان وشاركوا في الاستفتاء*.

أدهم جابر

(*) تم ترتيب المقابلات وفقًا للتسلسل الأبجدي.

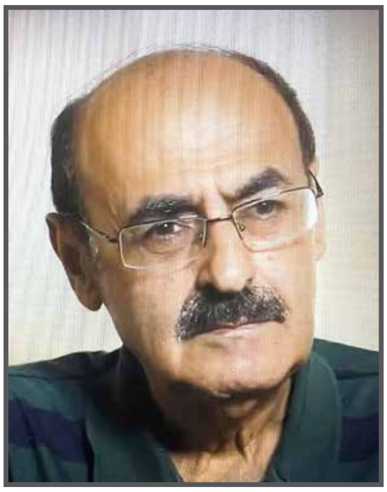
إبراهيم بيرم

الطائفة الشيعية كان لها مشروعها السياسي المتماهي مع المشروع الإيراني وقد خاضت «مغامرتها» كغيرها من الطوائف

الطائفة باقية بقُدراتها ولا يستطيع أحد «أن يقهرها»

صحفي لبناني وُلد، أواخرَ الخمسينات، في إحدى قرى صور ونشأ فيها، ثم انتقل إلى بيروت لمتابعة دراسته الجامعية واستقرَّ في الضاحية. نشأ في جوّ اليسار اللبناني، وشارك في الحرب الأهلية مع تحالف الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، وعايش الحروب المتتالية في لبنان. وعلى الرغم من ارتباط بيروت بالحرب في ذاكرته، فإنه لا يزال يفضِّل الإقامة فيها من دون أن يفقد انتماءه الجنوبي.

مَن هو إبراهيم بيرم؟ بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؛ كيف تستذكِر تلك المرحلة؟



وُلدت في أواخر الخمسينيات في قضاء صور. نشأت نشأة يسارية كمعظم أبناء جيلي الذي تأثر بشكل كبير بهزيمة الـ١٩٦٧ ومناخاتها، وبالعمل الفدائي الفلسطيني الذي جاء إلى لبنان وسكَن بيننا وأسكننا في همّ القضية الفلسطينية. درست دراسة متعثِّرة في المدارس الرسمية وتنقّلت بين مدارس حناويه وصور وعيتيت، إلى أن حصلت على الشهادة الثانوية عام ١٩٧٦. دخلت في العام ١٩٧٨ إلى كلية الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية، بعد أن نجحت في امتحان الدخول إلى الكلية. بعدها استقرَّيت في بيروت، لكنني كنت أزور الجنوب بين الفَينة والأخرى، فأهلي كانوا يسكنون هناك. تخرَّجت في العام ١٩٨٢، إذ كانت الفترة الدراسية حينها أربع سنوات. أذكر يومها أنه كان المفترض أن نتخرَّج في شهر حزيران، لكن التخرُّج تأخَّر حتى شهر تشرين الأول من العام نفسه، بسبب الاجتياح الإسرائيلي. بعد تخرُّجي، دخلت عالم الصحافة بأشكالها المتنوِّعة، وكالات أنباء محلية ودولية، صحف يومية، إذاعات، صحف أجنبية وعربية كان لها مكاتب في بيروت.

ذلك الوقت كان يُعتبر العهد الذهبي للصحافة اللبنانية والعربية بشكل عام؛ كان في بيروت عشرات المكاتب الصحافية. ثم انتقلت إلى «الوكالة الوطنية للإعلام» عام ١٩٨٥ ومنها إلى جريدة «النهار» عام ١٩٩٠ بتزكية من رفيق شلالا الذي كان مديرًا للوكالة. لم أزَل محرِّرًا في «النهار» لغاية اليوم. عملت أيضًا في الكويت لمدة سنة في عدّة صحف كويتية. كان عصرًا ذهبيًّا حقيقة وكنت مسرورًا في تلك المرحلة؛ كنت أُعطي ويبرز اسمي وحقَّقت ذاتي وكل ما أريد. لقد عايشت فترة النمو أو الطفرة الصحافية، وأنا شاهد اليوم على موت الصحافة اللبنانية حقيقة. يؤسفني أنني عشت المرحلتين. فالصحافة اللبنانية الآن قُسِّمت وصارت صحافة حزبية بالمُطلق للأسف.

أما ارتباطي بالمكان، فبرغم أني جنوبي المولِد، لكنني مرتبط ببيروت وأفضِّل البقاء فيها على الإقامة الدائمة في الجنوب رغم أنني أملك بيتًا وخلافه، لكنني أقول إني بيروتي. أنا مع العاصمة الجميلة ذات الطابع الخاص والمميَّز. بيروت في ذاكرتي هي مقاهي الرصيف وفيروز والنشاطات الثقافية والعمل الحزبي رغم إنِّي لم أعُد منتسبًا لأي حزب، منذ زمن طويل، لكني لم أزل في الخطّ المؤيِّد للمقاومة حتى الآن. طبعًا نحن كنا على هامش العاصمة، لم نسكُن في قلب بيروت وإنما على أطرافها، في الضاحية. العاصمة كانت بالنسبة لنا المنتجع والحُلم، لكن السكن الدائم كان في الضاحية حيث التحدُّر الانتمائي كان للريف، من الجنوب حتى البقاع وغيرهما من المناطق. المكان بالنسبة إليَّ متغيِّر لكن الثابت هو العاصمة وضواحيها.

ثمّة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة؛ كيف أثَّرت الحروب على لبنان، بدءًا بالحرب الأهلية حتى حرب العام ٢٠٢٤، عليك وعلى مكان سكنك؟

أنا عايشت الحرب الأهلية بكل تفاصيلها وكنت متماهيًا معها وشاركت في معارك بيروت والجبل كغيري من أبناء جيلي وكنا مصمِّمين على إلحاق الهزيمة باليمين اللبناني ودعم المقاومة الفلسطينية والقضية الفلسطينية. وعايشت الاجتياحات الإسرائيلية الأربعة، بما فيها الاجتياح الكبير عام ١٩٨٢ وقصف الضاحية في عهد الرئيس أمين الجميل. عشناها تمامًا، وبالتالي كانت ذاكرتنا مقرونة بالحرب دائمًا. المكان

عندي هو جزء من الحرب ونتائجها، بخاصة أني الضاحية تعرَّضت لحوالى ١٦ هجمة تدميرية، منها الخفيفة ومنها العنيفة، وقد كانت أعنفها في العام ١٩٨٣ حين قصف أمين الجميل الضاحية. فالحرب ومكان سكني مرتبطَان ببعضهما دائمًا. الضاحية تحديدًا كانت ساحة حرب مستمرة، وفترات السكون والاستقرار فيها كانت قليلة، فكانت الحرب هي الطاغية دائمًا؛ سكنت في الشياح والغبيري ودائمًا الناس هناك تستذكر خطوط التماس في حرب الـ٧٥ والاجتياح اسرائيلي عام ١٩٨٢ وحرب العام ٢٠٠٦. بالتالي الحرب هي جزءٌ من حياتنا وذاكرتنا ومن عاداتنا وتقاليدنا.

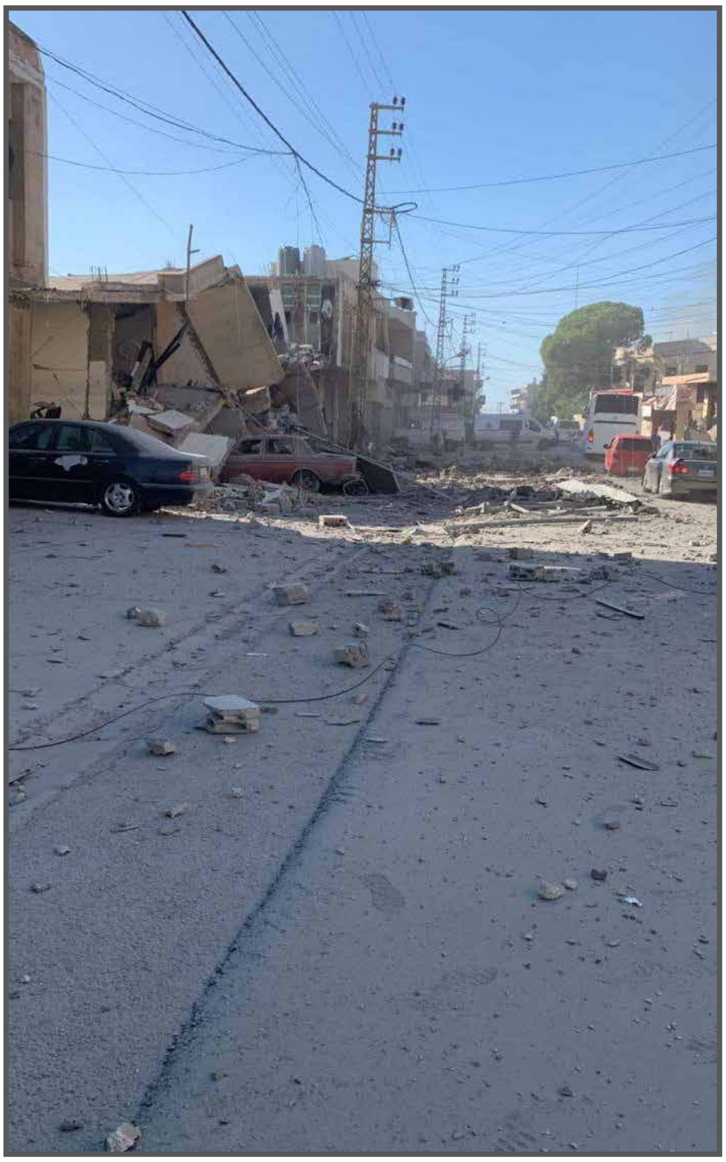
من وجهة نظرك؛ ماذا خسرت الطائفة الشيعية في حرب العام ٢٠٢٤؟ وإذا كان ثمّة مكاسب، فما هي؟

لا يمكنك أن تسأل هذا السؤال للطائفة الشيعية، فهي طائفة غريبة عجيبة حقيقةً. مقولتها الشهيرة هي «كل يوم عاشوراء كل أرض كربلاء»، وتعني أنه دائمًا هناك ثورة وانتفاضة ومواجهة. لقد كوَّنت هذه الطائفة مشروعها السياسي، بغضّ النظر عما إذا كان صحيحًا أو خاطئًا؛ كوّنته بدعم من الثورة الإيرانية، وقد ارتبط في قسم كبير منه بالمشروع الإيراني. الشيعة ظنّوا أنهم يستطيعون تحقيق مشروعهم فاندمجوا في المشروع الإيراني وتماهوا معه بشكل غريب جدًا. وقد نجح هذا المشروع في خلق حالة تكاملية بين الطائفة وحزب الله، لأن الحزب قد دخل في حياة الطائفة على كل المستويات فصار من الصعب أن تفصل بين الطائفة والمشروع السياسي الذي يقوده حزب الله وإيران.

طبعًا ليس هناك مكاسب، وإنما هناك خسائر. لكن بالنسبة للطائفة فإنها قد وَجدت ذاتها. لا تستطيع أن تقول لها خسرتِ أو ربحتِ، هي قامت بمغامرتها، كالموارنة والسُّنة، وككل الباقين، لكن عُذرها كان دائمًا أنها تحمل راية القضية الفلسطينية التي لا يستطيع أحد أن ينكر أنها قضية إنسانية.

ما هو مستقبل الطائفة الشيعية وكيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

الطائفة ستبقى بقُدراتها المالية والديموغرافية والاقتصادية شيئًا كبيرًا في البلد، ولا يمكن لأحد أن يقهرها لأنها بنَت نفسها ورسّختها؛ هذا فضلًا عن امتدادها الجغرافي الواسع على الحدود مع سوريا وإسرائيل.



آثار الغارات على بلدة حناويه، موقع رام الله ميكس

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، بالرؤية المستقبلية لها؟

هذا السؤال لست أنا من يُجيب عليه. لكن الطائفة الشيعية حين يكون لديها مشروعها فإنها تسير فيه ولا تسمع لأحد.

المسألة تحتاج إلى وقت طويل وإلى الكثير من التجارب والتمحيص لكي نقول إن الطائفة قد استقرّت لأن البلد في حدِّ ذاته يُعاني من مشكلة كبيرة. ليس هناك بلد، وإنما هناك طوائف يسمح لها البلد بتركيب مشروعها الطائفي. الطائفة الشيعية وَجدت نفسها الآن، ومستقبلها يحتاج إلى نقاش كبير لأنه جزء من الرؤية المستقبلية للوطن ككل وماذا سيُعطي هذه الطائفة. الشيعة إلى اليوم غير موجودة في القرار الوطني، فإذا نظرنا إلى اتفاق الطائف وتركيبته وتوزيع المراكز في الدولة نعلم أن الطائفة الشيعية تشعر بأنها مهمَّشة رغم كل شيء. بطبيعة الحال، هذه الحرب حملت وستحمل تغييرات وإعادة نظر لكن لا نستطيع إلى الآن تكهُّن الاتجاه الذي ستذهب فيه.

أحمد زين الدين

«حين يتوقف دولاب حزب الله عن الدوران سنتبيّن كشيعة أننا كنا أسرى أوهامنا»

«الهيئة السياسية التي ستضع الأمور في نِصابها غير متوافّرة حتى الآن»

هو ابن بلدة النبي رشادة، الذي وُلد في برج البراجنة وشهدَ على الأحداث التي رافقت لبنان في فترة ازدهاره التي سبقت الحرب، كما كان شاهدًا على كل الحروب التي وقعت على طول الجغرافيا اللبنانية. اختار المشاركة في الحرب الأهلية من موقعِه كصحافي وكاتب وناشط ثقافي وكمسؤول ثقافي وإعلامي عن منطقة المتن الجنوبي في «اتحاد الشباب الديمقراطي». يهتم بالدراسات الأنثروبولوجية وصدَر له أربعة كتبٍ في هذا الصدد.

من هو أحمد زين الدين؟ بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؛ كيف تستذكِر تلك المرحلة؟



لعل تعريف الشخص بنفسه يحمل مفارقةً تقوم على أن النظرة إلى الذات لا تنبثق فجأة من أعماق النفس، بل هي تكتمل مع الزمن والخِبرة والاحتكاك بالآخرين، وتتكوَّن ملامحها بمقدار ما يرسم لها المجتمع من حدود وأعراف مسموح بها ومن المعايير السلوكية المقبولة أو المنبوذة، وذلك من خلال تعاطي الناس معها سلبًا أو إيجابًا. ومن خلال تحفيزها على فعلٍ ما أو ردعِها عنه. كما تلعب البيئة السكانية والمكانية دورها في بلورة مزاج الأفراد وقناعاتهم وأفكارهم ونزعاتهم الطبيعية والشاذة. وعليهِ فإني لا أزعم أن علاقة المرء بالبيئة علاقة عضوية أو حتمية لكنها مؤثِّرة وفاعلة في تكوين التوجُّهات الأساسية في طفولته ونشأته.

أبصرتُ النور في بلدة برج البراجنة من أبوين نزَحا من البقاع بين الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، وتلوَّنت حياتي بألوان دافئة. لم يعكِّر صفوَها أحداثًا مأساوية أو خطيرة. ولم يكن لبنان في الخمسينات، زمن ولادتي يعاني من أزمات سياسية أو عسكرية عسيرة كما هي الحال اليوم، فالبلد كان مستقرًّا سياسيًّا بحدود معينة دون أن يخلو الأمر من تدخُّل الدول الكبرى والإقليمية في انتخاب هنا وموقفٍ خارجي هناك. ومن الأحداث البارزة أن انتخاب اللواء فؤاد شهاب رئيسًا للجمهورية اللبنانية جاء في أعقاب اتفاق الأميركيين مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي كان في عزّ تألُّقه السياسي وتمتُّعه بشعبية جماهيرية عربية ساحقة. أما حالة البلد الاقتصادية فكانت تنمو بشكل متسارع من خلال خيار لم يتبدَّل رغم تبدُّل الأحوال السياسية والاجتماعية، وهو خيار السوق الحرة والأبواب المفتوحة المشرَّعة على رياح الشرق والغرب. كان ثمة تبايُن ملحوظ بين فئات وطبقات وعوائل ومناطق الوطن؛ وكنت أُدرك في أول نشأتي أن أصولي الريفية جعلتني أحيانًا أتجنّب البوح أو المجاهرة بها وأحاول أن أُجاري أترابي بلهجة تُخفي عنهم هويّتي القروية، حيث كان يُطلَق على أبناء قرى البقاع تسمية «الهنود الحمر». ولعل هذه المُداراة ناجمة عن تحاشي النظرة الفوقية التي كانت سائدة عهد ذاك بين ابن المدينة الميسور والأصيل والمالك إزاء ابن القرية المتواضع والدَّخيل والوافد المستأجِر. وكانت الفوارق المادية شاسعة بين المالكين والمستأجرين الذين كانوا يعملون في معامل النسيج والمغازل، القريبة من برج البراجنة، أو في معامل الريجي في بلدة الحدت؛ في حين أن معظم أهل البرج كانوا يملكون أراضي شاسعة مزروعة بالخضار والفاكهة، وأبناؤهم دخلوا في أسلاك الدوائر الحكومية وتقلّدوا الوظائف الرفيعة وكان منهم المحامي والطبيب والضابط. وكانت مدرسة الرمل الرسمية الابتدائية هي وجهتي الوحيدة لتلقّي العلم لعدم قدرة أهلي على تحمُّل الأقساط التي تتقاضاها المدارس الخاصة المُسمّاة حينذاك بالمدارس الأهلية. وقد توسّعت مدرسة الرمل مع الوقت لتضمّ صفوف المتوسط أو التكميلي كما كان متعارفًا عليه. وما لم نكن نُدرك أهميته في ذاك الحين، على الصعيد الوطني، أن الهيئة التعليمية كانت تضمُّ معلمين لبنانيين من شتى المناطق والأديان والمذاهب؛

وهو أمر كان مألوفًا وطبيعيًّا افتقدناه مع مرور الزمن وتراجَع الشعور الوطني لصالح الإرساليات الأجنبية ومنافسة المدارس الدينية الإسلامية والشيعية على وجه الخصوص، بدعم إيراني. وهذا الحضور التربوي والتعليمي الموحِّد لأطياف المجتمع اللبناني لمستُه في ثانوية برج البراجنة الرسمية في أواخر الستينات. كذلك الأمر في الجامعة اللبنانية في كلية الآداب، حيث كانت السنة الأولى المُسمّاة الثقافة العامة هي المختبر التربوي الذي جمَع أطراف المجتمع اللبناني، الديني والتعليمي المتعدِّد بمناطقه ومستوياته وقُدراته وتياراته الثقافية والسياسية. لقد راعيت في اختصاصي حينذاك حاجات سوق العمل فاستبدلت اختصاص الفلسفة بعد عامين من دراستها باختصاص اللغة العربية التي تُتيح لي تعليم عدد كبير من الصفوف في مختلف المراحل التعليمية. في حين أن مادة الفلسفة مقتصرة على صفٍّ واحد.

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة؛ كيف أثّرت الحرب الأهلية في لبنان وما تلاها من حروب، عليكَ وعلى مكان سكنك؟

بعد تخرُّجي عام ١٩٧٤ بدأت الاحتكاكات العسكرية تشتدُّ وتتفاقم حدَّتها بين الفصائل الفلسطينية والجيش اللبناني، ثم تحوَّلت إلى صراع بين الفلسطينيين وحزب الكتائب، واتخذت طابعًا طائفيًّا مكشوفًا بعد أن ساندت القوى الإسلامية وأحزاب الحركة الوطنية حركة "فتح" وغيرها من الفصائل. لم أشارك في حرب العام ١٩٧٥ الطويلة؛ مع أن حمل السلاح كان يُغريني بحكم العدوى من رفاق حزبيين، كانوا يرفعون المتاريس والدِّشم في شوارع الأحياء المتقابلة. حتى غدا الانتقال من حيّ إلى حيّ ومن شارع إلى شارع كأنه انتقالٌ من قارة إلى أخرى؛ ومن الحياة إلى الموت أو من الموت إلى الحياة. المحازبون والمؤيِّدون يتمترسون أمام متاريس الرمل والعوائق الحديد والحجارة المصفوفة، ويُعدون عملهم هذا واجبًا أساسيًّا للذوْد عن القضية الفلسطينية كقضية قومية لا تنفصل عن القضية الوطنية. كان العمى الإيديولوجي يحجب أبصارنا عن رؤية الواقع السياسي المعقَّد وعن الأصابع التي تحرّكه لصالح اللاعبين الدوليين. ولما كنت بعيدًا عن المتاريس المنصوبة في



النبي رشادة

وجوه بعضنا البعض، آثرت أن أساهم بنصيبي في الحرب الأهلية التي كانت تطحننا وتطحن بلدنا ومستقبلنا، من خلال الكتابة لا من خلال المدفع. وكانت الكلمة مربط خيلي الذي أجول به في ميدان تقدَح فيه العقول والأفكار. انتسبت الى «اتحاد الشباب الديموقراطي» الذي هو فرع أو القطاع الشبابي في الحزب الشيوعي اللبناني الذي اتّسعت مروَحة المنتسبين إليه في أثناء الحرب، وبات الانتساب إليه هيِّنًا ليِّنًا بعد دعوة الحزب للدخول إليه دون شروط متشدِّدة كان يُعمل بها في فترة ما قبل العام ١٩٧٥. ولما كنت مسؤولًا حزبيًّا عن الثقافة والإعلام في منطقة المتن الجنوبي فقد نظَّمت العديد من الندوات الثقافية والشعرية والفنية. وكان ممن استضفتهم في مقر الاتحاد في بئر العبد المفكر حسين مروة والشاعر حسن العبدالله والفنان مارسيل خليفة واتفقت مع الدكتور الشيخ صبحي الصالح والمطران غريغوار حداد على عقد لقاء فكري يجمعهما مع قطاع الشباب. ولكن نشوب جولة عُنف من الجولات المتكرِّرة آنذاك حال دون إتمام هذا اللقاء. وكنت أحسب ان الفن والشعر والأدب تصب في مصلحة القضية التي ندافع عنها. كنت أسيرَ بيئتي وما يدور فيها من شجون وشؤون وأحاول أن أنقل ما يجري فيها من تفاعُلات فكريّة إلى نشرات مكتوبة أو مطبوعة أو منشورة في متون الصحف اللبنانية التي بدأتُ العمل فيها يحدوني الأمل أن أبلغ شأوًا مهمًّا في عالم الكتابة الأدبية. عشتُ دوّامة الحروب المحلية البينية، كانت حروب الزواريب والمافيات تُغذّيها الفصائل الفلسطينية وقوات الجيش الأسدي وأحزاب إيران، بدأت بين حركة أمل وحزب الله، ثم بين حركة أمل والمخيّمات الفلسطينية، كما انتقلت

شـرارتها إلـى داخـل الشـوارع فـي أحيـاء بيـروت الغربيـة. كأننـا كنـا منذوريـن لحـروب ذات أقنعـة متعـدِّدة وولاءات هجينـة. كانـت مجتمعاتنـا تعيـش آلام مخاضـات التحـوُّلات الدوليـة والإقليميـة. وباسـم فلسـطين كان يرتكـب سُـفاح المحـارم.

فـي حـرب ٢٠٠٦ تحمَّـل لبنـان وِزر حـرب اشـتعلت علـى حيـن غـرَّة، ولـم نعـرف مبرّراتهـا وأسـباب قيامهـا سـوى أن كل البنـادق يجـب أن توجَّـه إلـى صـدر إسـرائيل كعـدو دائـم يتربَّـص بنـا الدوائـر. وكنـا، ولا نـزال، لا نعـرف مَن يُشـعل فتيل الحـرب ومَـن يطفـئ جذوَتهـا. ومـع كل جولـة مـن جـولات الحـروب تضيـق بنـا الأرض فنفـرُّ مـن لهيبهـا واضطرامهـا إلـى المناطـق اللبنانيـة الآمنـة التـي تجاوِرنـا. وهـي غالبًـا مـا تكـون مناطـق غيـر شـيعية كنّـا نُجافيهـا ونكـنّ لهـا الضغينـة والحَقـد؛ مناطقنـا التـي كانـت فـي السـابق منفتحـة عليهـا وعلـى محيطهـا القريـب تتبـادل معهـا الخبـرات التجاريـة والعلميـة والثقافيـة، غـدَت مـع الأيـام مسـتودع بـارود ظهـرَت مفاعيلـه المدمِّـرة فـي حـرب المسـاندة عـام ٢٠٢٤.

مـن وجهـة نظـرك؛ مـاذا خسـرت الطائفـة الشـيعية فـي حـرب العـام ٢٠٢٤؟ وإذا كان ثمّـة مـن مكاسـب، فمـا هـي؟

لقـد طحنـت هـذه الحـرب المبانـي، وحطّمـت إسـرائيل الـدُّور وأحرقـت الشـجر وقتلـت البشـر وكل مـا توجَّسـت منـه، واقفًـا كان أو طائـرًا أو متخفّيًـا تحـت سـابع أرض. وكان العـدو الإسـرائيلي قـد أعـدَّ عدتـه متأهِّبًـا لتصفيتنـا وسـلخنا وبعثرتنـا مُسـتندًا الـى أحـدث التقنيـات التـي اخترعهـا العقـل البشـري فـي القـرن الواحـد والعشـرين وعلـى رأسـها الـذكاء الاصطناعـي. لا نعـرف إن كانـت المحصّلـة الداميـة التـي نجَمـت عـن حـرب المسـاندة المزعومـة لحركـة حمـاس فـي غـزة مـن قِبـل حـزب اللـه سـتكبَح فـي قابـل الأيـام شـهوة القتـل عنـد الإسـرائيليين التـي قامـر فيهـا حـزب اللـه بدمـاء اللبنانييـن، لا سـيما أبنـاء البيئـة الشـيعية. كان مشـهد أبنـاء القـرى الجنوبيـة الشـيعية والضاحيـة الجنوبيـة فـي بيـروت وأبنـاء بعلبـك وقُراهـا وهـم ينزحـون بعشـرات الآلاف إلـى أرض اللـه الواسـعة التـي فقَـدوا بوصلتهـا فـي بحـر النـاس الهائـج، وضاقـت جهّاتهـا عليهـم. كان مشـهدًا سـوداويًّا مؤلمًـا لـم أشـهد لـه مثيـلًا مـن قبـل، حتـى فـي عـزّ النـزوح المتبـادَل الـذي عرفتـه الحـروب المتناسـلة علـى أرضنـا. ولـم أكُـن استثناءً مـا دمـت وُلـدت فـي كنَـف الضاحيـة قبـل أن يتـآكل وجههـا النّضِـر والمخضـرّ تحـت وطـأة تراكـمُ كتـل الأسـمنت والحديـد الـذي يلـفُّ أرضهـا وأطرافهـا التـي تمتـدُّ إلـى كل جهـة ومـكان. اضطُـررت طبعًـا لأن أغـادر مـكان سـكني، الليلكـي، صاغـرًا بعـد أن وجَّـه أفيخـاي أدرعـي، كعادتـه، باسـم الجيـش الإسـرائيلي، إنـذارًا بإخـلاء المنطقـة قبـل قصفهـا، وبـات بعـد هـذا الإنـذار الـذي كان يتكـرَّر يوميًّـا متوعّـدًا منطقتـي ومناطـق أخـرى، يتـراءى لـي بوجهـه الشـيطاني فـي الليالـي التـي تمزِّقهـا أصـوات القنابـل الخارقـة الحارقـة المدمِّـرة، وكنـت أنتظـر أن يظهـر لـه نـدًّا فـي لبنـان يُنـذر الإسـرائيليين بالمثـل مـا دام الحـزب كان يتوعَّـد الإسـرائيليين قبـل الحـرب بأنـه سـيردّ لهـم الصـاعَ صاعيـن.

مـاذا عـن مسـتقبل الطائفـة الشـيعية؟ كيـف سـيرتِّب الشـيعة بيتهـم الداخلـي مـن جديـد؟ ومـاذا عـن علاقتهـم بالطوائـف الأخـرى؟

كانـت النتيجـة مأسـاوية والمغامـرة مخيِّـة، والجَنـى حصـدُ ريـح. الاسـتمرار فيهـا يُفاقـم مـن اليـأس والمـرارة؛ والتوقُّـف يسـتدعي محاسـبة مَـن غامـروا وقامـروا بـأرواح النـاس وأملاكهـم، ووضـع الأمـور فـي نصابهـا بحاجـة إلـى هيئـة سياسـية غيـر متوافـرة حتـى الآن، وأسـتبعد تشـكيلها فـي القريـب العاجـل. بيْـد أنـه، فـي كل الأحـوال، لا بـد أن يحيـن الوقـت الـذي تؤتـي فيـه ثمارهـا، أقلّـه فـي وقـت الانتخابـات أو فـي مواعيـد الاسـتحقاقات الدسـتورية المقبلـة. كمـا يُنتظـر مـن النُّخـب الشـيعية المعارضـة صياغـة خطـاب وطنـي يقطـع السـبيل علـى اسـتمرار منـح حـزب اللـه «كارت بلانـش» الـذي اسـتحوذ عليـه منـذ أعـوام مديـدة وجـرَّ علينـا الويـلات التـي نُعانـي اليـوم ومـن تبِعاتهـا الكارثيـة. وحيـن يتوقـف دولاب الحـزب عـن الـدوَران سـنتبيّن، كطائفـة شـيعية أننـا كنـا أسـرى أوهامنـا.

أحمد عياش

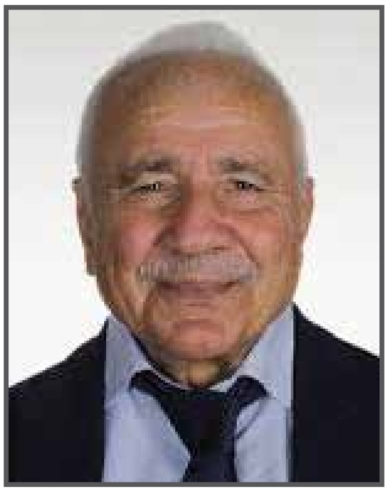
على «الشيعة» وضع أقدامهم على الأرض بدلًا من الارتباط بالفضاء الخارجي

«نعيش نكبة بنَكهة لبنانية... وما يجري الآن هو تحوُّلات طبيعية»

يعودُ في جذوره إلى قرية حاروف الجنوبيَّة ويُؤكِّدُ على انتمائه للجنوب على الرغم من أنه من مواليد بيروت. صحافيٌّ واكَبَ الحربَ الأهليَّةَ اللُّبنانيَّةَ والحروبَ الإسرائيليَّةَ على لُبنان من موقعِه المهني ومن موقعه كربِّ أسرةٍ. يُصرُّ على أنَّ مُستقبلَ الطَّائفةِ الشِّيعيَّةِ يدعو إلى التَّفاؤلِ وإن كان واقعها الحالي مريرًا.

في إطار عملِها على ذاكرةِ الطَّائفةِ ومُستقبلِها، قامتْ «أمم للتَّوثيق والأبحاث» بمُقابلةِ الصَّحافي أحمد عيَّاش وكان معه هذا الحِوار:

مَن هو أحمد عيَّاش؟ بينَ الولادة والطُّفولة والدِّراسة وأماكن النَّشأة؛ ماذا في الذَّاكرة من تلكَ الأيَّام؟



لي منَ العُمرِ ٧٥ سنة؛ وُلدتُ في ٢٤ شباط ١٩٤٩ في عين المريسة، حيثُ أسكنُ حاليًا. وبرغمَ أنَّ نفوسي في بيروت لكنني من الجنوب؛ أبي، وهو من مواليد بيروت أيضًا، من قرية حاروف، قضاء النّبطية، وأمِّي من بنعفول في شرقي صيدا التابعة لمنطقة الزّهراني. أهلي حصلوا على تعويضات من المكان الذي سكنوه في البدء وأشادوا بيتًا في منطقة برج حمُّود. من هُنا أحملُ ذكرياتٍ لي في عين المريسة وفي برج حمُّود أيضًا. تنقَّلتُ في دراستي بين المدارسِ الرَّسميَّة والخاصَّةِ، إلى أن دخلتُ إلى كليَّة التربية في الجامعة اللبنانية العامَ ١٩٧٤. قبلَ ذلكَ عملتُ في مهنة التَّعليم؛ علَّمتُ في النبطية حتَّى سنة ١٩٧٣. وقبلَ ذلكَ أيضًا مارستُ عددًا من المِهن، فبَينَ تحصيلي لشهادةِ السّرتفيكا وحتّى وصولي إلى صفِّ الفلسفة عملتُ مع والدي في ملحمته في الأشرفيَّة. أخذتُ إجازةً في اللُّغةِ العربيَّة وآدابِها من كليَّة التَّربية، ونلت إجازةً في الصَّحافةِ، ثُمَّ تدرَّجت في هذه المهنةَ حيثُ عملتُ في عددٍ من المؤسسات الإعلاميَّة، منها: «وكالة الأنباء الصحافيَّة» و«وكالة أخبار لُبنان» التي كان يملكُها الصحافي عبَّاس بدر الدين الذي اختطِف معَ الإمام موسى الصَّدر في ليبيا. وعملت في جريدةِ «النِّداء» أيضًا، جريدة الحزب الشُّيوعي اللبناني، حيثُ مكثتُ أعوامًا قليلةً ثم غادرتها، وأنا لم ألتزم حِزبيًّا. ثمَّ اشتغلتُ في جريدة «الكفاح العربي» ثمَّ أمضيتُ الفترة بينَ أواخر الـ١٩٨٣ وحتَّى الـ٢٠٢٠ تقريبًا في جريدة «النَّهار»، لكن على فترات متقطِّعة. رحلة طويلة لي أثمرتْ آلاف المقالات والمقابلات.

كيف واكبتَ الحربَ الأهليَّة؟ وكيفَ أثَّرتْ عليكَ وعلى مكانِ سكنكَ؟

أنا مُرافق عن كثب للحرب الأهليَّة. في فترة الـ١٩٧٥ كنتُ في أدور في فلك الصَّحافة؛ عملت في صحيفة «النِّداء» وعدة وكالات الأنباء في شباطَ الـ١٩٧٥. وعلى هذا، واكبت بداية الحربُ الأهلية من عين الرُّمَّانة وكيف تطوَّرت. قضيتُ عُمرًا طويلًا منَ التَّهجير؛ أهلي تهجَّروا من برج حمُّود وانقطعتُ أنا عن المسكن العائلي، واستقرَّيْنا في بيروت الغربيَّة. مسكني الزَّوجي الأوَّل في العام ١٩٧٦ كان في منطقة مار إلياس. ثُمَّ حينَ توقَّفتْ الحرب بعدَ أوَّل مرحلةٍ منها نتيجةَ اتِّفاق الرياض ودخول قوَّات الرَّدع العربيَّة، وبعدَ الاجتياح الإسرائيلي انتقلنا إلى الضَّاحية الجنوبيَّة، إلى منطقة الصفير تحديدًا. سكنَّا بالقُربِ من مسكن أهل زوجتي. وبعد أشهر قليلة هُجِّرنا من الضَّاحية معَ بدء الحرب في عهد الرَّئيس أمين الجميِّل حينَ قصف الجيشُ الضَّاحية، فغادرنا وسكنَّا في بيوتٍ مفروشة ضمن بيروت الغربيَّة. ثُمَّ عُدنا بعدَ ذلكَ إلى الضَّاحية، وعدنا وانتقلنا منها إلى حيثُ أسكنُ هُنا في عين المريسة منذُ ربع قرنٍ تقريبًا، وهو مكانٌ قريبٌ من الجامعة الأميركيَّة، حيثُ تلقَّى ولدايَ تعليمَهما، وقريبٌ أيضًا من جامعة الـLIU حيثُ تلقَّت ابنتي تعليمَها.

وماذا عن الحروب الإسرائيلية على لبنان: كيف عشتها؟ وكيفَ أثَّرتْ عليكَ وعلى أماكن سكنِكَ؟

نحنُ عايشنا حقباتٍ متنوِّعة. في حرب العام ١٩٧٨ كنتُ لم أكن قد تزوّجت بعد؛ في اجتياح إسرائيل العام ١٩٨٢ كنتُ متزوِّجًا ولديَّ أُسرة. في ١٩٩٣ كنتُ صحافيًا وقد غطَّيتُ هذه الحرب، كما غطَّيتُ أيضًا «عناقيدَ الغضب» سنة ١٩٩٦، وكنتُ جُزءًا من الإعلام المواكب لحربِ العام ٢٠٠٦، وحرب العام ٢٠٢٤ أيضًا. عشتُ هذه الحروب من موقعين؛ موقع مهني وموقع كوني مُواطنًا ولديَّ أُسرة، كان لديَّ ولدان، وننتمي إلى المكان. عام ١٩٨٢ كنتُ وأُسرتي في مار الياس، قُربَ منزل الرئيس صائب سلام. وقد عِشنا فترةَ الحصار الإسرائيلي لبيروت والقصفَ الذي كان يسقطُ فوق رؤوسنا من كُلِّ الأنحاء. أحدُ الصّواريخ سقطَ قريبًا من منزلنا في مار إلياس لكن من حُسن الحظ أنَّه كان بلا حشوة. كانت تجربةً مُخيفةً حينَ سقطَ الصَّاروخ وغطَّى الدُّخانُ المكان، وبقينا أحياء. وشاهدنا، طبعًا، كيفَ دخل الجيشُ الإسرائيليُّ على مرأًى مِنَّا! وهُنا أودُّ أنْ أُنوِّه على حادثةٍ كنتُ شاهدًا عليها: في منطقة حي اللِّجى التي كانت قريبةً من مكان سكني، وكان أهلُنا منَ الشِّيعةِ يسكنون فيها، شاهدتُ بعينَيَّ كيفَ خرجَ النَّاسُ إلى الشوارع حينَ دخلَ الإسرائيليُّونَ وصاروا ينثرونَ الأرُزَّ على الجيش الإسرائيلي الدَّاخل إلى المنطقة غازيًا. لا أنسى هذا المشهد أبدًا. أنا كنتُ في الموقع الآخر؛ من موقعي اليساري كنتُ مع المقاومة الفلسطينيَّة وعندي تجارب مع المقاومة في الإعلام والسِّياسة وحتَّى في الممارسة، حارسًا ليليًّا. تدرَّبتُ على السلاح وكان مركزي في طريق الجديدة في ذلكَ الوقت. وبحُكم مهنتي، قابلتُ ياسر عرفات في العام ٢٠٠٣ في ليبيا وأجريتُ معه مقابلةً صحافية لجريدة «النَّهار»؛ هو تذكَّرَني لأنَّه كان يعرفُني من بيروت. ولهذا السَّبب نحنُ انتماءاتُنا غيرُ الانتماءات الأخرى؛ أعني حركةَ أمل وحزب الله. نحنُ منذُ ذلكَ الوقت خارج إطار ما نشأ بعد الاجتياح الإسرائيلي؛ أنا شخصيًّا لا علاقة لي بحركة أمل ولا بحزب الله إذِ الانتماءات مُختلفة كليًّا والمسافاتُ الواسعةُ لم تزل قائمةً إلى اليوم.

في ما يتعلَّق بالحرب الأخيرة على لُبنان، حرب العام ٢٠٢٤: كيفَ أمضيتَ الحرب؟ وهل أثَّرتْ على بيتكَ؟

مِنْ حُسنِ الأقدارِ أنا كنتُ مِن سُكَّان عين المريسة في هذه الحرب، فلم أتأثَّر بها بِمقدار ما فرضَ النُّزوحُ نفسَه على واقعِنا. هذا الكورنيش الذي امتلأ بالنَّازحين الذين أقاموا ليلًا ونهارًا على شاطئ البحر. كانَ مشهدًا مروِّعًا. أنا كتبتُ بعضَ الخواطرِ والكتاباتِ من وحي هذا المشهد. لم أتخيَّلْ، طيلةَ حياتي، هذا العددَ الهائل من النَّاسِ، وهُم أهلُنا وأصدقاؤنا من الضَّاحية أو الجنوب أو غيرِهما، سيُهجَّر بهذه الطَّريقة. أعتقدُ أنَّ تأثُّري بهذه الحرب كان انطلاقًا من النَّتائجِ والانعكاسات على كُلِّ مناحي حياتِنا: بيروت؛ المدينةُ التي تحوَّلتْ لمرآبٍ للسَّيَّارات، هذا العددُ الهائلُ من السُّكَّان الذي ملأ الشوارع والأحياء دُفعةً واحدةً حيثُ لم يسبقْ لنا أن عِشْنا في هذا التَّكوين وهذه الدِّيموغرافيا. لكنِّي، صِدقًا، شعرتُ بنوعٍ من الإلفةِ تجمعني بهولاء النَّاس. نحنُ لم نكن نقدرُ على التَّجمُّعِ مع بعضنا. أنا، مثلًا، لفتراتٍ طويلةٍ لم يعُدْ لديَّ قدرةٌ على العيش في الجنوب حيثُ كنتُ أتردَّدُ دائمًا، وزوجتي من بنت جبيل. اكتشفنا فجأةً أنَّنا لسنا على انسجام مع هذه البيئة التي لبست «الشَّادور» وبدأتْ تُمارسُ طقوسًا لم نعرفْها طيلةَ حياتِنا في بيئتنا التي نشأنا وترعرعنا في كَنَفها. نحنُ ننتمي إلى فكرٍ آخرَ مُختلفٍ؛ نحنُ ننتمي إلى عالَم جنوبِ الشِّعر والموسيقى والعالَم المُختَلِط والحريَّات العامَّة والشَّخصيَّة، هذه هي ذكرياتُنا. لكنَّ الجنوب أصبحَ مكانًا مُختلفًا بعد هيمنة هذا الواقع الذي يُمثِّلُه التَّيَّارُ الإيرانيُّ الذي يُسمَّى حزب الله. حتَّى حركة أمل ليستْ على مستوى من الرُّقيِّ الذي نعرفُه في مناسباتٍ عدّة وأجيالٍ سبقت. أنا دائمًا أردِّدُ: «يا مَحلا العقليَّات القديمة، أيَّام سِتنا وجِدنا والآباء، لقد كانوا في مُنتهى الرَّواق». هذه المرحلة التي وصلنا إليها مُخيفةٌ؛ أعني مرحلة الأثرياء الجُدد أو حديثي النِّعمة. لقد شهدنا صعودَ هذه المرحلة، والآنَ نشهدُ هبوطَها؛ نحنُ كُنَّا شهودًا على هذه الظَّاهرة، وتحديدًا منذ العام ٢٠٠٠ إلى اليوم. على الأقل، هذه المرحلةُ تمضي قُدُمًا نحو نهايتها؛ نُواكبُها دونَ أن نُطلقَ الأحكامَ، لكنَّ الأمور ذاهبةٌ في اتِّجاه طيِّ صفحةٍ من هذا التَّاريخِ الذي لن يتكرَّرَ. هذا العالمُ لن يكون كما كان. شهدنا على عوالِمَ كثيرةٍ تغيَّرتْ وهذا العالمُ سيتغيَّرُ أمامَنا.

مِن وجهة نظرك: ماذا خسرت الطَّائفةُ الشِّيعيَّةُ؟ وماذا ربحت؟ ماذا عن مُستقبلِها وبيتِها الدَّاخليِّة وعلاقتِها بالطَّوائف الأخرى؟ وأيُّ طريقٍ هي طريقُ خلاصِها؟

في اعتقادي، عمومًا، الطَّائفةُ الشِّيعيَّةُ لن تكونَ الطَّائفةَ

التـي نعرفُها حاليًّا. هـذه الهيمنـةُ المُرتبطـةُ بسـوريا (أيـام حكم الأسـد) وإيـران، والتـي رافقَتنـا لعقـودٍ وفرضـتْ مشـيئتَها علـى التَّكويـن الشِّـيعيِّ، ذهبـتْ ولـن تعـود. هـي تذهـبُ حقيقـةً، لكـنَّ تأثيرَهـا وهبوطَهـا علـى كُلِّ المسـتوياتِ سـيأخذُ وقتًـا سنشـهدُ فيـه الكثيـر الكثيـر.

هُنـاكَ تحـوُّلاتٌ عنـدَ الذيـن كانـوا مـن المتنعِّميـن فـي المرحلـة التـي انقرضـتْ؛ الذيـن تنعَّمـوا بالنُّفـوذ الإيرانـي والسُّـوري. لقـد خرجـتْ إيـران. وسـوريا خرجـتْ بفعـل سـقوط نظـام بشـار الأسـد. تكويـنُ الشِّـيعيَّة السياسـيَّة كانَ قائمًـا بتأثيـرٍ خارجـيٍّ، وهـذا الخـارجُ الـذي أتـى بهـا يُخرجُهـا مـن عالمِنـا. مـاذا سـيحلُّ محلَّـه؟ الطَّبيعـةُ تكـرَهُ الفـراغ، والطَّائفـةُ الشِّـيعيَّةُ فـي نهايـةِ المطـافِ هـي كسـائر المكوِّنـات فـي لبنـان. نحـنُ جميعًـا نُشـبِه بعضَنـا؛ كلُّ المكوِّنـات تُشـبه بعضهـا البعـض. التَّجـاربُ مـرَّت علـى الجميـع؛ هكـذا حصـل مـع الموارنـة ومـع السُّـنَّة ومـع الـدُّروزِ أيضًـا، ومـع الفئـات الأخـرى. ما يجـري الآن هي تحـوُّلاتٌ طبيعيَّـةٌ. أنـا أعتقـدُ أنَّ الشـيعةَ فـي مـكانٍ، يملكـونَ قـدراتٍ علـى الخـروج، وهـذا سـينطلقُ مـن واقـعِ أن يضعـوا أقدامَهـم علـى الأرض بـدلًا مـن الارتبـاطِ بالفضـاء الخارجـيِّ الـذي أدَّى إلى المصائـب الكبـرى التـي حلّـتْ بِنا. أعتقـدُ أنَّ فتـرةً طويلةً سـتمرُّ وأعتقـدُ أيضًـا أنَّ هـذه الفترة ستُسـمَّى بـ«النَّكبة الشِّـيعيَّة»، على غِـرارِ النَّكبـةِ الفلسـطينيَّةِ لكـن بنكهـةٍ لُبنانيَّـة.

الخـروجُ مـن هـذه النَّكبـةِ أمـرٌ طبيعـيٌّ. إنَّهـا إرادةُ الحيـاة، والنَّـاسُ تُريـدَ الأرضَ وتُريـدُ أن تعيـشَ عليهـا، كغيرهـم. الشِّـيعةُ لهـم مـكانٌ، ولا يُمكـن لأحـدٍ أن يُعيِّـرَ أحـدًا، علـى مبـدأ مَـن منكـم بـلا خطيئـةٍ فلْيَرجُمِهـا بحجـر. ولكـن علـى أيِّ أسـاس؟ فـي هـذه الأيَّـام تحديـدًا، بقايـا هـذه المرحلـةِ هـم أيتـام؛ أيتـامُ هـذه المرحلـة. نسـمعُ صوتَهـم مُرتفعًـا كأميـن عـام حـزب اللـه الجديـد نعيـم قاسـم، ونـوَّاب الحـزب، لكـنَّ هـذه الأصـوات باتَـت مـن الماضـي فـي نهايـةِ المطـاف. أُشـبِّهُ الأمـرَ بشـخصٍ يملـكُ راديـو مُشـغَّلَ فـي حقيبـةٍ سـابقةٍ وقـد نسـيَ أن يُغلقَـه، فلـم يـزل يحكـي كمـا لـو أنَّـه فـي المرحلـة السَّـابقة. فـي نهايـةِ المطـاف سـيأتي مَـن يُغلقُـه.



النزوح على الكورنيش البحري في عين المريسة، أ.ف.ب

الوقائـعُ علـى الأرض هـي التـي تُقـرِّر. مَـن سـيُلبِّي مصالـحَ النَّـاس هـو مـن سـيصلُ إلـى الواجهـة، دونَ الذَّهـاب إلـى إطلاق الأحـكام حـول هـذه التَّيـارات. كمـا يقـولُ داروِن: البقـاءُ للأصلح. والأصلـحُ للطَّائفـةِ الشِّـيعيَّة هـو الأصلحُ لغيرِهـا مـن الطَّوائـف. وأعتقـدُ أنَّنـا تخطَّيْنـا مفهـوم الطَّوائـف، نحـنُ مواطنـون. وبقـدرِ مـا تنمـو عندَنـا ثقـةٌ بالنَّفـسِ فـي أنَّنـا مواطنيـن ولسـنا أبنـاءَ طائفـةٍ سـتنفتحُ أمامنـا آفـاقٌ أوسـعُ بكثيـرٍ مـن التَّقوقُـعِ ضمـنَ أُطـرٍ طائفيَّـة. فـي رأيـي، فلْننفَتِـحْ علـى العالَـم. لدينـا الكثيـر مـن الكفـاءاتِ الشَّـابَّةِ. هُنـاكَ أجيـالٌ وُلِـدتْ وسـتولَدُ وسـوف يُدهِشـونَنا بإمكانيَّاتِهـم. أنـا فـي هـذا العُمـر الطَّويـل رأيـتُ الكثيـرَ ولـم أزَل أشـاهدُ الكثيـر مـن الكفـاءات والمواهـب والقُـدرات.

أريـدُ ان أختـمَ بتوجيـه تحيَّـةٍ للقمـان سـليم؛ الصَّديـق العزيـز الـذي أعرفُـه عـن كثَـب. لدينا شـيءٌ مشـتركٌ؛ هـذا العقـلُ الهادئُ الـذي ينطـوي علـى أفـكارٍ كُنَّـا نسـمعُها حيـن نسـهرُ ونتسـامر، وهـي أفـكارٌ تُضيـفُ علـى عالمِنـا شـيئًا جديـدًا. لُقمـان، رحمَـه اللـه، كان يُمثِّـلُ هـذه النَّوعيـة مـن النَّـاس. ربَّمـا شـاءتِ الأقـدارُ أن يذهـبَ ضحيَّـةَ هـذه الظَّلاميَّـة المُفرِطـة التـي تدفـعُ اليـومَ ثمـنَ ظلاميَّتِهـا. شـاءتْ الأقـدارُ أن يرحـلَ هـو ونبقى نحـنُ، لكنَّنا سـنرحلُ يومًـا مـن الأيَّـام. مِـن حُسـن الأقـدار أنَّـا عِشـنا فتـرةً مـنَ الزَّمـن مُشـتركةً معـه، فتحيَّاتـي لروحِـه. وأعتقـدُ أنَّنـا فـي مـكانٍ، نواصـلُ المسـارَ الـذي كان عليـه لُقمـان سـليم.

أحمد مروة

إعادة النظر
بالرؤية المستقبلية للطائفة الشيعية ضرورة



من هو أحمد مروة ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟

مشاغب لبناني، يبحث عن إجابات بسيطة تتمحور بشكل أساسي حول الهوية وتداعياتها، يخاف من الجماعات اللبنانية، كونه «من الفراطة ياللي دولة القانون حقيقية بأحلامهم مش شعارات للادّعاء بالتحضُّر».

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حروب ١٩٩٣ و١٩٩٦ والـ٢٠٠٦ واليوم في ٢٠٢٤؟

أول ما يتبادر إلى ذهني من قواسم مشتركة بين هذه الحروب هي الشنطة التي تُملأ على عَجل، لأن ليس هناك وقت، وكمية الفرص التي أُتيحت لنا للتعرف على أجزاء خُفيَت علينا في أيام السلم.

أما الجزء الآخر والذي وحتى مع تقدُّم العمر يبقى مرافق، «ليه؟ ليه في ناس بدها تموت وذكريات لازم تنمحى، وهل حقًّا الأرض أهم من الناس؟ وشو بيبقى من الكرامة لما نموت، هل سيكتب التاريخ إننا مُتنا أحرارًا؟ أسئلة يمكن مُحقة ويمكن وقحة بس طبيعية وكتير حقيقية».

ما هي التحديات المتعلّقة بالوجود المكاني خلال الحروب؟

أكبر التحديات التي تفرض نفسها عند لحظة التهجير، خاصة لغير المقتدرين ماديًّا، هو الضعف والعجز، فالوجود المكاني في لحظة التهجير قد لا يكون لدينا تَرَف الاختيار فيه، وعلينا أن نرضى بالمحيط الجديد وسلوكياته وأطباعه ونظرته تجاه النازح، أكانت دونية وحاقدة أم شَفَقة، هذا الشعور باللاأمان هو شعور صعب، يسكن وَعيَنا ويحكُم مواقفنا في المستقبل.

في حرب الـ٢٠٢٤... من وِجهة نظرك، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية؟ وهل هناك مكاسب؟

أكبر ما خسره الشيعة هو الثقة الخارقة بقدراتهم وأنهم على حق، اكتشفوا نظرة الآخرين إليهم ليس في لحظة قوَّتهم بل في لحظة ضعفهم، وعرفوا أن الهشاشة هم سبَبها. وعندما نتحدث عن الشيعة لا نعني بالتحديد الأحزاب الشيعية، بل الطائفة ككُل، تحوّل نقد الطائفة بسلوك أحزابها، جرأة لم تكن متوافرة لدى جميع المكوّنات اللبنانية.

من الخسائر التي يشعر بها جمهور الحزب، هي خسارة الأب، القائد ومحلّ الثقة وهو، وبحسب تعابير بيئته، استثناء لن يتكرَّر.

أهم ما يمكن أن تكون الطائفة قد ربحته، أنها عادت لتأخذ حجمها الطبيعي في الموزاييك اللبناني، ولم تعد تتمتّع بامتيازات لفرض شروطها على الآخرين وهذا مكسَب أساسي.

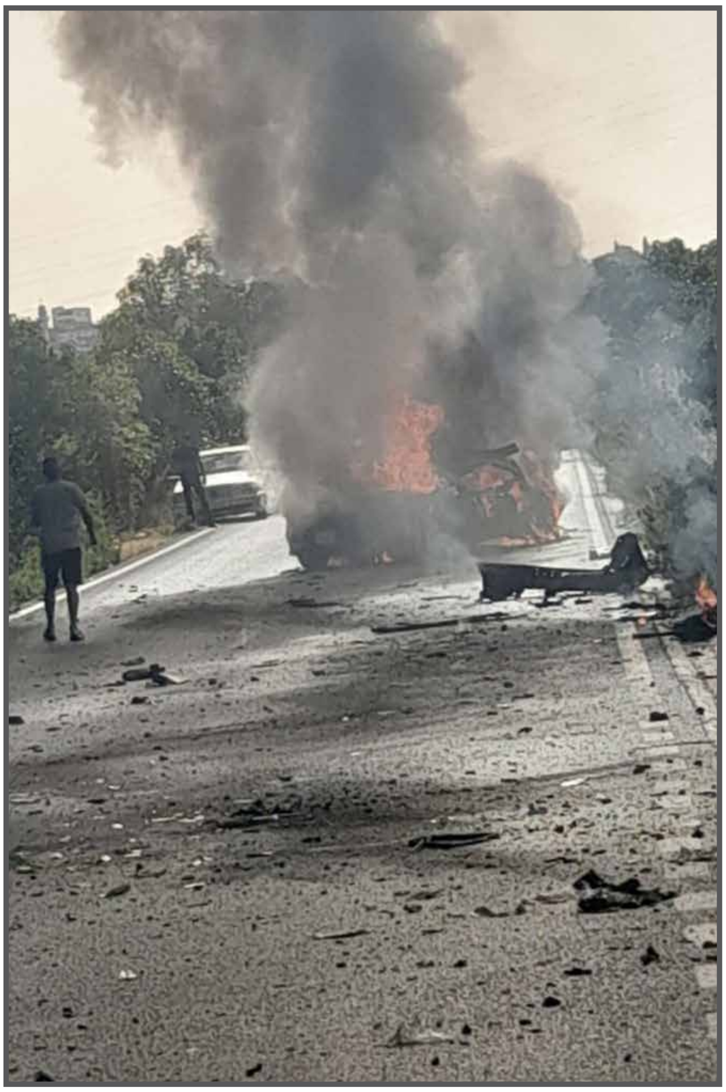
ماذا عن مستقبل الطائفة أي كيف سيُرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

يصعب التنبّؤ بمصير الطائفة، فالمشاريع الإقليمية لم تُعلن بعد أنها انتهت، أما الواضح فهو تضييق الخناق على المدِّ الإيراني، مع الأخذ في الاعتبار تحييد الشيعة، إما من خلال إعادة تعويم مشروع المرجعية العراقية، أو تعميق الهوَّة مع الإيراني أكثر فأكثر.

أما داخليًّا فالوجوه السياسية التي بقيت تحتكر تمثيل الطائفة، خاصة وأن بعض هذه الشخصيات ليس براغماتي، سيكون هناك تحدٍّ كبير بأن تصل الأمور إلى اشتباك وتبايُن في المواقف الشيعية، هذا مع عدم نضج أي مبادرة داخل الطائفة تحمل من الجدِّية ما يكفي.

مـا هــي الصــورة المتوقَّعــة لعلاقــة الطائفــة الشــيعية بالطوائــف الأخــرى فــي الوطــن؟

إن المرحلـة المقبلـة هـي مرحلـة مِفصلية، مـن انتخـاب رئيس جمهوريـة وتشـكيل حكومـة وبيـان وزاري وقـرارات حكوميـة، سـتكون مسـاحة الاشـتباك أوسـع فـي هـذه المرحلـة، وهـو مـا سـيضع المكوّنـان الشـيعيّان، أي ممثلـي الطائفـة، فـي مـأزق قـد يدفعهـم إلـى ارتـكاب «٧ أيـار» مـن جديـد، لأن المنطـق الوحيـد الـذي تعرفـه هاتـان الفئتـان هـو القـوة، ومـع غيـاب المشـروع الشـيعي البديـل سـنكون أمـام مـأزق حقيقـي فـي علاقـات الطائفـة بالمكوِّنـات اللبنانيـة الأخـرى.



استهداف سيارة على على طريق الزرارية

هـل هنـاك حاجـة لإعـادة النظـر، مـن قِبـل الطائفـة وأبنائهـا، بالرؤيـة المسـتقبلية لهـا؟

الحاجـة ملحّـة وضروريـة، وهـو علـى مـا يبـدو يحتـاج إلـى معجـزة فـي ظـلِّ التطـورات الحاليـة، فحقيقـة الأمـر أن الحزبيـن الأكثـر هيمَنـة علـى الطائفـة علـى وشـك الانهيـار، أو الانقسـام وإعـادة التموضُـع، وفـي الحقيقـة، أن المشـروعَين المذكورَيـن، لهمـا ارتبـاط حقيقـي بالدِّيـن وسـلطة المـال، فعلـى أي مشـروع مسـتقبلي أن يُقـدِّم بديـل حقيقـي فيـه مواصفـات الأمـل والدِّيـن والمـال.

أحمد مطر

الحرب الأخيرة أدّت إلى سقوط شعار «وحدة الساحات»

العلاقة بين الشيعة والطوائف الأخرى «طبيعية وعادية» وثمّة فرق بين الطائفة وحزب الله

كاتب وباحث سياسي من بلدة القصْر في الهرمل. وُلد في رأس الدكوانة بمحيط مخيّم تل الزعتر. انتسب باكرًا إلى حركة «فتح»، وشغِل فيها العديد من المناصب، أحدها قيادة العمل العسكري في منطقة النبعة. ترَك العمل العسكري قبل نهاية الحرب وعاد إلى التعليم والنشاط السياسي في الشأن اللبناني عامة والشأن الشيعي على وجه الخصوص.

مَن هو أحمد مطر؟ بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؛ كيف تستذكر تلك المرحلة؟



أنا من بلدة القصْر في قضاء الهرمل. وُلِدت في ٢١ كانون الثاني ١٩٥٥ في منطقة رأس الدكوانة، بمحاذاة مخيّم تل الزعتر. طفولتي ونشأتي كانتا في هذه البيئة المحيطة التي كانت تضمُّ لبنانيين من الشمال والبقاع والجنوب الذين انتقلوا إلى هناك من أجل العمل في المصانع المتركّزة هناك بعددٍ كبير، بالإضافة إلى فلسطينيين وسوريين. درستُ في مدرسة خاصة مجّانية، وأذكر أنهم كانوا يجمعون صفوف الفرنسي مع الإنجليزي، أحيانًا الصف الثاني مع الثالث. أنهيت المرحلة الابتدائية في مدرسة الأخوة الوطنية، أما المرحلة التكميلية، فأنهيت الصف الأول المتوسط منها في المدرسة الحديثة عند أطراف المخيّم ثم انتقلت الى مدرسة رسمية. أذكر أن معظم أساتذتي كانوا فلسطينيين، واللبنانيين كانوا في أحزاب اليسار اللبناني؛ الحزب الشيوعي، منظمة العمل الشيوعي، حزب البعث وغيرها من الأحزاب والتنظيمات، لكن التأثير الأساسي كان للأساتذة الفلسطينيين، وهذا لعب دورًا أساسيًّا في خياراتي السياسية لاحقًا.

عام ١٩٦٨ حصلت معركة الكرامة في الأردن التي خلَقت تحوُّلًا عاصفًا وكنت، أنا ومجموعة من أصدقائي المقرَّبين، ممّن انتسبوا الى حركة «فتح» على إثر تلك المعركة. خضَعنا لتدريبات عسكرية وجسدية وأخرى على مستوى التثقيف السياسي. طبعًا لم يكن الوعي السياسي قد نضَج عندي في ذلك العمر، بل كان نوعًا من التعاطف والتفاخر في مكان. تمَّ اختياري عام ١٩٦٩ للمشاركة في دورة عسكرية تمّت على مرحلتين؛ الأولى في نهر البارد والثانية في طرطوس في سوريا. وعام ١٩٧٠ وقع الاختيار عليَّ أيضًا للمشاركة في دورة ذات طبيعة خاصة، في قرية حموريا في ريف دمشق. وكنت أترقّى على المستوى التنظيمي في حركة «فتح». أول مشاركة لي في العمل العسكري كانت عام ١٩٧١ في الصدام الذي وقع مع حزب الكتائب وكان صدامًا عابرًا بشكل أو بآخر. عام ١٩٧٣ وعلى إثر اغتيال القادة الفلسطينيين الثلاثة في شارع فردان (شارع كرامي اليوم)، حدَث اشتباك مسلَّح مع الجيش اللبناني، شاركتُ فيه من موقعي في وحدة المدفعية في «فتح».

عام ١٩٧٣ انتقلت من رأس الدكوانة إلى بياقوت في المتن الشمالي، فأصبحت علاقتي التنظيمية بين مخيَم ضبية ومخيَم تل الزعتر، وعملنا على تشكيل حالة تنظيمية في تلك المنطقة، إذ كان هناك مسلمين في مناطق بياقوت، عقبة بياقوت، الزلقا، الرويسات الجديدة، الفنار، الروضة وحارة الغوارنة. طبعًا كان لنا، كحركة «فتح»، امتداد حزبي في الوسط المسيحي في كسروان والمتن الشمالي.

تولّيت عدة مناصب في حركة «فتح»؛ في المرحلة الأولى كنت عضو لجنة شعبة في مخيّم تل الزعتر، ثم أمين سرّ شعبة المتن الساحلي أو ساحل المتن، ثم عضو قيادة منطقة بيروت الشرقية، وشغلت منصب مسؤول الأرشيف الخاص لياسر عرفات. وأيضًا تولّيت منصب عضو قيادة لبنان، عندما ارتكبنا الخطيئة المميتة في الانتفاضة على القيادة الشرعية في حركة «فتح» وتأسيس ما عُرف باسم «فتح» الانتفاضة». لكن هذه الحالة لم تستمر طويلًا إذ اكتشفنا أننا كنا كالزوج المخدوع وكنا «الدفرسوار»

الـذي أعطـى النظـام السـوري، وعلـى رأسـه حافـظ الأسـد، مجـالًا للتدخُّـل فـي الشـأن الفلسـطيني، وهـو مـا سـعى إليـه زمنًـا طويـلًا. بعـد المصالحـة مـع ياسـر عرفـات فـي الجزائـر، فـي العـام ١٩٨٦ أو ١٩٨٧، أذكـر أنـه تـمَّ الاحتفـاظ بمرتبتـي التنظيميـة، أي عضـو قيـادة لبنـان، لكـن أنـا لم أسـتكمل العمل السياسـي بسـبب الظـروف الضاغطـة وعلـى وجـه الخصـوص مـن قبـل النظـام السـوري. فطلَّقـت العمـل السياسـي وعُـدت إلـى التعليـم بيـن العاميـن ١٩٨٤ و١٩٨٩.

ثمـة أمـور لا تُغـادر الذاكـرة بسـهولة: كيـف أثّـرت الحـرب الأهليــة اللبنانيــة والحــروب الإســرائيلية المتعاقبــة عليــك وعلــى مــكان ســكنك؟

فـي ١٣ نيسـان كنـتُ أسـكن في الحـيّ المسـيحي فـي بياقوت. صـدرت تعليمـات فـي حركـة «فتـح» بالترقُّـب والحـذَر، فانتقلـت إلـى حـيّ العيـن وهـو حـيٌّ إسـلامي ولـ«فتـح» تواجُد فيـه. خـلال الأسـبوع الأول مـن الحـرب، كان هنـاك حـذَر علـى مسـتوى الحركـة مـن المشـاركة فـي الحـرب، قُمنـا بتأميـن الحراسـة ودوريـات الاسـتطلاع وجمْـع المعلومـات. بعـد ذلـك دخلنـا الحـرب وكنـا حريصيـن علـى البقـاء فـي موقع لوجسـتي وقـد أبلينـا بـلاءً حسـنًا علـى مسـتوى شـراء الذخائـر والتمويـن ومـا إلـى ذلـك. أذكـر أن ابنـي نضـال وُلـد فـي أيلـول ١٩٧٥، لكننـي لـم أرَه إلّا فـي أيلـول ١٩٧٦، إذ إنـي فـي تلـك الفتـرة غـادرت بياقـوت إلـى تـل الزعتـر، ومـن ثـم إلـى النبعـة حيـث اسـتلمت قيـادة العمـل العسـكري والتنظيمـي فـي النبعـة حتـى سـقوطها فـي آب ١٩٧٦ وقمنـا بالانسـحاب منهـا وقـد كنـت مصابًـا. بعـد رحلـة شـاقة وصعبـة انسـحبنا مـن النبعـة وذهبـت إلـى المنطقـة الغربيـة. لـم أزَل أذكـر حيـن وصلـت إلـى مقـرّ القيـادة المركزيـة لـ«فتـح» سـألني أبـو الوليـد، سـعد صايـل، عـن حالتـي فأخبرتـه أنـي مصـاب، وقـد طلـب أبـو عمَّـار مـن مرافقـه نقلـي إلـى مستشـفى الجامعـة الأميركيـة لقضـاء فتـرة نقاهـة. وأصبحـت علاقتـي التنظيميـة فـي إطـار بيـروت الغربيـة، إذ تسـلّمت القطـاع البحـري الممتـدّ مـن البربيـر وصـولًا إلـى أوتيـل الكارلتـون. وكنـت فـي هـذه المرحلـة فـي مكتـب القائـد العـام، أي عرفـات، ثـم أكملـت دراسـتي الجامعيـة فـي بلغاريـا فـي تلـك الفتـرة أيضًـا.

فـي أثنـاء الحـرب كان هنـاك عـدد مـن الأمكنـة التـي كنـت أعتبـر نفسـي دخيـلًا عليهـا وأخـرى كنـت أشـعر فيهـا بالراحـة والأمـان. حيـن طُلـب منـي الذهـاب إلـى النبعـة لـم أكـن



غارة طالت بلدة القصر

مرحّبًـا فـي البدايـة لكننـي ذهبـت. كنـت أعـرف بعـض الأصدقـاء هنـاك، لكـن علـى مسـتوى الوحـدة القياديـة فإنـي لـم أكـن أعـرف منهـا سـوى شـخص واحـد. فهـذه كانـت تجربة مـن حيـث نسْـج العلاقـات مـع الأشـخاص، وهـو مـا يتطلّـب أن تفهـم عقليـة هـذا الشـخص وكيـف يفكّـر. وعلـى الرغـم مـن أنـي كنـت غريبًـا عـن النبعـة، إلّا أننـي اسـتطعت نسْـج علاقـات مـع غالبيـة مسـؤولي التنظيمـات والأحـزاب، وكانـت علاقـة قائمـة علـى الاحتـرام المتبـادل، إلـى أن شـعرت حقيقـة بنـوع مـن الإلفـة فـي النبعـة. لكـن المـكان الوحيـد الـذي لا أزال أشـعر بحنيـن إليـه كلمـا مـرَرت بـه، هـو تـل الزعتـر إذ إن الطفولـة والمراهقـة التـي لـم نعِشْـها فـي الواقـع، كانـت هنـاك. إلـى اليـوم، وكلمـا مـرَرت فـي تلـك المنطقـة، حيـن أكـون متوجّهًـا إلـى بيـت مـري مثـلًا، يكـون تـل الزعتـر إلـى يمينـي، أشـعر بذلـك حنيـن. ثمـة صعوبـة فـي الانسـلاخ عـن تـل الزعتـر فـي الذاكـرة، فمعالمـه الآن تغيّـرت كثيـرًا. حاولـت مـرة أنـا وأحـد الأصدقـاء أن نتعـرَّف إلـى معالمـه فلـم أسـتطع. تلـك التجربـة تحمـل الكثيـر مـن الذكريـات؛ منهـا مـا تلاشـى ومنهـا مـا لـم يـزل طيفُـه حاضـرًا فـي الخيـال.

فـي العـام ١٩٧٢ حصـل اجتيـاح إسـرائيلي فـي منطقـة العرقـوب، شـبعا والهباريـة وغيرهمـا. حينهـا كنـت فـي تـل الزعتـر، والاجتيـاح نفسـه لـم يطُـل كثيـرًا. طبعًـا الأشـخاص المتواجديـن فـي أماكـن القصـف هُجِّـروا بطبيعـة الحـال. فـي العـام ١٩٧٨ كان هنـاك تقـدُّم للإسـرائيليين ومعهـم قوات سـعد حـداد، يومهـا كنـت أسـكن فـي منطقـة الصنايـع فـي حيٍّ راقٍ. لكـن موجـة التهجيـر كانـت عاليـة، وكان هنـاك عمليـات كـرّ وفـرّ فـي الكثيـر مـن المواقـع، وقـد شـاركت فـي تحريـر بلـدة العيشـية. أمـا فـي العـام ١٩٨٢ فلـم أكـن فـي لبنـان أثنـاء الاجتيـاح، لكـن حيـن عُـدت، أمضيـت معظـم الوقـت فـي

البقـاع، وشـاركت فـي بعـض الأنشـطة الإعلاميـة. فـي الواقـع أن اجتيـاح العـام ١٩٨٢ تـرك أثقـالًا علـى نمـط التفكيـر لدينـا، إذ شـعرنا بالهزيمـة وبانهيـار أحلامنـا الورديـة. أذكـر أنـه تـمَّ عقـد اجتمـاع فـي سـوريا علـى مسـتوى الكـوادر وفـي حضـور أربعـة أو خمسـة أعضـاء مـن اللجنـة المركزيـة وقلـت لهـم: منـذ نعومـة أظافرنـا تربّينـا علـى العـداء للامبرياليـة لنتفاجـأ بأننـا جراميـذ صغـار فـي خدمـة المشـروع الإمبريالـي. وأعلنّـا الانتفاضـة فـي ٩ أيـار ١٩٨٣ وهـي لـم تكُـن فـي الأسـاس حركـة انشـقاق عـن «فتـح»، وإنمـا مـن أجـل الضغـط علـى اللجنـة المركزيـة لعقـد مؤتمـر عـام لتقييـم المرحلـة ومحاسـبة المسـؤولين.

حربـا العاميـن ١٩٩٣ و١٩٩٦ لـم تؤثِّـرا علـى مـكان سـكني. كذلـك حـرب العـام ٢٠٠٦ حيـث كنت أسـكن في خلـدة وبقيت هنـاك، لكـن عائلتـي كانـت فـي البقـاع ثـم ذهبـت إلى سـوريا. كنـت مقتنعًـا منـذ الأسـبوع الأول أنـه لا نيّـة إسـرائيلية لاجتياح بَـرّي للبنـان، وأن مـا يجـري هـو قـوة دفـع لحـزب اللـه وأنـه سـيرتدّ إلـى الداخـل. فـي الحـرب الأخيـرة عـام ٢٠٢٤ لـو عـاد الأمـر إلـيّ لمـا غـادرت منزلـي فـي خلـدة، لكـن ابنتـي التـي لـم تعِـشْ مـن قبـل طفـرة مـن طفـرات الحـرب، كانـت خائفـة جـدًّا، فاضطُـررت إلـى تـرك خلـدة وذهبنـا إلـى زقـاق البـلاط فـي البدايـة، ثـم إلـى بيـت مـري عنـد صديقنـا مالـك مـروة. وفـي أول يـوم لوقـف إطـلاق النـار عُـدت إلـى منزلـي الـذي لـم يتعـرض لأي ضـرر، وعلـى العمـوم كنـت قـد تركـت النوافـذ مفتوحـة، واتخـذت بعـض الإجـراءات الاحتياطيـة تحسُّـبًا لأي غـارات فـي المحيـط. بتقديـري أن كل الحـروب التـي حصلـت سـابقًا كانـت أشـبه بلعبـة بيـن حـزب اللـه وإسـرائيل، بدليـل، مثـلًا، مـا جـرى علـى الحـدود منـذ ثـلاث أو أربـع سـنوات حين مـرَّر الإسـرائيليون سـيارة فيهـا دمًـى، وقـام حـزب اللـه بإطـلاق النـار عليهـا مـن أجـل تنفيـذ وعـدِه بالـردّ.

مـن وِجهـة نظـرك؛ مـاذا خسِـرت الطائفـة الشـيعية فـي الحرب الأخيـرة؟ وإذا كان ثمّـة مكاسـب فمـا هي؟

أنـا تحسَّسـت باكـرًا، تحديـدًا منـذ توقيـع الاتفـاق الإيرانـي السـعودي برعايـة صينيـة، أن تحـوُّلات فـي طريقهـا إلـى المنطقـة، واعتبـرت أن هـذه المرحلـة هـي مرحلـة أفـول الإسـلام السياسـي بشـقَّيه السـنّي والشـيعي. لذلـك كنـت متحفّظًـا علـى عمليـة «طوفـان الأقصـى» فـي ٧ أكتوبـر ومـا سُـمّيت بحـرب الإسـناد بعدهـا، فـي حيـن هلَّـل لهـا الكثيـر مـن النـاس. هـذا التحفُّـظ نتيجـة معرفتـي بطبيعـة الكيـان الصهيونـي المهجـوس بأمـن الحـدود. لـم أقتنـع أن الأمـر سـيمرُّ بهـذه السـهولة، ولربمـا اعتبرتـه بمثابـة فـخ وكميـن لاسـتدراج حركـة «حمـاس» وباقـي أطـراف المحـور، إن جـاز التعبيـر. حتـى أن عـدد القتلـى الإسـرائيليين لـم تكـن «حمـاس» وحدهـا مـن قتلتهـم، بـل الطوافـات الإسـرائيلية، هـي التـي قصفـت إسـرائيليين، وزادت عـدد القتلـى فيهـم. لكـن إسـرائيل اسـتطاعت عبـر البروباغنـدا أن تسـتحوذ علـى التعاطـف العالمـي بينمـا كان الخطـاب علـى الطـرف الآخـر موغـلًا فـي الإطنـاب والأحـلام، وأن تحريـر فلسـطين بـات أقرب مـن أي وقـت مضـى. الخطـاب نفسَـه الـذي كان سـائدًا قبـل الحـرب. وأولـى الخسـائر التـي لحقـت بالوضـع العـام وبالوضـع الشـيعي خصوصًـا، كانـت سـقوط شـعار «وحـدة السـاحات»، ولربمـا مغامـرة محمـد الضيـف ويحيـى السـنوار كانـت تهـدف إلـى توريـط الآخريـن فـي هـذه المعركـة. وربمـا لـو تـمَّ الأمـر عسـكريًّا لكانـت ملامـح التوجّـه قـد تتغيّـر لكـن يجـب ألا ننسـى الحضـور الأميركـي المباشـر وغيـر المسـبوق وكأن الأمـور فـي المبـدأ كانـت ذاهبـة نحـو سـيناريو آخـر.

وهنـا لا بـدّ مـن التمييـز بيـن جمهـور الطائفـة الشـيعية وحزب اللـه. الخسـائر التـي تكبّدتهـا النـاس كانـت كبيـرة جـدًا علـى مسـتوى الأرواح، وأيضًـا على مسـتوى الأرزاق والأمـلاك. ولا أرى أن هـذه الحـرب قـد حقَّقـت أي مكسـب، ولكـن العكـس كان صحيحًـا. ففـي نهايـة المطـاف كان واضحًـا أن الحـرب تتّجـه لإنهـاء حالـة هيمنـة حـزب اللـه علـى البلـد.

مـاذا عـن مسـتقبل الطائفـة الشـيعية؟ وكيـف سـيُرتّب الشـيعة بيتهـم الداخلـي بعـد الحرب؟

الطائفـة الشـيعية مكـوُّن أساسـي مـن المكوِّنـات اللبنانيـة، بغـضِّ النظـر عن وجـود أحـزاب ذات صبغـة مذهبيـة. وتاريخيًّا الطائفـة الشـيعية كانـت طائفـة متفاعلـة، والحركـة الوطنيـة كانـت تضـمّ فـي صفوفهـا عـددًا كبيـرًا مـن الكـوادر الأساسـية الذيـن كانـوا مـن الطائفة الشـيعية. فالمسـألة ليسـت مسـتقبل الطائفـة، وإنمـا مـا هـو مصيـر القـوى المهيمنـة علـى الطائفـة والتـي خطفـت الطائفـة منـذ فتـرة طويلـة وادّعـت تمثيلهـا. وبمـا أن الشـيعة مكـوّن مـن المكوِّنـات اللبنانيـة، فهـم جـزء مـن الحالـة السياسـية اللبنانيـة، وأيضًـا لا بـدّ مـن الفصل بيـن

الطائفة كمكوِّن اجتماعي، وبين القوى السياسية التي تدّعي تمثيلها وتصادره.

ماذا عن علاقتها بالطوائف الأخرى؟

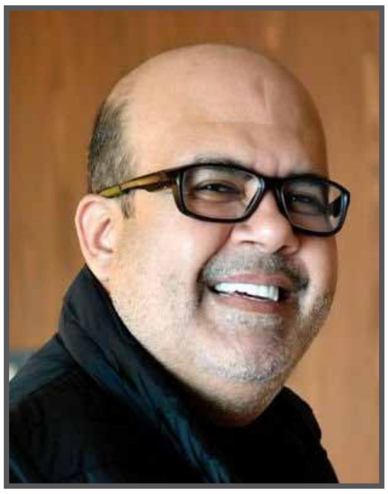
مجدّدًا لا بدّ من التمييز بين حزب الله والطائفة الشيعية. علاقة الطائفة بغيرها من الطوائف هي علاقة طبيعية وعادية، لكن القوى التي كانت مهيمنة عليها لم تترك مجالًا للصُلح. الطائفة الشيعية ليست في حاجة للتعريف عن نفسها، مع التأكيد طبعًا على ضرورة ارتفاع الصوت من داخلها في وجه القوى المهيمِنة على مقدِّراتها ولبنانيّتِها؛ رفع الصوت انطلاقًا من وصايا الراحل الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الذي اعتبر أن الشيعة ليس لديهم مشروع خاص، ولا بدّ أن يكونوا متفاعلين في إطار المجتمع اللبناني، والتأكيد أيضًا على ما قاله السيد موسى الصدر، بأن لبنان وطن نهائي لجميع أبنائه، ومعروف بشكل واضح أن السيد الصدر، مؤسِّس المجلس الشيعي الأعلى، كان يُعتبر ممثلًا أو ناطقًا باسم الطائفة الشيعية في لبنان. حتى في المحطات الرئيسية منذ العام ٢٠٠٥ إلى اليوم، كما في ١٤ آذار حيث كان الحضور الشيعي لافتًا بغضّ النظر عن مشاركة القوى السياسية المهيمِنة. لذلك ليس هناك حاجة للطائفة أن تُعيد تشكيل علاقتها مع الآخر، لأن العلاقة ببساطة هي علاقة بين مواطنين لبنانيين تجمعهم مصالح وهموم ومعاناة مشتركة. نحن حاولنا كثيرًا وقرأنا باكرًا أنه لا بدّ من العمل على تشكيل صمّام أمان لأبناء الطائفة الشيعية انطلاقًا من تجربة حزب الله، إذ كنّا نرى أن هذه التجربة ستنعكس سلبًا على واقع الطائفة ومصيرها.

أيمن جزّيني

سياسة الأحلاف السياسية والاقتصادية والعسكرية لا تُفيد الطوائف... ولا حل سوى بالعودة إلى اتفاق الطائف

«اغتيال نصرالله لن يكون حدثًا عابرًا والطائفة الشيعية فقدَت بمقتله فائض قوّتها»

كشف سرًّا إن قُلت إنني من مواليد مرحلة ما قبل الحرب الأهلية اللبنانية بسنوات قليلة. التاريخ والمكان الدقيق لميلادي لا يُغيِّران في الواقع أنني من مواليدها؛ فقد نشأت وشَبِبت عن الطّوق وبلغت رُشدي في خضمّ هذه الحرب.



لم أعرف من لبنان طوال تلك الحقبات من نشأتي إلّا بعضه. كانت الأوضاع السياسية والأمنية سببًا أساسيًّا في جهْلي مناطق كاملة من لبنان. لكنني لبناني ولست سائحًا فيه، وهذا يعني أول ما يعني أنني محكوم بأن أكتشف البلد، ليس جغرافيًّا بطبيعة الحال، بل أنا مُلزمٌ بأن أكتشف مكوِّنات هوّيته، وهواجس أهله والجماعات التي يتكوَّن منها شعبه «الواحد» ومخاوفهم وآمالهم وطموحاتهم.

كانت الحرب عازلًا عن هذا كله، وبلغَت من القسوة والجنون حدًّا حوّل أي حوار بين اللبنانيين نوعًا من الشروط والشروط المضادة. وبلغ بنا الأمر في تلك الحرب أن جنَحنا إلى الظنِّ بأن القوى الخارجية قد تُعيننا على فرض شروطنا على شركائنا اللبنانيين من دون أن تفرض، أي تلك القوى، شروطها علينا معًا وجميعًا في آن.

من نافِل القول إن هذا كله كان جنونًا مُطبَقًا، لكننا استثمرنا جهودنا وأعصابنا في هذا الجنون. في المحصّلة اكتشفنا أننا بلد صغير، وأن ليس ثمّة طائفة أو جماعة أو قوة سياسية أو عسكرية أو إثنية في هذا البلد الصغير، تملك الحق بادّعاء انتمائها أو تحدُّرها من خارج ممتدّ وكثيف وكثير العدد. لقد اكتشفنا بالدم والجنون، وربما وجَب القول باختبار المحن إننا جميعًا في هذا البلد قلّة وأن الخارج يُعاملنا أصلًا وفي الأساس بوصفنا أبناء هذه القلّة.

البلد بعد الطائف، بقيَ على توصيف، كان في الحرب سائدًا، لكن ظلال السِّلم حكمت الأمور من دون بندقية، لكن أيضًا نهائية الكيان وعروبته وعيشه المشترك ما نجحت في إسقاط اعتقادات الحرب إلّا من باب فتح المناطق على بعضها البعض. في البلد اليوم ثمّة أطراف وقوى ترفض أن تذعَن لموجبات أي حوار، وفي البلد اليوم قوى وأطراف تريد أن تفرض شروطها على الآخرين، وهي تستند في مطلبها إلى مدَدٍ خارجي: إيديولوجي وطائفي وجغرافي وعسكري.

وفي البلد اليوم ثمّة قوى ما زالت ترفض الخروج من تلك الحرب الأولى وتُمعن في مديحها من دون وازعٍ أو إمعان نظر. واقع الأمر أن أول مترتّبات الولوج في الحروب الأهلية هي الظنُّ والاعتقاد بأن خصومنا هم شعب من الجواسيس. أسوق هذا كله لأصِل إلى المرمى الذي يرمي إليه هذا اللقاء في الأصل والأساس أي «الحرب عام ٢٠٠٦ والحرب ٢٠٢٤».

الحربان هما من مواليد تاريخ البلد وأهله وجماعاته الأهلية. وتاريخيهما وحاضريهما مثل تاريخ أي فرد عجَنته الحرب وجعلته من مواليدهما أو معاصِرهما. بهذا المعنى يمكن القول إن تحديات أي حرب، بالإضافة إلى ما تقدَّم، هي في أن يكون المكان خارج التهديد الناري.

لن تكون عملية اغتيال أمين عام حزب الله عمليةً عابرةً أو حادثًا عرَضيًّا في تاريخ الشيعة في لبنان، بل هي حدث سيُلقي بأوزاره على الطائفة الشيعية لسنوات وربما لعقود لاحقة. هذا حصل في سياق تتابُع الأحداث التي تراكمت من ٧ أوكتوبر ٢٠٢٣، وأفضت تأثيراته على سياق شيعي عام. وهو إن أصاب رهط الحزب ومُشايعيه، إلّا أن شدَّته ستطال جسمًا شيعيًّا عريضًا عقَد الآمال على السيد نصرالله بوصفه رمزًا للنصر دائمًا وأبدًا.

وأيضًا استهدفت إسرائيل خلال عام من «حرب الإسناد»

التي دشّنها حزب الله دعمًا لحليفته حركة حماس وقطاع غزة والفلسطينيين عمومًا، عددًا من القادة الميدانيين البارزين في الحزب، إلّا أن لاستهداف الأمين العام للحزب واغتياله، معانٍ كثيرةً ودلالات لا حصر لها ولا عدّ. فالسيّد نصرالله، رمزُ «القوّة الشيعية» التي طغَت على الحياة السياسية في لبنان، خاصةً في العقدَين الأخيرين، هو رمز «فائض القوة الشيعي» الذي شكَّل لسنوات عدّة محور كل حديث في السياسة، في لبنان وخارجه. وهو أيضًا فائض قوة مُستمدّ من الداخل اللبناني والشيعي تحديدًا، بقدَر ما هو مُستمدّ من الخارج الشيعي أيضًا والذي يبدأ من إيران ولا ينتهي في اليمن.

وعليه، يصير السؤال المطروح حاليًّا هو التالي: هل استهدفت إسرائيل «فائض القوة الشيعي» هذا؟ وربما يعدّ ذلك أبرز الخسائر التي مُنيَت بها "الشيعية السياسية" خلال هذه الحرب، فلا شكّ أن اغتيال نصر الله حدث ستقف عنده أجيال كثيرة، وستكون له تداعيات كثيرة على المستويات كلها؛ شيعيًّا ولبنانيًّا وعربيًّا وإسلاميًّا. كما ستكون له تداعيات كبيرة على مُجريات الصراع العربي الإسرائيلي. فما بعد نصرالله ليس كما قبله.

وهنا لا بد من القول إن «الشيعة» فقدوا باغتيال السيد نصرالله، فائض قوة معنوي، قبل أي شيء آخر، من الصعب تعويضه نظرًا إلى امتلاك أمين عام حزب الله كاريزما خاصةً ومميّزةً طبعت الطائفة الشيعية بكاملها بطابعها، ونظرًا إلى اختزال الرجل في حياته سيرة الطائفة في شخصه، حتى ليتبادر اسمه فور ذكر مُفردة شيعي في لبنان حتى اللحظة، أي حتى ما بعد اغتياله.

لكن على الرغم من ذلك، فمن الصعب القول إن اغتياله اغتيال للطائفة الشيعية، لكن اغتياله دون شكّ أصاب الطائفة الشيعية في مقتل، وأحدثَ فيها جرحًا بليغًا تحتاج إلى الكثير من الوقت والمجهود والدعم لتتعافى منه.

كذلك فإن اغتيال السيد نصرالله واحدة من هزائم ٧ أوكتوبر المتراكمة من تاريخها حتى اليوم. وهو بلا أدنى شك اغتيال لسياق انفرد بتميّز جعَل من الأمين العام السابق للحزب شخصية إقليمية تقاطعت عندها سياسات المنطقة وأهوالها الإسلامية والعربية حتى تفرَّد هو وحزبه بالسيطرة والتحكُّم بمختلف السياسات ورسم معادلات مع إسرائيل ما عاد ممكنًا الآن أن يُخطّ فيها أي خط. ويضاف إلى ما سبق الخسائر المادية الكبيرة والدمار الذي حلَّ بغالبية قرى الجنوب وبضاحية بيروت الجنوبية، والتي هي في مكان ما، مناطق يسكنها أبناء الطائفة الشيعية. وفي ظلٍّ كل ذلك فإن الحديث عن مكاسب للطائفة الشيعية كنتيجة للحرب الأخيرة يُصبح ضربًا من الادّعاء ليس أكثر.

من نافِل القول هنا، إن الأحلاف السياسية والعسكرية وحتى الاقتصادية، مقتلَة لبنان. هي خلاصة تلقائية لا بدّ أن يتوصّل إليها القائمون على الطائفة الشيعية وكذلك أي قارئ لتاريخ لبنان منذ استقلاله وحتى اليوم.

الموقع الجغرافي للبنان، وطبيعة تركيبته الطائفية والإثنية والثقافية، يحتّمان عليه السير على حبل رفيع، وأي اختلال في أي خطوة من خطواته يؤدّي إلى تفجيره داخليًّا. إذ يقع لبنان في نقطة وسطى بين الشرق والغرب، وبين آسيا وأوروبا وإفريقيا، وبين العرب وغير العرب، على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

يحتلّ حيّزًا بالغ الأهمية على خط المواصلات والتجارة. أيُّ مَيْل منه إلى أيٍّ جهة من الجهات سابقة الذكر، يخلّ بالتوازن القائم فيه. والتوازن القائم فيه انعكاس جليّ ومرآة صادقة لتموضعه الجغرافي والحضاري والثقافي.

إنْ مالَ لبنان نحو الغرب، اشتدّ عليه الشرق. وإن انحاز للشرق قطَع صِلاته بالغرب، وهي صِلات وطيدة وضاربة في القِدم عمرها من عمر ركوب الفينيقيين، سكّانه القدامى، البحر.

لبنان أيضًا وأيضًا هو صلة وصْل فإذا ما صار صلة قطع، انتهى وانتفت أهمّيته وتعطّل دوره. فلبنان كما قال عنه شاعره الأكبر سعيد عقل، هو «بين الله والأرض كلام». لبنان كلمة. كلمة تحمل الإرث الحضاري والثقافي للبشرية. وكلمة هي لغة بين الشرق والغرب. الإنسان فيه كلمة، وأهميته كلمة. ودوره كلمة حق وحضارة في وجه الهمجية والبربرية. فإذا انقطع الكلام انتهى، وكل تحيّز وانحياز قطع للكلام.

التقييم يعني أنَّ ما سبق ليس شعرًا، ولا تنظيرًا. ما سبق خلاصة تجربة عمرها آلاف السنوات، وخير دليل عليه ما سأسوقه عن تاريخه المعاصر، أي منذ الاستقلال عام ١٩٤٣ وحتى اليوم.

أول خضّة في لبنان، أو مشروع حرب أهلية، كانت عام ١٩٥٨. حينها لم ينضمّ لبنان إلى حلف بغداد، لكن السلطة فيه باركت هذا الحلف منذ العام ١٩٥٥. المباركة هذه - مجرد المباركة - جرّت عليه ويْلات وويْلات سرعان ما أنذرت بحرب أهلية كادت تُطيح به وهو بعد حديث العهد بالاستقلال.

بعد حوادث العام ١٩٥٨، وقف لبنان موقفًا محايدًا من الجمهورية العربية المتحدة، وهي اتحاد دولتين عربيتين هما مصر وسوريا. لم ينضمّ ولم يُعارض، فحفَظ نفسه وأهله وتركيبته الفريدة. ثم تتالت عليه الأحداث وعلى محيطه من حرب العام ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل واتفاقية القاهرة التي شرَّعت السلاح الفلسطيني وغلّبَتهُ على سلاح الشرعية اللبنانية برعاية عربية جامعة، ثم أحداث أيلول الأسود في الأردن عام ١٩٦٩ و١٩٧٠، فحرب تشرين ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل مجدّدًا.

كان انقسام اللبنانيين بين منحاز إلى الفلسطينيين وقضيّتهم، وداعٍ إلى الحياد وحفظ استقلال لبنان بذرةً أينَعت حربًا أهليةً بعد حين. حينها كان حياد لبنان انحيازًا لدى شريحة واسعة من اللبنانيين، وانحيازه خطيئة لدى شريحة أخرى.

السَّير بين الموقفين لم يُنتج إلا حربًا أهلية اندلعت منتصف السبعينات واستمرت حتى العام ١٩٩٠. خلال الحرب الأهلية هذه، كان انحياز لبنان، أو شريحة واسعة من اللبنانيين، إلى صفّ الفلسطينيين سببًا رئيسًا في اجتياحه من قِبل العدوّ الإسرائيلي واحتلال عاصمته بيروت عام ١٩٨٢. وقبل ذلك بأعوام، احتلال جزء غالٍ من جنوبه عام ١٩٧٨، والذي بقي محتلًّا حتى العام ٢٠٠٠، ولا يزال جزء منه يرزح تحت نير الاحتلال الإسرائيلي حتى اللحظة.

الخلاصة، أنه منذ العام ١٩٩٠، تاريخ استتباع لبنان رسميًّا من قِبل النظام السوري، وتنسيق سياسته الخارجية بما يوائم انزياح نظام الأسد الأب واصطفافه، انتفى كليًّا أي دور للبنان في السياسة الدولية. كانت السلطة فيه بوقًا شبه رسمي لنظام الأسد ومواقفه وتحالفاته.

هذا الانحياز، أو هذا الاصطفاف، يدفع ثمنه لبنان منذ العام ٢٠٠٥ تاريخ اغتيال رئيس مجلس وزرائه رفيق الحريري الذي سعى إلى رسم سياسة خارجية تحفظ لبنان وتركيبته بين الدول وفي العالم... ودفع الثمن غاليًا، فاغتيل وأصيب لبنان إصابةً بالغةً لا يزال على إثرها في العناية الفائقة حتى اللحظة.

بُعَيد انسحاب الجيش السوري من لبنان، عقب اغتيال الرئيس رفيق الحريري، استلم حزب الله مكانه مدجّجًا بسلاحه واصطفافه الإقليمي منفّذًا سياسة الجمهورية الإسلامية في إيران، في المنطقة والعالم، وهذا ما جرّ عليه حربًا عام ٢٠٠٦ دمّرت البلد، وها هو يزجّ به اليوم في أتون صراع إقليمي ودولي وحرب دائرة في أقصى جنوبه منذ سنة تقريبًا لا يعرف أحد متى تنتهي.

في الخلاصة، يجب على أبناء الطائفة الشيعية أن يستفيدوا من التجارب التاريخية، إذ وحده الحياد ضمانة لبنان ووسيلته للحفاظ على تركيبته وفسيفسائه الاجتماعية والحضارية والثقافية. وكل انحياز إلى غير الشرعية الدولية ومواثيق وقرارات هيئة الأمم المتحدة وشُرعة حقوق الإنسان، لا يجرُّ عليه سوى الويلات والحروب والانهيار الاقتصادي، ولنا في شبه الانهيار الاقتصادي الذي يئنُّ لبنان واللبنانيون تحت وطأته منذ العام ٢٠١٩، عِبرة.

اللغو اللبناني حول حظوظ البلد بارتياد آفاق حرب أهلية جديدة، ارتفع. قد يكون هذا الارتفاع على وسائل التواصل الاجتماعي سببه «شامت» بالوضع أو رافض لـ«الرِّفق». لكنّ الحرب تبقى حربًا بكلّ أثمانها. وتجربة لبنان في الحرب الأهلية خلال عقدَيْ السبعينات والثمانينات جاءت بأكلاف بلغت مئتي ألف قتيل وجريح ومفقود. وتبقى ماثلة في الوعي العامّ، أقلّه عند مَن خبَروها وحملوا آلامها قتلًا وجراحًا وفَقْدًا.

اليوم تبدّى الجهل اللبناني من البعض بسبب الحرب الإسرائيلية على لبنان منذ الثامن من أوكتوبر ٢٠٢٣ التي استدعاها الحزب الذي تصدّع وفقَد الدور والوظيفة جرّاءها، وإن كان موجودًا تقنيًّا على مسرح العمليات العسكرية البرّية.

اتفاق الطائف بما هو صيغة مُحدّثة لصيغة الجمهورية الأولى أسقط عمليًّا ونظريًّا كلّ مبرّرات الجماعات الأهلية في الذهاب نحو رفع راية الحرب. لكنّ هذا لا يمنع توتّرًا عالي النّبرة بين جماعة مسيحية تمثّل وزنًا وحيّزًا في دينها، وبين أخرى شيعية هي بالتعريف الحزب، وقد نجحت نجاحًا باهرًا في اختزال طائفتها.

مع انتهاء الحرب ارتفعت أصوات مسيحية مخاطبة جموع المسلمين من دون تمييز بينهم وبين مذهبهم: نريد أن نقسّم تقسيمًا فدراليًا لأنّكم أخذتم البلد منذ الخمسينات إلى الرئيس جمال عبد الناصر ثمّ باتّجاه منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة الرئيس ياسر عرفات (أبو عمّار)، وما لبثتم أن سلّمتم البلد في مطلع التسعينات إلى سلاح الرئيس حافظ الأسد، وأخيرًا جرَرتُم البلد إلى حربٍ أقلّ ما يُقال فيها وعنها إنّها مُدمّرة لبلاد الأرز. وهذا خطاب فيه من الصواب السياسي ما فيه.

اذًا، الحرب الأهلية هي قرار، هذا الخطاب سيُجابَه في المقابل بآخر من الحزب الذي اختزل «عموم» الشيعة، ومفاده أنّ اليمين المسيحي أخذ البلد إلى «حلف بغداد»، ومنذ الخمسينات أيضًا، وهو «حلفٌ» مناقض لهويّة البلد وانتمائه إلى المنطقة والهويّة العربيّتَيْن. ثمّ كان أن استقويتم بأعراف ونصوص والتباسات دستور الجمهورية الأولى إلى أن استعَنتم بإسرائيل للاستقواء والغلَبة. وهذا أيضًا فيه ما فيه من الصواب السياسي. لكنّ الخطابيْن متناقضان حدَّ الانفجار، ووحده الدستور ومقدّمته المعروفة باتّفاق الطائف يُنهيان التعارض إذا ما تمّ إعمال موادّهما.

أيضًا لا معنى للبنان خارج ثلاثيّة نهائيّة الكيان وعروبته والعيش الواحد. ذلك أنّ الحرب الأهلية العبَثية التي خاض غمارها اللبنانيون وهم يقدّمون مصالح دول عدوّة عند البعض وصديقة عند البعض الآخر، كانت كلّها أهوالًا على حساب اللبنانيين مجتمعين. واتفاق الطائف الذي أنجز مصالحة ومصارحة بين اللبنانيين جاء بنهائية الكيان استجابة للمسيحيين الذين خافوا من ذهاب المسلمين إلى الوحدة مع محيطهم. في المقابل كانت «عروبة» الكيان لطمأنة المسلمين مقابل «فينيقية» و«تغريب» المسيحيين للبلد هويّةً وثقافةً.

أمّا العيش الواحد فلا يعني تنظيم المساكنة بين الطوائف. وهو حتمًا كذلك لأنّه يُضعف الجانب الديموقراطي في العقْد الاجتماعي. جاء لتعريفنا، ولذلك هو ليس «تنظيم مساكنة» بين الطوائف ضمن تركيبة إدارية تنصّ على كيفية جلوس اللبنانيين مع بعضهم وتعامل بعضهم مع بعض على مستويات السياسة والتجارة والثقافة والمعتقَد.



موقع اغتيال الامين العام لحزب الله، الشرق الأوسط

يمنع العيش الواحد على الجميع، الخروج على النصوص المرجعية. وهو من ضمن الدستور ومقدّمته المُسمّاة «اتفاق الطائف». إذًا المشكلة ممكن حلّها عبر وعي سياسي يُنادي بمرجعية اتفاق الطائف والدستور ويتجاوز الموالاة والمعارضة، ويذهب باتّجاه الجميع حتى يمكن تقسيم الحياة السياسية بين مُنادين بنظام جمهوري وبين آخرين يطالبون بنظام ديمقراطي - ليبرالي.

المهمّ في هذا أن يكون الطرَفان مُستندَيْن إلى النصوص الدستورية وقرارات الشرعيّتين العربية والدولية. ولا مصلحة للبنان الأهليّ أن يعتبر فريق أنّه بعد انتهاء الحرب صارت الفرصة متاحة للخروج على النصّ الدستوري بمقدّمته ومتنِه والذهاب إلى «صيغة أفضل» تتلاءم مع وعيه وتضمن مصالحه على نحو أمثل ممّا فعله اتفاق الطائف.

كما أنّه في المقابل لا مصلحة بوجود فريق آخر يذهب إلى تقويم الحرب الإسرائيلية والتنصّل من نتائجها السياسية لأنّها هي المسؤولة عن استدعاء هجمات القوات الإسرائيلية على لبنان، وأنّ الذي فعل ذلك هو «حزبٌ» اختزل طائفته والحرب وأمعن في سلوك مُغامرة غير محسوبة أفضت إلى ما أفضت إليه.

لن تحصل حرب أهليّة في لبنان. الحرب الأهلية ليست قرارًا داخليًا فقط. إنّها انعقاد تناقضات الوضع الداخلي على ذاك الخارجي. ولن تكون بسبب تكسير سيّارة في الضنية عليها صورة الأمين العامّ السابق للحزب السيّد حسن نصرالله. ولن تكون لوجود خلاف عقاري في جبيل أو كسروان. الحرب الأهلية هي قرار سياسي. ولا أحد يُراهن على حقَبة ما بعد اغتيال الرئيس رفيق الحريري، لأنّ المرحلة مُختلفة ولم يعد الحزب هو

الحدث السياسي الذي تتشكّل من حوله الحياة السياسية بمواليها ومعارضيها.

انطلقت الحرب في الماضي من اتفاقية القاهرة التي عُقدت عام ١٩٦٩ وقدّمت سلاح منظّمة التحرير الفلسطينية، وأخّرت سلاح الشرعية الدستورية آنذاك. الحياة السياسية تشكّلت يومها من حول السلاح الفلسطيني بين موالٍ ومعارضٍ، وكلاهما تحاوَر بالسلاح عام ١٩٧٥. لم يكن الأمر مهمًّا في ما تريده الحركة الوطنية ولا في ما تريده الجبهة اللبنانية. كانت الأهمّية والقرار عند منظّمة التحرير الفلسطينية.

لن تحصل حرب أهليّة في لبنان. الحرب الأهليّة ليست قرارًا داخليًّا فقط. إنّها انعقاد تناقضات الوضع الداخلي على ذاك الخارجي.

بلغت الأمور الذّرى عندما كان يعتزم وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر زيارة لبنان في عام ١٩٧٣، لكنّ أبا عمّار حذّره مهدّدًا من النزول بمطار بيروت، فما كان منه إلّا التوجّه نحو مطار دمشق، وصعَد وزير الخارجية اللبناني خليل أبو حمد إلى شتورا لاستقباله. حينها اعتبر المجتمع الدولي أنّه لا توجد لديه جمهورية تستطيع أن تحميه، وبالتالي يجب أن يذهب باتجاه آخر.

استمرّ الوضع على ما هو عليه حتى عام ١٩٩٢، وكان الحدث هو الوجود السوري بلبنان. وهكذا تمحْوَرت الحياة السياسية حول هذا الوجود. إذ إنّ هناك فريقًا وفئات اعتبروا أنّ هذا الوجود بدعمٍ أميركي سيبقى إلى الأبد، فقاموا بعقد اتفاقات مع رجالاته في البلد. في حين أنّ فريقًا وفئات اعتبروا أنّ هذا الوجود يجب أن يزول ويجب مواجهته. لكن لا الموالاة ولا المعارضة كانا مهمَّين. المهمّ كان هو الوجود السوري.

بعد عام ٢٠٠٥ وإثر اغتيال الرئيس الحريري تشكّلت الحياة الوطنية حول الحزب. الحزب كان المهمّ. لا الذي والى «الحزب» ولا الذي عارضه كان عندهم الثقل السياسي على أهمّيتهم. هذا الوضع خلّف كوارث سياسية، ذلك أنّ الاتّحاد الأوروبي صار يقول إنّ في الحزب جناحَين، واحد سياسي وآخر عسكري، ويوجد فرقٌ بينهما. كأنّ الحزب عنده قاصٍ ودانٍ: أي هناك فرْق بين رئيس «كتلة الوفاء» محمد رعد، وبين رئيس «الأركان» الراحل فؤاد شكر. تناسى الجميع أنّ هذا الحزب يُنجز كلّ أعماله بالبدلة المُرقّطة.

ستبرز هواجس الطوائف بعد نهاية الحرب الدائرة حاليًّا. عند المسيحيين توجد هواجس ويتكلّمون عنها اليوم سرًّا، وغدًا ستكون بالعَلن. عند الشيعة توجد هواجس أيضًا ولن يتردّدوا في طرحها على طاولة البحث السياسي بعد الحرب. وعند السنّة هواجس ستُحكى. لكنّ القلق من أن يَطرح أحدهم إعادة النظر في النظام اللبناني فلا مَن يستجيب.

الشيخ حسن حمادة

الشيعة خسروا الكثير من «الرموز والشخصيات الكبيرة» وخسروا «المركز الأول»

مستقبل الطائفة يعتمد على النخبة من أبنائها ولم يكن هناك مشاكل بينها وبين الآخرين ولن يكون

في حارة حريك ونشأ وتعلّم في مدارسها ثم انتقل إلى الدراسة «الحوزوية»، في حوزة الإمام السجاد في بيروت. أسَّس لاحقًا هيئة أبي ذر الغفاري التي تُعنى بمساعدة الناس في مجالات عدّة، وله العديد من الكتابات والمقالات ومُقرئ عزاء وناشط في شؤون الطائفة الشيعية. أجبرته الحرب عام ٢٠٠٦ وعام ٢٠٢٤ على ترك منزله في الضاحية، ليعيش النزوح قبل أن يعود إلى بيته بعد انتهاء الحرب.

مَن هو حسن حمادة؟ ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؛ كيف تستذكر تلك المرحلة؟



وُلدت عام ١٩٨٨ في بلدة حارة حريك، في الضاحية الجنوبية، ونشأت فيها وتنقّلت بين مدارسها في المرحلتين الابتدائية والمتوسطة. كنت هاوٍ للمطالعة والكتابة، وبالأخصّ كتابة الشعر والنثر، وكنت أبحث دائمًا في الأمور الخلافية والتي تحتاج إلى استفسارات عديدة وأجوبة لها. انتسبت في ما بعد إلى حوزة الإمام السجاد ودرست فيها المقدّمات والسطوح على أستاذنا الشيخ محمد علي الحاج العاملي، ودرست لاحقًا العروة الوثقى وفن الخطابة والكافي على يد العلامة الشيخ جلال معاش، وحضرت في بحث الخارج عند أستاذنا الشيخ الدكتور إبراهيم العاملي. لاحقًا أسَّست هيئة أبا ذر الغفاري؛ وهي هيئة تُعنى بمساعدة الناس اجتماعيًّا وثقافيًّا وتَوعويًّا وصحيًّا، ولها العديد من الأنشطة والمشاريع التي لا تزال قائمة حتى اليوم. وأنا خطيب حسيني وكاتب للعديد من المقالات المنشورة والمخطوطات التي ستصدر على هيئة كتب إن شاء الله.

ثمة أمور لا تغادر الذاكرة بسهولة؛ كيف أثّرت الحروب في لبنان، بدءًا بالحرب الأهلية وصولًا إلى حرب العام ٢٠٢٤، عليك وعلى مكان سكنك؟

لم أعِش الحرب الأهلية ولكنني عشت تبِعاتها وآثارها ومآسيها، حالي حال كل اللبنانيين الذين وُلدوا بعد الحرب ونتمنى بصدق ألّا تعود. في العام ١٩٩٣ كنت صغيرًا جدًّا، لكن في حرب العام ١٩٩٦ كنت بعمر الثماني سنوات. أذكر أنها كانت حربًا قاسية جدًّا. بقينا في منزلنا في حيّ السلم، وأذكر كيف كنا نقف عند باب المنزل، أنا وأمي وإخوتي، إذ كان شائعًا بين الناس أن الوقوف عند الباب والأعمدة والعتَبة قد يحمينا قليلًا. وكنت أنا الكبير بين إخوتي، فلم يزل مشهد وقوفنا عند الباب عالقًا في ذاكرتي.

في حرب العام ٢٠٠٦ بقينا صامدين في الأيام الأولى للحرب في بيتنا، لكن عندما هدّد العدو الصهيوني منطقة حيّ السلم في الأيام الأخيرة للحرب نزحنا إلى منطقة بعبدا بدايةً. في بعبدا استهدفت غارة الجسر القريب من مبنى بلدية بعبدا، وصادف مرور رجل كبير في السنّ لم أزل أذكر اسمه إلى اليوم؛ طوني الحلو. حين رآنا أنا وأمي وإخوتي الصغار وعرف أننا نازحون من الضاحية أخذنا بسيارة إلى منطقة وادي شحرور وأمّن لنا مسكنًا هناك عند شخص اسمه جورج أبو مراد وأذكر شخصين آخرين أيضًا؛ جان يزبك وطوني فغالي، وقد ساعدنا في تأمين المسكن والطعام وحتى دواء أمي.

أما في حرب العام ٢٠٢٤ فنزحنا من الضاحية إلى منطقة بعلبك. سكنّا بداية في مكان دون فُرشٍ حتى. مكثنا هناك فترة وحين تبيَّن لنا عدم الاهتمام من الأحزاب والدولة والفعاليات، استعنت بمعارفي وسعَينا لنؤمِّن للناس بعض الأمور كي لا «تتبهدَل»، مثل: فُرش، حرامات، أدوات تنظيف، حصص غذائية وأدوية وما إلى ذلك. بالإضافة إلى واجباتنا الدينية والإنسانية والاجتماعية تجاه الناس.

بقينا هكذا إلى أن انتهت الحرب وعُدت غلى منزلي في الضاحية. كان هناك بعض الأضرار، تكسّر زجاج بعض ابيك نتيجة قصف مبنى مقابل لمنزلي.

من وجهة نظرك؛ ماذا خسرت الطائفة الشيعية في حرب العام ٢٠٢٤؟ وإذا كان ثمّة أسباب، فما هي؟

أرى أن الخسائر كانت كبيرة جدًّا، عدا عن الدمار الكبير الذي تركته الحرب، ثمّة رموز وشخصيات كبيرة خسرناها في الطائفة حتى لو كان البعض يختلف معهم في السياسة والفكر والإيديولوجيا التي يحملونها، لكن لا يمكن التقليل من قيمة خسارتهم. كما أن الطائفة قبل الحرب كانت تحتل المركز الأول في لبنان، وكان يفترض بنا أن نستفيد من هذا المركز كي ننعش الطائفة والبلد ونخلق نوعًا من الالتقاء الفكري والوطني مع بقية أطياف المجتمع اللبناني. أظنُّ أننا خسرنا هذا الموقع اليوم. لكن في الوقت نفسه ثمّة مكاسب؛ اليوم والحمد لله رب العالمين، استطاعت هذه الحرب أن تجمع اللبنانيين وأن تُظهر لكل طرف أن شريكه الآخر هو شريكه وحبيبه وأخٍ له وليس عدوًّا، حتى لو اختلفت معه في السياسة. وهذا الشيء ترجمه إخواننا المسيحيون والسنَّة والدروز وكل شريك لنا في الوطن؛ ترجموه عمليًّا بتعاليهم على الكثير من الخلافات والمشاكل والتقّوا حول الهوية الوطنية التي هي جامعة للكل. بالتالي، تبدَّد الخوف الذي كان موجودًا، ربما عند بعض الشيعة نتيجة التخويف من الآخر، وأيضًا تبدَّد الخوف الذي كان موجودًا عند الشريك الدرزي أو المسيحي أو السنّي. أتمنى أن يؤدّي هذا إلى جعل الروابط الوطنية بين أبناء الوطن الواحد أكثر قوة ومتانة وقد يُثمر في نزع فتيل أي فتنة أو حرب أو مشكلة في الداخل، وقد يكون هو سبيل وحدة لبنان والأمن والأمان والاستقرار والازدهار.

كيف ترى مستقبل الطائفة الشيعية وكيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

أتمنى أن يكون مستقبلها أفضل مما مضى، لكن هذا يعتمد على حكمة السياسيين والأحزاب التي تمثّل الطائفة. وهنا تقع المسؤولية أيضًا على كاهل الحكماء والمفكرين من أبناء الطائفة في أن ينغمسوا في العمل السياسي والاجتماعي، كما عليهم أن يحاولوا إيصال الصوت الشيعي كي نكون كالبستان المتنوِّع؛ نحن لا نريد أن نرى الثنائي الشيعي فقط، بل نريد أيضًا أن نرى كل أصحاب الفكر والوعي والثقافة عند أبناء الطائفة الشيعية، وأعتقد أن هذه هي فرصتهم، ويجب أن يبادروا ويطرحوا مشاريعهم التي تخدم البلد، كي نضع أيدينا بأيدي بعض على مستوى الطائفة الشيعية وعلى مستوى البلد أيضًا كي ننهض بلبنان. وإذا عملنا بهذا النهج فقطعًا سيكون للطائفة الشيعية مستقبل مشرق في لبنان الحاضن لكل أبناء شعبه.

أما ما يتعلق بترتيب البيت الداخلي للشيعة، فأعتقد أن هذا يحتاج إلى إعادة هيكلة من جديد، لأن كل ما بُني في الترتيب الداخلي للطائفة الشيعية كان بشكل إقصائي نوعًا ما. الطائفة الشيعية ولفترة طويلة أقصت الكثير من المفكرين والعلماء والمثقفين والنُخب من الطائفة وهذا واضحٌ ومعروف، لذلك لا بدّ من إعادة الهيكلة لبناء وترتيب البيت الداخلي للطائفة.

ماذا عن علاقة الطائفة الشيعية بغيرها من الطوائف اللبنانية؟

العلاقة بين الطائفة الشيعية والطوائف الأخرى نابعة، قطعًا، من إيمان وعقيدة عند الشيعة هي أن لبنان لا يمكن أن يقوم إلّا بالعيش المشترك بين جميع طوائفه، وأن جميع الطوائف هي أركان وأسس بُني عليها البلد. الطوائف نعمة، إنما المشكلة في الطائفية والتعصّب الطائفي. يكفي أن نعود إلى وصايا الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين لنعرف كم شدَّد فيها على اندماج الطائفة الشيعية مع مكوّنات البلد وطوائفه الأخرى. وهذا ما كان عليه أغلب علمائنا ومفكرينا. أنا أرى أنه ليس هناك مشكلة بين الشيعة والطوائف الأخرى، ولن تكون أبدًا، وهذا الشيء أثبتَته حرب العام ٢٠٢٤؛ حيث كانت الطوائف كلها حضنًا وملاذًا لإخوانهم الشيعة، حتى أنهم رفضوا تسميتهم بالنازحين. أنا أذكر في جولاتنا كنت أسأل كيف تتم معاملة النازحين؟ فيقال لي: شيخنا لا تسمِّهم نازحين، هؤلاء أهلنا وأبناؤنا. حتى إن بعضهم كان يقول لأولادِهِ لا تتحدّثوا في السياسة أمام ضيوفنا حتى

لا نجرحهم. لبنان بلد رائع بأبنائه وشعبه وخيْراته وبكل شيء. الهدف الأساسي اليوم لكل أبناء البلد وكل الطوائف هو أنه لا بدّ لنا أن ننزِّه الدين عن السياسة؛ أن لا نسيِّس ديننا وأن لا نحزِّبه. هذا هو المطلوب لكي ننهض بلبنان ونضمن له قيامته وتقدُّمه وازدهاره.

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، في رؤيتها المستقبلية، لها وللآخر؟

الطائفة الشيعية لا تحتاج إلى مَن يعرِّف عنها. علماؤها عرّفوا عنها وكانوا السبّاقين في الدعوة إلى العيش المشترك وإلى الدفاع عن لبنان كوطن واحد لجميع أبنائه وفي الدعوة إلى الحفاظ على السلم الأهلي وعلى كينونة لبنان، وحاربوا وجاهدوا في سبيل استقلال لبنان واستقراره. وهذا الشيء ليس جديدًا؛ بدءًا بالسيد محسن الأمين مرورًا بالسيد عبد الحسين شرف الدين وصولًا إلى السيد موسى الصدر والشيخ محمد مهدي شمس الدين، السيد محمد حسين فضل الله، السيد محمد



أثار الدمار في منطقة حارة حريك، صوت بيروت انترناشونال

حسن الأمين، السيد هاني فحص، السيد علي الأمين والشيخ محمد علي الحاج العاملي، فضلًا عن العديد من المفكرين والمثقفين الذين كانوا جهابذة الفكر والعلم والوعي والذين صرَفوا حياتهم في سبيل بناء الوطن وبناء لبنان. نأمل أن نكون سائرين على الخط الذي يوصلنا إلى برِّ الأمان إن شاء الله.

الشيخ عباس الجوهري

على الطائفة الشيعية أن ترفض التدخّل في شؤون الدول الأخرى وتعود إلى الدولة

«كان لا بدّ لحزب الله أن يدخل اختبار حرب ٢٠٢٤ لنصل إلى نتيجة فشل خطابه الثوري»

هو الشيخ عباس الجوهري، ابن بعلبك الذي واكب «حزب الله» في بداياته، قبل أن يُعيد قراءة حساباته، ويُغادره على أمل تحقيق مستقبل أفضل للطائفة الشيعية. درَس في الحوزة الدينية في بعلبك، ثم انتقل إلى قُم الإيرانية، فقَد شقيق له في المعارك ضد الاحتلال الإسرائيلي، ثم أيّد ثورة الجياع، التي قام بها الشيخ صبحي الطفيلي. للجوهري ذكريات مع الحروب الأهلية والحروب الإسرائيلية على لبنان، التي كوّنت لديه رؤية مختلفة عن واقع الشيعة ومستقبلهم، يتحدّث عنها في هذا الحوار:

بداية من هو الشيخ عباس الجوهري؟



أنا من بعلبك، وُلدتُ في أسرة محافظة ومتديِّنة، والدي كان جنديًّا في الجيش اللبناني، لكن هوّيته الشيعية الخاصة كانت حيّة فيه. هناك حدث كبير أثَّر فيّ وحفر في داخلي يتعلَّق بانتصار الثورة الإسلامية في إيران سنة ١٩٧٩ والذي أثّر على كل عائلتي ومنزلنا الذي كان متابعًا لأخبار وإرهاصات الثورة الخمينية. وتلا هذه الثورة بسنوات قليلة وتحديدًا في العام ١٩٨٢ الاجتياح الإسرائيلي للبنان، فهذان الحدَثان وما رافقهما من تطورات أخرى، تحوّلا إلى جزء من تكويني الفكري، الذي رافقَني في المراحل اللاحقة، التي كانت إلى حد ما نتيجة لهما، والذي ساعد عليها مغادرة والدي لصفوف الجيش، وبات يعيش الانتماء الديني انطلاقًا من فكرة الانتظار عند الشيعة، والتي كانت بطبيعة الحال من إفرازات الثورة الإسلامية في إيران، والقائمة على التمدُّد وتصدير الثورة، وبدأ يتشكّل في لبنان نهج جديد ومختلف وأعني حركة أمل وحزب الله، وكان والدي قد ترك الجيش وانخرط في هذا المضمار، وصودف أن بداية تشكّل الحركة الحزبية الشيعية الجديدة والمقصود حزب الله، كانت في بعلبك، وكان المؤسّسون للفكرة يعيشون فيها، وكانوا يتردَّدون إلى منزلنا، من المرحوم السيد عباس الموسوي إلى الشيخ صبحي الطفيلي وحتى السيد حسن نصرالله، علمًا أنه يُعدُّ من الجيل الثالث بالنسبة إليهم، لأنهم كانوا متقدِّمين عليه. في سنة ١٩٨٧ كنتُ في المرحلة الثانوية، وبدأت بتلقّي الدروس الدينية في حوزة بعلبك، ثم غادرت إلى قُم في إيران سنة ١٩٩٤ لمتابعة الدراسات الدينية العليا، وكان كل بنائي الفكري قائم على فكرة ولاية الفقيه وتصدير الثورة، إلى أن عُدت سنة ١٩٩٦ إلى لبنان أي قبل عام واحد من «ثورة الجياع» التي قام بها الشيخ صبحي الطفيلي في العام ١٩٩٧، وهي حركة اجتماعية مطلبية احتجاجًا على الإنماء غير المتوازن، وكان عمري يناهز وقتها العشرينات، وفي ذلك العام استشهد شقيقي الأصغر في وادي الحجير، بمعركة ضد قوات الاحتلال الإسرائيلية. وفي ذكرى أربعين أخي، أعلنت تأييدي للحركة المطلبية التي قام بها الشيخ صبحي الطفيلي، ما دفع حزب الله، وتحديدًا السيد حسن نصرالله، إلى طردي من الحزب، وكنت منخرطًا فيه، وهذه كانت أول صدمة خلافية مع الفكرة التي كنت أنتمي إليها وأُدافع عنها، وذهبت باتجاه أنه كلما تقدّم الوقت كلما افترقت أكثر عن تلك الفكرة. من هنا بدأ الخلاف السياسي والفكري والاجتماعي مع الحزب، وتعرَّضت بناء على ذلك لضغوطات كثيرة لا أزال أعيش تداعياتها إلى اليوم.

ماذا عن تأثير الحروب عليك وعلى مكان إقامتك؟ من الحرب الأهلية إلى الحروب الإسرائيلية المتعدِّدة التي شُنّت على لبنان؟

بالنسبة إلى الحرب الأهلية فأنا لم أعِشها بتفاصيلها، إذ كنتُ صغيرًا في ذلك الوقت وذاكرتي مشوّشة

حولها، لكن سنة ١٩٨٢ أذكر الاجتياح الإسرائيلي جيدًا وما رافقه من معارك مع المقاومة، حتى تلك التي وقعت بين الجيشين الإسرائيلي والسوري في البقاع. ولا بدَّ لي من القول هنا، إننا في تلك الفترة لم يكن لدينا الشعور الذي ساد في السنوات الأخيرة، خصوصًا في حرب الـ٢٠٢٤، وأعني الشعور بالاستهداف، كطائفة شيعية، ففي تلك الفترة كان الشعور بأن المستهدَف هم الفلسطينيون، فمنَحنا ذلك بعض الطمأنينة، فكنّا نراقب طائرات إسرائيل المُغيرة، وفي الوقت نفسه، ندرك أنها ليست قادمة لقصفنا. وسنة ١٩٩٣ كنت في كامل وعي وانخراطي في صفوف حزب الله، لكنني لم أكن من المشاركين في المعارك العسكرية، فعملي لم يكن عسكريًّا، والأمر نفسه سنة ١٩٩٦ خلال حرب «عناقيد الغضب»، لكنني على الرغم من كل ذلك كان لديَّ اندفاع كبير في تلك الفترة. ولا بدّ من العودة إلى الإشارة إلى الحروب الأهلية، تحديداً تلك التي جرت بين حركة أمل وحزب الله، فتلك أذكرها وكانت في بدايات انخراطي في الهيئة التنظيمية لحزب الله.

في العام ٢٠٢٤ كان الوضع مختلفًا، إذ اضطُررنا إلى النزوح في اليوم الثالث لبداية المعارك، خصوصًا في ظلِّ اشتداد الغارات الجوية التي تجاوزت حدود الـ١٦٠٠ غارة في يوم واحد، إلى منزل شقيقتي في مدينة بعلبك، والواقع على تلّة عالية، وشاهدت أنا وعائلتي وأطفالي الغارات مباشرة، وعندما زادت الهجمات قرّرت الانتقال مجدّدًا، وهذه المرّة إلى زحلة، فهناك أقَمنا في منشأة تابعة لأحد الأديرة تُشبه الفندق، وذهبت إلى هناك بناءً على اتصال من أحد رجال الدين المسيحيين وهو الأب إيلي صادر، الذي تعود معرفتي به إلى سنة ٢٠٠٢ عندما خضت تجربة إمام مسجد تعلبايا، حيث نشأت لديّ علاقات مع رجال الدين المسيحيين والسنّة، وكان بينهم صادر الذي كان هو مَن بادر للاتصال بي كي أنتقل إلى زحلة، وكانت إقامتنا هناك جيّدة لأن الاستضافة كان فيها الكثير من الاحتضان والمروءة.

بناء على حرب الـ٢٠٢٤، ما هي المكاسب التي حققتها الطائفة الشيعية؟ وماذا عن الخسائر؟

أعتقد أن أفضل ما حقّقته هذه الحرب أنها اختبرت الخطاب الثوري الذي تمّ رهن الطائفة الشيعية له ومن خلفها كل لبنان. هذا الخطاب الذي قال إن بإمكانه تحرير الكوكب، كان لا بدّ من اختباره عمليًّا، ومعرفة إذا كان يحمي ويحرّر فعلًا، ويحقق نتائج على هذا الصعيد، وإلا كنّا سنظلُّ لمدة خمسين سنة إضافية نفكّر بنفس المنطق الذي يفكّر فيه حزب الله، ونرهن دولتنا لهذا الخطاب، وعليه كان لا بد لحزب الله أن يدخل المعترك الذي دخله، حتى لو كان قاسيًا، لنخرج إلى أهم نتيجة يمكن الوصول إليها، وهي اكتشاف أن هذا الخطاب العاطفي، لا يحقِّق نصرًا كاسحًا ولا يحقق حماية، فالطائرة لا يسقطها خطاب ثوري ولا "«العنتريات" » والعنفوان، بل مَن يتحكّم بأرض الواقع هو موازين القوى، وبالتالي دخلت الراية الثورية الإسلامية المختبر الذي خرج منه العرب في العام ١٩٦٧، و١٩٧٣ وذهبوا إلى كامب ديفيد، ومن ثم مبادرة السلام العربية التي طُرحت في مؤتمر القمة العربية المنعقد في بيروت. وأشير هنا إلى أن الصراع العربي الإسرائيلي توزّع على فترتين زمنيتين، كان في إحداها مع القومية العربية والدولة الوطنية العربية، وحركات التحرّر كانت بشكل ما عروبية، وخاضت هذه المكوّنات الحروب منذ ١٩٤٨ وحتى آخر حروبها سنة ١٩٨٢ مع خروج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، وقد اكتشف هؤلاء جميعهم أنه لا يمكن تحقيق الطموحات بالكفاح المسلح، فذهبوا إلى أوسلو وعملية السلام ودخلوا إلى رام الله، أقصد الفلسطينيين بقيادة ياسر عرفات. ومع انكفاء هذه الفكرة القومية في ١٩٨٢ وخروجها من الصراع وقيام ثورة الخميني في إيران، تأثّرت فيها حركات التحرّر خصوصًا الإسلامية والتي نشأت من دون مراجعة للتجربة السابقة، فهؤلاء «الثوريون» الجُدد اعتبروا أن العطب بالقيادة والرؤية، وأن الرؤية الإسلامية، والخطاب الثوري الإسلامي، يمكنه أن يقوم بعملية التحرير وتأمين الحماية، فالإسلاميون اعتبروا أن فشل مَن سبقهم ليس سببه اختلال موازين القوى لمصلحة إسرائيل التي تحظى برعاية أعظم قوة في العالم وهي الولايات المتحدة والغرب، وتوهّموا بأن العطب بأخطاء أبو عمار وقيادة الثورة الفلسطينية التي دخلت في حروب أهلية، وفي الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر، وأن هذه القيادات لم تكن جديرة، وبالتالي الإسلاميين هم الأجدَر. وعلى هذا الأساس كانت حرب ٢٠٢٤ هي الاختبار للوصول إلى النتائج نفسها التي كان قد وصل إليها العرب سابقًا عندما ذهبوا إلى كامب

دايفيد وأوسلو، ومن ثم مبادرة السلام العربية.

على الرغم من أن الضريبة كانت كبيرة خلال الحرب الأخيرة على لبنان، لكنني أعتقد أن ما جرى أفضل من استمرار الوضع على ما كان عليه قبل الحرب، وأفضل من الاستمرار لمدة ٥٠ سنة أخرى بنفس خطاب حزب الله، والذي يتمّ من خلاله تأخير قيام دولة حقيقية في لبنان بحجة أنه لا صوت يعلو صوت المعركة. اليوم تمَّ اختبار هذا الخطاب، وما حدث كان لافتًا لجهة تغيُّر واختلاف الأدبيات السياسية لحزب الله والتي بدأت تأخذ منحًى آخر، لذلك على الأفرقاء في لبنان أن يتلقّفوا هذا الأمر. وفي هذا السياق، أقول إنني ضد التعامل مع الطائفة الشيعية والحزب بأنهما كُسِرا، بل يجب مساعدة الحزب على التحوّل، قد لا يكون هذا التحوّل مكسبًا، لكن يمكن اعتباره فرصة للخروج من هذا الاختبار بنتائج تُعيد رسم الأولويات، وأهمها بناء الدولة والمجتمع والإنسان، التي لم يكن لها وجود في ظلِّ الخطاب حول معركة التحرير التي خاطب بها نصرالله اللبنانيين.

وبالعودة إلى الخسائر، فهي كبيرة جدًّا، فعلى المستوى البشري، خسرت الراية الثورية كل قياداتها الفاعلة، وعلى الرغم من سدِّ الفراغ القيادي بشخصيات جديدة، إلّا أنها شخصيات ليست فاعلة، ومنهم الشيخ نعيم قاسم نفسه، فكلّها كانت هامشية في الحزب وليست من أصحاب القرار، وأذكر هنا أنه حتى نواب ووزراء الحزب كانوا بلا قرار ولم يكن يُسمح لهم التصريح إلا بإذن أو أمر. وبهذه الخسارة دخل حزب الله «الكوما»، لأن الحزب كان يُختزل بثلاثة قياديين: حسن نصرالله وهاشم صفي الدين والشيخ نبيل قاووق، على المستوى السياسي، أما عسكريًّا فكان يُختزل بفؤاد شكر وعلي كركي وعبدالقادر الطويل، وبرحيل كل هذه القيادات صار شكل الحزب مختلفًا، وبالتالي فإن القيادات الجديدة، ستدخل بدورها إلى اختبار آخر، لمعرفة قدرتها على القيادة ومدى تقبُّلها للرأي الآخر داخل الطائفة الشيعية.

انطلاقًا من التغيّرات التي حدثت، كيف ستُعيد الطائفة الشيعية ترتيب أوراق بيتها الداخلي؟

كما قلت فإن حرب الـ٢٠٢٤ كانت المختبر بالنسبة إلى حزب الله وخطابه الناري، واستنادًا إلى هذا المُعطى كان لي مقاربة مختلفة عن كل المعارضين للـ«ثنائي الشيعي»، ولم تكن وليدة الشهرين الأخيرين من المعركة، بل منذ بداية ما سُمي بـ«معركة إسناد غزة»، إذ أطلقتُ موقفًا لأثبت للتاريخ إنني مع دخول الحزب لهذه المعركة أو المعترك، وذلك من باب أن ما يجري هو اختبار نهائي لخطاب حزب الله، فنصرالله دخل إلى سوريا لمساندة النظام ضد شعبه، قائلًا إن طريق القدس تمرُّ من سوريا، وعلى الرغم من معارضتنا مع الكثير من الشيعة لذلك الدخول، إلّا أنه أصرّ على الذهاب إلى هناك بحجة تحرير فلسطين، وكرَّس في ذاكرة الشعب السوري أن الشيعة وقفوا إلى جانب نظام بشار الأسد في حربه ضده. كل ذلك جعل نصرالله وحزبه في موقف المُحرَج، مع بداية حرب غزة، إذ كان عليه أن يُثبت كل ادّعاءاته بالوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني بالفعل وليس بالقول، فكان لزامًا عليه أن يُساند غزة عمليًّا وإلّا سيُتهم بالكذب والجُبن، وفعلًا بدأ ذلك خلال أول ٢٠ يومًا من الحرب ولم يكن لديه قرار بدخول الحرب، فما جرى أن الحزب بدأ مساندته بعمليات ضد المواقع الإسرائيلية في ٨ تشرين الأول ٢٠٢٣، ظنًّا منه أنه يحافظ على قواعد الاشتباك السائدة، وطوال هذه المدة تعرّض للكثير من الانتقادات وبدأ الناس يعيبون عليه بسؤاله عن فلسطين والكلام عن مساندتها، وهنا فإن السيد نصرالله صدق مع نفسه وذهب باتجاه الحرب. نحن كنّا نتمنى أن يحدث فرقًا ما، فلسنا معارضين ككارهين، لكننا تأكّدنا أن ما جرى أكد ما ذهبنا إليه، وهو أن هذا الخطاب الثوري لا يبني دولًا ولا يحرّر مجتمعات، وبالتالي لا يمكننا أن نُكمل به. لذلك نحن كنّا مع اختبار هذا الخطاب، من أجل أن يقدّم لنا الحزب صورة مختلفة خصوصًا بعد إيغاله بالفتنة الشيعية السنّية منذ اغتيال الحريري إلى دخوله سوريا، لذلك كان يجب اختبار هذا الخطاب أولًا، وثانيًا لدمل ما يمكن دمله من نتوءات بين السنّة والشيعة في هذا العالم الإسلامي.

قلت كل ما سبق لأخلص إلى ترتيب البيت الداخلي للطائفة والذي يجب أن يستند إلى واقع الاختبار الذي حصل والذي يجب أن يرسّخ قناعة لدى الحزب بضرورة وأهمية العودة إلى الدولة والطائف والعقد الاجتماعي والشراكة الوطنية الحقيقية من دون سلاح، فهذه التوجهات من شأنها أن تعزِّز اللحمة بينه وبين الطوائف الأخرى في البلد وخصوصًا الطائفة السنّية؛

فاليوم لا يجب على الشيعة أن يقبلوا بالعودة إلى سوريا تحت أي ذريعة، لأن ذلك يهدّد هذه اللحمة، وأخصّ السنّة بالذكر لأنه في آخر ٢٠ سنة لم تكن الفتنة مع المسيحيين، فجزء كبير من هؤلاء كانوا مع الشيعة، بل كانت مع السنّة. وبما أنه لم يكن هناك حروب مع المسيحيين، فإنه يمكن الخروج من تجربة الحرب الأخيرة بالعمل على إعادة اللحمة بين مكوّنات الوطن كلها، من خلال التركيز على بناء دولة فيها شراكة حقيقية وإعادة بناء ما هدّمناه بأفكارنا وتوجهاتنا. وبالنسبة للآخرين، الشركاء في الوطن، فإنني أقول لا يمكن بناء الدولة بالاستقواء بالخارج، فنحن في بلد عبارة عن جماعات، والطائف كرّس الهوية الجماعاتية للبنان، وكلنّا لدينا قلق على الهوية، لذلك فإن الحل لا يكون بالصدام والتنافر بل بالتلاقي تحت سقف الدولة، وعندما نقول الدولة فهي القائمة على المؤسّسات الفاعلة، ذلك أنه في لبنان لا يمكن لجماعة واحدة أن تحكم، بل عليها العمل في الإطار العام من أجل الوصول إلى خلاصات بنّاءة وليست هدّامة، هذا طبعًا إذا كنّا نريد وطنًا بالمعنى الحقيقي وليس عبارة عن مجموعة كانتونات متباعدة ومتناحرة. وبناءً عليه فإنني أرى أن إعادة ترتيب البيت الداخلي للطائفة الشيعية يجب أن يكون أساسها العودة إلى الدولة، انطلاقًا من الواقع السائد. فنحن اليوم لا يمكننا إلغاء الطائفية السياسية بسهولة، لذلك علينا التعامل مع الموجود لكن بتذليل كل العقبات من أجل تعزيز اللحمة بين مكوّنات المجتمع اللبناني، ومن خلالها بناء دولة حقيقية.

على هذا الأساس، هل هناك حاجة لإعادة بلوَرة الرؤية المستقبلية للطائفة الشيعية؟

لا شكّ أن الأزمة كانت لدينا نحن الشيعة، فلبنان كان مأزومًا بسببنا وبسبب سياسات حزب الله الاستقوائية والقهرية والقمعية، والتي أضرّت بالطائفة الشيعية وبلبنان ككل، لذلك نحن بحاجة، كما كل الطوائف الأخرى التي لديها مجالسها وهيئاتها، إلى طاولة شيعية جامعة تضمّ كل الكفاءات من رجال دين وعلمانيين ويساريين ومثقفين، لنتحدث مع بعضنا، وألّا تكون القاعدة عند الجميع الخصومة الدائمة؛ هذا يجب بناءه داخل الطائفة ومن بعده نطلُّ على المجتمع اللبناني



اضرار جراء القصف على بعلبك، الجزيرة

بوجه يقبل الشراكة مع الآخر، من دون غلَبة لأي طرف، لا نحن الغالبون ولا هم. وبالتالي، أنا شخصيًّا مع تفعيل أي مؤسّسة شيعية قادرة على تنشيط الكفاءات الشيعية المتنوّعة الانتماءات، قد نختلف في ما بيننا على بعض الأمور والقضايا، لكننا نركّز على المشتركات الوطنية لبلوَرة رؤية حول كيفية بناء الدولة. واليوم هناك فرصة لتحقيق ذلك، خصوصًا بعد تراجع سطوة حزب الله. نحن لا نريد الإمعان في قهره، لكن الحقيقة هي أن كل السدود التي وضعها الحزب أمام خطابنا كمعارضين، من تشويه صورتنا واتهامنا بالعمل لمصلحة السفارات وما إلى ذلك، انهارت، لكننا في الوقت نفسه، بحاجة لإقناع البيئة الشيعية بأننا نعمل ليس بمنطق التآمر عليها، والرغبة بالقضاء عليها. وهنا أقول إنه لبناء الدولة فإن المطلوب هو العمل من منطلق الشراكة الحقيقية مع الآخر، وليس بمنطق الفوقية والعنجهية والغلَبة والنكايات السياسية. لذا على حزب الله أن يُعيد ترميم وضعه السياسي، خصوصًا أن ترميم الجانب العسكري لديه انتهى إلى غير رجعة، لا هو يريد ذلك ولا المجتمع اللبناني ولا الدولي يسمح به. وعليه، إن الواجب يفرض على الحزب إعادة النظر في سياساته المعتمَدة ورسم صورة مختلفة لعلاقاته الخارجية والدولية، صحيح نحن نتفق معه على أن إسرائيل هي عدو، لكننا لا نتشارك معه العداء للولايات المتحدة الأميركية، فالغرب واقعًا، لم يقصّر معنا في بداية الحرب، بل على العكس هو وجّه الكثير من الرسائل للحزب بضرورة فصل مسار لبنان عن غزة، وقدّم له مُغريات كثيرة على صعيد النفط والغاز وأمور أخرى، لكن الحزب لم يتلقّفها، وبرأيي أن كل ذلك هو ما أدّى إلى الضربة القاسية التي

تلقّاها الحزب، عندما ظنّ أن العروض الأميركية والغربية كانت تدلُّ على انهيار إسرائيل، وهذا كان خطأً كبيرًا في التقدير من قِبله. نحن لا نريد تجميع العداوات نريد علاقات جيدة مع العرب من دون أن نكون عملاء لهم، وكذلك مع الولايات المتحدة الأميركية، لا نريد أن نعمل وفقًا لأي أجندة خارجية، ونرغب بسلام مُستدام في الجنوب، ونأمل أن تكون حرب الـ٢٠٢٤ هي الأخيرة، وذلك من منطلق بأن قضية فلسطين هي قضية العرب ككل، وليس مشكلة الطائفة الشيعية في لبنان وحدها.

اليوم على الطائفة الشيعية أن ترفض التدخلات الخارجية من قِبل الحزب، فنحن لا نريد تعميق الجراح مع إخواننا السنّة، خصوصًا بعد الاحتضان الكبير من قِبل أبنائها للشيعة خلال الحرب؛ باختصار لا نريد الفتن لا مع الطائفة السنّية ولا الدروز، لا نريد تعكير صفْو اللحمة الإسلامية في لبنان، ولا اللحمة الوطنية التي تجلّت بأبهى صوَرها في الحرب الأخيرة. وأخيرًا، لا بدّ من الإشارة إلى أن مقابل ذلك الاحتضان، فإنه يمكننا القول إن أبناء الطائفة الشيعية أظهروا وعيًا كبيرًا خصوصًا بعد اغتيال نصرالله، فهم لم يقوموا بما يمكنه تعكير صفْو السلم الأهلي، وهذا يجب أن نشهد لهم به.

الشيخ عباس يزبك

حزب الله زجّ لبنان في الحرب خدمةً لمصالح إيران

لبنان يقوم عندما نصبح جميعنا أبناء «طائفة الوطن»

رجل دين وأستاذ مادة الفلسفة والحضارات في المدارس الرسمية، يتحدّر من بلدة نحلة في قضاء بعلبك. حصل على الإجازة في الفلسفة من الجامعة اللبنانية، وأكمل دراسته الدِّينية عند المرجع السيد محمد حسين فضل الله. انتسب باكرًا إلى حزب الله وعمل في مجال التلفزيون، ثم انفصل عن الحزب معترضًا على ممارسات يعتبرها «غريبة» على المبادئ التي انتسب على أساسها للحزب.

مَن هو عباس يزبك؟ بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟



وُلدت في الثاني من أيار عام ١٩٦٧ في بلدة نحلة المحاذية والمتداخلة مع مدينة بعلبك، حيث تنتشر المعالم الأثرية والتاريخية القديمة في هذه الوحدة الجغرافية. كان والدي من المهتمّين بشؤون البلدة؛ وكان عمي، شقيق أبي الأكبر، مختارًا فيها، عنده اهتمامات وصِلات بما يجري من تطوّر سياسي في المدينة بين الاقطاع السياسي والقوى الصاعدة من أبنائها.

كنت الأصغر بين أشقائي، وفقَدت الوالد حين كنت أبلغ من العمر سنتين ونصف السنة، فكانت نشأتي في كنَف الوالدة في نحلة التي تلقّيت الدراسة الابتدائية وقسمًا من المتوسطة ثم أكملت المرحلة الثانوية في بعلبك. منذ صغري كنت أعمل في أيام العطل والصيف في الزراعة. تابعت المرحلة الجامعية وحصلت على الإجازة والدبلوم في الفلسفة من الجامعة اللبنانية وماجستير في الدراسات الإسلامية من كلية الدراسات في جامعة المقاصد، وانخرطت في التعليم الثانوي في وزارة التربية عام ١٩٩٩ ونجحت في مباراة الدخول عام ٢٠٠٥ وعُيِّنت أستاذًا للفلسفة والحضارات في ملاك وزارة التربية. أما من ناحية الدراسة الدِّينية فقد التحقت بها عام ١٩٨٧ وتلقّيت المقدَّمات والسطوح وتابعت درس الخارج لسنتين على المرحوم السيد محمد حسين فضل الله. تعمَّمت في العام ١٩٩٩ وتولَّيت إمامة البلدة وخطبة الجمعة في مسجدها الذي بناه جدّي لأمي، بمساعدة الأهالي في أواخر القرن التاسع عشر.

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة؛ كيف كان تأثير الحرب الأهلية والحروب اللاحقة عليك وعلى مكان سكنك؟

كنت ناقمًا على الظلم الذي يُحيط بنا وببلدنا الحافل بالأحداث من اقتتال وحروب ومآسيَ ووجود جيش النظام السوري الهمَجي. وحين جاء الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢ وشهد البلد انطلاق المقاومة ضد الاحتلال وما رفعته من شعارات مطالبة بالعدالة ورفع الظلم مضيت في هذا السبيل آملًا تحقيق التحرير والتحرُّر وإقامة الحق والعدل في وطننا لبنان. انخرطت في العمل المنظَّم داخل حزب الله في المجال الإعلامي حيث كنت من نواة مؤسّسي قناتَي التلفزة، «الفجر» ثم «المنار»، وتولّيت في فترة التسعينات إدارة الأخبار والبرامج السياسية فيه.

وأمام المفاهيم الغريبة التي باتت تستفحل وتُفرض بشكل متسارع في الحزب كولاية الفقيه والتبَعية العمياء لها، وتحوُّل الحزب إلى ذراع وأمينُه العام إلى وكيل للمهدي المنتظر، بعدما كان تولّي منصب الأمانة العامة يقوم على الانتخاب لمدة سنتين ولدورتَين لا تتجاوز مدتهما الخمس سنوات ولا يحق بعدها التجديد له. إضافة إلى البرنامج الطائفي الذي نحا الحزب نحوه والفساد المالي والإداري بعد دخوله السلطة وغير ذلك من الأمور التي دفعَتنا إلى الاعتراض ومحاولة التصحيح. لكن هذا الأمر بدا مستحيلًا بعد هيمَنة الوليّ الفقيه الإيراني، عبر وكيله، على رأس الحزب وتأثير المال والسلطة والاستخدام المضلِّل للدِّين، إضافة إلى الظروف السياسية والوجود السوري المسانِد لقيادة الحزب، وبعد القمع الذي تعرَّضت له ثورة الجياع عام ١٩٩٨ وسقوط عدد من الشهداء والضحايا. في العام ٢٠٠٠ كانت المواجهة المباشرة مع حزب الله وأتباع النظام السوري في الانتخابات حيث ترأست اللائحة المقابلة وكانت النتائج متقاربة، رغم

تجـاوزات الأمـر الواقـع التـي مارسـها الحـزب وقـوى السـلطة والوصايـة السـورية فـي مـا اعتُبـرت أصعـب مواجهـة انتخابية في البيئـة الشـيعية الخاصـة. منـذ تلـك الفتـرة نسـتمر فـي النضـال السياسـي والاجتماعـي والدِّينـي وعلـى كل المسـتويات الوطنيـة فـي مواجهــة السـلطة التـي يُهيمـن عليهـا الحـزب الإيرانـي وممارسـاته لا سـيما فـي المناطـق الشـيعية حيـث يُحكِـم قبضتـه وسـطوته وممارسـاته البشـعة.

فـي حربَـي ١٩٩٣ و١٩٩٦ كنـت مُنتميًـا إلـى حـزب اللـه وكنـا نعمـل تحـت القصـف. أمـا فـي حـرب العـام ٢٠٠٦ مكثـتُ فـي بلدتـي نحلـة مـع مَـن بقـي مـن أهلهـا نتعـاون علـى إعانـة ناسـها ومَـن لجـأ إليهـا هربًـا مـن الحـروب رغـم أن البلـدة تعرّضـت للعديـد مـن الغـارات.

أمـا فـي خـلال مـا سُـمِّيت بـ«حـرب الإسـناد» الأخيـرة فقـد بقينـا فـي بيتنـا الكائـن علـى طـرف مدينـة بعلبـك لعـدة أيـام حيـث تعـرَّض محيـط المنزل لسـت غارات تكسَّـر بسـببها بعـض الزجاج. وأمـام مخاطـر القصـف ولظـروف أمنيـة وسياسـية وتحـت ضغـوط الأحبـاء والأصدقـاء انتقلـت مـع عائلتـي إلـى بلـدة ديـر الأحمـر، البلـدة الأكثـر أمانًـا والأقـرب إلـى بلدتنـا، حيـث سـكنّا فـي بيـت أحـد الأصدقـاء. وكنـت أزور بعلبـك ونحلـة مـن وقـتٍ إلـى آخـر.

مـن وجهـة نظـرك؛ مـاذا خسـرَت الطائفـة الشـيعية فـي هـذه الحـرب؟ وإذا كان ثمّـة مكاسـب، فمـا هـي؟

هـذه الحـرب التـي كلّفـت لبنـان واللبنانييـن الكثيـر من الخسـائر فـي مسـاكنهم وممتلكاتهم وأموالهم والجراح الجسـدية والنفسـية والأرواح والتـي زجَّ الحـزب لبنـان بهـا، لمقتضيـات مصالـح النظـام الإيرانـي مـا تسـبّب بتدميـر لبنـان ولـم يدفـع عـن غـزة شـيئًا، فضلًا عـن حقيقـة نواياه من هـذه القضيـة. وأدّت هـذه المواجهة إضافـة إلـى انعـكاس خسـائرها علـى بيـوت النـاس والعديـد مـن القـرى والبلـدات والتجمّعـات السـكنية ونـزوح مئـات الآلاف خـارج منازلهـم ومناطقهـم وصـولًا الـى البلـدان الأخـرى، أدّت إلى وضـع لبنـان أكثـر تحـت الهيمنـة الإسـرائيلية، فضلا عـن الخسـائر فـي الاقتصـاد وانعكاسـها علـى انتظـام الحيـاة العامـة فـي الوطن.

مـاذا عـن مسـتقبل الطائفـة الشـيعية وبيتهـا الداخلـي؟ ومـاذا عـن علاقتهـا بالطوائـف الأخـرى؟

هــذا السـلوك المتمـادي لحـزب اللـه فـي افتعـال الأزمـات والحـروب فـي كل الاتجاهـات كلَّـف لبنـان الكثيـر. أمـا عـن



غارات تستهدف مرتفعات نحلة، الوكالة الوطنية للإعلام

الاغـراءات والأوهـام التـي كان يعـوّض بهـا علـى جمهـوره فـي البيئـة الشـيعية اليـوم فأصبحـت محـلَّ شـك فـي ظـلِّ نتائـج الحـرب وتغيُّـر الوضـع فـي سـوريا، عـدا عـن أن مثـل هـذه السياسـات وفشـلها سـيرتدّ سـلبًا علـى الطائفة الشـيعية خصوصًا وعلـى لبنـان بشـكل عـام. ولا بـدّ لتلافـي ذلـك أن تكـون الطائفة الشـيعية كمـا كل الطوائـف لبنانيـة وطنيـة قبـل كل شـيء وأن نعـود جميعًـا إلـى كنَـف الدولـة فنعـزِّز مكانتهـا لتقـوى بنـا، نحميهـا ونحتمـي بهـا.

لبنـان الوطـن يقـوم عندمـا نصبـح جميعًـا أبنـاء طائفـة الوطـن وبعـد ذلـك تكـون العائـلات الروحيـة بطوائفهـا ومذاهبهـا المتعـدِّدة مصـدر غنًـى وتنـوُّع لثقافـة وحضـارة هـذا البلـد باعتبـاره وطنًـا ودولـة كمـا هـي الأوطـان والـدول وباعتبـاره رسـالة تنـوُّع وتـلاقٍ انسـاني بيـن عائلاتـه الروحيـة ومنابـت أبنائـه علـى تعـدُّد مشـاربهم.

إن تطـوّر الحيـاة الوطنيـة التي تسـاوي بيـن المواطنيـن وتآخيهم سـينعكس إيجابًـا علـى نمـوّ الأفـراد وتحرُّرهـم وبالتالـي علـى خطـاب الطوائـف التـي سـتختار أن تقـدِّم أفضـل مـا لديهـا مما يُغنـي العلاقـات الإنسـانية فـي وطننـا بينما يقـوم الواقـع الحالي علـى تقديـم الوجـه الأسـوأ للطائفـة بسـبب التسـييس والإتجـار بهـا وحلولهـا محـلّ الدولـة والوطـن.

فـي ظـلِّ التوّجـه الشـيعي الحاكـم اليـوم جعـل الطائفـة هـي الوطـن ولا يدخـل إليـه إلّا مَـن يرضـى عنـه هـذا الطاقـم الحاكـم والمحكـوم مـن إرادة متأتيـة مـن «وكيـل اللـه» فـي طهـران.

إننـا مدعـوون كمـا كل اللبنانييـن إلـى العـودة إلـى لبناننـا الوطـن والإنسـان وقيَـم الحريـة والتسـامح والتعدّديـة والعدالـة والازدهـار وعروبـة لبنـان الجامعـة وعالميتـه الإنسـانية.

بادية فحص

خسائر الطائفة الشيعية كبيرة وعليها التعلُّم من أخطائها

«في لبنان غالبًا ما تنتهي الطائفة القوية نهاية تراجيدية تُعيدها إلى حجمها الطبيعي»

بادية فحص، كاتبة وناشطة سياسية، ولطالما تعرّضت لحمَلات تحريض ضدها بسبب مواقفها. ابنة الجنوب التي لعبت الأمكنة دورًا كبيرًا في بلوَرة شخصيتها، وإن كانت مواقفها حادة في بعض الأحيان، إلّا أنها تحمل في داخلها هموم الوطن على امتداده. ليست طائفية ولا فئوية، هي نموذج المرأة التي لا ترى في الوطن سوى «أم» يجب أن تحتضن أبناءها من دون أن تميِّز في حبها لهم جميعًا بالقدر نفسه.

بادية الكاتبة أفضت بما يُخالج فكرها، فكان هذا الحوار:

من هي بادية فحص؟



عادة أتجنّب التعريفات الشخصية... لكن أنا من مواليد الكوفة، في حيّ كِندة الذي يبعد فرسخَين عن بيت الإمام علي، انتقلَت أُسرتي لاحقًا إلى النجف، وكان صحن مقام الإمام علي ملعب طفولتي الأولى، هناك تشكّلت بواكير ذاكرتي وأولى خيوط هويتي.

بعد الثورة الإسلامية، انتقلنا إلى طهران، اندمجنا، إخوتي وأنا، في المجتمع الإيراني الثوري وغير الثوري، تعلّمنا في مدارس إيرانية، وأتقنّا اللغة الفارسية الجميلة.

كنا خلال ترحالنا المستمر من قريتنا في منطقة النبطية نحو النجف، نمرّ بمنطقة الستّ زينب في الشام، حيث كان لأهلي أصدقاء يستضيفوننا عدة أيام، ثم يسلّموننا لرحلتنا الطويلة عبر الصحراء الشاسعة. تكرّر هذا المشهد كثيرًا خلال طفولتي حتى صار جزءًا من شخصيتي. وفي صِباي، صارت وجهتنا طهران، وظلّت الشام محطتنا عن طريق الجو إليها.

هذا الترحال المتواصل، كان سببًا في تراكم هوية متراكمة في داخلي، لكنه لم يلغِ هويتي الأصلية، لذلك، حين اكتسبت وعيًا بهذه الهوية، اتخذت من مدينة النبطية موطنًا نهائيًا لي.

عرّجت على هذه المقدمة الطويلة، لأقول إن هويتي فرع صغير من هوية طائفتي الكبيرة، بكل بساطتها وتعقيداتها وترحالها واستقرارها وملاجئها وأوطانها، وأنها مهما تغرّبت وتشتّتت وحتى جمحَت وتعدّدت أماكن إقامتها، ستعود إلى صورتها الأولى.

المكان الذي تُقيمين فيه حاليًا أين صار وهل أثّرت عليه الحرب؟

أسكن في حيّ السراي القديم في النبطية، وبالنسبة لي النبطية ليست مدينة أُقيم فيها فقط، هي وطني. العالم كله يشاهد كيف تدمّرها الطائرات الإسرائيلية حجرًا حجرًا، وكيف تغتال فيها ذاكرتنا وذكرياتنا... بيتي تضرَّر ككل بيت في مدينتي العزيزة... أنا أخجل من الحديث عن خسارتي الشخصية، أمام هول الفاجعة التي ألمّت بالمدينة وأهلها.

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك خلال الحرب الأهلية، ثم في حرب الـ ٢٠٠٦، واليوم في ٢٠٢٤، وما هي التحديات المتعلّقة بالوجود المكاني خلال هذه الحروب؟

مثل كل لبناني ولبنانية، تحكّمت الحرب الأهلية بمسار حياتي كما بمكان سكني، اضطُررنا كعائلة، أن نغيِّر مكان سكننا مرات عديدة، نستقرُّ في المكان إلى أن يصبح غير آمن، فننتقل إلى آخر، وفي كل مرة كان عليّ أن أتعرَّف على أصدقاء جُدد، أن أذهب إلى مدرسة جديدة، أن أرى في الجيرة وفي الشارع وفي الدكان وفي المكتبة وجوهًا لا أعرفها. كان نصيبي من الحرب الأهلية أنني أملك ذاكرة مشتّتة، ودورة حياة غير مكتملة.

لذلك حين صرت أُمًّا، قرّرت ألا أغيِّر مكان سكني أبدًا، لعلّني أمنح أولادي ما حُرمت منه، كنت أريد لهم أن يكبروا في محيط ثابت ومستقرّ، أن يبنوا ذاكرة متناسقة، فسكنّا في النبطية، برغم أنها كانت عُرضة للقصف الإسرائيلي اليومي حتى العام ٢٠٠٠، قاومنا كل إغراءات الأمان وقدّمنا العاطفة على السلامة. كانت التحديات كبيرة وتحتاج إلى شجاعة وصلابة.

حتى في عدوان تموز ٢٠٠٦ صمدنا ١٦ يومًا، ولم نغادر إلّا بعد انهيار مبنى الكابيتول على رؤوس جيراننا. عُدنا بعد الحرب، أصلحنا الأضرار، واستأنفنا حياتنا العادية، نسينا ما رأيناه من أهوال، وقرّرنا أن نبقى متمسّكين بالنبطية مهما قسَت الظروف عليها وعلينا. لم تكن النبطية مجرد حيّز جغرافي بالنسبة إلينا، كانت فردًا من العائلة، فردًا ينزف ويتوجّع أمام أعيُننا، لذلك تضاعف تعلّقنا بها.

في هذه الحرب، كنت من آخر الهاربين أيضًا، خرجت من النبطية، بعدما فرغ الحيّ وفرغت المدينة... كنت أرغب في البقاء، لأنني في أعماقي كنت أرفض تكرار تجربة النزوح، ولو أن هذه الحرب مختلفة كثيرًا عن غيرها... الزمان الواقع بين حرب تموز ٢٠٠٦ حتى أواخر أيلول الماضي، كان فترة أمان، تعلّقت فيها كثيرًا ببيتي وبأشيائي والتصقت بمدينتي أكثر من قبل؛ ربما العمر يفرض هذا الشعور أو حتى السلوك، لذلك أشعر اليوم بالانسلاخ، بغُربة نفسية، والكثير من الكآبة، برغم أني أقيم في منزل دافئ وأليف، وأهلي بخير وحولي أصدقاء أحبهم ويحبونني، لكن الحنين يبقى أبدًا للمنزل الأول.

في حرب الـ ٢٠٢٤... من وجهة نظرك، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية، وهل كان هناك من مكاسب؟

لنحكِ بالخسائر، وليعدّد غيري المكاسب! الخسائر كبيرة وكثيرة ومتشعّبة، أوّلها الخسائر في الأرواح. الطائفة تنزف منذ ٨ أوكتوبر ٢٠٢٤، كل فرد تخسره الطائفة، هو قيمة إنسانية، هو جيل، سلالة ممتدّة في المستقبل، ولها جذور في ماضي هذه الأرض، هو عبارة عن شعب، فيه المتعلّم والمثقف والفنان والأديب والفيلسوف والمبتكر والمكتشف والعبقري وغيره، حين تقتله تقتل معه كل هذه الاحتمالات.



من سوق النبطية المدمر، موقع الكتائب

الخسائر الاقتصادية هي من الفظاعة بحيث لا يمكن وصفها، أعتقد أنها ستتسبّب بموجة هجرة كبيرة داخلية وخارجية، وتغيير ديموغرافي يبدأ بطيئًا ثم يتصاعد. النزيف بدأ، هناك عائلات بكاملها غادرت إلى غير رجعة.

الخسارة الأكبر بالنسبة للأكثرية في الطائفة، هي السيد حسن نصرالله، التي ترتّب عليها خسارة الطائفة لموقعها السياسي في التركيبة اللبنانية، والسلطة التي كان يتمتع بها «حزب الله» في الدولة والطائفة بطبيعة الحال.

هذه الخسارات ممكن أن تحوّلها الطائفة إلى أرباح أو أن تصنع من بقاياها زورق نجاة، وذلك في حال تقبّلتها أولًا، ثم أعادت قراءة أسبابها، ثم قرّرت التعلّم من أخطائها وجعلها نقطة تحول.

ماذا عن مستقبل الطائفة أي كيف سيرتب الشيعة بيتهم الداخلي؟ وما هي الصورة المتوقعة لعلاقتها بالطوائف الأخرى؟

في لبنان غالبًا ما تنتهي «الطائفة القوية» نهاية تراجيدية، تُعيدها إلى حجمها الطبيعي بحسب مقولة «ما في حدا أكبر من بلده»؛ هذا مسار طبيعي لحركة التاريخ في بلدنا، وتجربة الطائفة الشيعية «القوية»، مثل غيرها من الطوائف مرّت بهذا المخاض، ووصلت يومًا ما إلى القمة ثم انحدرت بالاتجاه الآخر. أنا مؤمنة أن الطائفة الشيعية، بعكس الصورة النمَطية التي وضعت نفسها فيها أو التي وضعها الآخرون في إطارها، هي طائفة مرِنة، ومنفتحة، ومحبّة للحياة، وليس صحيحًا أنها متعصّبة ومتشدّدة دينيًّا، هذا قِناع ألبسوها إياه،

نجح في إخفاء وجهها الحقيقي صحيح، لكنه لم يستطِع محوَه، والطائفة جاهزة للاندماج والتعايش واستعادة سيرتها الأولى.

هل هناك حاجة لإعادة النظر من قِبل الطائفة وأبنائها حول الرؤية المستقبلية لها؟

بعد الحرب، أمام الطائفة أيام صعبة جدًّا، عليها دفن قتلاها، وإحصاء خسائرها، ووقف هجرتها والعودة برغم صعوبتها في ظلِّ هذا الدمار العظيم، والبدء بإعادة الإعمار. هذا من الناحية الميدانية، أما من الناحية العملية، سيكون على الطائفة أن تتقبّل «فكرة العودة إلى صفوف الجماهير» بعد عقود من الإحساس العالي بالتفوّق والهيمنة، أن تتواضع قليلًا، وتعترف أن اللبنانيين من الطوائف الأخرى أخوة وشركاء مختلفون جدًّا وكثيرًا عنها، لكن اختلافهم حقّ ولا ضير من الاعتراف به واحترامه، سياسيًّا، التركيبة اللبنانية عادلة مع الطوائف أكثر من المواطنين، الدستور والميثاق واتفاق الطائف، كلها قواعد وُضعت لحماية الطوائف، لا خوف على الصعيد السياسي على حضور الطائفة الشيعية، الخوف بالنسبة لي هو اجتماعي، النسيج الاجتماعي مهدَّد بسبب الخسارات الفادحة البشرية والاقتصادية، واستمرار حرب الإبادة التي تشنّها إسرائيل.

جاد الأخوي

على الطائفة الشيعية، وعلى أبناء هذه الطائفة، أن يُدركوا أن خلاصهم، كما خلاص لبنان كله، لا يكون إلا بالالتزام بالدستور واتفاق الطائف

مَن هو جاد الأخوي؟ بينَ الولادة والطُّفولة والدِّراسة وأماكن النَّشأة؛ ماذا في الذَّاكرة من تلكَ الأيَّام؟

جاد الأخوي رئيس ائتلاف الديمقراطيين اللبنانيين، إعلامي وناشط سياسي.



وُلِدتُ في الجنوب، في مدينة صور. كان جدي من مؤسسي الكلية الجعفرية، ووالده كان طبيبًا، جاء من شيراز في إيران. والدي، شريف الأخوي، كان أستاذًا للأدب العربي في المدارس الحكومية، كما عمل في الإذاعة اللبنانية منذ بداياتها، حين كانت تُعرف بإذاعة الشرق الأدنى.

تزوّج من والدتي، يمن زيتون، من بلدة كفر تبنيت، وهي ابنة عائلة من الملاكين، وكانت شريكة حياته ورفيقة دربه في الإذاعة والحياة.

بدأتُ دراستي الابتدائية في مدرسة الجمهور، ثم انتقلت إلى كلية بيروت الجامعية، التي أصبحت لاحقًا الجامعة اللبنانية الأميركية (LAU).

سرتُ على خطى والدي وبدأت العمل في الإعلام مبكرًا، في الخفاء عنه. لكنه سرعان ما اكتشف الأمر بسبب كثرة طلباتي لاستخدام أدواته الإعلامية، ففرح بذلك كثيرًا.

بدأت مسيرتي الإعلامية مع إذاعة أبو ظبي، ثم وكالة «رويترز»، وبعدها في MBC فقناة «العربية». تنقلت بين بيروت ولندن ودبي، وكنت من أعضاء الفريق الإعلامي الذي تولّى نقل قناة MBC من لندن إلى دبي.

عملتُ بشغف في شركة كوانتوم كومنكايسن خلال ثورة الأرز عام ٢٠٠٥، وقد أنجزنا عملًا ممتازًا بالتعاون مع سمير قصير، وسمير فرنجية، والرفاق الآخرين في قوى ١٤ آذار.

ثم تنقّلت في رحلات عمل إعلامية متتالية إلى البحرين، وأبو ظبي، والكويت، إلى أن عدتُ مطلع عام ٢٠١٤ إلى بيروت، حيث عملتُ مستشارًا لوزير الداخلية آنذاك، نهاد المشنوق، ثم مستشارًا لرئيس الوزراء العراقي مصطفى الكاظمي.

وها أنا اليوم، في الوطن الذي أحببت، أرأس ائتلاف الديمقراطيين اللبنانيين، الذي أسّسه صديقي الراحل لقمان سليم عام ٢٠٠٨.

نواصل اليوم السعي لإخراج لبنان من الواقع الصعب الذي يعانيه، ونناضل من أجل قيام دولة الشفافية، والحوكمة والعدالة.

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حروب ١٩٩٣ و١٩٩٦ وال ٢٠٠٦ واليوم في ٢٠٢٤؟

للحرب ذكرياتٌ مترسّخة في ذهن الإنسان، لا تغيب عنه مهما طال الزمن.

في بدايات الحرب الأهلية، كنّا نسكن في بعبدا، لكننا اضطررنا إلى الانتقال مكرهين إلى شارع سبيرز في رأس بيروت. كنتُ أضطر يوميًا إلى عبور المعبر للذهاب إلى مدرستي في الجمهور، فبدأتُ معاناة العبور والمعابر منذ الصغر.

ولا يغيب عن بالي مشهد خالتي التي قتلت إثر قذيفة إسرائيلية سقطت على منزل جدي في كفرتبنيت عام ١٩٧٨. كان المشهد مرعبًا وأليمًا، وخلّف في نفسي صدمةً عميقة لا تزال تسكنني حتى اليوم.

تابعتُ الحروب اللاحقة بعيْن الإعلامي والصحافي: أعوام ١٩٩٣، ١٩٩٦، و١٩٩٩، ثم حرب عام ٢٠٠٦، وصولًا إلى أحداث ٧ أيار ٢٠٠٨. ووجدت دائمًا أن الثمن يدفعه المواطن والإنسان، الذي يتحوّل في كل مرة إلى مهجّر أو جريح أو نازح، يرافقه الموت في كل مراحل هذه الحروب.

أمّا النتيجة، فهي غالبًا تسويات وقرارات بين المتحاربين، بينما تظل الضحية الكبرى هي المواطن البريء.

من وجهة نظرك؛ ماذا خسرت الطائفة الشيعية في حرب العام ٢٠٢٤؟ وإذا كان ثمّة أسباب، فما هي؟

تعرّضت الطائفة الشيعية، للأسف، لخسائر جسيمة كانت بغنى عنها، وهي خسائر شملت الطائفة بأكملها. فالطائفة الشيعية لا يختصرها حزب الله وحركة أمل، وإن كانا جزءًا منها، إلا أنهما لا يُمثّلانها بالكامل.

اليوم، يعيش الجمهور الشيعي، وبخاصة جمهور «الثنائي»، نوعًا من الانفصام: يريد أن يقف مع حزب الله، ويرى في الوقت نفسه أن الحزب بات مهزومًا، ويبحث عن الشرعية والدولة، لكنه لا يريد الاعتراف بالهزيمة، فيجد نفسه في حالة من الضياع.

فمن الصعب، بعد سنوات بل عقود من الانتصارات الوهمية والوعود المتكررة، أن يصطدم هذا

الجمهور بالحقيقة: أن كل تلك الوعود كانت سرابًا وخيالًا. وأن الحقيقة الصريحة والواضحة اليوم، أنه لا بديل عن الدولة – الدولة التي تحمي، والتي تملك وحدها الشرعية الكاملة.

كل الاستثناءات عن هذه القاعدة تقود إلى الخراب والدمار.

أما السلاح، فقد فقَد جدواه، ولم يعد يصلح لأن يكون له دور في مستقبل الطائفة، ولا في مستقبل الوطن.

كيف ترى مستقبل الطائفة الشيعية وكيف سيرتّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

على الطائفة الشيعية، وعلى أبناء هذه الطائفة، أن يُدركوا أن خلاصهم، كما خلاص لبنان كله، لا يكون إلا بالالتزام بالدستور واتفاق الطائف.

وعلى الشيعة اللبنانيين أن يلتزموا بالدولة وأن يبتعدوا عن المشاريع الخارجية والإقليمية التي لم تجلب للطائفة سوى العزلة والخسائر.

لقد عانى اللبنانيون، وخاصة أبناء الطائفة الشيعية، من تبعات مشروع تصدير الثورة الإسلامية في لبنان،



غارات على مدينة صور، الاتحاد

وما خلّفه من حروب وفتن واضطرابات، ومن سقوط ضحايا.

ولا بد، اليوم، أن تبسط الدولة سيادتها وهيبتها على كامل الأراضي اللبنانية، من دون أي استثناء أو مناطق خارجة عن سلطتها.

ولا بد أيضًا من وقف الزبائنية والمحسوبيات، وأن تسود قيم الشفافية، والعدالة، والمحاسبة.

ماذا عن علاقة الطائفة الشيعية بغيرها من الطوائف اللبنانية؟

لقد تعاطى الثنائي الشيعي، ولا سيّما حزب الله، بفوقية وبفائض من القوة مع باقي اللبنانيين، مستخدمًا أساليب التعطيل، الفرض والهيمنة.

وقد أدّى هذا النهج إلى تعميق التباعد بين الثنائي الشيعي والمكوّنات اللبنانية الأخرى، وأوجد نظرة سلبية تجاه الطائفة الشيعية، إذ بات يُنظر إليها كجماعة تمارس ما كانت تتّهم به طوائف أخرى، كالمارونية السياسية سابقًا.

من هنا، يُفترض باللبنانيين الشيعة، كما سائر اللبنانيين، أن يؤكّدوا على مبدأ المساواة بين المواطنين، وأن يخرجوا من الزواريب الطائفية نحو رحاب الدولة المدنية — دولة قائمة على العدالة والمساواة.

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، في رؤيتها المستقبلية، لها وللآخر؟

لا بد للجميع أن يعيد النظر إلى ما آلت اليه الأوضاع

فـي لبنـان، ولا بـد للطائفـة الشـيعية مـن قـراءة ومسـؤولة لمـا يجـري فــي الإقليـم، وللتحـوّلات الحاصلــة علــى المسـتوى الدولـي. فالمقاربـات السياسـية تبدّلـت، والرؤيـة إلـى الشـرق الأوسـط لـم تعـد كمـا كانـت فـي العقـود الماضيــة.

الحلـول أصبحـت ضيقـة ومحـدودة، وفـرض السـلام بالقـوة بـات منهجًـا معتمـدًا لـدى القيـادة الأميركيـة الجديـدة.

لا بـد مـن التأكيـد علـى فكـرة أساسـية، وهـي أن إسـرائيل دولـة عنصريـة توسـعية، وأن الإسـرائيليين يميلـون إلـى العنــف والقتــل. لذلــك، لا يجــب تــرك المنطقــة عرضــة لأفعــال إســرائيل وجرائمهــا. وعليْنــا، كطائفــة شــيعية، أن نتجنــب أن نكــون كبــش فــداء.

ومــن هنــا جــاء توجهنــا ورؤيتنــا لتجميــع الشــخصيات والناشــطين الشــيعة أصحــاب الخيــار الوطنــي، فــي إطــار لبنانــي وطنــي شــيعي متميــز عــن الذيــن يســيطرون حاليًــا علــى القــرار الشــيعي.

ليكونـوا جسـرًا يربـط اللبنانييـن بالشـيعة، وجسـرًا يربـط الشـيعة باللبنانييــن، للانطـلاق نحـو دولـة مدنيـة، ذات سـيادة، قـادرة علـى فـرض الأمـان والاسـتقرار والسـلام فـي لبنــان، وتحمــي الوطــن فــي المرحلــة القادمــة، المليئــة بالتحديـات والمسـاومات والفرضيـات الجديـدة فـي الشـرق الأوسـط.

كمـا تسـمح لنـا هـذه الدولـة بالدخـول إلـى المفاوضـات بشـكل متـوازن، لا تُفـرض علينـا فيـه الأمـور، كمـا حصـل مـع اتفـاق وقـف إطـلاق النـار فـي تشـرين الثانـي ٢٠٢٤.

جاد يتيم

يكفي الطائفة الشيعية الحروب والدمار وهذا الدَّم المهدور

«على الشيعة أن يتحرّروا من هيمنة إيران حتى لا يبقوا مُرتهنين لأجُنداتها»

صحافي وكاتب وناشط سياسي، يتحدّر من جنوب لبنان. درس الصحافة في الجامعة اللبنانية، وعمل في وكتب للعديد من المؤسسات الإعلامية اللبنانية والإقليمية والدولية.

في هذا الحوار يتحدّث جاد يتيم، عن تأثير الحروب التي شهدها لبنان، على مكان إقامته، والتي أثّرت في طفولته وأُسرته، لما رافقها من خراب وبعثرة لذكريات الراحلين من أقاربه وأحبّته. وليتيم أيضًا وجهة نظر خاصة في ما يتعلق بتلك الحروب والمتسبّبين بها، بالإضافة إلى رؤيته المستقبلية لـ«الطائفة الشيعية»، وهي الطائفة الوحيدة التي لم تغادرها الحروب منذ سنوات الحرب الأهلية إلى اليوم.

بداية مَن هو جاد يتيم؟ وكيف كانت تأثيرات الحروب، الأهلية، ١٩٩٣، ١٩٩٦، ٢٠٠٦ و٢٠٢٤ على مكان إقامتك؟



أنا صحافي وناشط سياسي لبناني، من الجنوب اللبناني، والمدة الزمنية التي عشتها في الجنوب، كانت على فترات متقطعة، لذلك كانت نشأتي وإقامتي بين بيروت وضاحيتها الجنوبية، حيث البيت الأول لأُسرتي منذ زواج والديّ، وقد نزحنا منه مرارًا، آخرها في ٢٠٢٤ وقبلها ٢٠٠٦، وكذلك خلال الحرب الأهلية، التي أذكرها كمقتطفات عالقة في الذاكرة، معارك ودُشم، مشاهد البيت المحروق عند انتهاء الحرب، ما اضطُر والدي إلى سحب تعويضه من «الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي»، لكي يتمكَّن من ترميم المنزل الذي كان بموجب عقد إيجار (قديم)، ووالدي رفض أن يقوم بالتقدّم للحصول على تعويض من أي مؤسسة تابعة للدولة، مثل وزارة المهجرين، لأنه كان يعتبر أن تلك الجهات فاسدة، وعبارة عن مجموعة لصوص، ولا يُريد الدخول في كل تلك التفاصيل. طبعًا، أذكر في سنة ١٩٩٦ عندما اندلعت الحرب مع إسرائيل، لم ننزح من منزلنا في ذلك الوقت، حيث كنا نسكن في بيروت، لكني كنت في الجنوب حينها، وأذكر تهديدات «جيش لحد» وصف السيارات الذي لا ينتهي من النازحين. وقتَها، لم نعرف كيف تمكنّا من الوصول إلى منطقة الأوزاعي، حتى وقعت غارة على طريق المطار. حتى حرب الـ ١٩٩٣ أذكرها قليلًا أيضًا، وهي حرب الأيام السبعة، وأكثر ما أذكره من هاتين الحربين مجزرَتي قانا والمنصوري العام ١٩٩٦.

كل هذه الأمور جعلَتنا غير قادرين على العيش بسلام. فطبيعة منطقتنا المتفجِّرة، بالإضافة إلى طبيعة البيئة الجنوبية أو لنقُل «الشيعية»، والتي أعرفها بتفاصيلها جيّدًا، هي الوحيدة التي لم تشعر بالراحة أبدًا، فعلى الرغم من انتهاء الحرب الأهلية، إلّا أنها بقيت بيئة الحروب المستمرة، هذه الحروب التي وُجدت مع الاحتلال الإسرائيلي لأجزاء من جنوب لبنان، لكنها استمرت بعد الانسحاب، في العام ٢٠٠٠، والمؤسف أن تلك الحروب التي استمرت كانت لخدمة أجُندات إقليمية ودولية لا لبنانية، وجرّت الويلات والتهجير على أبناء الطائفة الشيعية بشكل خاص، كل ذلك منعَنا من البقاء في بيوتنا. كما منعَنا من تكوين الذكريات الجميلة، خصوصًا الذكريات المتعلقة بأحبّائنا الذين رحلوا، فهذه كيف سيتم إعادة بنائها؟ ففي العام ٢٠٢٤ دُمِّر منزل الضيعة، وهو كان يمثّل تراثًا عائليًا، فقد بناه جدي وفيه ذكرياته وذكريات والدي الذي توفي خلال الحرب، والذي كان قد رمَّمه سابقًا، وأدخل تعديلات عليه. فكل شيء فيه يذكّرني به. ذلك كله طمسَته الحرب. وأيضًا تضرَّر منزلنا في ضاحية بيروت الجنوبية. فهذه الحرب جلَبت الويلات والخسائر ومأساة لا تنتهي لا بإيواء ولا حتى بإعادة إعمار، ولا بأي شيء، فالذكريات بحدِّ ذاتها هي عُمر، وهناك عُمر مات بطريقة من دون أن يبقى أي أثر منه.

انطلاقًا من حرب الـ ٢٠٢٤ ما هي مكاسب الطائفة الشيعية وخسائرها؟

بصراحة الخسائر كبيرة، وعبّرت عن ذلك في مقال كتبته مؤخَّرًا عن تدمير «الولائيين»، أي جماعة الخامنئي وولاية الفقيه، للحواضر الشيعية في لبنان، وعلى ما يبدو فعلوا الأمر نفسه في سوريا، نُبّل والزهراء وكفريا والفوعة، فأينما حلّ هؤلاء، حلَّ الخراب في الطائفة الشيعية، وعلى مستوى كبير وغير متوقّع. ما حصل في هذه الحرب الأخيرة، هو خراب على مستوى إبادة للذاكرة الجمعية، وإبادة جماعية للبشر والحجر والذكريات، وصولًا إلى تغيير التركيبة الديموغرافية. إن تدمير قرى بأكملها، خصوصًا الحدودية منها، يعني تغيير الانتشار الجغرافي والديموغرافي للشيعة، وبالتالي إعادة صياغة أهمية دورهم كطائفة حدودية.

لذلك إن الخسائر كبيرة، وبالتالي لا يمكن ادّعاء أي انتصار، فما هو الانتصار؟ كان الجنوب محرَّرًا، توقّفت الحرب وأجزاء كبيرة من الجنوب مدمَّرة ومحتلّة ومن دون أهلها، ومُنحت إسرائيل حرية العمل العسكري لتنفيذ اتفاق وقف إطلاق النار. اليوم أصبحنا تحت الاحتلال، والناطق العسكري باسم الجيش الإسرائيلي أفيخاي أدرعي، هو مَن يحدِّد للجنوبيين حرَكتهم وساعات حظر التجوُّل، فأي انتصار هذا؟ هذه مكابرة.

أذكر أننا في العام ٢٠٠٠، وبعد التحرير، كان كل مَن يُطالب بانتشار الجيش في الجنوب يُعتبر خائنًا، لم تقبل جماعة حزب الله بذهاب الجيش إلى الجنوب، حتى حرب ٢٠٠٦، بعد أن دمّروا الجنوب بأهله وناسه، ببشره وحجره، ودمّروا ضاحية بيروت الجنوبية. كذلك الأمر بالنسبة للقرار الدولي ١٧٠١ لم يقتنعوا بتطبيقه في السابق، ليقتنعوا اليوم وهم يعتقدون أنهم يطبِّقونه وفقًا لذهنية العام ٢٠٠٦ فيما الأمر ليس كذلك، بل تخطّى تلك الذهنية بأشواط.

إذًا، دائمًا لا يُعيرون سمعًا إلى الأصوات من داخل البلد، والتي تحذِّر من القادم وترسم خارطة طريق لتجنُّب الأسوأ والويلات على الوطن والطائفة، ولا يفعلون ذلك إلّا تحت النار، وهذا ما جعل العدو الإسرائيلي يتجرّأ علينا، ويسعى إلى تحطيم حزب الله لإجباره على تقديم التنازلات.



آثار الغارات في كفردونين

نسأل هنا عن الانتصارات التي يتحدثون عنها! لنرى: هم دخلوا إلى الحرب بشعار عدم وقف إطلاق النار حتى وقف الحرب في غزة، وفي النهاية أوقفوها من دون وقف الحرب في غزة. هل كنا في حاجة إلى كل هذا الدمار؟ كل الناس الذين قُتلوا، وكل المقاتلين من الشباب، والذين من الممكن أنهم قاتلوا بصدق، فبعض الشبان على الجبهة قاتل بصدق، وهو ليس داخل بالحسابات السياسية الكبيرة، لقيادة حزب الله التي لم تكن تخدم سوى المشروع الإيراني، وهؤلاء قُتلوا، هل كنّا في حاجة إلى هذه الكمية من الدم المهدور؛ وفي نهاية المطاف يقبل حزب الله بأقلّ بكثير مما عرَضه عليه الموفدون الدوليون قبل أشهر وكانوا يُصرّون على الحزب لقبولها؟ هذه خيانة. ليست مجرد هزيمة. هذه خيانة للناس والبلد. وفي المقابل، يمكن أن المكسب الوحيد هو أن غياب سطوَة السلاح والأمن وغياب الهيبة، قد يُطلق كل الديناميات، المختزنة لا أقول فُقدت، فالشيعة من أكثر الطوائف حيوية، سياسيًّا وفكريًّا وثقافيًّا وصحافيًّا وفي كل المجالات، وهذه الطائفة تمّ قمعها تمامًا من قِبل من يدّعي حمايتها، بالسلاح والترهيب.

ماذا عن مستقبل الطائفة الشيعية وإعادة ترتيبها لبيتها الداخلي؟ وهل هناك حاجة لإعادة النظر برؤيتها المستقبلية من قِبل أبنائها؟

أتمنى أن تُطلق التغيُّرات التي طرأت على حزب الله من خلال الحرب، الحراك السياسي، والفكري وحتى المراجعة الفقهية داخل الطائفة الشيعية، لتُعيد ترتيب نفسها وتوازناتها داخل الطائفة، ومع اللبنانيين الآخرين، لأن هذه الطائفة لا تقلُّ لبنانيةً عن غيرها من الطوائف.

فكلّ طائفة من الطوائف اللبنانية، ارتبطت في زمن ما بمصالح دولة أجنبية، والأخطر هو الارتباط الأمني. وهذا شهدناه مع بعض طوائف لبنان، وهو الارتباط الذي يدخُل إليه السلاح، ويحصل على دعم مادي ولوجستي وخلافه. وبالتالي نحن الآن أمام فرصة حقيقية لإعادة ترتيب البيت الداخلي للطائفة الشيعية؛ أمام فرصة لإعادة تموضع وطني وإقليمي. وهنا لا بد من القول إنه لا يوجد طائفة في لبنان عاندت التوجّهات الإقليمية، إلّا وخسرت. نحن اليوم أمام فرصة للخروج من محوَر الخراب، وإعادة إنتاج الطائفة، وتظهير صورتها، التي اختزلها حزب الله بالسلاح. كذلك لا بدّ من الإشارة إلى أن الطائفة الشيعية وحضورها، ليس مرتبطًا بالسلاح فقط، بل بأمور كثيرة أخرى، وهنا نقول إنه ليست صحيحة الدعاية التي يحاول حزب الله بثّها، حول أن الخسارة بالسلاح ستؤدّي إلى شماتة الآخرين بالطائفة الشيعية، وبالتالي تشجيع أبنائها للانضمام إلى صفوفه باعتبار أن كل الأطراف الأخرى في الوطن هم أعداءها. هذا ليس صحيحًا على الإطلاق، ويكذِّب كل الادّعاءات التي تُوحي بأن الشيعي لا يُعرف إلّا من خلال سلاحه، مثلما كان يُشاع سابقًا أن الشيعي لا يُعرف إلّا بكونه «عتالًا على البور» أو «ماسح أحذية»، كل هذه المزاعم غير صحيحة، ولا تجسّد الصورة الحقيقية لأبناء الطائفة الشيعية، التي كما أشرنا سابقًا، أنتجت الكثير من العلماء والمفكرين والباحثين. لذا المطلوب اليوم هو أن نتحرّر من سطوة إيران الأمنية والفقهية أيضًا، وبتعبير أوضح من السلاح، ومن ولاية الفقيه التي تستخدمها إيران كغطاء ديني لممارسة سلطتها وفرض مصالحها علينا، والتي أدَّت إلى القضاء على التنوّع والحيوية والولاءات الوطنية داخل الطائفة الشيعية. تلك الممارسات الإيرانية الغريبة على ثقافة شيعة لبنان، والتي تجلّت في أسوأ صوَرها من خلال عقد الصفقات السياسية وحتى الدِّينية على حساب أحرار الطائفة، وكذلك اغتيال مفكّريها ومثقّفيها وقادة مقاومتها الوطنية في ثمانينات القرن الماضي.

نحن نقول اليوم إنه يجب الانتهاء من هذه العقلية التي ربطت كرامة الطائفة بالسلاح، والتغنّي به على أنه «زينة الرجال». وأختم أنه في هذه السردية، كان التغييب الكامل لكل ما تختزنه الطائفة الشيعية من حيوية فكرية وسياسية وأدبية وفنية وثقافية. وأشير في هذا السياق أيضًا، إلى أنه يكفي جبل عامل وأهله، كل هذه الحروب والدماء التي لا تنتهي، والتي تسعى لإطالة الاحتلال كمورد رزق وارتهان لدى مَن أوصلنا إلى الخراب الذي قد لا ننجو منه أبدًا.

جهاد أيوب

خطأ «الشيعة» أنهم يعملون على تحرير أرواح وأراضي غيرهم بلا التفكير بمصلحتهم

«الطائفة أساس بناء النهضة اللبنانية وسبقت كل الطوائف»

ناقد، أديب، فنان تشكيلي، وكاتب، وقبل كل ذلك صحافي بالفطرة. جهاد أيوب ابن قرية الدوير الجنوبية، عاصرَ الأحداث وواكبها، من الخليج، ومن لبنان، فكوّن تفكيرًا خاصًا للتعامل مع أحداث لبنان.

كان لـ«أمم» هذا الحوار مع أيوب والذي تحدّث فيه، عن الماضي والحاضر، عن الأفكار، وارتباط الإنسان بالأمكنة.

مَن هو جهاد أيوب ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟



أنا جهاد أيوب كاتب وصحافي ومحلّل اجتماعي وناقد وأديب وتشكيلي لبناني، بالصورة والفكر والحضور وخميرة العمر.

جهاد أيوب حالة خاصة من تكوين التجارب، وصفحات الوجع والحلم المسروق، والصفعات والنجاح، الذي صنعته من تعب الجهود الفردية الصافية، وغدر البيئة والزملاء!

جهاد أيوب تراكُمات من هنا وهناك، سُرِقت أحلامه، فسُرِقت لحظات وجودي التي قرأتها جيدًا برغم محاولتهم لسرِقتها مرارًا. نعم أنا قارئ للحظات وجودي حتى لا أُصاب بالتوفيق والتشويش والفوضى، فأنا أعيش في لبنان وطن العجائب، وبين الشعوب العربية الحاقدة على حالها والمؤمنة بغدر ذاتها!

أعيش بين كل هذه الفوضى المُتخمة بالكذب، مع إن الفنان والكاتب، يجب أن يكون فوضويًّا ومنظّمًا جدًّا.. وهذا أنا!

أنا عربي، وكنت أتمنّى ألّا أُسجَن بالعروبة، فأنا أؤمن بالأنسَنة، وكلمة «أنسَنة» أنا أول مَن ابتكرها واستخدمها منذ العام ١٩٨٢، واليوم العديد هنا وهناك سطوا عليها، ولكن الوثائق عندي، وهي لم تكن معروفة ومستخدَمة قبلي!

جهاد أيوب إنسان، بحثَ ولا يزال يبحث، عن ذاته، عن ذاك الحُلم الموجود داخل جعبة الصيّاد، وعن ذاك الصوت الواضح، وعن عدم السكوت عن الظلم، وهو ذاك الصيّاد المُتعَب، لكنه يعرف حدوده وعمله، وحدودي الكون برغم الصعاب، وعملي الإنسان على الرغم من تلاشيه!

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حرب الـ ٢٠٠٦ واليوم في ٢٠٢٤؟

أجمل ما في الذاكرة نعمة النسيان، وأجمل ما في النسيان «التطنيش»، من دون تنازل حتى تستمر، والاستمرارية تتطلّب بصمة فيها أنت وليس هو وهُم، فالانطلاق من الآخر إلى الذات هزيمة، المطلوب أن تنطلق من الذات إلى الآخر حتى تحقق بداية انتصارك أو اكتشاف مساحة تنطلق منها إلى أوسع.

وفي ذاكرتي الكثير من الصوَر ومن الأفكار، ولكن صوَر الحروب لا تُفارقني لبشاعتها، وصوَر البشاعة تتكاثَر على عكس صوَر الجمال التي تكون بالعادة قليلة ونادرة!

والحروب وَلّدت الكثير من الأفكار، والأفكار «متكالِبة» ومتكاثِرة ومتهالِكة، وبرغم ذلك حاضرة وضرورية، ومنها ما هو عبَثي، ومنها عشوائية، ومنها صارمة باحثة عن نافذة لدخول الحرية والأمل بجديد مُغايِر، والحرية ليست مطلقة بل قَيْد ومسؤولية!

جيلي كما حال العرب خرَج من خطيئة، والعرب قبل الإسلام مجموعات تمجِّد الشرّ والحقد والخطيئة، وأراد الله أن يصحِّح خلَلهم، فنظَّف منهم عِرق آل «أبو طالب» أو عائلة ما قبل الرسول محمد من أجل أن يتعلَّم العرب، فاستمرّوا كأعراب يسيطرون على العرب، لكنهم أقوياء اقتصاديًّا، ومَن يمتلك الاقتصاد يُسيطر على المال والسياسة والفكر والثقافة والفن، إذا كانوا عنده، وهذا يمكنه من

السيطرة على النفوس فيحتلّ النفوس قبل البلاد الغنية، واحتلال اليوم لا يحتاج إلى دخول الجيوش والتموضع في قطعة أرض، بل حاكم فاسد، ورجل دين لا يفقه بالدِّين وفتنوي، وإعلام مرتزِق يعمل على نشر إشاعات كاذبة، وعقوبات اقتصادية تُوجع وتجوِّع الشعوب... عندها تحتل العقول والنفوس وتأخذ خيرات البلاد بعد أن تركت شعوبها تتصارع في ما بينها على أتفه الأشياء، وعلى كيفية الصلاة، وهل صوت المرأة عورةً أو حرامًا... وهذا ما جعل منّ أمّة الخواء!

وجرَّب الله في العرب كي تتحسَّن البشرية وهو يُدرك النتائج، لكنه أعطاهم فرصة في نبوَّة محمد، لكنهم «إن مات أو قُتل انقلبتم»، عادوا بعد موته إلى الجاهلية من خلال سنّته التي ابتكروها فشوّهوا رسالته وأصبحوا طوائفَ متناحرة...!

ونعم فشل المسيحيون فشُبِّه بعيسى، وفشل المسلمون فقُتلت ذرّيته، أما موسى فتمَّ تدمير رسالته حتى زرعت ملَّته الحقد والغدر في كل مكان ولا يزالون يعبدون العجل!

من هنا أقول إن جيلي لم يعرف الاستقرار، وبرغم ما حقّقنا من نجاحات فردية، لكن الطموحات، أُعدمت في وظيفة من زعيم جاهل يتحكَّم برزق الناس والمتعلمين والمفكرين إلى أن انتبه المثقّف لفَقره فارتضى أن يقلِّد ابن الزعيم الأمّي الجاهل الذي استأجره ليصفّق له، وهو، أي ابن الحاكم، مستأجَر من الخارج ففشل المثقّف وتاهت الأمة!

وعليك أن تسمح لي باستغرابي من سجن وتقوقع سؤالك في الحرب الأهلية وحرب ٢٠٠٦ و٢٠٢٤ التي خاضها أهل الأرض ضد المحتلّ الصهيوني والمستكبِر الغربي والشيطان الأميركي وتناسيك للحروب التي سبقت وكانت من عُمرنا، إلا إذا كان المقصود خبيثًا!

تلك الحروب التي سألتَ عنها فُرضت علينا، وجاءت كردٍّ فعلٍ على همّجية إسرائيل وأميركا وليس العكس، أما إذا كنتم تبرّرون أفعال المغتصِب والمستعمِر والمحتلّ فهنا شرّ الشرور والخنوع، ومع ذلك أقول: «الحروب على العرب تُفرض، لأن العرب غابت عنهم الشمس، ولا يعرفون إلا محاربة وغدر بعضهم!»

والحروب على المسلمين يصنعها عدو وينفِّذها من يدّعي الإسلام، نعم، لم يعد لدينا إسلام إلّا في بعض العادات والتقاليد، ولدينا المزيد من «المتأسلمين»، وقلة قليلة جدًّا تعتبر القرآن مرجعها، والمسلم يحارب المسلم حتى الذبح والذابح والمذبوح يقولا «الله أكبر»، ومسلم اليوم يتجاهل احتلال فلسطين من قِبل عصابة الغرب واحتلال أميركا للفكر والدِّين وأخذ خيرات أرض المسلمين مستغلّين «استحمار» العرب وجهل «المتأسلمين» لكتابهم ولنبيِّهم!

والحروب على المسيحيين انتهت في الغرب لأن الغرب يعيش علمانية قاتلة أخلاقيًا، والدِّين المسيحي لديهم للصورة ولشنِّ نعَرات نائمة وعنصرية، ويسوّقونها في نفوس المسيحي المشرقي العاشق لحياة الغرب بسلبياتها وليس بإيجابياتها، والمسيحية شُوِّهت من قِبل اليهود لكثرة الإسرائيليات فيها، وانشغال رجال الكنيسة بانتشار المسلمين دون معرفة حاجة الرعيّة وسيّدنا عيسى!

وهنا أحب أن أشير إلى الحروب بشكل عام، الحروب نتيجة لسقوط الفكر، وحينما يسقط الفكر يفشل الدِّين ويفشل الحزب العلماني أو الاجتماعي تحت كذبة التحرُّر، وحين يفشل الدِّين وتقع الأحزاب بكذبها تُصبح الدماء الهدف فيموت العمر، ويُغتال الحلم ويزداد الجهل وينتشر الانتقاد وحب الذات وإلغاء الآخرين والحروب!

الحروب بشكل عام تسرق وجودنا، تزرع فتنة، تخطف العمر من بقايا أعمارنا، وتغيِّر الأمكنة، وتفرِّق الأحباب!

نعم يوجد حروب دفاعًا عن النفس والعرض والشرف والأرض والأخير هو العرض والشرف، ولا أدري غيري كيف يفهم الأرض والمقاومة من أجل الوطن!

البعض يعتبر الدفاع من خلال مصالحه وايصاله إلى الزعامة حتى لو باع الوطن والشرف، وبعض يؤمن بأن الواجب مقاومة على كل من يغزو يحتل يهاجم يقتل أهل الوطن والوطن، وحتى لو أخطأ هذا المقاوم الحساب نغفر له لكونه من شرفاء الوطنية وليس خائنًا للوطن بحجة زعامه على الوطن أو مكسب إعلامي واقتصادي على حساب الوطن!

وأعتقد يقينًا، من إدخال الحرب الأهلية بطريقة عابرة، هو مهرَب منك لإقحام حرب تموز ٢٠٠٦ وحرب الوجود ٢٠٢٤، وسأكون ذا نيّة صافية لأقول إن الحرب الأهلية اللبنانية كانت إسرائيلية ضد المشروع الوطني، وتصرّف فيها الفريق الانعزالي اللبناني وتحديدًا اليمين المسيحي بخيانة لذاته ولمجتمعه ولوطنه، وأصبح طاووسًا إلغائيًّا

يحتمي بإسرائيل وبعض دول العرب... وفي المقابل تصرّفت الفصائل الفلسطينية بغباء وبحَقد على بلد استقبلهم، وتصرّف ياسر عرفات بعنجهية الرئيس والحاكم، وكان يُشارك هذا الفريق وذاك ليزرع فتنة، وزاد من الانقسام اللبناني معتقِدًا أن ذلك يجعل منه رئيسًا على فلسطين وعلى لبنان معًا، وبذلك يتحكَّم بالعرب!

والعرب وقواتهم الردعية التي دخلت لبنان لتوقف الحرب الأهلية أُخفقوا، وكالعادة كانوا شركاء بالدم بالخيانة بالتقسيم والتسليح والتمويل بشرط أن نتقاتل ونتذابح!

والوجود السوري العسكري تصرَّف كمحتلّ، وشارك الزعامات الفاسدة بالسرقة والفساد!

واللبناني من كثرة غروره وحقده على شريكه كان الفاعل والمفعول به، والنتيجة خراب... لذلك أشير إلى:

العرب أعداء بالفطرة، وخارج سنّ الرشد، ويعبدون شهَواتهم!

المتأسلمون يخونون الإسلام والمسلمين والله، ولا يزالون يتعطّشون إلى الدماء!

المسيحيون المشرقيون لا يعرفون مصالحهم في بلادهم، ويزداد تقلّصهم، ويعيشون على نفايات الغرب، والغرب لا يكترث لهم!

وقبل أن أختم لا بدّ من التوضيح إلى أن الإعلام في لبنان كان شريكًا في كل الحروب الداخلية، وفي حروبنا ضد المستعمِر وإسرائيل، هو طرف مع أميركا وإسرائيل ضد المقاومة وأهل الأرض، الإعلام اللبناني بغالبيته غُرَف للإيجار ولمَن يدفع أكثر، وهو إما تجارة وإما إعلام ديني أو حزبي... وكلهم فشلوا ولا يصنعون الإعلام الوطني!

من هنا أختم بالقول: «لن نفرح بما فاتَنا، ولن نستغرب ما أتانا فنحن نؤمن بالرحمن، وعلينا أن نتعلّم ونخطّط كي لا نقع بذات الخطأ في حروب عربية همجية عبثية، بل حروبنا ضد العدو هي الواجب»!

ما هي التحديات المتعلّقة بالوجود المكاني خلال هذه الحروب؟

الوجود المكاني يعني الوطن وليس غير الوطن، والمفروض المواطن هو في كل الوطن، ولكن كبَلد صُنع على الكِذبة والطائفية العنصرية المذهبية لا مكان للمواطن فيه،



غارة على الدوير، موقع بنت جبيل

الوطن عند اللبناني قطعة أرض يبيعها كلما احتاج، الوطن مزارع لهذه الفئة وتلك من صبغة واحدة، وأصحاب هذه الصبغة يتذابحون بسرعة ودائمًا!

لا خطر من الطائفية إن التزمت بحدود دينها، الخطر يكمن بالمذهبية والعنصرية، ولبنان مبتلٍ بقَوم يؤمنون أن الله لم يهدِ سواهم، واليهودية مبتلية بأن الله لهم فقط... وهنا نهاية الاستقرار وتشتّت الإنسان!

حينما يحدِّد اللبناني عدوّه، ويؤمن بأن شريكه مثله، وبأن الفكر منارة والدِّين معاملة والخائن يُقتل، وليس وجهة نظر، يكسب العيش في الوطن، والأهم حينما يتوقف اللبناني عن عقلية المتاجرة بالوطنية، وبأن لبنان محطة لمكاسب جديدة وكل مَن تزوّج أمّي هو أبي عندها تسأل عن الوجود المكاني...!

المفروض كل مكان في لبنان لكل المواطنين وليس وجودًا عابرًا داخل كذبة في الوجود، وخلال الحروب أو خلال السلام وعلى كل طوائف لبنان أن تؤمن بأن لبنان للجميع!

في حرب الـ ٢٠٢٤... من وجهة نظرك، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية؟ وهل هناك من مكاسب؟

أولًا هي حرب إلغاء وجودي، وحرب إبادة، هكذا المفروض أن تعَنوَن هذه الحرب... نعم الطائفة الشيعية خسرت الكثير، لكونها قرّرت أن تُدافع عن كرامات أمّة جافة، وأصحاب أرض لا يستحقونها ولا يعرفون قيمة بلدهم بقدْر انغماسهم بمذهبية هوجاء أضاعتهم وأضاعت أرضهم وحقوقهم!

الأرض التي تسجنها بدين بطائفة على حساب المكوِّن العام لا تستحق أن تكون لك، وهذا ما حصل في فلسطين وكل الأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل إلّا أراضي لبنان المحتلة والتي انسحبت منها دولة الصهاينة بزنود المقاومة!

لو أن الطائفة الشيعية عقَدت اتفاقات مع أميركا على حساب العرب الخائن وفلسطين التي أضاعها أهلَها أولًا، ومن ثم المسلمين والمسيحيين المشرقيين والعرب لحكمت كل بلاد العرب وبالتحديد لبنان، وكل مَن وقف ضد المقاومة سيُصبحون من الخدم والجواري عند الشيعة... وهذه خسارة للشيعة!

نعم خسر الشيعة المكاسب التي عرَضتها أميركا على السيد حسن نصرالله بأن يُصبح كل لبنان له وللشيعة، من رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش وحاكم البنك المركزي، والسلاح يبقى مع المقاومة بشرط أن يُوقف دعم فلسطين، وله حرية العيش مِلكًا وينشر أفكاره الدِّينية أينما يريد وكيفما يريد!

هذه خسارة استراتيجية للطائفة الشيعية مؤقّتة إذا فكّرنا طائفيًّا، ولكن مَن الذي يستطيع إلغاء عاشوراء وكربلاء وقضية الحسين في فهم كيفية النضال!؟!

وسأكون أجرأ منك ومن غيرك، وأطرح قضية إيران الجمهورية الإسلامية... لو أن إيران هذه لا تساعد فلسطين وتتبنّاها كقضية محقّة هل كان العالم العربي والغربي والإسلامي وأميركا تحديدًا يحاربونها؟... بالطبع لا، علمًا أن إيران البعيدة عن حدود فلسطين وإسرائيل تستطيع اليوم أن تُعيد أمجادها القديمة أيام الشاه المخلوع (رضا بهلوي) حينما كان كل حكام العرب والمسلمين خدَمًا وعبيدًا عنده لكونه يؤمن بدولة الصهاينة!

إذا كانت المكاسب جرّاء ذلك صدِّقني سيعتبرونك خائنًا في محيط كلّه من الجماعة والسنّة، والجماعة والسنة استغنوا عن تحرير فلسطين وعن محاربة اليهود الصهاينة كما ينصّ القرآن، وهذا إذا كان بعد اتفاقات سلامهم مع إسرائيل لا يزال كتابهم كما هو!

وكيف تبحث عن مكاسبك في أمة لم تتمكّن من حلّ قضية صغيرة من قضاياها ولا تزال فاعلة ودامية من ١٤٠٠ سنة؟!

خطأ الشيعة أنهم يعملون على تحرير نفوس وأرواح وأراضي وكرامات وكتاب غيرهم من دون أن يفكّروا بمصالحهم!

نعم، وأقولها بكل جرأة، لو أن قادة الشيعة تركوا فكرة قتال إسرائيل وأميركا لكانوا اليوم حكّام هذه الأمة، ومَن ينتقدها ويشمت بها ويحاربها لأصبح عبدًا في حمّامات مساجدها وحسينيّاتها خاصة حكام العرب!

ماذا عن مستقبل الطائفة أي كيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

النظام اللبناني، برغم رفضي له، لكنه يعطي كل طائفة مساحتها وحضورها، و٦/٦ مكرّر لا تُلغي احدًا، لذلك في بلد الطوائف لا تخاف على أي طائفة حتى لو كانت صغيرة، والأدلّة كثيرة ومُضحكة، ولو أخذت أصوات النواب في لبنان فذاك يحصل على ٤٠٠ ألف من أصوات مُنتخبيه، وتلك أو ذاك يحصل على ٧٥ صوتًا ويصبح نائبًا... هنا مهزَلة الكيان اللبناني، وأتركك تفكِّر كما تشاء!

وبالنسبة للبيت الشيعي بعد حرب الإبادة الصهيونية العربية الإسلامية الأميركية والداخلية عليها، يجب أن تأخذ نفسًا عميقًا، وقراءة متأنّية، ووضع أولويات داخلية، والانطلاق من جديد... وبصراحة أنا لا أخاف على طائفة سكَنت لبنان قبل كل الطوائف، والشيعة التي أسلمت وتشيّعت على يد الإمام الأمير الصالح علي بن أبي طالب، وأهل جبل عامل سكنوا هذه الأرض والبلاد قبل ظهور عيسى المسيح بـ٣٠٠ سنة لا أخاف عليها من الانقراض، ولكن أخاف عليها من الحروب العبَثية التي ستُشنّ عليها، ما دامت تعتبر إسرائيل محتلّة وعدو، أو قطع رزق أبنائها وتشويه صورتها وتاريخها عبر المؤامرات التي تُحاك ضدها، وهنا لا بدَّ من نفسٍ عميق، ومراجعة ذاتية صافية، وليست على طريقة زعامات الطوائف والأحزاب العلمانية والعقائدية بعد الحرب الأهلية، حيث جعلت من لبنان غُرفًا للإيجار ولمَن يدفع أكثر!

ما هي الصورة المتوقَّعة لعلاقة الطائفة الشيعية بالطوائف الأخرى في الوطن؟

الطائفة الشيعية هي شريكة فعلية في هذا البلد الهجين، قد تضعف هذه الطائفة أو تلك، لكن هكذا

نظام يؤمِّن حقوق الطوائف، لذلك لن نتقدَّم، وكل عشر سنوات تتجدَّد الحروب في ما بيننا، وزعامات هذه الطوائف لا تُحاسب حتى لو خانت لكَون الزعيم يلوذ بطائفته...!

الطوائف المذهبية في لبنان قريبًا ستقضي على لبنان كدولة، وهو اليوم مجرّد مزارع لطوائف وكل طائفة فيها العديد من الطوائف، لذلك سؤالك غريب كأنه من خارج الكوكب اللبناني... ومع ذلك أقول لك، وخلال حرب الإبادة على لبنان وعلى المقاومة وبيئة المقاومة كل الطوائف بأفرادها لا بزعاماتها ورجال دينها حضنت شركاء الوطن من النازحين، وأنا كنت على الأرض، وشاهدت وتلمّست ذلك حيث كان الوطن... أقصد مشكلتنا العويصة بزعامات تدّعي لبنانيتها، وهي مجرّد موظفة في سفارة، ورجال دين دورهم ضد الدِّين!

على الصعيد الاجتماعي، اللبناني يتصرّف بعفويته ومصالحه وتجارته، وعلى صعيد السياسة الداخلية كل مَن شطَح وبارك العدوان الصهيوني لن ينضح بغير لسانه وهبَله في الوطنية وفي السياسة لأن تركيبة النظام اللبناني، كما قلت سابقًا، يحمي الطوائف والفاسد والقاتل، والدليل الحرب الأهلية التي انتهت بـ«تبويس» اللحى، وخلْع بدلة الحرب وإبدالها بـ«طقم سموكن» مع ربطة عُنق، وفي النهاية لا غالب ولا مغلوب... هذا هو لبنان الذي نعيش فيه فلا تعطوا الأمور أكثر من حجمها في بلد الطوائف!

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، بالرؤية المستقبلية لها؟

نعم في حاجة دائمة لإعادة النظر من قِبل الطائفة وأبنائها، أمس واليوم وغدًا والآن، هذه الطائفة كانت خزّان التحرّر أتخاصمت معها أم تصالحت، هي كذلك، وهي طائفة أساسية في بناء النهضة اللبنانية وسبقت كل الطوائف، ولم تزوِّر تاريخها، كما فعلت طوائف ثانية خاصة اليمين الماروني!

على كل الطوائف في لبنان إعادة النظر بتركيبتها اللبنانية، وتحديد ماذا تريد من الوطن لا ماذا يريد زعيم ورجل دين الطائفة... أما تصويبك على الطائفة الشيعية لكونها حملت البندقية عن أمّة متهالكة ضد العدو الذي احتل أرض الوطن، فيجب أن تعاوِد هذه الطائفة رمي الحجة والمسؤولية على غيرها وعلى الجميع حتى يتحمّلوا المسؤولية الوطنية، ويحدّدوا هل هم مجرّد نُزلاء في فندق لبناني أم أنهم أبناء وطن ككل وللجميع، ويعملون على حمايته!

نعم زعامات في طوائف لبنانية وربما طوائف تعتبر لبنان مجرّد غرفة في فندق لا تعنيهم مساحته وحدوده!

عليك أن تطرح السؤال على الطوائف الثانية لتجد ضالّتك حول الوطن وستُصدم، وقد تغيّر جواز سفرك وتترك هذه الدولة الكذبة... باختصار الوطن لمَن يحميه ويحافظ عليه، ويعمل على بناء الدولة وليس لمَن يرقص على دماء أبناء الوطن!

جهاد بزي

في حرب ٢٠٢٤ مُنيت الطائفة الشيعية بأكبر خسائرها على الإطلاق

جهاد بزي صحافي وكاتب وروائي لبناني. ابن بنت جبيل الجنوبية، تنقّل في مؤسسات إعلامية وصحافية عدة. حمل في داخله هموم الوطن وكان من المناضلين في سبيل غدٍ أفضل. كانت بداياته مع «شباب السفير»، من هناك نحَت من الكلمات مقالات حاكت رؤية خاصة بأسلوب كتابة مبتكَر، دغدغ مشاعر اليافعين والكبار بعباراته التي كان لها نكهتها الخاصة وصداها في صروح الجامعات اللبنانية على تنوّعها.

«أمم» حاورت بزي المغترب القريب والغائب الحاضر حتى في أدقِّ التفاصيل اللبنانية. كان الكلام مقتضبًا لكنه غنيًّا، فالفكرة الواحدة تكفي لتكون نُواة تؤسّس لمفهوم الوطن بما يحمله المصطلح من معنى.

ماذا يعني المكان بالنسبة لك؟ وما هي تأثيرات الحروب عليه؟



أمضيت عمري تائهًا في الانتماء إلى مكان بعينه. نشأت في الضاحية وحتى سنة ٢٠٠٠ لم أكن زُرت قريتي بنت جبيل، وكنّا نهرب من حروب بيروت إلى قرية أُمي عين قانا. ودائمًا ما عرّفت عن نفسي، أُسوة بالجميع، أنني من بنت جبيل من الجنوب. لاحقًا بعد التحرير فهمت أنني سأظلّ لا منتميًا إلى قريتي الحدودية ولا إلى الضاحية ولا إلى بيروت ولا إلى أميركا التي أعيش فيها منذ ١١ سنة. قد يكون هذا تيهًا حميدًا. أن يكون اللاانتماء هو الانتماء الوحيد، مع الايمان دائمًا بأن لبنان هو البيت.



اثار الغارات على بنت جبيل

من خلال الحرب الأخيرة على لبنان ٢٠٢٤، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية؟ وهل هناك من مكاسب؟

في هذه الحرب لحق بالطائفة الشيعية في لبنان أكبر خسائرها على الإطلاق، على المستوى البشري، إن بالمقاتلين أو بمجزرة البايجر أو المدنيين وصولًا إلى السيد حسن نصرالله الذي يشكّل اغتياله اغتيالًا لرمز بات خلال سنواته الثلاثين الأخيرة أقرب إلى أيقونة للطائفة وناسها وتمكُّن اسرائيل منه، وهو عدوّها اللدود والصلب والعنيد، أراه هزيمة كبيرة للحزب وناسه. ولا أنسى التدمير الهمجي لقرًى بكاملها. هذه كارثة إضافية لا نعلم مآلاتها الآن لكنها ستنفجر بعد أن تضع الحرب أوزارها.

هل تحتاج الطائفة الشيعية إلى إعادة النظر برؤيتها المستقبلية وكيف ستعمل على ترتيب بيتها الداخلي؟

على المستوى السياسي، هذه الحرب أنهَت عمليًّا الصراع الشيعي - الاسرائيلي. لا ندري أيضًا، وحتى الآن، شكل نهايتها وشكل الحزب بعدها، لكن الأكيد أن الحزب عليه أن يجد سبُلًا اخرى لصراع إسرائيل غير العسكري المباشر والذي أثبت عدم فعاليته بحماية شعبه ولا قُراه ولا نفسه حتى.

الطائفة، ولبنان أمام مخاض طويل جدًا لا يمكن التكهُّن بما سيؤول إليه. وفي غياب المسؤوليات الوطنية عند معظم الطبقة السياسية، لا تبدو الأمور مبشِّرة بالخير بعد الحرب.

أما بيت الطائفة الداخلي فترتيبه لا يقع خارج ترتيب بيت الوطن الداخلي برمّته، وهذا لا يتحقّق إلّا بخروج الطوائف من طوائفها، وهو ما يقع في خانة المستحيل.

حسن عباس

على الشيعة الاستثمار في مشروع الدولة لا المشاريع الموازية

حسن عباس باحث وكاتب وصحافي، ابن بلدة عيترون الجنوبية، يتحدث في هذا الحوار عن طفولته وأوضاع الطائفة الشيعية ما قبل وما بعد حروبها مع إسرائيل.

مَن هو حسن عباس، ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟



حسن عباس، شخص بهوية مركّبة مثل كل الناس في هذا الكوكب. بعض مكوّنات هويتي اخترتها بنفسي، أو بتعبير آخر أردتها عن وعي لنفسي، وبعضها غير اختياري. من هذه المكوّنات، من نوعيْها المذكوريْن، لبنانيّتي وجنوبيّتي وشيعيّتي وأيضًا إنسانيتي وليبراليتي... درست العلوم السياسية والفلسفة والإعلام وأعمل في المجالات المرتبطة بما أعرف فيه قليلًا بحكم دراستي وقراءاتي، كالصحافة والأبحاث والدراسات والاستشارات.

في ما خصَّ الخط الزمني لمسار حياتي، قضيت الجزء الأول من طفولتي في جنوب لبنان، في بلدة عيترون، وكانت تحت الاحتلال الإسرائيلي، واستمرت هذه المرحلة ١٢ سنة، حتى عام ١٩٩٥. عشت في عيترون ودرست في مدارس جارتنا، بلدة عين إبل. بعدها انتقلت وعائلتي إلى بيروت، وعمليًّا إلى ضواحي بيروت الجنوبية، وبدّلنا مسكننا المستأجَر مرات عدة ضمن هذه الضواحي، فاختبرت، عن كثَب، العيش في عدد كبير من أحيائها.

بعد انتقالنا إلى بيروت، كانت مدرستي في بيروت الإدارية، في منطقة وطى المصيطبة، وبالتالي كنت متنقلًا بين بيروت وضواحيها الجنوبية، بحكم دراستي وصداقات مرحلة الدراسة، وبين بلدتي التي لم تنقطع زياراتي إليها قبل تحرُّرها في العام ٢٠٠٠. وفي المرحلة الجامعية، استمرّت هذه «النطنطة» بين منزلنا في الضواحي وبين مبنَيي كلية الحقوق والعلوم السياسية في الصنايع وكلية الآداب في الأونيسكو والمجمَّع الجامعي في الحدت ومبنى عمادة كلية الإعلام على الطيّونة وبين منزلنا في عيترون، وبطبيعة الحال صارت وتيرة زياراتي إلى بلدتي أعلى بعد تحرّرها من الاحتلال الإسرائيلي. وطبعًا تُضاف إلى هذه الأمكنة «المرجعية» أماكن كثيرة حواليها، فخطّ سير حياتي اليومية لم يكن من البيت إلى الجامعة ومن الجامعة إلى البيت فقط.

حَكَمت عليّ مسيرة تنقّلاتي هذه بالارتباط عاطفيًا بثلاثة أماكن: الأول هو جنوب لبنان، وبالأخصّ منطقة ما كان يسمّى يومًا «الشريط الحدودي المحتل»، وهو المكان الذي أشعر بالانتماء إليه أكثر من أي مكان آخر، وفيه تعلّقت بالمجتمع الجنوبي، وخاصة بطبيعته (القديمة)، قبل أن تَلحَق بها تغيّرات نجَمت عن عودة «مجتمع جنوبيي ضواحي بيروت الجنوبية» إليه، مع ما حملوه معهم من عادات وقيَم وتحزّبات تكوّنت في مرحلة الحرب اللبنانية الأهلية واستجدّت على مجتمعنا الجنوبي «التقليدي» بقدومهم؛ والمكان الثاني هو ضواحي بيروت الجنوبية، وفيه تفاعلتُ مع مجتمعات هذه الضواحي، ففيها مجتمعات مختلفة بحسب المكان والزمان وليس مجتمعًا واحدًا كما يظنّ البعض؛ والمكان الثالث هو بيروت، وعلاقتي بها بدأت منذ دراستي، بعمر الـ١٢ سنة، ولكنها راحت تتوطّد وتتجذّر بعد بلوغي سنّ الـ١٨ حين رُحت فعلًا أُكثر من التعرّف على أحيائها المختلفة وكورنيشها البحري وما فيها من شوارع وأماكن سهر.

ثمّة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية (إذا كنت تذكر) عليك وعلى مكان سكنك ثم في حروب ١٩٩٣ و١٩٩٦ الـ٢٠٠٦ وفي ٢٠٢٤؟

وُلدت في مستشفى الحياة، في منطقة الشياح، وفي يوم ولادتي تعرّض محيط المستشفى للقصف، ولا أعرف تفاصيل ما جرى في ذلك اليوم، ولم أهتمّ بمعرفته. فقط أعرف أن والدتي احتارت كيف تهرب بي بعيدًا من الخطر. وبالتالي، علاقتي بالحرب أو بالأحرى علاقة الحرب بي «تأسيسية»، إذا جاز التعبير. وُلدت هنالك، ولكن مكان إقامة أُسرتي حينذاك كان عيترون حيث سرعان ما انتقلت أو بالأحرى نُقلت.

عيترون كانت محتلّة عند ولادتي، واحتلالها، رغم ما يرتبط بالحياة في ظلّه من مصاعب ومصائب، أعفى سكانها من عيش كارثة الحرب اللبنانية الأهلية. الحرب الأهلية لم تصل إلى منطقة الشريط الحدودي المحتل بشكلها الذي يخطر على البال للوهلة الأولى، أي بشكلها الاحترابي شبه الدائم وما فيه من معارك شبه مستمرة وقصف وقنّاصين وخطوط تماس، ولكنها طبعًا كانت حاضرة في جوهر حياتنا هنالك، في واقعة الاحتلال نفسه وسيطرة ميليشيا أنطوان لحد على المنطقة وفصلها بمعابر عن باقي لبنان، فهذه كلها أمور تشكّل فصلًا من فصول الحرب الأهلية. أكثر من ذلك، عجّت المنطقة بـ«لاجئين» من أبنائها الذين كانوا نازحين عنها وعادوا، أثناء فترة ما سُمِّيت بـ«حرب عون»، أي فترة الاشتباك بين الجيش اللبناني المؤتمِر بأمْر رئيس الحكومة الانتقالية ميشال عون وبين الجيش السوري وبعض حلفائه اللبنانيين، بين عامي ١٩٨٨ و١٩٩٠.

حرب ١٩٩٣ لم أختبرها بشكل مباشر، بحُكم موقع سكني. أول حرب اختبرتها بشكل مباشر كانت عدوان نيسان ١٩٩٦؛ كنّا حينها نُقيم في مبنًى سكني في منطقة بئر العبد، ملاصق لما كان يُعرف وقتها بـ«المربّع الأمني» ومواجه تقريبًا لـ«مبنى الشورى»، مبنى قيادة حزب الله. أذكر أن أول قصف إسرائيلي لحيّنا حدث في الليل، وكيف استيقظنا مذعورين وهرعنا إلى ما كنّا نسميه «ملجأ»، وهو ليس سوى طابق أول تحت الأرض كان عبارة عن مستودع تملكه إحدى دور النشر، لم أعد أذكر اسمها. بقينا في هذا «الملجأ» طيلة فترة الحرب. أحضرنا فرشات الإسفنج بعض الأغطية وبقينا هناك، نحن وكثُر من سكان البناية، طيلة ١٦ يومًا. كان هكذا مكان يُعتبر آمنًا نسبيًّا في ذلك الوقت فلم يكن شكل التدمير بالعنف الذي صار عليه منذ حرب تموز ٢٠٠٦.

ثاني حرب عشتها كانت حرب تموز ٢٠٠٦. بدأ القصف الإسرائيلي بعد منتصف الليل بعض الجسور وتقاطعات الطرق، فاستيقظ سكان حيّنا على صوت القصف، وخرَجوا إلى شرُفات منازلهم يستطلعون ما يحدث. وضّبنا بضعة أشياء سريعًا واستجبنا لإنذار إخلاء منطقة «الضاحية» متوجِّهين إلى إحدى قرى منطقة جبيل الشيعية، بدعوة من أصدقاء لنا، ومكثنا هنالك نحو عشرة أيام. ثم لما بدا أن الحرب ستطول استأجرنا شقة صغيرة في منطقة العبادية في قضاء عاليه وانتقلنا إليها. ومن المكانين، عشت الحرب وقتها كنازح، لا يطالني منها بشكل مباشر إلّا الخوف والقلق وأخبار الموت والدمار وبعض أصوات الانفجارات البعيدة.

في حرب ٢٠٢٤ عشت تفاصيل التوتّر الذي سبَق توسّعها من جنوب لبنان إلى كل مناطق السكن الشيعي، أي الفترة التي شهِدت مجزرة مجدل شمس واغتيال فؤاد شكر، ولكن وقت توسُّعها كنت في الولايات المتحدة الأميركية. عن بُعد، ولكن عن كثَب، عشت تفاصيل نزوح أقربائي وأصدقائي من عيترون لمدة ١١ شهرًا تقريبًا، من الثامن من تشرين الأول ٢٠٢٣ حتى أيلول ٢٠٢٤، وهو نزوح كثرٌ من اللبنانيين وكثرٌ من الشيعة لم يكونوا واعين فعليًّا له، وهذا يُعطي فكرة عن مدى التضامن الوطني في بلدنا، وعن مدى التضامن الشيعي في طائفتنا أيضًا. وعندما توسَّعَت الحرب طال الخطر المباشر دائرة أوسع من أقاربي وأصدقائي وأهلي... كانت فترة رُعب دائم وقلق دائم. وآمل أن تكون آخر حروبنا. أنا شخصيًّا أُرهقت، وكثيرون أُرهقوا وإنْ كانت غالبية هذه الكَثرة لا تعبّر بصوت عالٍ عمّا يختلج في صدورها لأسباب متعدّدة.

ما هي التحديات المتعلقة بالوجود المكاني خلال الحروب؟

القلق وما يُرافقه من خوف، ولكن القلق بحدّة وبأشكال مختلفة. إلى حدٍّ ما، نعرف كيف نرتّب الأمكنة بحسب نسبة الخطر المرتبط بالوجود فيها. يعلو منسوب القلق وينخفض ويضيق ويتّسع بحسب مكان وجودك ووجود مَن تهتمّ لأمرهم بشدّة. قد يتركّز قلقك على نفسك وعلى أُسرتك الصغيرة أولًا وبعدها على دائرة أوسع من الأصدقاء والأقارب. وقد يتركّز قلقك على دائرة الأقارب والأصدقاء إنْ كنت تشعر بأنك، شخصيًّا، بعيدًا عن الخطر... إلخ.

أنا عشت كل الحالات، في حروب مختلفة. أكثر واقعة أرعبتني على الصعيد الشخصي كانت أثناء حرب تموز، حين كانت والدتي في عيترون وتقطّعت الطرق وعلقت هناك، حالها كحال كثيرين من أبناء بلدتي التي كانت تتعرّض يوميًّا لقصف مدفعي وغارات. دام هذا الرعب ١٢ يومًا، ارتكبت إسرائيل خلالها مجزرتين في عيترون، فأُمي لم تستطع مغادرة القرية إلّا بعد ١٢ يومًا.

في حرب الـ٢٠٢٤، من وجهة نظرك، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية؟ وهل كان هناك من مكاسب؟

لنبدأ بالمكاسب، كون الإجابة عنها أسهل. كانت حرب الصفر مكاسب. كل شخص يتحدث عن مكسب مباشر من الحرب هو مخترع معنويات من النوع الرديء. حتى الأوهام مُنيت بخسائر مثل وَهْم «معادلة الردع».

أما عن الخسائر فلن أستطيع حصرها ولكن سأحاول أن أسلسلها حسب أهميتها: آلاف الضحايا المدنيين؛ آلاف الشباب المحزّبين المقاتلين الذين يشكّل مقتلهم خسارة للبنان وللطائفة الشيعية؛ مئات آلاف المنازل المدمَّرة بالكامل أو المتضرّرة؛ عشرات آلاف المصالح المدمَّرة بالكامل أو المتضرّرة. كل شيء لحقت به خسائر، من البشر إلى الحجر إلى الشجر إلى الحيوانات الأليفة والبرية. منطقة الشريط الحدودي صارت منكوبة، ومَن جال فيها بعد الحرب يعرف عن ماذا أتحدّث، فالمشهد هناك يصعب وصفه ولا يمكن أخذ فكرة عنه من مشاهد الدمار الذي وقَع على أغلب قرى الجنوب وضواحي بيروت الجنوبية.

طائفة بأُمها وأبيها عادت عقودًا إلى الوراء. كثُرٌ أنفقوا ما لديهم من مدّخرات، وكثُرٌ من أصحاب المصالح الصغيرة اضطُروا للبدء أو سيضطرون للبدء من الصفر على ركام مصالحهم وبصفر مدّخرات. إنْ كان يمكننا تخيّل أن الأبنية المتضرّرة سترمَّم خلال سنة، بطريقة أو بأخرى، لا نعلم، حتى الآن، إذا كان ما تدمّر بالكامل سيتوفّر له دعم تمويلي دولي لإعادة إعماره أو لا!

ماذا عن مستقبل الطائفة، أي كيف سيرتّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

كل مستقبل مجهول. أنا أكره التقديرات الشبيهة باليقينيات. دائمًا أي تقدير للمستقبل تدخل في رسمه عوامل كثيرة متغيّرة وبالتالي شكل هذا التقدير يتغيّر بحسب تغيّر هذه المتغيّرات التي لا نعرف ما سترسو عليه.

يمكن أن نقدّر أن الحرب الأخيرة قتلت حزب الله الإقليمي، بمعنى أنها حيّدت تداخله المباشر بالصراع الإقليمي في المنطقة، وذلك بموافقته على تفكيك بُنيته العسكرية، بدءًا من المنطقة الواقعة جنوب نهر الليطاني، وأنها أيضًا قضت على حزب الله بوصفه حركة مقاومة عسكرية



عيترون، موقع بنت جبيل

لبنانية، فلا مقاومة بلا بُنية عسكرية. لكن حزب الله بوصفه حزبًا سياسيًّا محليًّا نجا، وإنْ كان متصدِّعًا ومتضرِّرًا.

في المدى القريب، أو في السنوات القليلة القادمة، سيبقى حزب الله حزب الشيعة الأول. ففي لبنان، لا تموت أحزاب الطوائف الكبرى بسهولة. النظام الطوائفي - التشارُكي يمدّ هذه الكيانات بحِبال نجاة كثيرة. كل طائفة في لبنان تبحث عن تنظيم قوي تتحلّق حوله لتضمن مكانتها السياسية ونصيبها من المحاصصة. وفي اللحظة الراهنة، مع استعصاء ولادة معارضة شيعية فاعلة، لا بديل لدى اللبنانيين الشيعة عن حزب الله في المدَيين القريب والمتوسط.

يعرف حزب الله هذه الديناميات وكيف تتحرّك. ولذلك بدأ، مباشرة بعد دخول اتفاق وقف الأعمال العدائية حيِّز التنفيذ، بطرح سردية استهداف مكانة اللبنانيين الشيعة ومحاولة البعض منعهم من الوصول إلى المال اللازم لإعادة إعمار ما تهدّم و...، وذلك ليعيد ترتيب وضع شعبيته بينهم. وسينجح في ذلك، ولو نسبيًّا، حتى لو كانت شرائح واسعة منهم ممتعضة من «مغامرته» الأخيرة وما رتّبته عليها من خسائر. وأعني بنجاحه النسبي أنه سيبقى الحزب الأقوى والأكبر داخل الطائفة الشيعية، ولكنه سيتراجع عمّا كان عليه قبل الحرب.

في المدى المنظور، لنقُل في العقد القادم، لن ينجح حزب الله في الحفاظ على مكانته بدون أن يمتلك القدرة على الاستمرار في لعب الدور المنتظَر منه، ولهذا الدور شقّان: تحشيد الشيعة في وجه أي محطة يقرأون فيها استهدافًا لهم أو تُصوَّر لهم هكذا، وتحقيق مصالح أبناء هذه الطائفة في النظام السياسي الزبائني مع ما يتطلّبه ذلك من توفير خدمات لهم بإمكاناته الخاصة أو من المال العام.

والشقان المذكوران مترابطان، فلا قدرة لحزب على تحريك الناس وقيادتهم وتزعُّمهم إذا فقَد قدرته على «إعالتهم». ففي العقدين الأخيرين، نجح حزب الله في لعب دور «المُعيل» و«المُنقذ» وكان يمتلك إمكانات مالية كبيرة جعلته الموظِّف الأول للبنانيين الشيعة في مؤسّساته الخاصة، وطريقهم إلى الوظائف العامة والاستفادة من المال العام، بالشراكة مع حركة أمل. فهل سينجح في الاستمرار بلعب هذا الدور في ظلِّ حملة دولية لتجفيف مصادره المالية، وفي ظلِّ احتياجات شعبية غير مسبوقة بسبب ما خلّفته الحرب الأخيرة من خسائر؟ الإجابة عن هذا السؤال ستكون واحدًا من العوامل الأساسية التي ستحدِّد مكانته في المستقبل، فقد ينجح في إعادة بناء شعبيته الجارفة أو قد يتقلّص إلى مجرّد حزب سياسي شيعي كبير.

وفي ما خصَّ «المعارضة الشيعية»، وهي بشكل أدقّ «معارَضات»، وأجمع تحت هذا المصطلح المعارَضات المنطلقة من «بُعد طائفي» وتلك المنطلقة من «بُعد وطني متجاوز للطائفة»، عليها أن تفكّر بالمستقبل المنظور وليس بالمستقبل القريب. عليها أن تمتلك دافعًا للعمل من أجل إحداث تغيير في العقد القادم وليس في انتخابات ٢٠٢٦ النيابية، ونجاحها، بدوره، سيرتبط بجملة عوامل متغيِّرة. فالأمر الآن ليس صراعًا على وراثة حزب الله لأن هذا الحزب لم يمُت. المطلوب هو العمل على تجاوز حزب الله ودفع الشيعة إلى تجاوز حالة حزب الله إلى حالة أكثر وطنية وأقّل طائفية.

ما هي الصورة المتوقّعة لعلاقة الطائفة الشيعية بالطوائف الأخرى في الوطن؟

الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى مقدِّمة. علاقة الطوائف ببعضها تحدّدها الأحزاب الطائفية الكبرى. هكذا هو الحال في لبنان. لا بل أكثر من ذلك، فمعظم اللبنانيين لا يميّزون بين الانتماء لطائفة ما وبين الانتماء لحزب الطائفة الأقوى. في ما خصّ الشيعة، معظم أبناء باقي الطوائف يُماهون بين الشيعي وبين محازب حزب الله أو مناصره. وهنا لا أتحدث فقط عن عامّة الناس بل هذا حال كثُر من «نُخب» الطوائف.

وعليه، في المدى القريب، فإن حزب الله، كونه سيبقى الحزب الشيعي الأكبر والأقوى، هو مَن سيستمر في تحديد شكل علاقة الطائفة الشيعية بالطوائف الأخرى في لبنان. لتغيير هذا الواقع، نحتاج إلى وجود تنوّع سياسي أكبر داخل الطائفة الشيعية.

مثل هذا التنوّع موجود، ولكن نسبة المختلفين عن الثنائي، والذين يبوحون باختلافهم عنه والفاعلين سياسيًّا على أساسه هُم قلّة. ولا أحب الحديث عن «الأكثرية الصامتة»، ففي ثقافتنا «الساكت عن الحق شيطان أخرس» ومجال السياسة هو مجال حقوق قبل أي شيء آخر.

والتنوّع السياسي الأكبر يتحقق بأحد شكلَين ومن الأرجح أن يتحقق بكليهما في الواقع: الشكل الأول هو انشقاق مكوّني «الثنائي الشيعي» واختلاف أولوياتهما، وهذا قد يحصل في حياة نبيه بري أو بعد وفاته وربما بعد خلاف الورَثة في حركة أمل على تِركة الحركة السياسية ما قد يحوّلها إلى أكثر من تيار؛ والشكل الثاني هو تنامي المعارَضات الشيعية من خارج دائرة الثنائي، بالموجود منها وما سينشأ تباعًا. وعلى هامش هذا الكلام، أنا من أنصار تنوّع المعارضات ولست من أنصار الوحدة. يمكن أن تنشأ جبهات وفق توافقات علنية في محطات كالانتخابات ولكن التنوّع مهم.

بالعودة إلى صلب سؤالك، في المدى القريب الذي سيحدِّد حزب الله فيه شكل علاقة الشيعة بباقي الطوائف في لبنان، أعتقد أن هذه العلاقة لن تكون مستقرّة، فحزب الله يحتاج إلى خلق علاقة جيّدة وبنّاءة مع باقي الطوائف لإعادة ترميم ما خسره في الحرب الأخيرة مع إسرائيل، ولكنه في الوقت نفسه يحتاج إلى مواجهات طائفية كي يشدّ عصَب الشيعة حوله. ما يبدو لي الآن هو أنه سيحاول توطيد العلاقة بالدروز والسنّة وتوتيرها مع المسيحيين تحت عنوان صدامه مع حزب القوات اللبنانية. ما ستفعله حركة أمل والشيعة المعارضون ومدى فعاليتهم سيحدِّد القسم الآخر من الصورة، وعلينا أن ننتظر ما سيفعلانه وكيف سيفعلانه لنرَ اكتمال الصورة.

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، بالرؤية المستقبلية لها؟

بالتأكيد. الخيارات التي سارت بهَديها غالبية الشيعة، وهي خيارات حزب الله، في العقدين الأخيرين على الأقل،

كانت خيارات هدّامة وانتحارية، أكان في ما خصَّ علاقة الشيعة بباقي الطوائف في الداخل اللبناني، أم في ما خصَّ إقحام اللبنانيين الشيعة بغالبيتهم في صراع أكبر من حجمهم وطاقتهم.

سبَق أن شبّهت «محور الممانعة» برمّته بضفدع لافونتين، ذاك الضفدع الذي رأى ثورًا وأُعجب بحجمه فراح ينفخ نفسه ليناظره فتضخّم وتضخّم حتى انفجر. ما بدأه «محور الممانعة» كدعاية عن أنه ندٌّ لأميركا ولما يُسمّيه بـ«الاستكبار العالمي» تحوّل مع مرور الوقت إلى قناعة. صدّق المحور كذبته وساعدته إسرائيل على ذلك عبر ضخٍّ إعلامي واسع سوّقت فيه لفكرة قوّته لتصوُّره للعالم على أنه تهديد وجودي لها يتطلّب دعمها بشكل غير مشروط.

في المحصّلة، وحتى لو أشحنا النظر عن التحولات العملية التي حصلت عامي ٢٠٢٤ و٢٠٢٥، لم يقدّم «محور الممانعة» نموذجًا يُحتذى به، فجماعاته فكّكت دولها وساهمت في بؤس شعوبها. وحتى النموذج الإيراني نفسه لا يُلاقي القبول من شعبه، وضمن مَن يرفضون تبنّيه كثُر ومن أشدِّ مناصري جماعات المحور، ومَن لا يصدّق ليذهب إلى أي حيٍّ في ضواحي بيروت الجنوبية وليستفتي ناسه.

وفي سياساتها لـ«تصدير» ثورتها، اعتمدت إيران نموذج خلْق جماعات خارجة عن سلطة الدول وتعمل بشكلٍ موازٍ لها، في ما يشبه نموذج الحرس الثوري الإيراني، وقد عمّق هذا النموذج الانقسامات الطائفية الحادة في المجتمعات حيث تتواجد جماعاتها. ونتَج عن ذلك تردّي حال كل البلدان التي دخلَتها، على كافة الأصعدة. فوجود هكذا جماعات تسبّب بضرب مؤسسات الدول القانونية والأمنية مع ما ينتج عن ذلك من زيادة في منسوب الفوضى ونشوء هرَمية تسلّط وتحقيق مصالح لا تضبطها القوانين، وخلْق بيئة خصبة للفساد.

صحيح أن ما يسمّى بـ«محور الاعتدال» يتجاهل وجود مشكلة اسمها سياسات إسرائيل، مع أن التفكير في ذلك ضرورة لكل الدول العربية وخاصة للدول المجاورة لإسرائيل، إلّا أن «محور الممانعة» ارتكب خطيئة بحق الشعوب العربية ببنائه كل شيء حول هذه المشكلة، وكأنها المشكلة الوحيدة أو كأنه من المبرَّر إهمال كل شيء آخر في سبيل حلّها، فعَسكَرَ شرائح واسعة من المجتمعات، وعلّق حياة الناس إلى يوم ما في المستقبل لا أحد يعرف متى سيأتي أو إذا كان سيأتي.

أما عن الحل أو ما الأفضل في رأيي؟ هنالك حلول كثيرة ولكن كلها ينبغي أن تقوم على أساسين: الأول، تفعيل فكرة أن لبنان وطن نهائي لجميع أبنائه التي طرحها السيد موسى الصدر والعمل على أساسها، ما يتطلّب استثمار الشيعة وبقوة في مشروع الدولة لا في أي مشروع موازٍ للدولة أو مواجه لها ومانع لتطوّرها؛ والثاني الانكفاء عن الصراعات الإقليمية لتحييد لبنان قدَر المستطاع عنها ورفض لعب دور البيادق لصالح قوى إقليمية.

هذان هما الأساسان الرئيسيان. غير ذلك، أعتقد أن الشيعة مؤهّلون للعب دور القاعدة الشعبية الأساسية، أو الرافعة، الممهِّدة لتطوير النظام اللبناني وتحويله إلى نظام مدني عابر للطوائف، وهذا يمكن أن يكون جزءًا من استثمارهم في مشروع الدولة، ولا أتحدث هنا عن «إلغاء الطائفية السياسية» بوصفها مطلبًا طائفيًّا إسلاميًّا بل أتحدَّث عن دولة تزيد فيها مساحة المدنية وتزيد فيها الفرص لتمازج المجتمعات الطائفية، مع الإبقاء على حقوق الطوائف كي لا تندفع أي طائفة إلى ممارسة سلوك الخائف، وهذا يدمّر أي فكرة للبنان أفضل.

د. أحمد جابر

الشيعة لهم مشروعهم الوطني وعلينا إصلاح النظام السياسي وبناء مؤسسات الدولة

«ثقافتنا ليست الموت وإنما الاستشهاد من أجل أن يعيش الآخرون بكرامة».

د. أحمد جابر، أستاذ مساعد في كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية، مدير عام شركة تُعنى بالطباعة. رئيس المركز الاقتصادي والاجتماعي للدراسات الاستراتيجية وخبير اقتصادي.

في هذا الحوار يتحدّث د. جابر عن حرب الـ٢٠٢٤، والمعاناة التي عاشها اللبنانيون جميعهم، وعن رؤيته لمستقبل الطائفة الشيعية.

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك، ثم في الحروب الإسرائيلية، خصوصًا حرب الـ ٢٠٢٤؟



أنا من مواليد بلدة قناريت الجنوبية في قضاء صيدا، وسكان منطقة الخندق الغميق، وهي منطقة كما يعلم الجميع كانت على خطوط التماس تقريبًا. كنا نَشهد كل المعارك الجارية بين ما كان يُسمى بيروت الشرقية والغربية، في ذلك الوقت، وبالتالي كان حالنا يُشبه جميع اللبنانيين الذين عاشوا مرارة تلك المرحلة. ولأنني وُلدت وسكنت تلك المنطقة، وُلد لديّ ارتباط عاطفي بها، ولم أزَل متواجدًا فيها. الحرب كانت قاسية علينا، كحال كل اللبنانيين الذين كانوا يتواجدون في مناطق القتال. تنقّل بنا الوطن من حرب إلى أخرى، خصوصًا الاعتداءات الإسرائيلية المتكرّرة، ومنها في سنوات ١٩٨٢ و١٩٩٣ و١٩٩٦، وأيضًا عشنا مرارة تلك الحروب والاعتداءات.

ثم كانت مرحلة الانتصار في العام ٢٠٠٠ والذي تمثل باندحار العدو الإسرائيلي، من جنوب لبنان. وفي ٢٠٠٦ وقعت حرب تموز، ومجدّدًا، مرّت الأيام الـ ٣٣ بصعوبة علينا جميعًا، لكن انتهت بانتصار آخر للمقاومة ولكل لبنان. وهذا شهد له المسؤولون الإسرائيليون أنفسهم والذين تحدّثوا عن انتصار لبنان وهزيمة إسرائيل. وأذكر أنه في حرب تموز، تحوَّلنا جميعنا إلى دفاع مدني، خدمةً لأهلنا، لأننا نهتمّ بهذا البلد، ونؤمن أن الاهتمام بالإنسان جزء من الإيمان بالله. ثم نصل إلى حرب الـ٢٠٢٤، والتي عشنا خلالها أيضًا المرارة. وكانت حربًا صعبة على الجميع، فهي كانت حرب إبادة، ونتمنّى أن تكون انتهت، لأنها تركت آثارها الصعبة على الجميع.

انطلاقًا من هذه الحرب، ما هي المكاسب التي حققتها الطائفة الشيعية، وماذا عن الخسائر؟

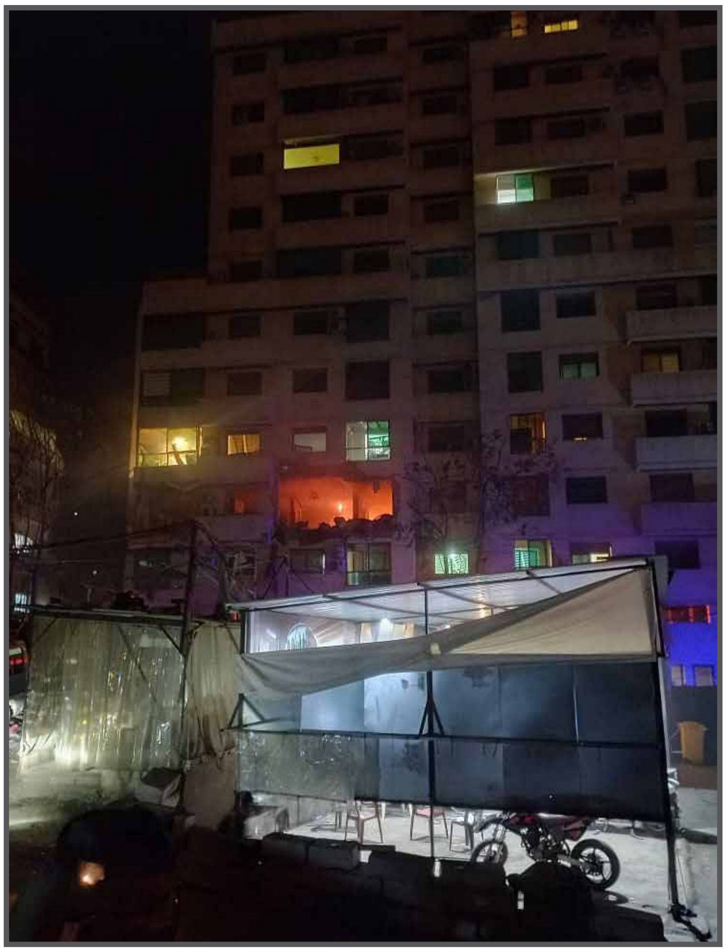
لعلّ ما يمكن اعتباره مكسبًا في الدرجة الأولى، هو أن إسرائيل لم تنتصر، لأنها فشلت في تحقيق أهدافها العسكرية للحرب، وفي المقابل، فإن المقاومة لم تنهزم، بينما انتصر لبنان كله. وعلى الرغم من كل الدمار الذي تسبّبت به آلة الحرب الإسرائيلية، إلّا أن إسرائيل فشلت في ما كانت ترغب بالوصول إليه، وهذا يعني أنها لم تنتصر. صحيح هي مارست كل أنواع القتل والتدمير، لكن لا بدّ لنا أن نميّز بين الخسائر، وبين الانتصار بمعنى أن المقاومة لم تنهزم، برغم كل ما حصل. وأعتبر هنا أن مجرد الصمود هو انتصار، ففي الـ٦٦ يومًا من المعارك البرّية، ثبتت المقاومة في الدفاع عن أرضها، وقد تولّى ذلك أبناء القرى، فكل قرية كانت بحماية أبنائها، وهذا هو الانتصار. وفي موازاة ذلك، انتصر لبنان بتوحُّد الطوائف، وهزيمة الطائفية، وأقصد هنا، أنه كان هناك رهان على حرب أهلية لبنانية، من خلال تعمّد إسرائيل استهداف بعض المناطق، القرى المسيحية والسنّية والدرزية، بهدف تأجيج الداخل وإحداث الفتنة، غير أن ما شهدناه هو أن أبناء المناطق المختلفة، في طرابلس والجبل ودير الأحمر وبيروت، احتضنوا أبناء الجنوب، لم تكن هناك تفرقة، وهذا كله يشكّل مكسبًا وانتصارًا حقيقيًّا، فالوحدة بين اللبنانيين انتصرت، ونحن نتمسّك بها، انطلاقا من تمسّكنا بالتعايش الإسلامي المسيحي، الذي يُعد ثروة، يجب التمسّك بها، كما قال الإمام المغيَّب السيد موسى الصدر.

ونعود إلى الخسائر، نعم هناك خسائر كبيرة، أسوأها هي فقدان الأرواح البشرية، وكذلك المادية على صعيد المنازل والمحال التجارية، والأراضي الزراعية؛ ففي المنازل التي دُمرت تمَّ القضاء على ذاكرة آلاف اللبنانيين المكانية. وعليه، دفعت الطائفة الشيعية ضريبة كبيرة جدًا لعلّها ضريبة الجغرافيا، لكوننا على حدود كيان غاصب، يحضّر لنا منذ ١٩٤٨ الموت والدمار، فهو ارتكب في ذلك العام مجازر عدّة، أبرزها ما جرى في بلدة حولا الجنوبية، ثم اعتدت إسرائيل في ١٩٦٨ على مطار بيروت، وكذلك ١٩٧٨ و١٩٨٢، وفي كل تلك الاعتداءات لم يكن هناك حزب الله ولا تدخُّل خارجي ولا إيران.

نعم كان هناك مقاومة، وهي فصائل عدة، منها فلسطينية وأخرى لبنانية، على سبيل المثال أفواج المقاومة اللبنانية أمل، وكانت الأحزاب اليسارية. كان هناك قوى تقاوم حماية للبنان، لكن ما وصلنا إليه اليوم، أن هناك أطماعًا لإسرائيل في بلدنا، وجميعنا نعرفها، بدايةً كانت في المياه، واليوم المزاعم التوراتية، وهي أن «حدودك يا إسرائيل» من النيل إلى الفرات، و«إسرائيل الكبرى». كل هذه الشعارات، توضح طبيعة الهدف التي تعمل إسرائيل على تحقيقه، لكن إرادة اللبنانيين والمقاومة هي التي تصدُّ هذا العدوان، ولولا الدفاع عن لبنان من قِبل المقاومة، في حرب الـ٢٠٢٤، لكانت إسرائيل، تمكّنت مجدَّدًا من الدخول إلى بيروت، كما حدث في ١٩٨٢. المقاومة قلّصت الخسارة، بتضحيات فُرضت علينا، لكن في رأيي إن الدفاع عن الأرض هو واجب وطني.

كيف سيرتّب الشيعة بيتهم الداخلي، وماذا عن العلاقة مع الطوائف الأخرى؟

قبل أن نتحدث عن الطائفة الشيعية وبيتها الداخلي، علينا أن ننظر إلى الوضع العام القائم في لبنان. في بلدنا هناك مشكلة أساسية، تتعلّق في سوء الإدارة، وهناك أيضًا سوء نوايا، وهذا ما أوصل الدولة إلى الهرَيان. كذلك علينا أن ننظر إلى حال الدولة وأوضاعها. وهنا أرى أن الكثير وللأسف، من الداخل والخارج، ساعَد في انهيار الدولة، ضمن مخطط تدمير ممنهَج للاقتصاد اللبناني، يليه تدمير ممنهج للمجتمع، وبالتالي تدمير ممنهج للدولة بمؤسّساتها. لذلك فإن الانطلاقة تكون من بناء دولة المؤسّسات. وعندما نقول مؤسّسات، فإننا



المبنى المستهدف في خندق الغميق، موقع بنت جبيل

نأخذ على سبيل المثال المؤسسة العسكرية اللبنانية، أي الجيش. فهذه المؤسسة ولله الحمد، ظلّت متماسكة حتى في أسوأ الظروف وأحلكَها ظُلمة، هي لم تتفكّك، لكن، المشكلة في المسألة، أن السياسيين لم يتمكّنوا من تأمين التسليح اللازم لها، ولا العديد المطلوب، لتتمكّن من مواجهة التحدي المتعلّق بالعدو الإسرائيلي على حدودنا؛ كان يجب تقوية الجيش لكن ذلك لم يحدث، ولم يحظَ بالدعم، وذلك بسبب الفساد والإنفاق غير المدروس، كل ذلك أضعف الجيش. وفي الوقت نفسه، لدينا عدو يجب مواجهته، لكن عندما عجز الجيش عن المواجهة للأسباب التي ذكرْتها، هنا تقع المسؤولية على المواطن، للدفاع عن أرضه. أي أن كل اللبنانيين واجب عليهم الدفاع عن أرضهم، فالمسالة لا تتعلّق فقط، بالطائفة الشيعية، وأذكر هنا أنه في الجنوب هناك قرى مسيحية وأخرى درزية وسنّية.

وهنا أدخل الى موضوع البيت الداخلي، وأشدِّد بداية على أن الشيعة، هم أول الخاسرين في غياب الدولة، وأول الرابحين بحضورها. هذا الأمر بات واضحًا للجميع. فغياب الدولة والتشريع والقضاء أكَل أموال المودعين،

وأقول ذلك لأن معظم الودائع هي أموال لأفراد من الطائفة الشيعية، فتغرَّب أبناء الطائفة إلى أفريقيا مثلًا، كوّن أرصدة في المصارف. لذلك أعتبر أن الشيعة يقوون بوجود الدولة ويضعفون بغيابها، نحن توّاقين لبناء الدولة لكن للأسف، لسنا وحدنا في هذا البلد بل جزء من الكُل، ولدينا شركاء في هذا البلد، لكن لا وجود لوحدة هدف بين هذه المكوّنات جميعها. لذلك نحن نرى، قبل الحديث عن إعادة ترتيب أمور الطائفة الشيعية، علينا أن نُعيد إعمار الدولة، قبل إعادة إعمار لبنان، أي إعادة إعمار الدولة بمؤسّساتها، ومن خلال هذه العملية نتمكّن من تقوية الجيش، ليتولّى الدفاع عن الحدود، ويكون المطلوب منّا أن نعيش كمواطنين مرتاحين، غير مهدَّدين في أمننا، بين الفترة والأخرى. فنحن لدينا في السجل اللبناني ما يزيد على الـ٣٠ ألف اعتداء إسرائيلي، من ٢٠٠٦ الى اليوم.

على مستوى الطائفة الشيعية، المطلوب إدارة شؤونها بشكل دقيق، فبعد كل الضربات التي حدثت، لا بدّ من التفكير، بداية بمشروع لبنان أولًا، والطائفة الشيعية جزء من مكوّنات لبنان، والتفاعل بين الطوائف والتعايش في ما بينها ضرورة وطنية ولبنانية.

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، بالرؤية المستقبلية لها؟

أنا سمحت لنفسي أن أتحدَّث شيعيًّا، لكن كما تعلم نحن نتكلّم لبنانيًّا، ولكن يمكنني القول إن الطائفة الشيعية، هي واحدة من مكوّنات المجتمع اللبناني. قد يصوِّر البعض أن الطائفة في مرحلة الهزيمة والانكسار والضعف، لكنني أقول إن الطائفة قوية ويجب أن تجيّر قوّتها لخدمة لبنان. هذا الأمر نشأنا عليه، هذه ليست شعارات، فهذه الطائفة تملك قوة اقتصادية ومالية وشعبية وثقافية وعلمية وتربوية وعسكرية، كل نقاط القوة هذه، سخّرتها لخدمة لبنان وهذا كان واضحًا للجميع، لم يكن لدينا أي خطاب فئوي، نحن منفتحون على الجميع ونتعامل مع الكُل، تحت سقف لبنان، لم يكن لدينا العقلية الفئوية، فالذين استشهدوا في الجنوب والبقاع معظمهم من حمَلَة الشهادات، نعرفهم، وبينهم طلّابنا، فهم أصحاب قضية وليسوا مرتزقة، هم لبنانيون مؤمنون بالله وبأرضهم وبالإنسان، مؤمنون بأن خدمة الإنسان هي من خدمة الله، والدفاع عن الأرض هو واجب مقدَّس، وانطلقوا من هذا الايمان واتجهوا لحماية هذا البلد. كثيرون قالوا إن هذه ثقافة موت، لا هذا ليس صحيحًا، نحن ثقافة استشهاد من أجل بناء ثقافة حياة، نستشهد لنحمي الآخرين، إذن هي ثقافة استشهاد وليس موت، ثقافة استشهاد من أجل أن يعيش غيرَنا حياة كريمة.

انا أعتبر أن الدفاع عن الأرض هو واجب مقدّس، وهذه القناعة راسخة لدى أبناء الطائفة الشيعية، فالمواثيق الدولية تمنح الشعوب الحق في الدفاع عن أرضها، والمقاومة وُجدت في كل الدول التي تعرّضت للاحتلال. لكن ما نقوله إن هذه القناعة، يجب أن تكون لدى كل اللبنانيين، فإذا كان البلد للجميع، فالمطلوب من الجميع، وليس الشيعة وحدهم، أن يدافعوا عن وطنهم.

ونستذكر في هذا السياق الاعتصام الذي قام به الإمام المغيَّب السيد موسى الصدر في دير الأحمر، هو فعل ذلك للدفاع عن مسيحيي دير الأحمر، في ذلك الوقت. نحن أصحاب مشروع بناء دولة المواطَنة والإنسان بعيدًا عن الطائفية والمذهبية، لذلك فإن رؤيتنا المستقبلية يجب أن تكون ركيزتها، وكما قُلت سابقًا، بناء دولة المؤسّسات، وتحويل ثقافة الدفاع عن الأرض إلى ثقافة عامة لدى كل أبناء الشعب اللبناني. فكما تُقدِّم الطائفة الشيعية في دفاعها عن لبنان، على الآخرين أن يقدِّموا أيضًا. لكن للأسف ضعف الدولة، هو ما اضطُر أبناء الجنوب لممارسة مقاومتهم، والدفاع عن الوطن، لذلك أرى أنه لا بدّ من تقوية الجيش، فهو جيش وطني وأثبت في الكثير من المواقف أنه على قدْر المسؤولية كما جرى في نهر البارد وفي معركة الجرود. لكن هذا الجيش برغم كل ذلك، يحتاج إلى دعم أكبر. وهنا أقول لا بدّ من بناء الدولة اللبنانية، قبل إعادة إعمار لبنان، وعندما نبني الدولة فهذا يعني أننا حدَّثنا قوانين وعزَّزنا القضاء والمؤسّسات، والجيش وما إلى ذلك. المطلوب اليوم استعادة هيبَة الدولة، بالقانون وتطبيقه وتحديثه مع قضاءٍ فعّال، وعندما يتمّ ذلك نرتاح، ونحمي أبناءنا كطائفة شيعية، ونصونهم من الموت. وأجدُ اليوم أنه لا بدّ من الحوار مع الأطراف الأخرى حول كيف يمكن لنا إعادة بناء الدولة، وأن نكون شركاء متضامنين وأن يكون الدفاع عن الأرض حق واجب على الجميع.

د. داوود فرج

يعيش الشيعة حاليًا مراحل الصدمة النفسية التي لا تسمح حتى بالتفكير في الحلول أو الخروج من الأزمة

مَن هو داوود فرج؟ بينَ الولادة والطُّفولة والدِّراسة وأماكن النَّشأة؛ ماذا في الذَّاكرة من تلكَ الأيَّام؟



من مواليد بلدة عيناتا – قضاء بنت جبيل عام ١٩٧١. بعد عامٍ من ولادتي، تعرّض منزلنا للهدم نتيجة الغزو الإسرائيلي عام ١٩٧٢، فنشأتُ في جو من عدم الاستقرار، بسبب المناوشات التي بدأت عقب اتفاق القاهرة عام ١٩٦٩.

في عام ١٩٧٦، تحوّلت المنطقة إلى ساحة مواجهات ومحاور قتال بين الفدائيين الفلسطينيين وجيش لبنان الحر بقيادة سعد حداد (الميليشيات المسيحية). تابعتُ دراستي الابتدائية والمتوسطة في مدرسة عيناتا، والثانوية في ثانوية بنت جبيل، ثم انتقلت إلى بيروت حيث تابعت دراستي في ثانوية حارة حريك.

في تلك الفترة، بدأت العمل المقاوم، وانضممت إلى خلية في بلدتي عيناتا، التي أصبحت ضمن الشريط الحدودي الذي تشكّل بعد الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٧٨، ولم أكن قد بلغت سن الرشد بعد.

في عام ١٩٩٠، تم اعتقالي من قبل جيش لبنان الجنوبي (جيش لحد) عندما كنت في التاسعة عشرة من عمري، وذلك إثر تنفيذنا عدة عمليات عسكرية في منطقة بنت جبيل. بقيت معتقلاً في سجن الخيام لمدة سنتين، إلى أن تمكنا من الفرار في ٦ أيلول ١٩٩٢، أنا وعدد من رفاقي في المعتقل.

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حروب ١٩٩٣ و١٩٩٦ وال ٢٠٠٦ واليوم في ٢٠٢٤؟

تأثّرت منذ صغري بجدي، الحاج علي فرج، أحد وجهاء المنطقة، إذ كان حاضرًا دائمًا في أحاديث العائلة وذاكرتها، وتكثُر الروايات عن شجاعته وإقدامه ومواقفه الوطنية. هذا التأثير العميق كان دافعًا أساسيًا لانخراطي في العمل المقاوم في مواجهة الاحتلال.

كنت أرفض فكرة الحرب الأهلية، انطلاقاً من قناعة راسخة بأن اللبنانيين لا يجب أن يتقاتلوا فيما بينهم، بل يجب أن يتوحدوا في مواجهة أعداء الوطن والاحتلال.

كنت مؤمناً بفكرة أساسية: أن المقاومة ليست فقط تحريرًا للأرض، بل أيضًا مشروعٌ للتغيير. تحريرٌ من الاحتلالات، وتغييرٌ للنظام نحو مزيد من العدالة والشفافية.

بعد خروجي من الاعتقال، آثرت الابتعاد عن السياسة، وكرّست عشر سنوات من حياتي للعمل من أجل المعتقلين من منطلق إنساني بحت، بعيداً عن الحسابات والانتماءات السياسية.

بعد سنة من خروجي، وتحديداً خلال حرب تموز ١٩٩٣، أدركت أن مسار مقاومة الاحتلال قد تغيّر. فقد بات واضحاً للجميع أن حصرية العمل المقاوم بيد حزب الله، وتحت إشراف سوري، هو فعل استئثاري ينهي أي فعل مقاوم. فالمقاومة، في جوهرها، فعلٌ حرّ لا يمكن أن يكون موجّهاً أو خاضعاً لوصاية.

جاءت حادثة «بئر السلاسل» بعد حرب ١٩٩٣ لتكون صورة واضحة للهيمنة السورية على القرار السياسي اللبناني، وأيقنت حينها أن الحروب الإسرائيلية في لبنان لم تعد سوى صراع إقليمي بين إيران وإسرائيل، ضحيته الأولى هو المواطن اللبناني، ولا سيما الجنوبي.

وبالفعل بدأت عملية تصفية ممنهجة للجهاز المقاوم في الحزب الشيوعي اللبناني، الذي كنت قد انتسبت إليه. تم فرض أزلام النظام السوري داخل أجهزته ولجنته المركزية، وتم إقصاء الكوادر المقاومة وكل من ناصر خيار المقاومة الحرة.

أما حرب نيسان ١٩٩٦ (عناقيد الغضب)، فقد كانت، في تقديري، نتيجة تآمر إسرائيلي – إيراني على إنهاء مشروع الرئيس الشهيد رفيق الحريري، الذي كان يقوم على تحرير

لبنان من الصراعات الإقليمية وربطه بالسوق الأوروبية. وقد جاءت هذه الحرب بعد زيارة الرئيس الفرنسي إلى بيروت، فكانت نهايتها بمثابة بداية النهاية لمشروع «ربيع رفيق الحريري».

أما حرب تموز ٢٠٠٦، فكانت ثمرة صراع أميركي – إيراني، حيث أرادت إيران أن تُظهر قدراتها الإقليمية، فخاض حزب الله الحرب وخرج منها باعتبار نفسه منتصرًا، رغم صدور القرار ١٧٠١ الذي فرض وقائع جديدة. الفارق النوعي في هذه الحرب تمثّل باستخدام الصاروخ الصيني البحري الذي دمّر البارجة الإسرائيلية، إلى جانب الصاروخ الروسي «كورنيت» الذي لعب دوراً حاسماً في مواجهة الدبابات الإسرائيلية.

لكن الخاسر الأساسي كان المواطن اللبناني، ولا سيما الجنوبي، الذي تكبّد الدمار والخراب وفقدان الممتلكات. وقد شكّل هذا «الانتصار» مادة دعائية لمحور الممانعة، واستُثمر حتى عام ٢٠٢٤، وهو العام الذي بدأت فيه المعادلات الدولية والإقليمية بالتغير، وبدأ معه تقليم أظافر النفوذ الإيراني.

في هذا السياق، كانت الحرب التي وقعت في ٢٠٢٤ محطّة مفصلية، دفع اللبنانيون، وخصوصًا الشيعة منهم، ثمنًا باهظًا لها من خلال التدمير الشامل والخراب الواسع، فيما خرج حزب الله منها بهزيمة لم تُنهِ وجوده، لكنها أضعفته إلى حدٍّ كبير.

من وجهة نظرك؛ ماذا خسرت الطائفة الشيعية في حرب العام ٢٠٢٤؟ وإذا كان ثمّة أسباب، فما هي؟

خلال هذه الحرب، برز التباس كبير بين حزب الله والطائفة الشيعية، إذ لم يتمكن كثيرون من أبناء الطائفة من التمييز بين الطائفة كمكوّن وطني، وبين حزب الله كتنظيم يحمل مشروعاً إقليمياً خاصاً.

كان حزب الله قد ربط الناس به على المستويات الاقتصادية، والأمنية، والدينية، والعسكرية، مما جعل الفصل بين الحزب والطائفة أمراً بالغ الصعوبة.

وعندما استُهدف حزب الله في الحرب، بدا الأمر وكأنه استهداف للطائفة الشيعية بأكملها، رغم أن استهداف جهة أو طرف سياسي لا يمكن أن يُفسَّر منطقياً على أنه استهداف لكل الطائفة.



غارة على بلدة عيناتا، النهار

إلا أن الواقع أظهر أن الشيعة، كطائفة، هم من دفعوا الثمن الأكبر، فتجلّت النكبة كأنها نكبة الطائفة، لا الحزب وحده.

كيف ترى مستقبل الطائفة الشيعية وكيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

في ظل ما هو ظاهر حالياً، يعيش الشيعة في لبنان حالة من الضياع. تنمو في أوساطهم مشاعر كربلائية، تُختزل في تصورٍ بأن العالم بأسره يتآمر عليهم، لأنهم – في وعيهم الجمعي – يمثلون الحق، بينما الآخرون يمثلون الظلم والباطل.

هذه النظرة، لا تنسجم مع منطق العقل ولا مع معطيات الواقع السياسي والاجتماعي المعقّد.

ضمن السيكولوجيا الشيعية في لبنان، تبرز حالة من التسليم للقدر كجزء من المزاج العام، وهي تُعد آلية دفاعية لا واعية تهدف إلى البقاء والاستمرار في ظل ظروف خارجة عن السيطرة. ونتيجة لهذا المزاج، نشأ نوع من الاعتراف الضمني بالتفوّق النوعي للعدو، مقابل التمسك بقدرة «الصمود» كقيمة أساسية. هذا العدو الذي لن يصمد المدة الذي هو يستطيع الصمود بها.

وبالتالي يعيش الشيعة حاليًا مراحل الصدمة النفسية التي لا تسمح حتى بالتفكير في الحلول أو الخروج من الأزمة.

ماذا عن علاقة الطائفة الشيعية بغيرها من الطوائف اللبنانية؟

إن مشاركة حزب الله في الحربين السورية واليمنية أوجدت حالة من الغضب في نظرة العالم العربي إلى

الطائفة الشيعية، حيث حمّل كثيرون هذه الطائفة تبعات مشاركة حزب الله، المنضوي ضمن المحور الإيراني، في تلك الصراعات.

وقد أدّى هذا الأمر إلى تنامي مشاعر النفور لدى المكونات الطائفية اللبنانية الأخرى تجاه الطائفة الشيعية، باعتبارها – في نظرهم – سبباً في استجلاب الأزمات والمشكلات إلى الداخل اللبناني، عبر ارتباطها المباشر بسياسات إقليمية خارجية.

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، في رؤيتها المسقبلية، لها وللآخر؟

من الضروري إعادة النظر وتقييم الواقع الشيعي على مختلف المستويات، وفي طليعتها الساحة الثقافية.

فمن أجل إزالة الالتباس القائم بين جماعة «حزب الله» باعتبارها درّة مشروع تصدير الثورة الإسلامية الإيرانية، وبين الطائفة الشيعية باعتبارها مكوّناً لبنانياً أصيلاً ساهم في تأسيس دولة لبنان الكبير منذ عام ١٩٢٠، وذات انتماء عربي واضح، يتجلّى – تاريخياً – في تقليد أغلب الشيعة اللبنانيين للمرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف، يجب على الشيعة في لبنان أن يؤكدوا بشكل واضح على مرجعية النجف دون سواها، كمرجعية عليا.

على الصعيد الوطني، من الضروري التأكيد على التزام اللبنانيين الشيعة بالدستور اللبناني، وباتفاق الطائف، وبنهائية الكيان اللبناني كوطن نهائي لهم، يجمعهم به الانتماء المكاني والمصلحة الوطنية المشتركة.

ولا بد من التشديد على أن التضحيات التي قدّمها اللبنانيون الشيعة في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي ومواجهته، إنما هي تضحيات لبنانية خالصة، نابعة من إرادة الدفاع عن السيادة الوطنية وحماية الأرض، وليست مرتبطة بأي مشروع إقليمي أو دولي. فقد كانت هذه المقاومة مبادرة ذاتية من مواطنين لبنانيين وجدوا أنفسهم في مواجهة صراعات إقليمية، فحملوا السلاح دفاعاً عن أرضهم وأهلهم.

واليوم، يتمسك هؤلاء المواطنون بضرورة بسط الدولة اللبنانية سلطتها الكاملة على جميع أراضيها، وحصر السلاح بيد الشرعية، بما يضمن حماية جميع اللبنانيين دون استثناء.

كذلك، يجب على اللبنانيين الشيعة أن يكونوا في طليعة الرافضين لكل أشكال الزبائنية والمحسوبية، وأن يعملوا من أجل قيام دولة لبنانية حديثة، قائمة على الشفافية، والعدالة، والحوكمة الرشيدة، دولة لجميع اللبنانيين، تُبنى على أساس المساواة والكفاءة.

فقط بهذه المقاربة يمكن بناء وطن يحفظ كرامة أبنائه، ويصون مستقبل شبابه، ويمنع عنهم خطر الهجرة والتهجير.

ولا بد من التأكيد أن التضحيات التي قدّمها اللبنانيون الشيعة في مقاومة الاحتلال الاسرائيلي ومواجهته، إنما هي تضحيات لبنانية صرفة نابعة من إرادة الدفاع عن السيادة الوطنية وحماية الأرض، وغير مرتبطة بأي مشروع إقليمي أو دولي، وهي مبادرة من مواطنين لبنانيين وجدوا أنفسهم في مواجهة صراعات إقليمية ما دفعهم لحمل السلاح والدفاع عن أرضهم.

واليوم يتمسك هؤلاء المواطنون بضرورة ببسط الدولة اللبنانية سيادتها على كافة أراضيها وحصر السلاح بيد الشرعية، بما يضمن حماية جميع اللبنانيين دون استثناء. ولا بد للبنانيين الشيعة أن يكونوا في طليعة الرافضين لجميع أشكال الزبائنية والمحسوبية، وأن يعملوا من أجل قيام دولة لبنانية حديثة قائمة على الشفافية والعدالة والحوكمة، تكون لجميع اللبنانيين وفق معيار المساواة والكفاءة.

سالي حمود

الحرب أعادت «السردية الأساسية» حول القضية إلى الواجهة العالمية

مستقبل الطائفة لا يبدو جميلًا

مَن هي سالي حمود؟ بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟



وُلدَت في المستشفى العسكري في الرياض، فأبي وأمي كانا موظَّفين فيه. عشت جزءًا من طفولتي في السعودية وبدأت دراستي هناك، ثم عُدنا إلى لبنان. عشت الحرب التي عُرفت بحرب جعجع عون، وكانت تلك بداية تعرُّفي على الحرب. سكنت بداية في بيت جدي الذي كان مقابل قصر جنبلاط في كليمنصو، وكانت مدرستي هناك. ثم انتقلنا إلى خلدة، دوحة عرمون، حيث عايشنا فترة الوجود السوري.

ثمّة أمور لا تغادر الذاكرة بسهولة؛ كيف أثّرت الحروب في لبنان بدءًا بالحرب الأهلية وصولًا إلى حرب العام ٢٠٢٤ عليكِ وعلى مكان سكنك؟ وما هي التحديات المتعلّقة بالوجود المكاني خلال هذه الحروب؟

تأثيرات الحرب لا تُغادر الإنسان حتى وإن لم يكن مدركًا ذلك. أنا الآن مهتمة بالقراءة حول الصدمة، أو التروما، الموروثة. التروما التي نرثِها أحيانًا تأتي من أسلافنا وأجدادنا، لكن ثمّة جزء كبير منها يتعلّق بالصدَمات التي نُعاصرُها وأهمها الحرب. تذكّرت، وأنا أتحدّث إليك، يوم كنت بعمر السادسة أو السابعة نازلة إلى الملجأ أحمل شمعة بيَدي وأرتدي قميص النوم، على درَج البيت وأمي تحمل بيَدها «المسجّلة» وأختي كانت معنا وخالاتي وأقاربنا الذين اضطُروا لترك أماكن سكنهم واللجوء إلى السكن عندنا لأن الحرب حينها كانت تتنقّل. أذكر الملجأ والراديو ولعب الورق وصوت الراديو، كما كنت أقوم بتقديم نشرات الأخبار على مسمَع أهلي هناك. أعتقد أن هذا هو السبب الذي جعلَني أحبّ مجال الإعلام. وكان عندي فضول لأن أفهم ما الذي يجري، فالطفل يسأل كثيرًا لكنه لا يعرف كيف يسأل ولا يعرف لماذا يتواجد في مكان فيه قصف، ولا يعرف إن كان هو جزءًا من هذه الحرب ومعنيًّا بها بشكل مباشر.

في حرب تموز ٢٠٠٦ عادت إليّ تلك الذكرى، لكنّي كنت قد كبرتُ طبعًا، لذلك بقيَت راسخة أكثر في ذاكرتي. في تموز ٢٠٠٦ كنت أسكُن في دوحة عرمون، وكان منزلنا يطلّ على مطار رفيق الحريري الدولي ومدرجه، وقد شاهدت لحظة القصف على المطار قبل أن تنتشر في الأخبار حتى. كانت صدمة فعلًا. هنا تفهم أنك لست معنيًّا بالحرب، لكنّك تسأل: أين يجب أن أكون الآن؟ هل أُساعد الناس على الطريق؟ أم أحتمي في منزلي؟ هل أهرب؟ أنا الآن مثلًا اضطُررت لمغادرة بيروت لفترة قصيرة، لكنني أشعر أنه يجب أن أكون في بيروت. هذا التضارب في الشعور غريب جدًّا.

الفارق بين حرب العام ٢٠٠٦ وحرب العام ٢٠٢٤؛ أنه في تموز ٢٠٠٦ كنت أعيش حالة حزن. كنت في العشرين من عمري تقريبًا، وتعمّدت أن أنزل إلى مثلّث خلدة لمساعدة النازحين. وأذكر موقفًا لي، حيث كنت مع بعض الشباب الذين أعرفهم من المنطقة، وكان مقرًا لإحدى الجمعيات نجتمع فيه دائمًا، وهو عبارة عن بيت غير مفروش بالكامل، فطلبت منهم أن يكسروا الباب وأدخلنا إليه أكثر من تسعين نازحًا، ورحنا نؤمِّن لهم احتياجاتهم، وتركتُ ورقة فيها اسمي وتعهُّد بالحفاظ على ما في البيت. هنا شعرت أن وجودي يعني شيئًا ما، وكنت أشعر بمسؤولية اجتماعية. أذكر أنَّ صاحب دكان لم يرغب في مساعدتنا، غضبت وكسَّرت له بعض الأغراض. هنا شعرت بالمسؤولية وشعرت بالغضب أيضًا ونسيت الخوف. في الحروب، يكبرُ الخوف حين يكون الإنسان خارج ميدان الحرب.

أنا أسكن حاليًا في الأشرفية لكن أهلي من سكان الضاحية. بيتي أنا في مأمن، وبيت أهلي أصيب بأضرار كبيرة، لكن المبنى لم يسقط، بينما الأبنية المحيطة به فقد تضرّر معظمها ودمِّر البعض الآخر، وأثّرت الحرب فيّ أيضًا لأنني اضطّررت لإيواء أهلي عندي، كغيرهم من الناس طبعًا.

من وجهة نظرك؛ ماذا خسر الشيعة في حرب العام ٢٠٢٤؟ وإذا كان ثمّة مكاسب، فما هي؟

حرب العام ٢٠٢٤ تشبه حرب العام ٢٠٠٦ من حيث إنها بقيت، للأسف، كحرب محصورة بطائفة معيّنة في البلد. وهذا ليس غريبًا على بلدٍ مثل لبنان. لكن في الواقع، لقد أثّرت هذه الحرب على البلد بأكمله وليس فقط على الشيعة. فالعلاقة مع إسرائيل، في الأساس ودون حرب حتى، تؤثّر على بلدنا بشكل سلبي جدًّا، بسبب وجود تهديد دائم؛ تهديد وجودي، أمني، اقتصادي، سياسي، وإسرائيل تعمل دائمًا على إيجاد شرخٍ بين أبناء الوطن بشكل واضح، لأن هذا العدو يعرف كيف يستخدم الخطاب الذي يضمن له تحقيق أهدافه، سواء خطابه إلى الإسرائيليين أو خطابه إلينا. العدو الآن بات يخاطبنا بشكل مباشر، بالصوت والصورة، ويُظهر لنا كم هو يعيش في تفاصيل حياتنا. وهو يحاول دائمًا أن يؤذي طائفة معيّنة من خلال «الحركشة» بعدّة مجموعات في لبنان. والطائفة الشيعية اليوم تشعر كما لو أنها المعني الوحيد بهذه الحرب، وكما لو أن وجود هذه الطائفة هو نقمة على هذا البلد وأنها هي من تخرِّب البلد وتهدِّد سلمِه الأهلي بسبب وجود المقاومة. لو نظرنا إلى الأمر نظرة سطحية قد تبدو الجملة صحيحة، أعني كونَ الشيعة وحدهم المعنيين بالحرب حاليًّا وبشكل مباشر. لكن لو تمعَّنا أكثر في التاريخ وفي مجريات الأحداث وفي الردود الإسرائيلية والغربية من خلال نظرتها لهذه الحرب، فنرى أنها تصوِّر الشيعة على أنهم هم من اعتدى على إسرائيل.

لا أريد أن أدخل في تفاصيل سياسية؛ كيف أُعلنت حرب الإسناد وما إلى ذلك، لكن لا يمكن أن ننسى أن إسرائيل موجودة على تخوم قرى ذات أكثرية شيعية، وأن الشيعة في فترة معيّنة استطاعوا أن يشكّلوا حركة مقاومة إسلامية، مع أننا لا يجب أن ننكر وجود حركات مقاومة من قبل. يؤلمني اليوم أن المقاومة حُصرت بحزب الله وبالطائفة الشيعية، لكننا نعرف أن المقاومة لم تكن ذات لون. لكن مجريات الأحداث وتأسيس حزب الله في المنطقة والطريقة التي أُسِّس بها، وانبثاقها من حركة أمل والدعم الإيراني له، كُل هذا أدّى إلى صبغ المقاومة بهذا اللون أكثر فأكثر. طبعًا نحن لا ننكر حقّنا في المقاومة في هذه الحرب، لكن حصر المقاومة في الفترات الماضية بطائفة معيّنة وحزب معيّن وفكر وإيديولوجيا معيّنَين أثّرت سلبًا على حزب الله وبالتالي على الطائفة الشيعية، إذ إن الملامة في هذه الحرب اليوم تقع على الطائفة الشيعية وليس على حزب الله فقط. ثمة أشخاص، خارج حزب الله، يؤمنون بمشروعية المقاومة، بسبب وجود الاحتلال الذي ينتج عنه وجود مقاومة، وهو حق قانوني معترَف به في القانون الدولي.

من هنا، الطائفة الشيعية مُنيت بخسائر كبيرة، إذ هناك جزء كبير من الجمهور الشيعي بات لديه نوع من الغضب والعتَب؛ بمعنى لماذا أدخلَنا حزب الله في حرب الإسناد في وقت لسنا قادرين على ذلك، وفي وقت نعرف أن الحزب تحت جناح إيران وأن هذا الأمر سيُنتِج هيمَنة سياسية وثقافية واقتصادية وما إلى ذلك.

أما المكاسب التي من الممكن أن تحقّقها الطائفة الشيعية فأعتقد أن الوقت مبكِر للحديث عنها، لكن بالعنوان العريض يمكن الحديث عن مكسب تحقّق وهو إعادة السردية إلى نصابها الحقيقي. قبل ٧ أوكتوبر ٢٠٢٣ كانت الأمور تبدو كما لو أن فصائل المقاومة، أيًّا كانت تلك الفصائل، هي التي تعتدي على إسرائيل. الجيل الجديد من الشباب كان على وشك أن ينسى حقيقة الكيان الصهيوني الذي سرق الأرض من الفلسطينيين، وبات الناس عمومًا يتعايَشون مع وجود إسرائيل بشكل طبيعي في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل تمارس سياساتها بهذا العنف والإجرام والحُكم العسكري، سواء في فلسطين أو في لبنان؛ عبر قتل الرُّعاة، والعدد الكبير من الخروقات الجوية التي تُعدُّ اعتداءً. لكن الناس صارت تتناساها لأنها كانت تتكرَّر بشكل كبير. أما اليوم فقد أعادت الحرب السردية الأساسية التي تصوِّر إسرائيل على حقيقتها، وهذا قد رأيناه في

التضامن مع القضية في أنحاء كثيرة من العالم، أميركا وأوروبا بشكل خاص، دعمًا للقضية. أعتقد أن هذا المكسب الذي يجب أن يُسجَّل للطائفة الشيعية أو للمقاومة أو للبنان أو للقضية الفلسطينية بشكل عام.

ماذا عن مستقبل الطائفة الشيعية، وكيف سيُرتّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

ثمّة نوع من الفوضوية من ناحية مستقبل الطائفة. أنا

مثلًا، كتبت العديد من المقالات التي أنتقد فيها حزب الله والنهج الذي يعتمده، وأنا كنت أعيش في الإمارات. لكن في الفترة الأخيرة لم يعد في إمكاني الدخول إلى الإمارات. كان لديَّ توقيع كتاب في معرض الشارقة الدولي، وأنا كنت أستاذة جامعية في جامعة مرموقة في دبي، وكتابي كان حول الذكاء الاصطناعي ويشكِّل قيمة علمية مضافة إذ إنه مطبوع باللغة العربية، وقد تمّت دعوتي من قِبل أكثر من جهة، لكن تمَّ رفض حصولي على فيزا لأنني أنتمي إلى طائفة معيّنة. فإذا كان الواقع اليوم بهذه السوداوية، كيف سيكون غدًا؟ ولا أعرف تحديدًا ما سيكون عليه مستقبل الطائفة، لأن هذا مرتبط بحيثيات وقف إطلاق النار. لكن لا بدّ من ردّ الاعتبار لهذه الطائفة. مثلًا، حزب الله موضوعٌ الآن على لائحة الإرهاب، لكن حزب الله ليس كل الشيعة. وهناك جدلية حول هذه المسألة هي أن حزب الله في لبنان ممثَّل في مجلس النواب وفي الحكومة. أنا أرى أن مستقبل الطائفة ليس مشجعًا.

يوجد بين الشيعة أنفسهم نوع من المشاحنة. أنا من الأشخاص الذين يُسمَّون بـ«شيعة السفارة» لأنني أملك علاقات مع كل الناس وأعبِّر عن رأيي في كل مكان، وهذا أثّر عليّ وجعلني كما لو أنني لست محسوبة على الطائفة الشيعية لأني لا أؤمن بالفكر الذي يؤمنون به وبالعقيدة التي يعتنقونها مع احترامي الكامل لها طبعًا. وفي الوقت نفسه أنا لست محسوبة على الفريق الآخر. فثمة مشكلة اليوم بين الشيعة أنفسهم تتلخص في سؤال: في أي توجُّهٍ يجب أن نسير؟ أنا شخصيًّا أؤمن بالفردانية، بخاصة في بلد كلبنان. قد يكون هذا الاعتقاد خاطئًا، فأنا لو كنت ضمن بيئة مختلفة كان من الممكن أن تكون مسيرتي العلمية والمهنية أكثر سهولة. وهذا رأيي الشخصي.



الحزام الناري على الضاحية، موقع بنت جبيل

ماذا عن علاقة الطائفة الشيعية بسواها من الطوائف في لبنان؟

الطائفة الشيعية قبل الإمام موسى الصدر عانت كثيرًا من مسألة الموقف الداخلي منها. لكن بعد ذلك شهدنا نهضة في الطائفة على المستوى الاقتصادي، العلمي، السياسي والثقافي. لكن هذا لا يعني أن تستقوي الطائفة على الآخرين. فهناك بعض المجموعات التي فرَضت منطق الاستقواء، فتسبَّب هذا الأمر بخلْق صورة نمطية عن هذه الطائفة داخل البلد وتسبّب بخلْق الحذر والنفور منها. لكن لا يمكن القول إن علاقتها مع الطوائف الأخرى ستكون متزعزعة بشكل كبير. خلال فترة الحرب كنت أحاول ألّا أكون جزءًا من المهاترات الإعلامية التي تتمّ على الهواء. وقد حاورت أصدقاء لهم فكر مختلف عن فكري واكتشفت أن ثقافتنا مختلفة جدًّا؛ فهمِنا للتاريخ مختلف. طبعًا، ليس كل الناس تستطيع أن تقرأ التاريخ وهي تتأثّر بالإسقاطات الموجودة حولها. في فترة الحرب كان الجميع مشغولًا بلمِّ شتاته ومساعدة نفسه وغيره، لكن فترة ما بعد الحرب أصعب بكثير من الحرب نفسها، والأزمات التي كانت قبل الحرب، ستعود بعد أن انتهت الحرب لكن بشكل أكبر.

محمد ناصر الدين

«استهدفت إسرائيل الفرادة العمرانية في جبل عامل، ضمن خطتها الممنهَجة في تدمير المعالم الدينية والثقافية، وكل ما يثبّت هوية الإنسان العاملي وطريقة عيشه وشعائره في ارتباطه بالأرض»

د. محمد ناصر الدين، شاعرٌ ومترجمٌ من الجنوب، أستاذٌ جامعي، يحمل دكتوراه في الهندسة الطبّية من جامعة تور بفرنسا، في اختصاص الفيزياء الطبّية. كاتبٌ وقارئ، خبِر تفاصيل المجتمع اللبناني وثقافته، فكانت لديه وجهة نظر تشمل الوطن، لا هذه المنطقة أو تلك.

في هذا الحوار، يتحدّث ناصر الدين، عن المكان والزمان، وذكريات المناطق والبيوت التي تنقّل فيها، خلال الحرب اللبنانية وما تلاها من حروب إسرائيلية، بالإضافة إلى أحوال الطائفة الشيعية، ما بعد حرب الـ٢٠٢٤.

بدايةً مَن هو محمد ناصر الدين؟



وُلدت في قرية سجُد في جنوبي لبنان، وهي قرية تقع على مرتفَعٍ في قضاء جزين وفيها مزار قديم يُقال إنه مزار سَبط بنيامين، وهو مزار كانت الطائفة الموسوية تحجُّ إليه في الربيع من كل عام في تقليد استمرّ حتى نكبة سنة ١٩٤٨. توزّعت طفولتي بين ثلاث بُقع جغرافية، بين سجُد حتى سنة ١٩٨٥، وبين الشيّاح في بيروت، التي كانت لا تزال عبارة عن بساتين، منها بستان الخليل، حيث كانت هناك نبعة ماء وأشجار وارفة، وأذكر أننا كنّا نحفر هناك الخنادق، في تقليد للعبة الحرب التي يمارسها الكبار فعليًّا. أمّا البقعة الثالثة، فهي عربصاليم الجنوبية، والتي كان لها الحصة الأكبر من طفولتي، وكانت منذ سنة ١٩٨٩، وتحديدًا ابتداءً من حرب ميشال عون، وبما أن بلدتي سجُد كانت قد أُحتلّت ودُمّرت، فقد كانت عربصاليم هي مصيَف العائلة.

لا تروقني السياسة لا قِبَل لي بها؛ أقول ذلك لأن الأسئلة في قسم كبير منها مرتبط بالسياسة. أتوجَّس من كلمة سياسي، علمًا أنها متداخلة في تفاصيل حياتنا كلها، حتى في الأكل والشراب، بحيث إن لكل طائفة في لبنان، على سبيل المثال، أكَلاتها المفضلة، ولها قاموسها المعجمي وطقوسها وأسرارها. أسعى جاهدًا أن أهرب من التصنيف. أعمل في الثقافة في ملحق «كلمات» في جريدة «الأخبار»، وأحاول أن أجعل منه مع الزملاء فسحة مهنية مستقلّة تُعنى بالشأن الثقافي بشكل أوسع. شخصيًّا أتجنّب الخوض في مجال السياسة وأشعر أنّ الثقافة هي ملعبي.

ماذا عن ارتباط الإنسان بالمكان، وكيف كانت تأثيرات الحروب المختلفة التي شهدها لبنان على مكان إقامتك؟

في عربصاليم، كان ارتباطي الأول بالأرض والمكان بشكل كبير جدًّا، لا سيما مراتع اللهو واللعب مع الأتراب عند نهر الزهراني، حيث تفتّحت حواسيَ على التراب والماء والألوان ومعنى أن يكون للإنسان بقعة أرض يبادلها العطاء والانتماء. ذاكرتي عن بلدتي سجُد كانت ضبابية، كنت طفلًا في السابعة من العمر عندما غادرتها، وبالتالي لا أذكر منها سوى لمحات هي عبارة عن كونها قرية عامليّة نموذجية، أي جامع (مسجد) يكون هو بمثابة القلب من الجسد، وتجتمع حوله البيوت الطوبية أو الحجرية وبيوت «الطّرش» (الماشية) المبثوثة من حولها، أمّا بيت المختار أو وجيه الضيعة، فمن الطبيعي أن يكون على أعلى التلة المشرفة على القرية، إذ يمثل اجتماعيًّا العصبية العائلية الموجودة في قرى جبل عامل كافّة.

بالنسبة إلى تأثيرات الحروب عليّ، وعلى مكان سكني، فقد كانت كبيرة جدًّا، ولم تبدأ منذ العام ١٩٩٣، بل قبل ذلك بكثير. سنة ١٩٨٥ كانت استثنائية، عندما طُردنا من قريتي سجُد، التي كانت بمثابة بقعة معزولة من الأرض (لم تصل طريق الإسفلت إليها إلّا في العام ١٩٦٤). بعد أقلّ من ٢٠ سنة على وصول الطريق إليها، هُجِّر أهاليها بالكامل: في البداية، لم يكن الاحتلال الإسرائيلي يعتبرها مصدر خطر، لكن تبيّن له لاحقًا أن مجموعات من المقاومة الوطنية اللبنانية والإسلامية كانت قد وجّهت ضرَبات موجعة له في جبل الريحان، وكانت تتّخذ من تلك

القرية الوادعة مقرًّا لها. في حينها، داهم العدو القرية، وخيَّر أهلها جميعًا إما أن يسلّموا المجموعات المقاومة، أو يطوّعوا ٥٠ عميلًا في «جيش لحد»، أو يُطردوا من ديارهم بشكل كامل فآثروا الرحيل على الوشاية أو العمالة. كان ذلك أول تأثير للحرب علينا: طُردنا في الصيف، تموز ١٩٨٥، وأذكر أنه خلال رحيلنا ونحن نهبط «جبل الرفيع» وجدّتي تسحبني من يدي بين الأشجار، بكَت المرأة الستينية حين سمعَت انفجارين متتاليين، وقالت إنهما جرّتا الغاز في مطبخ بيتها.

أعود إلى الحرب الأهلية التي عشتها في الشيّاح، أتذكّر أنه كانت لدينا مكتبة كبيرة في المنزل، وقد ملأ الغبار رفوفها، وفي لحظة ما قرّر والدي فتح النافذة لتهوئة الغرفة، وإذا برصاصة قناص تمرّ فوق رأسه، وتعبُر الغرفة الأولى فالثانية لتستقرّ في إبريق شاي موجود في «النملية». في صيف سنة ١٩٩٣ خلال العدوان الإسرائيلي، كنت في منزل جدّتي في عربصاليم، ولا أنسى صوَر بيوت الحارة التي استهدفها جيش العدو الإسرائيلي، بيتًا بيتًا، حيث استخدم العدو لأول مرة صواريخ مائلة، تمرّ عبر أسقف المنازل وتخرج من الجدار. بدأوا بالاقتراب من مكاننا بعد أن استهدفوا المنازل المجاورة، فقرّرنا خالي وأنا أن نواجه الموت المقترِب بالمزاح: أعطاني وقتها مبلغًا من المال، وطلب منّي الذهاب إلى ساحة الضيعة لشراء ما أريد إنْ وجدتُ محلّات فاتحة أبوابها. ذهبت إلى الساحة ووجدت بائع خضار محاصَرًا مع شاحنته المتنقّلة، فاشتريت ثلاث بطيخات، وعدتُ إلى المنزل. قمنا بتحطيم البطيخات على «البرندا»، وبدأنا نمرّغ وجوه بعضنا البعض بها، خالي وأولاده وأنا، وقلنا فليأتِ الموت ونحن نضحك. وهكذا تجاهلتنا الطائرات ونجَونا مع المنزل.

خلال عدوان نيسان ١٩٩٦ كنّا في بيروت، وبالتالي كانت التأثيرات أقلّ علينا من ١٩٩٣. لكن خلال عدوان تموز ٢٠٠٦، كنّا في بئر العبد في ضاحية بيروت الجنوبية، والدي وقتها كان يتعالَج من مرض السرطان بالأدوية الكيميائية، ولديه عاداته الخاصة في المَبيت والنوم والتنقُّل في المكان، وعليه لم يرغب بمغادرة المنزل وأصرّ على البقاء في المنطقة، إلى أن تمّ قصف بناية «الإمداد» (إحدى مؤسّسات حزب الله)، القريبة من البناية التي نسكن فيها. اهتزَّ بنا المنزل بقوة، عندها قرّرنا المغادرة إلى منطقة الأشرفية في بيروت، ومن هناك كنا نشاهد من أعلى التلّة في «السيوفي» الطيران الحربي الإسرائيلي وهو يُغير على بيوتنا ولحمنا الحيّ، في الضاحية الجنوبية. أكثر ما متّن ارتباطي بالمكان في تلك الحرب، هي المكتبة في منزلنا؛ أذكر يومها أنّ أحدهم اتصل بي وأخبرني أن منزلنا قد سُوّي بالأرض. سمع والدي الخبر وأبصرتُ الدمع في عينيه، وقال لي إن أسفي الكبير هو على المكتبة. لكن تولّد عندي شعور داخلي بأن الخبر ليس صحيحًا، فقرّرت أن أتحرّى الأمر عن قُرب. ركبتُ سيارتي وتوجّهت إلى المشرفية ومن هناك رأيت بنايتنا لا تزال في مكانها، وها أن الأمر قد اختلط على المتّصل، إذ إن العمارة التي استهدفت قريبة من عمارتنا. تابعت سَيري وركنت السيارة في إحدى الزواريب، ثم دخلت المنزل لأُحضر كتابًا لوالدي من المكتبة كدليل أن البيت لم يُدمّر. احترت أي كتاب أنتقي له، وجدت كتاب «خطط جبل عامل» للسيد محسن الأمين، شعرتُ أن هذا الكتاب يعني كثيرًا لوالدي فعلًا لأنه كان يدوّن عليه ملاحظاته، وعندما سلّمته الكتاب أحسست كأن روحه رُدّت إليه. كان أبي للمفارقة قد وضع داخل هذا الكتاب قصيدة «الدردارة» للشاعر حسن عبدالله. بسَطَها أمامه على الطاولة بورقها الأصفر بنسختها الأولى المنشورة في جريدة «النداء» وبرسوم الفنان إميل منعم، شعرتُ وقتها كأن سهل الخيام ينبسط أمام أعيننا، وكأن المقاومين يقومون بضرب الدبابات في السهل بصواريخ «الكورنيت». هذه بالمجمل ذكرياتي عن تلك المرحلة. أما بالنسبة إلى حرب الـ٢٠٢٤، فهي كانت الأقسى علينا على الإطلاق. أعادتني هذه الحرب سنوات طويلة إلى الوراء. عندما غادرت سجُد في أيلول الفائت، كانت الشتوَة الأولى تبلِّل التراب والشجر والبيوت، انتابني شعور غريب إنني سأغادر لوقتٍ طويل، أو إنني سأرى القرية لاحقًا بصورة مختلفة، وهذا ما حدث فعلًا: تهدّم البيت الثاني الذي أقمناه على أنقاض المنزل الأول، والذي أشادَه أبي ليجمع فيه شمل العائلة. تقوّضت الجدران والمكتبة والسطَيْحة حيث كنّا نلتقي ونسهر ونلعب الورق. سجُد مشهورة بلعب الورق الذي اللعبة التي كانت تُعيننا على مغالبة ليل الجنوب الطويل، هذا الليل الذي كنت أقضيه بين القراءة والترفيه ومسامرة النجوم. في بيروت كنت في حَيرة شديدة: هل أُخلي منزلي في الشياح وأرحل أُسوة بتلك الطوابير الهائلة النازحة من الجنوب

والبقـاع؟ عرفـت أن أهلـي قـد أخلـوا بيـت بئـر العبـد كليًّـا، لكـن شـيئًا مـا كان يشـدّني إلـى مكانـي فـي هـذا المنـزل. لـم يكـن هـذا المغنطيـس الجـاذب سـوى مكتبتـي الكبيـرة التـي تضـمُّ مجموعـة كتـب فرنسـية كبيـرة - كان والـدي قـد اشـتراها مـن آخـر اليهـود الموجوديـن فـي وادي أبـو جميـل - إلـى مكتبـة عربيـة جمعْتُهـا منـذ كنـت فـي العاشـرة مـن عمـري؛ لـم أكـن أرغـب فـي الرحيـل، وحضَرنـي مـا قالـه فيلسـوف إسـباني مـن أن «بيـت الرجـل أو المـرء حيـث كتُبـه». بقينـا فـي البنايـة لوحدنـا، خصوصًـا أن الأخبـار التـي وصلتنـا مـن الجنـوب أفـادت بـأن منزلنـا هنـاك قـد سُـوّي بـالأرض، إلـى لحظـة اغتيـال السـيد حسـن نصرالله المزلزلـة، هنـا أمسَـكني طفلـيّ الاثنـان كلّ مـن قـدَم: صـار الرحيـل ضـرورة! فـي السـابق كنـت أعتبـر نفسـي رجـلًا مـن حديـد لا مـكان للخـوف فـي قلبـه، لكـن عندمـا يُـرزق المـرء بـأولاد يغـدو مصيـره مربوطًـا بهـم، وتتبـدّل كل الحسـابات.

اضطُـررت للرحيـل علـى عجـل، ولـم يكـن لـديَّ تـرَف الوقـت حـول أي كتـاب سـأختار مـن المكتبـة. أذكـر أننـي ذات يـوم كنـت فـي المغـرب العربـي فـي ورشـة عمـل مـع شـعراء ومدرِّبيـن، طرحـتُ عليهـم هـذا السـؤال: لـو جُمعَـت كل كتـب العالـم فـي مكتبـة واحـدة واشـتعلت النيـران فيهـا، وعليـك إنقـاذ كتـاب واحـد منهـا، أي كتـاب سـتختار؟ اعتبرنـا جميعنـا يومهـا أن هـذا التمريـن نـوعٌ مـن التـرف الفكـري. لـم يخطـر فـي بالـي أن السـؤال قـد يـورّط سـائله عمليًّـا يومًـا مـا، فمـا الـذي سـآخذه مـن هـذه المكتبـة؟ ولأننـي لا أمتلـك تـرَف الوقـت أو الأمـان، سـحبتُ مـن المكتبـة فقـط الأعمـال الكاملـة ليوسـف إدريـس بأجزائـه الثلاثـة، وكنـت قـد جمعتهـا كل كتـاب مـن بلـد. لا أعـرف لمـاذا تركـت «خطـط جبـل عامـل» هـذه المـرة ورائـي، ربمـا لأنـه انتابنـي شـعور غريـب بـأن الكثيـر مـن الأمـور سـتتغيّر فـي هـذه الحـرب: أن تتقـوّض فكـرة اجتمـاع البشـر فـي بيـت، والكتـب فـي مكتبـة، والشـجر فـي حديقـة، إلـى كل فكـرة للإلفـة والمؤانسـة، سـألتُ نفسـي عـن مقـدرة الإنسـان علـى العـوْد الأبـدي، علـى مـا يُسـميه الفرنسـيونà refaire، هـل مثـلًا سـنُعيد بنـاء المنـزل للمـرة الثالثـة؟ فـي خضـمٍّ هـذه الحيـرة، خطـر الـي ذلـك المنـزل فـي سـجُد بذكرياتـه الكثيـرة، كان فيـه ممشًّـى مزنّـرًا بالـورود وإحداهـا اسـمها «بونسـيه» عنـد المدخـل. أذكـر إحـدى ليالـي الصيـف عندمـا اقتحـم الإسـرائيليون بيتنـا وهـم يبحثـون عـن أحـد المقاوميـن، أخـذوا والـدي إلـى البيـت المقابـل ووضعـوا البندقيـة فـي ظهـره. طلبـوا منـه طَـرْق بـاب مجموعـة مـن «المخرِّبيـن» وهـم يقصـدون المقاوميـن. كان أبـي يعـرف أن «الشـباب» ينامـون فـي الطابـق الثانـي المُفضـي بشـرفته إلـى الجبـل. ضلّـل والـدي عناصـر الدوريـة بالقـول إنهـم ينامـون فـي الطابـق السـفلي، فطـرَق البـاب صارخًـا: «يـا حـجّ أسـعد إجـو الإسـرائيلية». نعـرَه الجنـدي بالبندقيـة معترضًـا، فـإذا بوالـدي يصحّـح: يـا حـج أسـعد إجا جيـش الدفـاع الإسـرائيلي! سـمِع الشـباب مـا قالـه والـدي فاسـتفاقوا وقفـزوا مـن الشـرفة هاربيـن نحـو الجبـل. أعادتنـي الحـرب إلـى تلـك الذكريـات، تذكّـرت العـدو الـذي يأتـي إلينـا عبـر ممشـى الـورود ليقتحِـم علينـا ليلَـنا، أو يقتحِـم مكتبتنـا مـن شـبّاكها بـأن يسـقُط صاروخًـا فـي قلبهـا، أو ينسـف العمـارة التـي تقـع مقابـل منزلنـا، فيتناثـر الـردم والغبـار علينـا. هـذا العـدو الـذي لا يميِّـز بيـن البشـر والحجـر، يسـتهدف النـاس والعمـارات والمنـازل والمكتبـات وكل شـيء، تلـك هـي القصـة التـي لـن تنتهـي بيننـا وبينـه.

هـذا المحـو الممنهـج الـذي تمارسـه إسـرائيل، وطـلاء كل الأشـياء بلـون الدمـار الرمـادي، جعـل كل البيـوت تتسـاوى بالدمـار. وكأن هـذا العـدو تُغيظـه فـرادة البيـوت فـي جبـل عامـل، إذ يملـك كل جنوبـي شـيئًا مميّـزًا داخـل بيتـه، وكأنـه يضـع جـزءًا مـن روحـه فـي العمـران. سـنة ٢٠٠٠ حيـن كانـت سـجُد مدمّـرة بالكامـل، عرضَـت شـركة إيطاليـة علـى أهالـي البلـدة أن تُعيـد إعمارهـا علـى طريقـة المسـتوطنات، لكـن تلـك الفكـرة لـم تكـن تلقـى استحسـانًا وقبـولًا، ففكـرة المسـتوطنة تعبّـر عـن ثقافـة شـعب يشـترك فـي احتـلال أرض بالقـوة والتسـاوي فـي العمـران هـو مُـرادف لآلـة بطـش منظّمـة ومحترفـة. والترتيـب النموذجـي لجبـل عامـل ليـس كذلـك، وجـرى النـاس فـي بنـاء بيوتهـم علـى أذواقهـم وتقاليـد أهلهـم، فرأيـت كل مواطـن مـن أبنـاء القريـة قـد بنـى شـيئًا جميـلًا داخـل منزلـه: مقاعـد متنوعـة، ديوانيـة مظلّلـة بشـجرة سـنديان، شـرُفات مطلّـة علـى فلسـطين، إلـخ.

تسـتهدف إسـرائيل بالـذات هـذه الفـرادة العمرانيـة فـي جبـل عامـل، ضمـن خطتهـا الممنهَجـة فـي تدميـر المعالـم الدينيـة والثقافيـة، وكل مـا يثبّـت هويـة الإنسـان العاملـي وطريقـة عيشـه وشـعائره فـي ارتباطـه بـالأرض، وإلّا كيـف نفسّـر تدميـر البيـوت والمحـال الأثريـة فـي النبطيـة، الشـاهدة علـى التاريخ، حتـى وإن كانـت لا تحـوي عتـادًا أو تـؤوي مقاتليـن؟ ترفـض إسـرائيل فكـرة وجـود شـعب مجـاوِر لهـا لـه تاريـخ حقيقـي. هـذا الأمـر هـو النقيـض التـامّ لتاريخهـا الاسـتيطاني المـزوَّر

المبني على الأساطير، وبالتالي كان الشغل الشاغل لجيشها تدمير المعالم التي تدلُّ على عَراقة أرض جبل عامل، وما تعاقَب عليها من حضارات قديمة متجذِّرة، فالعدو لم يوفّر حتى المقامات الدينية، وبعضها تُنسب إلى اليهود أنفسهم، كمقام النبي سجُد الذي يُقال إنه أهولياَب بن أبيساماخ المذكور في كتبهم المقدسة.

أحزنني كثيرًا تدمير سوق النبطية القائم قبل نشوء دولة الكيان بكثير، والذي لطالما كان نقطة ربط حضارية وتجارية وثقافية بين جبل لبنان وفلسطين أو «سوريا الداخلية» مثل حوران والسويداء وجبل العرب. في مقابل هذا كله، هل إسرائيل إلّا كيان أرادت القوى الاستعمارية تجميعه من الشتات للهروب من المشكلة اليهودية في أوروبا وتبِعات معسكرات التعذيب في دول العالم؟ كيان زُرع قسرًا في جغرافيا المنطقة، ويريد أن يخلق لنفسه تاريخًا مصطنعًا على أنقاض بلاد عريقة بتاريخها. بوجود هذا العدو إلى جوارنا، فإن ذاكرتنا المكانية مهدّدة بشكل كامل، إذ لم يسلَم بشرٌ ولا حجر، وحتى الأحراج والأنهار أمعن فيهما العدو حرقًا وتلويثًا، مستكمِلًا الذي كان بدأ مع أصحاب نفوذ محلّيين، من خلال الكسّارات والمرامل التي أسّسوها خلافًا للقوانين وبلا تراخيص.

إن هذا التخريب كله هو خطة ممنهجة للقضاء على روح جبل عامل التي تعزِّز ارتباط الإنسان الجنوبي بأرضه.

انطلاقًا من حرب الـ ٢٠٢٤، ما هي خسائر الطائفة الشيعية، وهل هناك من مكاسب؟

الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية كبيرة جدًّا؛ على المستوى المادي، ليست خافية الخسارة المتعلّقة بتدمير المنازل والمصانع والمستشفيات والمَحال التجارية، على امتداد الجنوب والبقاع وضاحية بيروت الجنوبية، وقد رأينا ذلك جليًّا من خلال حجم الدمار الهائل، لكل تلك المنشآت وشراسة العدو في تحديد ما سيتعرّض منها للقصف والتدمير بالإنذارات المُسبقة وتحديدها بالإشارات الحمراء ومنها من دون سابق إنذار. هذه خسارة مادّية كبيرة جدًا. كذلك تشعر الطائفة الشيعية بخسارة معنوية كبيرة تمثّلت برحيل السيد حسن نصرالله، الذي كان بالنسبة إلى جزءٍ كبير منها، بمثابة القائد



غارات على الاودية في سجد، موقع سجد

والممثل السياسي لطموحات ما يُعرف ببيئة المقاومة وأهلها الذين عقَدوا عليه الآمال، بعد سنوات، هُم كبِروا معه، وفرِحوا معه بالتحرير في العام ٢٠٠٠ وهذا ما شارَكَهم فيه قسم كبير من اللبنانيين والعرب، وبكوا على استشهاد نجله هادي في الجنوب اللبناني، وجاروه في السياسة بخيارات قد تصحّ أو تخطئ في ظلِّ الواقع الداخلي والإقليمي المعقَّد والمتشابِك. ثمة خسارة أخرى تتعلّق بالنسيج اللبناني المتفكِّك، العاجز عن الإجماع على عدو أو صديق، بحيث بدَت الحرب حرب طائفة لبنانية لوحدها بمواجهة دولة العدو. هل إسرائيل هي عدوّة الشيعة وحدهم في لبنان؟ أم على هؤلاء التعلّم من حكمة الآخرين في تجنيب أوطانهم ويلات مواجهة عدو يقف العالم بأسره خلفه، بحيث يخيّل للمرء أن حدود هذا الغرب تبدأ من الخيام ومارون الراس والخيام وليس من جبل طارق أو حدود المكسيك؟ ثم ما مدى قِدرة الشيعة على جعل سرديّتهم تتقاطع مع السرديّات الأخرى، داخل النسيج اللبناني؟

في المقابل، ثمة من يرى مكسبًا في أن هذه البقعة، وهي الأخيرة في هذا العالم، قد ناصرت فلسطين بأن فتحت جبهة إسناد للتخفيف عن الشعب الفلسطيني. كما أسقطت اللُحمة، وما رأيناه من التكاتف على المستوى الداخلي، الرهانات على تشظّي المجتمع اللبناني واحتراب أهله في ما بينهم في هذه اللحظة الصعبة؛ رأينا في المقابل أن هذا المجتمع، بمختلف أطيافه وطوائفه، استقبل النازحين وقام باحتضانهم في بيوته، وأظهر صورة رائعة عن العيش المشترك، ومدى الطيبة التي يتحلّى بها هذا الشعب، وظهرت إمارات من التضامن الوطني يمكن البناء عليها مستقبلًا.

مـاذا عـن ترتيـب البيـت الشـيعي، والعلاقـة مـع الطوائـف الأخـرى؟

أتوقّـع أن تحصـل تغيّـرات كبـرى. صحيـح أن هـذه الطائفـة انكسـرت، لكنهـا طائفـة حيويـة، بأبنائهـا وبناتهـا وديناميّتهـا ووجودهـا الاقتصـادي القـوي فـي لبنـان، بالإضافـة إلـى وجودهـا الثقافـي والعلمـي، فـأرض الجنـوب والبقـاع وضاحيـة بيـروت الجنوبيـة ولاّدة، ومـا أعنيـه أن هـذه الطائفـة تمتلـك الكثيـر مـن الـكادرات العلميـة فـي مختلـف المجـالات، أطبـاء ومهندسـين وكتّابًـا وشـعراء، ومحاميـن ورجـال أعمـال؛ بمعنـى أن الوجـه المدَنـي للطائفـة الشـيعية لـه قاعدتـه الثابتـة والقويـة، وأعتقـد أن الطائفـة راكَمـت إنجـازات فـي هـذا البلـد أخرَجتهـا مـن عُقـدة التهميـش القديمـة، فهـي طائفـة مبـادرة فـي أماكـن ومجـالات متعـدّدة، وأعتقـد أن هـذا الأمـر سيسـاعد فـي نهضتهـا مجـدّدًا. أتوقّـع أن يُعيـد القيّمـون علـى السياسـة فيهـا قـراءة المتغيِّـر السـوري بعمـق وحـذَر، وتحليـل الزلـزال الـذي قلَـب نظامًـا مسـتبدًّا حالفَـه المقاومـة لتأميـن خـط إمدادهـا علـى حسـاب خسـارة الملاييـن مـن السـوريين والعـرب، فهـل يمكـن مثـلًا تحريـر اللبنانييـن باسـتعباد السـوريين؟ أمـا فـي لبنـان، فهـل سـيلتفت فكرهـم السياسـي إلـى شـعارات مكافحـة الفسـاد وبنـاء الوطـن التـي رُفعـت فـي ٢٠١٩، وتوجَّـس منهـا يومهـا بعـض أبنـاء الطائفـة الشـيعية فـي الحيـاة السياسـية؟

بالنسـبة إلـى علاقـة الطائفـة الشـيعية بالطوائـف الأخـرى، سـتكون علاقـة اعتـدال وجـوار أكثـر مـن كونهـا علاقـة تطرُّف وخصومـة، خصوصًـا أن احتضـان الطوائـف الأخـرى للنازحيـن الشـيعة، (لا سـيما الطائفـة السـنّية فـي بيـروت وعـكار وطرابلـس)، بـدّد الكثيـر مـن الأوهـام، وبلسَـم الكثيـر مـن الجـراح مثـل أحـداث ٧ أيـار المؤسِـفة، والعنـوان الجامـع لترميـم هـذه العلاقـة هـو فلسـطين: ثمّـة مـن عـضّ علـى جرحـه، والبعـض الآخـر ثمّـن محاولـة الشـيعة الوقـوف إلـى جانـب قضيـة فلسـطين بمـا اسـتطاعوا إليـه سـبيلًا. هـذه الأمـور سترسّـخ جسـور الحـوار بيـن السـنّة والشـيعة مسـتقبلًا. وكذلـك الأمـر بالنسـبة إلـى المسـيحيين والـدروز. كمـا أرى أن علـى المقاومـة التـي تحمـل السـلاح أن تناقـش معهـم ومـع كل لبنانـي الطريقـة الأفضـل لحفـظ هـذا الوطـن وأمنـه وترابـه وأولويـة أن تتولّـى الدولـة اللبنانيـة الدفـاع عـن حدودهـا بالجدّيـة الكاملـة، والشـروع فـي حـوار طويـل وصـادق بيـن المكوّنـات كافـة، يكـون الهـدف منـه بنـاء ثقافـة مشـتركة حـول مَـن هـو العـدو والغريـب فـي هـذا الوطـن.

مـاذا عـن الرؤيـة المسـتقبلية للطائفـة الشـيعية وهـل هنـاك حاجـة لإعـادة النظـر فيهـا؟

الطائفـة الشـيعية فـي حاجـة إلـى إعـادة نظـر فـي دورهـا الإقليمـي، فهـل سـتحمل لـواء تحريـر فلسـطين لوحدهـا، أم يُفتـرض بالأمـة العربيـة والإسـلامية، أن تجـد الحـل العـادل والشـامل لهـذه القضيـة؟ لـو أوقفـت إسـرائيل اعتداءاتهـا المتكـرِّرة، ستسـنح الفرصـة لأبنـاء الطائفـة الشـيعية فـي لبنـان فـي الالتفـات إلـى الداخـل اللبنانـي بـكل طاقتهـم وحيويّتهـم، بحيـث يتغلّـب العنـوان الداخلـي علـى العناويـن الخارجيـة. نحـن اليـوم أمـام طائفـة مُنهَكـة ومفجوعـة علـى أبنائهـا وأرزاقهـا ومسـتقبلها، ويجـب أن تُنشـأ ورشـة كبيـرة متعلّقـة بترميـم النفـوس والخـروج مـن ترومـا الحـرب وإعـادة الإعمـار. مـا دفعـه الجنوبيـون غاليًـا فـي نضالاتهـم يثبّـت إيمانهـم فـي لبنـان كوطـن نهائـي لجميـع أبنائـه، وآن الأوان لبنائـه علـى أُسـس تحفـظ كرامـة أهلـه وناسـه بمعاييـر المواطنـة والمدنيـة والمحاسـبة والشـفافية، فالشـعب اللبنانـي يسـتحق العيـش بكرامـة وحريـة، وأن ينـال أصحـاب الكفـاءات فيـه حقّهـم فـي الحيـاة العامـة. أظـنُّ أن أصحـاب وجهـة النظـر هـذه، سـيعلو صوتهـم فـي هـذه المرحلـة داخـل الطائفـة الشـيعية، بحيـث يرتِّـب الشـيعة بيتهـم الداخلـي أولًا، ومـن بعدهـا يفكّـرون مـع الفلسـطينيين والعـرب حـول المشـتركات ونقـاط الضعـف والقـوة، علـى أن يكـون القـرار الأول للفلسـطيني فـي مسـألة تحريـر بـلاده مـن الاحتـلال باعتبـاره صاحـب الـدار، وأن يدعمه اللبنانيـون جميعًـا، كمـا تفعـل الـدول العربيـة الأخـرى، كل بحسـب طاقتهـا وقُدرتهـا، وحبّـذا لـو يبـدأ الأمـر بتشـريعات وقوانيـن ترفـع الظُّلـم عـن الفلسـطينيين الموجوديـن فـي المخيّمـات علـى الأراضـي اللبنانيـة وتحسـين ظـروف عملهـم ومعيشـتهم وترتيـب أوضاعهـم.

د. مي عبدالله

خسائر ومكاسب «الشيعة» ستعتمد على مدى قدرة قيادات الطائفة على استيعاب دروس حرب ٢٠٢٤

الدكتورة مي كامل عبدالله شخصية علمية متحرّرة من كل القيود، أستاذة الإعلام والتواصل في الجامعة اللبنانية، شخصيتها نقدية مصقولة بالخبرة والتجارب. تعلّم عليها الكثير من الطلاب الذين درسوا في الجامعة اللبنانية، وبعضهم أصبح ذا شأن في عالم الإعلام. هي مؤسِّسة ورئيسة حالية للرابطة العربية للباحثين في الإعلام والاتصال التي تضمّ مئات الأساتذة من مختلف الدول العربية، وهدفها تشكيل قاعدة بحثية وشبكة علمية، تواجه، بواسطة البحث العلمي، كل أشكال التطرّف في المنطقة. وضعَت نظرية «متاهة التواصل الاجتماعي في الفضاء العام» التي ترتكز على فرَضية أساسية، هي أن التخلُّص من التّيه، لا يحصل إلا بالتسلُّح بالمعرفة والوعي والفكر النقدي، والتحرُّر من الفكر الشمولي.

هي ابنة بلدة الخيام الجنوبية، لم تنشأ في بيت مُلِمٍّ بـ«الطوائف»، فكان لها رؤيتها الوطنية، حول الكثير من قضايا الشأن العام.

تتحدّث د. عبدالله في هذا الحوار عن نشأتها وعائلتها، ورؤيتها التي لا يجب أن تنحصر في «الشيعة» فقط، بل على مستوى لبنان. فكان معها الحوار التالي:

مَن هي مي عبدالله ما بين الولادة والارتباط بالمكان؟



وُلِدت في منزل أدبي، والدي هو الأديب الراحل كامل عبدالله، من بلدة الخيام في الجنوب اللبناني، مؤلِّف كتاب «حدِّثني يا أبي»، والكاتب الصحافي في جريدة «الأنباء»، والتقدمي رفيق المعلم الكبير كمال جنبلاط. والدتي هي ابنة طرابلس الأديبة هدى عدره التي كانت أول أستاذة للأدب الفرنسي في لبنان، وهي مؤلِّفة للعديد من الكتب حول الأدباء المستشرقين. انتقلت هدى لمتابعة دراستها في بيروت حيث تعرّفت على والدي في الجامعة، فنشأت بينهما علاقة حب كبير. رفضت العائلتان عبدالله وعدره زواجهما في بداية الأمر، لبُعدهما عن بعض من حيث البيئة والمذهب والعادات، ولكنهما اقتنعتا لاحقًا بعلاقتهما، عندما حدَث زواج مختلط في عائلة والدتي. وهكذا وُلِدت في هذا البيت المتحرِّر التقدمي المليء بالحب في بيروت، وتأثّرت بعلاقة الحب بين والديَ وميولهما الأدبية والشعرية، فأمضيت سنوات المراهقة وأنا أكتب الأشعار والقصص الخيالية والعاطفية. كنت أروي القصص المتشابكة متأثّرة بوالديّ، فيضحك والدي ويمازحني: «متى تسكتين؟» وبرغم ذلك اشترى آلة تسجيل كان يسجل عليها كل أحاديثي ورواياتي.

ثمّة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حرب الـ٢٠٠٦ واليوم في الـ٢٠٢٤؟

في صغري نشأ ارتباط عائلي بيني وبين بلدتي الخيام، بحيث كنّا نزور جدّي وجدّتي في البلدة وكذلك الأقارب، لكن في العام ١٩٧٠ توفي والدي في حادث سير على طريق عاليه، ليتغيَّر كل شيء بعدها، فاتسعت المسافة بين أُسرتنا المكوّنة من أم وثلاث بنات، مع عائلة والدي الكبيرة. انقطعت زياراتنا التي كانت شبه دائمة إلى الخيام. كنت في ذلك الوقت في التاسعة من عمري، ولا أذكر من الخيام سوى بكاء عمّاتي المفجوعات أثناء جنازة والدي، ولِحى أعمامي الطويلة.

وهكذا كبِرت في بيروت ودرست في «الكولاج البروتستانت»، المدرسة الفرنسية التي أصرَّ والداي على تسجيلي فيها مع شقيقتي، فتكوّنت عندي صداقات وعلاقات مع الأولاد من كل الطوائف وكل الأماكن، وأغلبهم من أولاد الأثرياء والنواب والوزراء.

كنت أنتظر أسبوعيًّا زيارة مدينة طرابلس، مسقط رأس والدتي، حيث كانت جدّتي تستقبلنا في منزلها القديم مع جميع أخوالي، بحب وحرارة، فتعلَّقت بصورة خاصة بهذه المدينة التي تعكس روح العائلة.

عندما اندلعت الحرب الأهلية كان عمري ١٥ سنة، في بداية مراهقتي. انحصر تعلُّقي بالأمكنة في بيت الجبل، الذي بناه والدي في منطقة بعلشميه في بحمدون، وكان صديقه في وقتها الصحافي سليم اللوزي، وقد اختارا معًا حيًّا مرتفعًا بعيدًا من الضوضاء، يُعرف بتلّة الناطور، حيث كان يُطِلُّ على الجبال والوديان المحيطة راسمًا منظرًا طبيعيًّا خلّابًا. في ذلك المكان، كنت أجلس على صخرة منفرِدة عن الجميع، لأكتب مذكّراتي اليومية وقصائدي وبعض الخواطر.

لا أزال أحتفظ بكل الذكريات المرتبطة بذلك المكان؛ زيارات الأدباء، اجتماعات العائلة، زيارات الشخصيات السياسية، وأهمها كمال جنبلاط وابنه وليد، قبل وفاة والدي.

مرَّت خمس سنوات من الحزن والبكاء على والدي إلى أن اندلعت الحرب اللبنانية فبدأ الصراع على البقاء. وكنت في الـ١٥ من عمري وتوجَّب عليّ دعم والدتي الأرملة لحماية عائلتي، وكنّا نقيم في بيروت بمنطقة رأس النبع. وخلال الحرب كنت دائمًا كنت أتساءل: ماذا الذي يحدث؟ مَن يقاتل مَن؟ ولماذا يتقاتلون؟ ماذا تعني كلمتي سنّي وشيعي؟ لم أكُن أفقه كل تلك التفاصيل. فأصدقائي كانوا من كل الطوائف، ولا أعرف من أي طائفة صديقتي سمر على سبيل المثال، ولا ماريا! ماذا يعني أن نكون من طوائف مختلفة؟ وهل يُعقل أن نتقاتل من أجل اختلاف الطائفة؟ كنت أكرَه الأسئلة من طراز: أنت من وين؟ فماذا يهمّ ذلك؟ لم أسأل نفسي يومًا أنا من أين. أعرف أن أُمي من طرابلس وبلدة أبي هي الخيام. ما يهمّ من أين أكون؟ لماذا تهتمّون؟ كان منزلنا على خطوط التماس في شارع محمد الحوت، الذي شهِد المآسي، كنت في بعض الأحيان أجلس على الشرفة للقراءة فأسمع صراخ أُمي: ابتعدي عن الشرفة ستسقُط قذيفة! وقد عانت والدتي الأمرّين عندما كانت تصبنا يوميًّا إلى المدرسة من رأس النبع إلى شارع قريطم، وهي تحاول تفادي القذائف، ومرّات عدة كانت القذائف تسقط في الأماكن التي نعبُرها بعد ثوان قليلة من مرورنا. الحرب كانت بالنسبة لنا مأساة مضاعفة، فكان علينا أن نحافظ على بقائنا. وأذكر أننا عانينا مرّات كثيرة من أجل الحصول على رغيف خبز من الحيّ المسيحي المجاور. وأكثر ما يؤلِم وما لا يمكن نسيانه هو صدى صرَخات الموقوفين من الطوائف الأخرى والذين كانوا يخضعون لشتى أنواع التعذيب، والمسجونين في شقُق بين الأهالي وفي الأحياء السكنية. والأسوأ هو مشاهد الأجساد الحيّة التي كانت تسحلُها السيارات في الشارع، تحت أنظار السكان الواقفين على شُرفاتهم.

ما هي التحديات المتعلّقة بالوجود المكاني خلال الحروب التي شهدها لبنان، من الحرب الأهلية إلى ما تلاها من حروب إسرائيلية؟

أولًا لا بدّ من طرح هذه الأسئلة: كيف لا تكرَه الطائفية، وأنت تُشاهد كل هذا التعنيف والتعذيب والهمَجية؟ كيف يمكن تبرير هذه الممارسات؟ وأي بشر يُصدرون الأوامر لارتكاب هذه الأفعال؟ أكبر عدو للوطن هو في الداخل، وليس في الخارج. قد أبرِّر لإسرائيل، ولكن لا يمكن أن أجد تبريرًا لأبناء وطني! قد أبرِّر للصهيوني المصنَّف مجرمًا، ولكن لا تبرير لمَن يدَّعي العفّة والغيرة على الوطن وأبنائه!

وأشير هنا أيضًا إلى أنه، طوال ١٥ سنة من الحرب الأهلية، كان التصنيف مبنيًّا على مكان السكن فانقسمت المناطق. وصار في بيروت منطقة سنّية وأخرى شيعية، وواحدة للكاثوليك، وأخرى للروم، وثالثة للموارنة، والانقسام الأساسي كان مسيحي - مسلم. في الجبل كما في بيروت، نزَحت العائلات فتمركزت الطوائف بناء على هذا النزوح. تمركز الشيعة في الضاحية الجنوبية لبيروت، كما تنقَّل البعض منهم بين المناطق. وبالتالي فإن ذاكرتي مرتبطة بهذا الفرز المَقيت، ونحن بدورنا انتقلنا من رأس النبع، المنطقة الخطيرة أمنيًّا، إلى رأس بيروت، المنطقة البعيدة نسبيًّا عن خطوط التماس، حيث لا يسقط الكثير من القذائف وحيث هناك اختلاط طائفي. في هذه الفترة كنت قد تزوّجت من شاب بيروتي تعرّفت عليه في إحدى السهرات في السنوات الأولى للحرب، وكان هو على سفرٍ فكنت ألتقي به في الصيف، وأخيرًا وافقت على الزواج منه، إذ كان يبدو مناسبًا والحياة لم تعد محتمَلة في ظروف الحرب. انتظرت الحصول على الفيزا للسفر إلى السعودية ولم أُوفَّق، فرحَلت إلى فرنسا لمتابعة دراساتي العليا، ولم يكن هناك من خيار آخر أمامي.

فـي فرنسـا اسـتمرّ شـعوري بالاغتـراب، ولـم يبـارح بالـي السـؤال: مـا هـي هويّتـي؟ مَـن أنـا؟ فبعيـدًا عـن السياسـة كلنـا لبنانيـون. لا معنـى لشـيعي وسـنّي. بالنسـبة إلـيّ فـي بـلاد الغربـة، كان المهـم الدراسـة والعمـل والتأقلـم مـع مجتمـع الاغتـراب. والجميـل فـي فرنسـا أننـي حصلـت علـى المسـاعدة والدعـم مـن زمـلاء مغتربيـن وكانـوا مـن كل الطوائـف، كانـوا لبنانييـن فقـط. تأقلمـت مـع العيـش فـي فرنسـا، ولـم أكـن أعانـي مـن التعصّـب ضـد العـرب، وقـد سـاعدني شـكلي فـي ذلـك، شـقراء سويسـرية أو ألمانيـة... نحـن اللبنانيـون أصحـاب أصـول متشـابكة... «فمـن أيـن أنـت؟ ولا تنكُـري أصلـك» كمـا قـال لـي أحـد الزمـلاء فـي الجامعـة بعـد عـدة سـنوات، عندمـا أكّـدت علـى مسـمعه: «لسـت شـيعية ولا سـنّية!» قـال فـي حينهـا: هـذه مثاليـات! لا تنكُـري أصلـك!!... مـا أصـل الإنسـان غيـر إنسـانيته؟

وأشـير إلـى أن حربَـي ٢٠٠٦ و٢٠٢٤ مختلفتـان. كنّـا نواجـه عـدوًّا لا يرحـم ولكننـا نعرفـه جيـدًا ونتوقـع منـه الأسـوأ. ونعـرف كمـا تعـرف قيـادة المقاومـة، أننـا لا نسـتطيع التغلُّـب عليـه. مشـاعر إنسـانة حـرّة مثلـي فـي هـذه الحـروب، هـي مضطربـة جـدًّا ومنقسِـمة مـا بيـن تقديـر لمقاومـة تقاتـل العـدو وتحمـي لبنـان (سـنة ٢٠٠٦)، ومقاومـة لا تحمينـي أنـا بـل تحمـي مصالـح خارجيـة (٢٠٢٤). وأرفـض الحديـث عـن تصنيـف للنـاس والمجتمعـات بنـاءً علـى مذاهبهـم. هـذا لا يجـوز. الشـيعة والسـنّة هـم بشـر لبنانيـون يعيشـون تحـت مظلّـة وطـن واحـد، لهـم مصالـح وطنيـة مشـتركة ويسـتحقّون دولـة قويـة مشـتركة، لـكل منهـم الحـقّ بالالتـزام بانتمائـه المذهبـي الشـخصي، لكنـه فـردٌ مواطـنٌ وإنسـان لـه نفـس الحقـوق وعليـه نفـس الواجبـات. ومـع أن الحـرب الأهليـة قسَّـمت البلـد تقسـيمًا طائفيًـا وجغرافيًـا (منطقـة شـرقية ومنطقـة غربيـة) وتركـت آثـارًا فـي النفـوس لا تمحـى، إلّا أن الخلفيـة الحقيقيـة هـي سياسـية، وقـد تجلّـى ذلـك بعـد مقتـل الرئيـس الشـهيد رفيـق الحريـري، حيـث انقسـم النـاس علـى الموقـف مـن سـوريا وتحـوّل الانقسـام إلـى طائفـي ومذهبـي.

فـي حـرب الــ ٢٠٢٤... مـن وجهـة نظـرك، مـا هـي الخسـائر التـي مُنيـت بهـا الطائفـة الشـيعية؟ وهـل هنـاك مـن مكاسـب؟

اللبنانيـون أمـام مفتـرق طُـرق حاسـم بعـد حـرب ٢٠٢٤. الخسـائر والمكاسـب سـتعتمد علـى مـدى قـدرة القيـادات



الدمار في الخيام، مناطق دوت نت

الشـيعية علـى اسـتيعاب دروس الصـراع، والعمـل علـى بنـاء رؤيـة جديـدة تُـوازن بيـن المطالـب الداخليـة والتحديـات الوطنيـة، وتضـع أولويـة للمسـتقبل بعيـدًا مـن الصراعـات المسـتمرة. فقـد لحـق فـي المناطـق، ذات الأغلبيـة الشـيعية خصوصًـا، خسـائر بشـرية وماديـة كبيـرة وتدميـر واسـع للأبنيـة وللبُنيـة التحتيـة، ممـا يسـاهم فـي تفاقـم الأوضـاع الاقتصاديـة والمعيشـية.

وقـد تـزداد الضغـوط السياسـية علـى الشـيعة فـي لبنـان، خاصـة إذا تـمَّ تحميـل حـزب اللـه مسـؤولية التصعيـد. والخـوف هـو مـن ازديـاد التوتّـرات داخـل المجتمـع اللبنانـي، ممـا قـد يـؤدّي إلـى عُزلـة الشـيعة داخليًّـا. مـن جهـة أخـرى، قـد يـؤدّي النـزاع إلـى تعزيـز التضامـن داخـل المجتمـع الشـيعي، بخاصـة إذا شـعر هـذا المجتمـع بأنـه يواجـه تهديـدًا مشـتركًا. وإذا نجحـت إيـران وحلفاؤهـا فـي تعزيـز دور حـزب اللـه بعـد الحـرب، فقـد يـزداد النفـوذ الشـيعي فـي لبنـان والمنطقـة. ومـن المكاسـب السياسـية الداخليـة المحتمَلـة اعتمـاد بعـض القـوى السياسـية اللبنانيـة علـى التحالـف مـع حـزب اللـه لتحقيـق اسـتقرار داخلـي، ممـا قـد يمنحـه نفـوذًا أكبـر فـي الحكومـة اللبنانيـة.

كيـف سـيرتّب الشـيعة بيتهـم الداخلـي ومـاذا عـن مسـتقبل الطائفـة وهـل هنـاك حاجـة لإعـادة النظـر برؤيتهـا المسـتقبلية؟

لا أتقبّـل الحديـث عـن «طائفـة شـيعية». هـذا تصنيـف راديكالـي جـدًّا وإلغائـي، فليـس كل الشـيعة تابعـون أو مؤيّـدون لحـزب اللـه وحركـة أمـل، وليسـوا كلّهـم مـن سـكان الضاحيـة. وتصنيـف النـاس حسـب مذاهبهـم هـو ظاهـرة

نشأت بعد الحرب الأهلية، وعلينا رفضها وإقامة دولة غير مبنية على الطوائف! أما مستقبل الناس فلا يرتبط بالأشخاص وإنما بسلامة الشأن العام وبناء وطن للكل. ليس للطائفة بيت داخلي حتى يتمّ بناؤه. الوطن هو للجميع وليس للمذهب الطائفي! كل المواطنين على اختلاف طوائفهم يبنون معًا بيتهم على مبدأ الوطن الجامع، وينضوون تحت مظلّة القانون، ويفصلون المذهب والدِّين عن شؤونهم العامة. لا يجوز إنكار الخسائر التي تكبّدها سكان الجنوب والضاحية، ولكن يجب أن يُشارك الجميع في إعادة تشكيل التوازنات، والقرار الأخير هو للمواطنين المتضرّرين، الذين يمكن أن تُتاح أمامهم مشاريع سياسية متنوّعة في مرحلة لاحقة. بعيدًا عن السياسة لا خلاف بين الناس بمختلف طوائفهم، والسياسات تتغيّر بناء على التغيّرات الإقليمية ومصالح الدول، والعالم يتغيَّر فدعونا لا نربط مستقبل الناس ومصيرهم بطائفتهم أو بالجهة التي ينتمون إليها. هم مواطنون، أحرار أو لا أحرار، ومستقبلهم رهن الظروف الدولية.

تبقى التحديات المستقبلية أمام اللبنانيين في القِدرة على إيجاد التوازن بين المكاسب العسكرية والسياسية وبين التكلفة الإنسانية والاقتصادية، وفي كيفية إعادة إعمار المناطق المتضرِّرة وتحقيق استقرار داخلي يخفّف من حدّة التوترات الطائفية. والتحدّي الأهم هو الحفاظ على العلاقة مع الحلفاء الدوليين والإقليميين مع تجنّب عُزلة طويلة الأمد.

في النهاية، ما سيحدّد حجم الخسائر والمكاسب هو قدرة اللبنانيين على إدارة تداعيات الحرب بفعالية على المستويات المحلية والإقليمية والدولية.

داود رمال

الطائفة الشيعية أمام فرصة لإعادة ترتيب بيتها الداخلي وتعزيز علاقتها بالطوائف الأخرى في إطار وطني

داود رمال، صحافي لبناني معروف، وُلد في بلدة الدوير قضاء النبطية (جنوبي لبنان) في ١٣ آب العام ١٩٦٩، في فترة شهدت تحوّلات كبرى على الصعيدين الوطني والإقليمي. كانت ولادته في وقتٍ تصاعدت فيه التحديات العسكرية والسياسية والاجتماعية في لبنان، مما شكّل الأساس لتكوينه الفكري والمجتمعي.

يتحدّث داود رمال في هذا الحوار، عن الطائفة الشيعية في ضوء الحروب التي خاضتها، وحول كيفية ترتيب أوضاعها الداخلية، والرؤية المستقبلية لها انطلاقًا من تلك الأحداث وخصوصًا بعد حرب الـ٢٠٢٤.

مَن هو داود رمال، ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟



نشأتُ في بيئة متواضعة، والدي كان المعيل الوحيد للعائلة كونه كان استاذًا في التعليم الرسمي، حيث شكّلت المنطقة التي عاش فيها نموذجًا للتنوُّع اللبناني، مع تفاعل مختلف الطوائف والأديان، والأهمّ هي الأفكار العقائدية المتنوّعة نتيجة تعدّد الأحزاب السياسية التي نشطت في الجنوب لا سيما في منطقة النبطية.

التحقت بالمدارس الحكومية ولاحقًا في مدرسة تتبع لإحدى الرهبانيات اللبنانية والتي عكست واقع لبنان خلال تلك الفترة، إذ كانت التعليمات تسير بين الانفتاح والضغوط الناتجة عن الحرب الأهلية. في ما بعد، اخترت الإعلام كمسار دراسي لأعبِّر عن القضايا الوطنية، حيث تخرّجت من كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية وأكملت دراساتي العليا في جامعة القديس يوسف قبل أن أعود إلى الجامعة اللبنانية وأنا في طور الانتهاء من إنجاز أطروحة الدكتوراه في علوم الإعلام والاتصال.

تزوّجت في ١٢ آب عام ١٩٩٩ من زميلتي في الجامعة رولى خنافر وأسّسنا عائلة من أربعة أفراد: بنتان وهما: نور (مهندسة ودراسات عليا برمجة وذكاء اصطناعي) وفرح (دراسات عليا برمجة وذكاء اصطناعي)؛ وصبيّان هما: رامي (دبلوم في الحقوق ويتابع الماجستير في القانون الخاص) وكريم (في المرحلة الثانوية).

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حرب الـ٢٠٠٦ واليوم في الـ٢٠٢٤؟

المكان الذي نشأت فيه كان شاهدًا على مراحل التحوّل اللبناني. مع كلّ حجرٍ في تلك المنطقة، ارتبطت ذاكرة الطفولة والمراهقة، ليصبح هذا المكان ليس مجرّد موقع جغرافي، بل هوية وطنية وإنسانية وعاطفية. وفقًا لنظريات علم الاجتماع، يُعدّ المكان جزءًا محوريًّا من تشكيل الهوية الفردية والجماعية، وهو ما تجلّى بوضوح في شخصية داود رمال.

ما هي التحديات المتعلّقة بالوجود المكاني خلال هذه الحروب؟

كانت البلدة، كما المنطقة التي عشت فيها، مسرحًا للأحداث العنيفة نتيجة الاجتياحات الإسرائيلية المتكرّرة، في العام ١٩٧٨ ومن ثم في العام ١٩٨٢، وهو الاجتياح الذي أثّر كثيرًا في وجداني وشخصيتي، فقد دُمّر المنزل العائلي في اليوم الأول للاجتياح فوق رؤوس جميع أفراد عائلتي والتي نجَت بأعجوبة بعد إصابات بليغة أُصيبت بها والدتي والتي لازَمَتها في معاناة مريرة وصعبة حتى وفاتها، وأيضًا إصابة والدي الذي توفي بعد سنوات قليلة، واعتدتُ على التهجير المستمر من منطقة إلى

أخرى نتيجة العدوان الإسرائيلي المستمر، وأنا ما أزال على هذا المنوال حتى الحرب الأخيرة في العام ٢٠٢٤. لقد عايشت تجربة النزوح، حيث اضطررت للانتقال إلى أماكن أكثر أمانًا. هذه الظاهرة، كما تذكر الدراسات، غالبًا ما تؤدّي إلى فقدان الروابط الاجتماعية التقليدية.

وأُضيف أيضًا أن الحروب تركت بصَمات عميقة على المكان الذي نشأتُ فيه، من الناحية المادية عبر تدمير البنية التحتية، ومن الناحية النفسية من خلال تحوّل العلاقات بين سكان البلدة والمنطقة؛ كذلك تغيّرت تركيبة السكان، حيث غادرت بعض العائلات ولم تعُد. كما امتدّ التأثير إلى النواحي العاطفية إذ ظلَّ الحنين للمكان القديم حاضرًا في ذاكرتي، ما دفعني لاحقًا إلى الكتابة كجزء من توثيق تجربة لبنان.

ماذا عن التأثيرات للحروب الأهلية وحربي ٢٠٠٦ و ٢٠٢٤؟

شهِدت الحرب الأهلية نزاعات دموية أثّرت في جميع اللبنانيين. في حالتي أُصبت بالصدمة النفسية. لقد عايشت تجربة الخوف اليومي نتيجة القصف والنزاع. وأظهرت الدراسات أن الأطفال الذين نشأوا في زمن الحرب يُعانون من اضطرابات نفسية مثل القلق المُزمن. وأيضًا عانيت فقدان الأمان، فانتقال عائلتي من منزلها مرارًا وتكرارًا وهربًا من المعارك عزّز لديّ شعور عدم الاستقرار.

وبالنسبة إلى حرب الـ٢٠٠٦ فقد كانت هذه الحرب بمثابة اختبار جديد للبنانيين، بخاصة في الجنوب والضاحية الجنوبية. فالمنطقة التي عِشت فيها تعرّضت لدمار كبير، وقد خسرت الضاحية نحو ٦٠ في المئة من بنيتها التحتية، بحسب تقارير الأمم المتحدة. لكن لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من الخسائر إلّا أن المناطق المتضرّرة شهِدت موجة تضامن، حيث ساهمت المساعدات الدولية والمحلّية في تخفيف العبء على السكان.

أما في حرب الـ٢٠٢٤ فقد عكست الأوضاع الحالية تصاعُد التوتّرات، مع تأثير مباشر على مختلف الطوائف والمناطق. فالأزمات المتكرّرة أدّت إلى تفاقم الفَقر والهجرة، ما أثّر على البيئة المحلية للمكان الذي نشأتُ فيه. وعليه أشير إلى أن فقدان الدعم الحكومي والتصعيد الإسرائيلي المستمر يهدِّدان وجود السكان بدءًا من المناطق المتاخمة للحدود وصولًا حتى العمق اللبناني لا سيما الضاحية الجنوبية حيث أسكن حاليًّا.

في حرب الـ ٢٠٢٤... من وجهة نظرك، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية؟ وهل كانت هناك من مكاسب؟

الخسائر كانت كبيرة جدًّا، وهي تراوحت بين الأضرار البشرية التي مُنيت بها الطائفة التي تُعتبر العمود الفقري للمقاومة اللبنانية، وعليه كانت الخسائر في الأرواح مؤلمة. كذلك هناك الأضرار الاقتصادية، إذ استهدفت الغارات الإسرائيلية مجمّعات وعمارات سكنية ومراكز تجارية وزراعية، ما أثّر على قدرة الطائفة في الصمود اقتصاديًّا، ناهيك عن تدمير المدن الرئيسية التي يشكّل فيها الشيعة الغالبية الساحقة. وإلى ما تقدَّم ظهرت خسائر على المستوى الدولي، كـ«الانعزال» بحيث تصاعَدت الضغوط الدولية على الطائفة الشيعية نتيجة دورها في الصراع الإقليمي، وعدم مراعاة الجمهورية الإسلامية الإيرانية للخصوصية اللبنانية، مما جعل من الطائفة الشيعية رأس حربة في المشروع الإيراني على صعيد المنطقة وكبّدها أثمانًا هائلة وخطيرة ليس من السهل إصلاحها وتعويضها.

لكن على الرغم من تلك الخسائر، إلّا أنني يمكن أن أُشير إلى بعض المكاسب، ومنها تعزيز الهوية المقاوِمة، فصمود الطائفة أكسَبها مكانة رمزية كمدافع عن الكرامة الوطنية. وأيضًا الروابط المجتمعية التي تجلّت بالتكافل والتضامن، ما عزّز من قوة الطائفة الداخلية.

ماذا عن مستقبل الطائفة، أي كيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟ ما هي الصورة المتوقّعة لعلاقة الطائفة الشيعية بالطوائف الأخرى في الوطن؟

هناك مسار طويل يجب على الطائفة انتهاجه، ينطلق

أساسًا من تعزيز المؤسّسات التعليمية بحيث يُتيح الاستثمار في التعليم فرصة للنهوض بالطائفة اقتصاديًّا وثقافيًّا. وفي جانب آخر، لا بدّ من توسيع المشاركة السياسية، إذ يجب أن يكون هناك مشاركة أكبر للشباب والنساء في صنع القرار داخل الطائفة الشيعية بدءًا بمؤسّساتها، لا سيما المجلس الإسلامي الشيعي الاعلى المُقفل في وجه النُخب الشيعية، وصولًا إلى مؤسّسات الدولة التشريعية والتنفيذية والإدارية، بعيدًا من حصرية الثنائية التي ثبُت فشلها.

وإلى جانب هذه الترتيبات، لا بدّ من دخول الطائفة في حوار وطني مع الطوائف الأخرى، لأن ذلك من شأنه أن يلعب دورًا مهمًّا في تحقيق الاستقرار. وكذلك التكامل الاقتصادي، إذ يمكن أن تشكّل المشاريع الاقتصادية المشتركة وسيلة لبناء جسور التعاون بين الطوائف.

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، بالرؤية المستقبلية لها؟

أشدِّد هنا على أهمية التفكير بمستقبل الطائفة في سياق وطني جامع، بحيث لا يُختزل دورها في المقاومة فقط، بل تمتدّ إلى بناء دولة تحترم الجميع. فالعودة إلى الدولة ومؤسّساتها قد يكون سبيل الخلاص بالنسبة للطائفة خصوصًا بعد الحرب الأخيرة. وأودّ القول هنا إن التغيير قد يكون انطلاقًا من كل فرد وبشكل شخصي، وعلى هذا الأساس وفي ما يتعلق بي شخصيًّا فإنني أساهم بدوري من خلال مجموعة من الخطوات والأعمال التي أقوم بها، كـ«التوثيق»، بحيث استطعت أن ألعب دورًا مهمًّا في تسليط الضوء على القضايا الحقيقية التي يُعاني أبناء الطائفة الشيعية منها في المناطق المتضرّرة. كما هناك النقد البنّاء عبر كتابات انتقدت فيها السياسات التي تعمّق الأزمات بدلًا من معالجتها، وقد سبّب لي ذلك الكثير من المشكلات كان آخرها الاعتداء الذي تعرّضت له حين كنت أزور قبر شقيقي في بلدتي الدوير في الجنوب.



احد منازل الدوير بعد غارة، جنوبيات

وأختم في هذا السياق، أن الطائفة الشيعية، التي شهِدت تحديات كبيرة، تقف اليوم أمام فرصة لإعادة ترتيب بيتها الداخلي وتعزيز علاقتها بالطوائف الأخرى في إطار وطني شامل.

كيف يمكن خدمة الطائفة من خلال المجال الذي تعمل فيه ونقصُد الإعلام؟

كوني إعلاميًّا، وأعمل في المجال منذ سنوات عدّة، لا بدّ لي من الحديث عن دَور الإعلام في تعزيز الوعي، واعتبرت ذلك مهمّة لي إذ كنت أركّز على تعزيز منطق التعايش بين الطوائف. وفي مكان ما أعتبر أنني نجحت بالمساهمة في نشر ثقافة التسامح. كذلك فإن قوة الإعلام لا تقف عند الحدود الداخلية أو المحلية، فللإعلام تأثير على المستوى الدولي، وقد لاحظت ذلك من خلال تجربتي، إذ إن التقارير التي كنت أعِدُّها ساهمت في جذب انتباه المجتمع الدولي لمعاناة اللبنانيين بشكل عام، وأبناء الطائفة الشيعية في بعض الأحيان، وهذا الأمر دفع جهات عدّة خارجية إلى الاهتمام بأوضاعنا الداخلية في لبنان، وظهَر ذلك على شكل مساعدات إنسانية في مرات كثيرة.

وفي الختام، أنا أعتبر نفسي صوتًا صادقًا أُعبّر عن قضايا لبنان المعقّدة. من خلال تجربتي الشخصية والمهنية، عكستُ تأثير الحروب على الأفراد والمجتمع ككل.

ديانا مقلّد

يجب مساءلة ومحاسبة حزب الله عن حرب الـ٢٠٢٤

«نحن تحت وطأة تدويل الواقع اللبناني... وتمّ تقديم الشيعة كأضحية لمشروع إقليمي»



ديانا مقلّد، صحافية لبنانية، تعمل في هذا المجال منذ العام ١٩٩١، درست في كلية الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية وتخرّجت منها. تنقلّت في أكثر من مؤسسة إعلامية، وصولًا إلى العام ٢٠١٧ عندما شاركت بتأسيس «موقع درج» الإلكتروني، وهي تعمل فيه حاليًّا. بالنسبة إليها، فإن الصحافة عمل أساسي لمناقشة القضايا العامة، خصوصًا في بلد مثل لبنان.

في هذا الحوار تتحدّث مقلّد عن تجربتها مع الحروب التي عاشها لبنان، وعن مآسيها وتأثيراتها على الطائفة الشيعية.

ماذا عن تأثيرات الحروب على الأماكن التي سكنتِ فيها؟

وُلِدت في السعودية، وعُدنا الى لبنان في العام ١٩٨٦، وأذكر آخر خمس سنوات تقريبًا من الحرب الأهلية التي كانت شرسة. اختار والدي وقتها، السكن في منطقة البطريركية (زقاق البلاط)، فكان بيتنا البيروتي، لكننا برغم ذلك كنا نزور قريتنا تبنين في جنوب لبنان. وعندما كانت الحرب تشتدّ في بيروت، كان بيت الضيعة هو ملجأنا حيث كنّا نلجأ إليه، إلى أن تهدأ المعارك في العاصمة. منذ ذلك الوقت بدأت علاقتي بضيعتي التي لم أكن أعرفها قبل سنّ المراهقة. وبعد انتهاء الحرب الأهلية وما تلاها من حروب متتالية في عامَي١٩٩٣ و١٩٩٦ كنا نسكن في بيروت. في كل الحروب كان بيت الضيعة ينجو في كل مرة. لكن اللافت أنني لم أشعر بأي ارتباط بضيعتي، مثلما حدَث معي في حرب الـ٢٠٢٤، وذلك على الرغم من أنني لست من سكان تبنين الدائمين، لأسباب كثيرة، منها الوضع السياسي وهيمنة قوى الأمر الواقع وما إلى ذلك، بحيث كانت علاقتي بضيعتي محصورة بأوقات الدفن والمآسي الشخصية، إذ إننا لم نكن نذهب إليها كثيرًا خلال الأفراح. فكانت الضيعة، بالإضافة إلى المناسبات التي ذكّرتها، عبارة عن مكان التقاء لاجتماعات العائلة أو عندما يأتي أقاربنا من الخارج، علمًا أن والدي بنى في البلدة بيتًا كبيرًا وإلى جانبه حديقة جميلة، لكنه كان أقرب إلى مكان اجتماعات العائلة. وأريد أن أوضح أن طبيعة علاقتنا بالضيعة جعلت من خسارتنا لا تشبه خسارة الناس الآخرين الذين لا يملكون مكانًا للإقامة فيه سوى بيت الضيعة. كذلك أودّ الإشارة إلى أن بعض الناس لديهم بيت في الضيعة وآخر في ضاحية بيروت الجنوبية، وقد خسروا الاثنين معًا. باختصار فإن علاقتي بالضيعة أخذت شكلًا مختلفًا خلال الحرب الأخيرة، علمًا أنني من سكان بيروت ولا يزال بيتي الخاص فيها.

كيف تكون انعكاسات الحرب على مكان إقامة الانسان؟ الارتباط بين الإنسان ومكان إقامته كيف يتأثّر في حالات الحرب؟

منزل أهلي لا يزال في زقاق البلاط، لكنني مُقيمة في الأشرفية، وعندما تزوجت أو لنقُل استقلّيت عن أهلي سكنتُ في منطقة سليم سلام. وقد عشت أكثر من تجربة قاسية، فالكثير من الأحداث المؤلمة جرَت بالقرب من منزلي؛ على سبيل المثال، خلال حرب تموز ١٩٩٣ كانت هناك تهديدات بقصف الجسور، فاضطُررت إلى مغادرة البيت والنزوح إلى منطقة أخرى ريثما تنتهي الحرب. ثم توالت الأحداث إلى أن وقعت معارك ٧ أيار، وقتذاك كنت أعمل في تلفزيون «المستقبل» الذي تعرَّض للاعتداء وأُقفل يومها. وأذكر أنه في أحد الأيام كانت هناك عملية إشعال إطارات وقطع للطرقات، اضطُررت للعودة من التلفزيون سَيرًا على قدَمي، لأجد عددًا من الشبّان يقومون بتحطيم مدخل البناية التي أسكن فيها، فأخذتني العصبية، وحاولت منع ذلك لكنهم

قاموا بشتمي وتهديدي بالقول: نعرف مكان منزلك. في ذلك الوقت قرّرت وعائلتي مغادرة المنطقة المعرّضة لصدامات أهلية متكرّرة بحُكم طبيعتها وتواجد قوى الأمر الواقع كحزب الله وحركة أمل وحلفائهما، فقرَّرنا الانتقال إلى الأشرفية.

انطلاقًا من حرب الـ٢٠٢٤ ما هي المكاسب التي حقّقتها الطائفة الشيعية وما هي الخسائر التي مُنيت بها؟

لا أحب استخدام كلمة مكاسب، فما جرى مع الشيعة في هذه الحرب هو نكبة. نحن نتحدَّث عن مناطق أُبيدت عن بِكرة أبيها، وهنا أقول إن حزب الله بسلاحه وارتكاباته حوّل الشيعة إلى «مجموعة دُكمة» وخزّان بشري له. ولأننا لا نزال مُثقلين بالحرب لم نناقش إلى الآن، مسألة الحساب والمحاسبة الداخلية، وهي التي من المفترض أن تُجرى، في أي بلد طبيعي بعد حرب تسبّبت بهذا الحجم الهائل من الخسائر والدمار. ونحن في هذا السياق أمام مسارَين: الأول قضائي، على الدولة اللبنانية أن تسير به ضد إسرائيل لارتكابها جرائم حرب وتطهير عرقي بحقّنا، وهذا في موضع إدانة من خلال الخطاب الإسرائيلي، حتى على مستوى المسؤولين السياسيين؛ أما الثاني، فيتعلّق بالشأن الداخلي اللبناني، انطلاقًا من مجموعة من الأسئلة: هل يُعقل أن نخوض حروبًا مدمِّرة من دون محاسبة أو سؤال؟ لماذا ومَن استدرجنا إليها؟ ولماذا حدث ما حدث لينتهي بنا الأمر بأسوأ مما كنّا عليه في ٧ أوكتوبر ٢٠٢٣؟ وأنا ألفت هنا إلى النتيجة التي وصلنا إليها، وأقصد اتفاق وقف إطلاق النار الذي فُرض على لبنان، فهذا الاتفاق تمّ برعاية «الشيطان الأكبر»، وهو يُتيح لإسرائيل التدخّل في لبنان وفعل ما يحلو لها، وقد وقَّع حزب الله عليه. وهذا يعني أن الحزب استدرَجنا إلى حرب لا طاقةَ لنا بها، ودفَع شيعة لبنان ثمنًا باهظًا لا يمكننا التكهن في المدّة الزمنية التي يحتاجون إليها للخروج من تداعياتها. نحن تحت وطأة تدويل الواقع اللبناني والبحث في من سيحكُم الأراضي اللبنانية. وبالتالي أنا لا أرى مكاسب أو فرصة، بل نحن في لحظة حقيقة، لحظة مواجهة، لذلك إذا لم نأخذ اليوم خيارات أساسية لا قيامة منها لا للشيعة ولا للبلد. هذه التجربة التي خاضها الشيعة سبَق لطوائف أخرى أن خاضتها، السنّة في مكان ما، المسيحيون خلال الحرب الأهلية اللبنانية. لكن اليوم تمَّ تقديم الشيعة كأضحية لمشروع إقليمي، وهذه الأثمان التي دُفعت لا تستطيع أن تتحملها الطائفة الشيعية وحدها ولا حتى البلد. نحن من المتمسّكين ببلدنا، فلبنان برغم كل الخراب فيه، إلّا أنه يُعد صيغة فريدة بتنوُّعه وساحاته، وهي ليست موجودة في كل المنطقة. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى المحيط المضطرّب من حولنا، كالتغيّرات في سوريا ومدى انعكاسها علينا. كذلك هناك موضوع القضية الفلسطينية التي لم تجد طريقها إلى الحل حتى اليوم، وامتداداتها التي قد تطال العراق ودول أخرى. وفي ظلّ كل ذلك، وفي هذه الفترة المعقّدة، علينا مواجهة ما حدَث عندنا في حرب الـ٦٦ يومًا لنمنع تكرارها مرة أخرى ونهائيًا، ونمتنع عن جعل بلدنا وناسنا ساحة خلفية لدول المنطقة. نعم لدينا مشكلة مع إسرائيل، ونحن ندعم الحق الفلسطيني، لكن علينا أن ندعم حقّنا في الدرجة الأولى، وأن نفكّر بلبنان وأهلنا وأهل الجنوب، الذين تهجّروا لمرات ومرات وأعادوا بناء منازلهم لأكثر من مرة. نقول كفى، يجب أن نقوم بتحييد اللبنانيين، يجب أن يكون لدينا دولة وجيش قادر، وأن نتناقش حول اختلافاتنا ونصل إلى نتائج لصالح الوطن والشعب ككل، وهذه حاجة للشيعة قبل سواهم.

كيف سترتب الطائفة الشيعية بيتها الداخلي؟ وماذا عن علاقتها بالطوائف الأخرى؟

هناك أكثر من مسار في هذا السياق، المسار السياسي الذي سيكون رهنًا بما سيجري في لبنان على صعيد انتخاب رئيس الجمهورية، وما سيتضمّنه ذلك من ترجمة للاتفاق الدولي والمتغيّرات المترافقة، كمجيء الرئيس الأميركي ترامب إلى المنطقة، ومدى انعكاس ذلك على انتخاب رئيس للجمهورية في لبنان، وما يَلي ذلك من اختيار للحكومة، وجدِّيتها بالعمل من أجل حصر السلاح بيد الدولة واستعادة الجنوب ليكون مكانًا لا سلاح فيه سوى سلاح الشرعية، وعدم تفخيخ الجنوب ومنازله بعتاد حربي ومخازن أسلحة وقاذفات صواريخ. وبغضّ النظر عن الرواية الإسرائيلية، التي تُبيد قرى وأحياء بأكملها بصاروخ واحد، إلّا أن الحزب هو مَن قدَّم الذريعة لها، من خلال استخدامه مناطق البيئة الحاضنة كمظلّة لكل وجوده ونشاطه العسكري. فهو عمل إيديولوجيًّا

مـن خـلال إقنـاع بيئتـه بـأن الدنيـا ليسـت لنـا، بـل الآخـرة، وزرَع فـي الـرؤوس أنهـم علـى طريـق كربـلاء الحسـين. وهنـا أقـول: كفـى اسـتخدامًا للإيديولوجيـا الدِّينيـة كتبريـر لمـوت النـاس وشـقائهم بالحيـاة والقـول لهـم بـأن المطلـوب منهـم التسـلُّح طـوال الوقـت. وعليـه يجـب مواجهـة هـذا العقـل الإيديولوجـي الـذي زرَعـه حـزب اللـه، علـى مـدى أكثـر مـن ٣٠ سـنة، وذلـك لا يتـمُّ إلا بمسـارات مدنيـة أولًا عبـر إعـادة النظـر بمناهـج التعليـم العشـوائية والانتقائيـة فـي كل لبنـان، وهـذا لا ينسـحب علـى الشـيعة فقـط، بـل نجـد مثـل هـذا النمـط المُخيـف فـي طرابلـس أيضًـا، علـى سـبيل المثـال. أي لا بـدّ مـن إلغـاء عشـوائية التعليـم، بمعنـى أنـه لا يحـقّ لـكل جماعـة أو مجموعـة أن تمـارس التعليـم علـى مزاجهـا، طبعًـا نحـن لسـنا ضـد ممارسـتها لقناعاتهـا، لكـن تحويلهـا إلـى منهـج تربـوي بعيـدًا ومخالفًـا للتعليـم الرسـمي، ففـي هـذا الأمـر إشـكالية يجـب إعـادة النظـر فيهـا ومناقشـتها.

هـذا مـن الناحيـة التربويـة، أمـا علـى الصعيـد السياسـي، فهنـاك مسـار الدولـة مـا بعـد الانتخابـات الرئاسـية، ونحـن فـي حاجـة اليـوم إلـى مواجهـة داخليـة بحيـث لا يجـب أن نبقـى صامتيـن تجـاه منـع المسـاحات العامـة عـن المجموعـات الأخـرى الخاضعـة لسـيطرة حـزب اللـه. فتلـك المناطـق تُمنـع فيهـا الحيـاة السياسـية، ولا مجـال فيهـا للأخـذ والـردّ، فالـذي يجـري أن المسـؤولين فـي حـزب اللـه وحركـة أمـل، نائـب، وزيـر... إلـخ، يحضـر مناسـبات التعـازي ويخطـب فـي النـاس ويُملـي عليهـم رأيـه مـن دون إعطـاء أي مسـاحة للنقـاش، وبالتالـي لا حيـاة سياسـية فـي تلـك المناطـق، وقـد رأينـا مـا جـرى فـي الانتخابـات النيابيـة الماضيـة، كيـف كان يتـمّ الاعتـداء علـى أي شـخص يحـاول أن يخلـق مجـالًا سياسـيًّا معارضًـا. لكـن هـذا تغيَّـر اليـوم، إذ هنـاك محـاولات لحـراكات ونقاشـات تقـوم بهـا مجموعـات مـن الجنـوب والضاحيـة والبقـاع، وتقـول: كفـى، منطقتنـا وأهلنـا يسـتحقون مسـتقبلًا أفضـل. وهكـذا نحـن فـي حاجـة إلـى إعـادة الزخـم للنقـاش الأكاديمـي البحثـي السياسـي وإعـادة إحيـاء تراثنـا خـارج ولايـة الفقيـه ومَـن يحملـون لواءهـا، والتـي هدفهـا إلغـاء المعالـم الفكريـة والثقافيـة فـي الجنـوب والبقـاع والضاحيـة وتشـويهها وحصرهـا فـي هويّـة ليسـت لهـا ومنهـا. وهنـا أُضيفأإنـه لا بـدّ مـن حصـول مواجهـة ثقافيـة بالإضافـة إلـى المسـار السياسـي الـذي لا غنـى عـن الدولـة فيـه، لذلـك المطالبـات سـتكون بعـدم الوقـوع فـي فـخّ الصفقـات كمـا كان يحـدث فـي العقـود الماضيـة.



غارة ليلية على زقاق البلاط، المدن

وبالإضافـة إلـى مـا سـبق فـإن باقـي الأطـراف السياسـية فـي لبنـان، تتحمّـل المسـؤولية أيضًـا لأنهـا كانـت تـرى مـا يجـري فـي الجنـوب لكنهـا آثـرت الصمـت لأن البيئـة شـيعية فتركـت حـزب اللـه يسـرح ويمـرح ويفعـل مـا يريـد طالمـا يؤمِّـن لهـا صفقاتهـا الداخليـة ويعقـد التسـويات ويدعمهـا فـي الانتخابـات ويؤمِّـن لبعضهـا الوصـول إلـى رئاسـة الجمهوريـة، بمعنـى أنـه كان يمـرِّر لهـا صفقاتهـا فـي المجلـس النيابـي. هـذا العقـل الزبائنـي الـذي اسـتحكَم بمَـن يدّعـي خصومـة حـزب اللـه سـاهم بتقويتـه علـى حسـاب البيئـة الشـيعية الحاضنـة، وهـذه عقليـة يجـب التخلُّـص منهـا.

مـاذا عـن «الآخـر» الـذي يسـتخدم منطـق الاسـتعلاء مـع أبنـاء الطائفـة الشـيعية؟ ومـاذا عـن العلاقـة بالطوائـف الأخـرى؟

لا يمكننـا محاسـبة النـاس علـى آرائهـم، فمـن وجهـة نظـري أن مَـن يجـب أن يُحاسـب هـي الزعامـات السياسـية وزعمـاء الأحـزاب، الذيـن تبنّـوا خطابًـا يتضمّـن كراهيـة وتجهيـل، كــ «مـا بيشـبهونا.. ومـا فينـا نعيـش معهـم». وعلـى سـبيل المثال رأينـا كيـف تحـوّل جبـران باسـيل فجـأة وهـو الـذي كان قـد قـدّم دعمًـا داخليًّـا كبيـرًا لحـزب اللـه جعلـه يتمـادى فـي الداخـل، وربمـا لـم يكـن ليحصـل لـولا دعـم التيـار الوطنـي الحـر للحـزب. فالصفقـات التـي تمّـت بيـن الحـزب وقـوى سياسـية أخـرى جعلـت الحـزب يتحكّـم بأمـر الشـيعة فـي لبنـان. وحصـل ذلـك بالاسـتخفاف مـن جهـة، ومـن جهـة أخـرى لأن تلـك الأطـراف لديهـا مصالـح مشـتركة مـع الحـزب. وبنـاء علـى ذلـك كلـه، لا بـدّ مـن مواجهـة هـؤلاء الزعمـاء ووضعهـم أمـام مسـؤولياتهم، لأنـه لا يكفـي القـول بـأن الحـزب يُخيفنـا بامتلاكـه السـلاح، بـل أنتـم شـاركتم خـلال

٣٠ سنة وعقدتّم الصفقات واستفدتُم من التمريرات المتبادَلة، فلا تدَّعوا البراءة. وبالتالي إن النقاش لا بدّ أن يكون مع تلك الزعامات التي تريد التنصُّل اليوم وأن تنفُض يدها من المشكلة بعد كل تلك السنوات من التعاون مع أو السكوت على الحزب.

والبارز في الحرب الأخيرة ما سمِعناه من البعض بأنه سعيد بما يجري، لكن لم يتنبّهوا إلى أن الحرب لم تكن على حزب الله وحده بل على كل الشيعة في لبنان، والذين استُهدفت بيوتهم ومدارسهم ومؤسساتهم الصحية ومراكزهم التربوية، حتى زيتونهم وأشجارهم ومواسمهم وأماكنهم التراثية، وللأسف أنه في ظلِّ كل هذا الخراب والدمار، كان في لبنان من يرى أن الحرب فرصة للقضاء على حزب الله، وهذه خطيئة كبرى ممّن يفترض أنهم شركاء الشيعة في الوطن. لذلك على هذه الأطراف أن تراجع ذاتها لأن خطابها لا يُساعد على التلاحم الوطني. وعليه يجب التمييز بين خطابنا تجاه إسرائيل، وخطابنا مع الداخل واللذَين يجب أن يكونا مختلفَين. فنحن تقليديًّا رفضنا، ولا نزال، هيمَنة حزب الله على الطائفة الشيعية ودفعنا ثمن ذلك باهظًا، لذا على الآخرين أيضًا إعادة النظر بخطابهم لأن خطابهم الحالي لا يوصل إلى مواطَنة مشتركة بل إلى تحريض طائفي.

ماذا عن الرؤية المستقبلية للطائفة الشيعية؟

بدايةً، يجب منح الناس المزيد من الوقت لاستيعاب ما جرى، فما حدث ليس تفصيلًا والخسائر التي مُني بها أبناء الطائفة الشيعية فادحة، لذلك هناك حاجة إلى المزيد من الوقت لاستيعاب الخسارة وأسبابها وكيفية الخروج منها.

المتغيِّر الأهم اليوم، هو سقوط نظام الأسد وتكشُّف وجهه القبيح. وهنا يبرز داخليًّا سؤال كبير: لماذا أرسل حزب الله مئات المقاتلين من أبناء الشيعة للدفاع عن نظام ورئيس مُستبدّ، لم يمتلك الجرأة حتى للبقاء والدفاع عن نفسه بل هرَب؟

لن أسترسل في ارتكابات حزب البعث ونظام الأسد الأب والابن، لكن حقيقة أن حزب الله ساهم في دعم مثل هكذا نظام، ودفع بأبناء الشيعة للقتال والموت من أجله، هو شأن رهيب آخر لا يمكن القفز من فوقه دون سؤال أو محاسبة.

هذه الطائفة دفعت أثمانًا باهظة بسبب خَيارات حزب الله الإقليمية، التي روَّجت لوَهم أنها تدعم الشيعة، فيما هي في الحقيقة تستخدمهم بيادق.

لقد سمعت منذ أيام أحد الشبان الشيعة يتحدّث عن شعور بالغ باليُتم: «مين رح يحمينا»، سألني بعد اعترافه بأن محور الممانعة قد تلقّى ضربات لا قيامة قريبة له منها.

هذا الوَهم الذي كرّسه حزب الله لعقود في عقول بيئته، بأنه هو مَن يحمي الشيعة، وجعلَهم على خصومة مع الدولة، هو من ينبغي التصدي له اليوم. ليس لنا كلبنانيين سوى العمل على مرجعية الدولة والانخراط في هذا المسار، وهو مسار ليسورديًّا بل محفوف بعراقيل كبرى، لكنه المسار الوحيد الذي يمكن أن يجعلنا جميعًا مواطنين وليس رعايا طوائف وقوى إقليمية.

شذا شرف الدين

بعد هذه الحرب ربما باتت هناك فرصة للشيعة للعودة إلى أصولهم اللبنانية انطلاقًا من الشعور بأنهم ليسوا «جماعة حزب الله»

شذا شرف الدين، كاتبة وفنانة تشكيلية، من مواليد صور. غادرت لبنان سنة ١٩٨٣، إلى سويسرا، حيث درست تربية علاجية مختصّة، ثم انتقلت إلى ألمانيا حيث درست الرقص في هامبورغ. بعد ذاك أشرفت على تنظيم معارض تشكيلية في برلين قبل أن تعود إلى لبنان عام ٢٠٠٨.

تروي شرف الدين، في هذا الحوار، قصة ذكرياتها مع المكان، وتتحدّث عما عايشته من تحوّلات في لبنان، وفي البيئة التي نشأت فيها.

بداية، مَن هي شذا شرف الدين؟



أنا من مواليد صور، نشأت في عائلة دينية، لكنها منفتحة على الآخر. فأنا درست في مدارس الراهبات، ونشأت على مبدأ المحافَظة المنفتحة، إذا صحَّ التعبير. أذكر أنه خلال دراستي الابتدائية كنّا نتلو صلاة «أبانا الذي في السموات»، فحين سمِعَتني والدتي أردِّدها في المنزل، حرصت على تعليمي سورة الفاتحة، وقالت لي: عندما تتلو رفيقاتك هذه الصلاة، اقرئي الفاتحة. لكنني في النهاية، وحتى لا أظهر مختلفة عن زميلاتي، كنت أردِّد الفاتحة في سرّي، ثم أنهيها: «باسم الأب والابن والروح القدس»، وأرسم شارة الصليب على صدري. والأولاد، كما تعلم، يتشبّهون عادة برفاقهم ويرغبون في أن يكونوا مثلهم. كنت أعلم أن هناك فوارق بين السكان في لبنان، لكنني لم أنشأ على التفرقة، ولم يكن لديّ منطق «نحن وهُم» إلا في الحدود المعرفية إذا صحَّ التعبير، أي أنني كنت أعلم أننا ننتمي إلى دينَين وإلى مناطق مختلفة، لكن لم يشكل لديّ هذا الاختلاف عائقًا يحول دون إنشاء صداقات مع رفيقاتي المسيحيات، علمًا أنني كنت أنظر إليهن بوصفهن المرجع في أمور كثيرة: فأنا الوافدة إليهن وعليّ التعلّم منهنّ. كنت أحاول التأقلم مع العادات الجديدة التي تعلّمتها في المدرسة كمن يتعلّم درس الحساب أو اللغة. وربّما لأنني اعتبرت الأمور هكذا لم أشعر بالاستلاب، بل بشعور أي طفل وافد أو غير وافد، يريد أن يشبِه الأطفال الآخرين الذين سبقوه في الأمر هذا. وأعتقد أن اختيار عائلتي مدارس الراهبات جاء من الاعتقاد السائد آنذاك بأن المؤسّسات التعليمية والتربوية المسيحية كانت الأفضل من حيث التعليم والتربية، بسبب اعتمادها النظام التربوي الفرنسي.

كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية، والحروب المختلفة التي شهِدها لبنان عليك، وعلى مكان سكنك؟

كما قلت أعلاه، وُلِدت في صور لكنني نشأت وترعرعت في بيروت. لكن بحكم عمل جدي لأمّي الذي كان نائبًا في البرلمان، كان لديه منزلَين، واحد في بيروت وآخر في صور، وكنت أعيش مع بيت جدي لأن أمّي وأبي كانا مغتربَين في أفريقيا، وبالتالي كنت أتنقّل مع جدي وجدتي بين بيروت وصور بشكل دائم. وحين عاد أهلي من أفريقيا استقرّ بنا المطاف، ولثلاث سنوات، في بيروت، وعندما بدأت الحرب الأهلية في ١٩٧٥، انتقلنا مجدّدًا إلى صور، ثمّ مع انتهاء حرب السنتين، عُدنا إلى بيروت. صيف ١٩٨٢ وخلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان، كنا نعيش في شملان فاضطُررنا للعودة إلى صور التي كان الوضع فيها آنذاك أكثر أمانًا من بيروت، قبل أن نعود إلى بيروت في أواسط الـ١٩٨٢. وفي بداية الـ١٩٨٣ انتقلت للدراسة في سويسرا، وفي ١٩٩٧ عُدت إلى لبنان لبضع سنوات، أي أنّني لم أكن هنا إبّان حرب «عناقيد الغضب» في ١٩٩٦.

وأظنّ أن أثَر الهجرة التي عاشها كثيرون من اللبنانيين، لا سيما الشيعة الذين هاجر الكثيرون منهم إلى أفريقيا، ثم التهجير الناجم عن الحروب المتتالية، إلى شعور مُزمن بعدم الاستقرار في مكان واحد. وهذا ما طالني أيضًا. فأنا تنقّلت ما بين ١٥ منزلًا قبل أن أُتمَّ الثامنة عشر من عمري. وقد أحصيت مؤخَّرًا عدد البيوت التي سكَنتها حتى اليوم، فبلغت ٤٤ بيتًا، وأنا لم أعرف أحدًا توزّعت حياته على ٤٤ منزلًا. وهكذا لا يوجد مكان أستطيع القول إنه بيتي أو بيت أهلي، إذ البيوت والأماكن كانت تتغيّر باستمرار. وهذا الانتقال جعلني أشعر بالقلق حين أمكُث لأكثر من ثلاث

سنوات في البيت ذاته. وهكذا، وعلى عكس العادة المألوفة، فإن الاستقرار صار هو الذي يسبِّب لي القلق. واليوم وقد أصبحت في الستّين من العمر، أظنُّ أنّ شعوري هذا ناجم عن عدم الاستقرار الأصلي الذي أحدثَته الحرب وانعكاس ذلك على الوضع العائلي. وفي الخلاصة، فإن الذكريات التي هي ذكرياتي لا ترتبط بمكان محدَّد أو واحد، ولا ببيت معيّن يمكن أن أعتبره مرجع إقامتي. إنها المدن أكثر مما هي المنازل. فبيروت وبرلين، التي عشت فيها عدّة سنوات كانت أساسية في حياتي، وهما المكانان الأقرب لأن يكونا المقرّان الأصليّان. أما صور، فهي بمثابة «البيت الأول» الذي، لأنني وُلدت فيه وترعرعت، أعود إليه لأستمدّ منه عافية مفقودة أو طاقة حيوية، لكن ليس للإقامة.

انطلاقًا من الحرب الأخيرة ٢٠٢٤، برأيك ماذا خسرت الطائفة الشيعية، وما هي المكاسب التي حصلتِ عليها؟

لا أظنّ أن الشيعة كسبوا أي شيء بل تكبّدوا خسائر هائلة على جميع الأصعدة. وقد يكون «المكسب » الوحيد، هو أنه باتت هناك فرصة لديهم لمراجعة تبَعيتهم العمياء لحزب الله، وكذلك للتساؤل حول هويّتهم المستجدّة الضيقة التي صبغهم بها الحزب. فمن وجهة نظري، الحزب زعزع الهوية الشيعية. هو لم يقوِّها كما يعتقد البعض، بل زعزعها، لأنه طوال تاريخه، وأنا أتحدّث انطلاقًا من كوني آتية من بيئة شيعية، لم يكن لدينا أزمة «هوية شيعية»، وإذا كانت هناك «أزمة» ما، فإنها شبيهة بأزمات طوائف أو إثنيات أخرى قضَت الظروف بتغيُّر جغرافيتها ما بين الأمكنة والمدن والبيئات. فعلى سبيل المثال، عاشوراء، هي جزء من الهوية الشيعية، وكان يتمّ الاحتفاء بذكرى مقتل الإمام الحسين ببساطة وهدوء، وكحال أي طقس تمارسه الطوائف الأخرى. إلّا أن حزب الله حوَّل عاشوراء إلى حدَث عقائدي وسياسي، بل أشبه بالحربي في بعض الأحيان. فهي لم تكن كذلك على الإطلاق، بل كانت تراثًا ثقافيًّ وعادات نمارسها ونحتفي بها ونتجاوزها مع انتهاء المراسم، لنتابع حياتنا بشكل طبيعي. حزب الله حوّل الشيعة إلى عقيدة عدائية للآخر، وجعل منهم دون غيرهم من اللبنانيين «أشرف الناس». والحزب لم يزعزع الهوية فحسب بل أساء إليها، إذ حوَّل شيعة جبل عامل، الذين كان علماؤه هم مراجع الفقه الشيعي الذين يُدرّسون حتى يومنا هذا في كلٍّ من النجف وقمّ، إلى أتباع يخدمون مصالح بلد آخر. وهي مصالح لا تعود عليهم إلّا بالخراب، على ما رأينا في الحرب الأخيرة. لقد أقنعهم الحزب بأنهم أشرف الناس فضخّم الأنا الطائفية لديهم، وهم صدَّقوه إلى الحدّ الذي حوّل ولاءهم لأرضهم ودولتهم إلى ولاء لقائد الحزب وللطائفة أينما وُجدت. وهكذا، فما أراه أن الحزب ألحق بهم الأذى من خلال سياساته، وخصوصًا فصلهم عن أصولهم الراسخة في لبنان وترسيخ العقيدة الخمينية. لقد كانوا شيعة كما المسيحيون مسيحيون والدروز دروز والسنّة سنّة، من غير تشاوُف بالهوية إلى حدّ العنجهية، كما نرى اليوم، ومن غير خجَل بها بطبيعة الحال. لقد كان انتماؤهم إلى الأرض والبلد طبيعيًّا وسلِسًا. وأنا هنا لا أتحدّث عن الحرمان الذي عاشه أبناء الطائفة، بل عن الهوية كثقافة.

بعد هذه الحرب ربما باتت هناك فرصة للشيعة للعودة إلى أصولهم اللبنانية انطلاقًا من الشعور بأنهم ليسوا «جماعة حزب الله»، بل شيعة جبل عامل اللبناني حيث جذورهم الأولى. وهنا أتحدَّث عن الناس العاديين طبعًا وليس عن قيادات الحزب أو الخطاب الإعلامي الذي يتضمَّن الفوقية والعنجهية ذاتها التي أراها نابعة من عِقدة نقص أكثر منها قناعةً بالتفوّق على سواهم. فهم أقوى من الآخرين بقوة السلاح فقط، لا بشيء آخر. ومُحزن أن نرى أن الطائفة الشيعية التي كانت أكثر الطوائف تنوّعًا وثراءً ثقافيًّا في الماضي، باتت الأكثر فَقرًا على هذا المستوى حاليًّا.

بالعودة إلى سؤالك، وكما أشرْت قبلًا، أرى أن المكسب الوحيد هو أنه باتت لدى الشيعة فرصة كي ينفصلوا عن الهوية العقائدية التي زجّهم فيها حزب الله، ويعودوا إلى هويتهم الأصليّة: شيعة ولبنانيين على المستوَين الثقافي والوطني.

أمّا بالنسبة إلى الخسائر، فكثيرة وكبيرة، فلا تزال هناك قرى محتلة، يمارس الجيش الإسرائيلي مسْحها عن بِكرة أبيها، ولا نعلم متى يعود الجنوبيون إلى أرضهم، وما مدى السنوات التي يحتاجونها لإعادة الإعمار، وهل سيتمكَّن النازحون من العودة، من دون أن يشعروا بالخوف. الخسائر كبيرة جدًّا والنبطية وصور خير شاهد على ذلك، إذ حجم الدمار مهول في المدينتين. وإلى دمار العمران والأرزاق، هناك الخسائر في الأرواح وخصوصًا من الفئة الشبابية التي استولى عليها الحزب وجعل منها جنودًا صغار في خدمة عقيدة تخصّه وحده وتلبّي رغبة بلد أجنبي. إنها الفئة ذاتها التي سبق أن خسرنا منها المئات وربما الآلاف ممن أرسلهم الحزب إلى سوريا ليدافعوا عن نظام وطاغية آخر.

كيف يمكن للطائفة الشيعية أن تُعيد ترتيب بيتها الداخلي وعلاقتها مع الطوائف الأخرى؟

طالما أن حزب الله لا تزال لديه سلطة على الطائفة الشيعية، فإن كل تغيير سيُصبح أصعب، كما يُصبح علينا أن نرهن التغيير بتغيير يطرأ داخل الحزب نفسه، وهذا أمر أشكُّ بحدوثه. ونحن حتى الآن لم نرَ، ولو مرة واحدة، واحد من مسؤولي الحزب يتحدّث بتواضع أو يراجع سياسته ونهجه أو يبحث عن الأخطاء. فهؤلاء جماعة لا تمارس المراجعة الذاتية، وتعتبر نفسها على حق دائمًا، وتستقوي بالسلاح على الآخرين. ونلاحظ أنه رغم ضعف قوّتهم بعد الحرب الأخيرة، فإن اللبنانيين الآخرين، لا زالوا يتعاطون معهم بخوف، يخافون منهم. فالحزب حوّل الطائفة الشيعية من طائفة مضطهَدة ومظلومة إلى مستبدّة ومتعجرِفة. لذلك، أعتقد أننا في حاجة إلى الكثير من الوقت لتنظيم علاقة الطائفة بالطوائف الأخرى. فعندما نكون أمام جهة حزبية تعتبر نفسها دائمًا على حق، وتخوّن الآخرين لمجرّد تفكيرهم بطريقة مختلفة، يصير السؤال المُلحّ: كيف يمكننا أن نتعامل معها ومع مَيلها إلى تخوين غيرها؟ وهذا علمًا، ووفق ما تكشَّف للجميع خلال الحرب الأخيرة، بأن العملاء كانوا في صفوفهم، وربّما على أعلى المستويات. إن هذا يعقّد كثيرًا طريقة التعاطي مع الحزب ومخاطبته.

ماذا عن الرؤية المستقبلية للطائفة الشيعية، وهل هناك حاجة لإعادة النظر فيها؟

لا يمكننا تجاوز وجود حزب الله في شكله الحالي عند الحديث عن مستقبل الشيعة. فهو يتمتّع بقوة كبيرة اقتصادية وتنظيمية تمكّن عبرها من تغيير طريقة التفكير لدى فئة كبيرة من الطائفة، حتى لا نقول كلهم. فهو حوّل هذه البيئة إلى جماعة متعصّبة، منغلقة، متعجرفة، مستقوية بالسلاح، تهدِّد غيرها متى تشاء. وفي عائلتي تجربة قد يكون استرجاعها مفيدًا. فهناك مثلًا أقارب لي لم يستفيدوا يومًا من حزب الله، لا ماديًّا ولا معنويًّا، وهم لا يعملون مع الحزب، كما أنهم لم يؤيّدوه ولا يؤيّدون حركة أمل، فاعتبروا الأول غريبًا عنهم والثانية فاسدة. أكثر من هذا، عندما سمعوا للمرة الأولى باسم حزب الله اعتبروا التسمية كفرًا. لكن منذ ٢٠٠٦، بدأ هؤلاء الأقارب يوالون الحزب وبدأ حينها هذا الالتفاف حوله على النحو الذي



غارات استهدفت مدينة صور

نراه اليوم. فبعد نهاية حرب الـ٢٠٠٦ ارتكبت قوى ١٤ آذار الغلطة الرهيبة بشنِّها هجومًا كبيرًا على الحزب في الوقت الذي كان الشيعة يُلملمون جراحهم بعد أن فقَدوا الضحايا. وبالتالي كانت مهاجمته بالطريقة التي حدثت فعلًا غبيًّا. فهُم خاطبوا الشيعة بوصفهم من جرّوا البلد إلى الخراب، لكن ليست الطائفة الشيعية مَن قام بذلك بل حزب الله. فبدَل أن تُخاطب قوى ١٤ آذار الشيعة كضحايا للحزب، مثلهم مثل باقي اللبنانيين، زُجَّ الشيعة كلهم في خانة الحزب وأصبحوا بالتالي أعداء. وعليه فإن جزءًا كبيرًا من الشيعة أصبحوا يوالون حزب الله، ومنهم أقاربي.

لكن لا بدّ من القول، إن الانطباع الذي ولّدته الحرب الأخيرة مختلف عما حصل في ٢٠٠٦. فقد رأينا كيف كان استقبال كل اللبنانيين للنازحين، ومن كل الطوائف، استقبالًا وطنيًّا. ولربما حدثت بعض الإشكالات الصغيرة، لكنها لا تعبّر عن الصورة العامة، إذ ليس سهلًا أن يصل نحو مليون و٢٠٠ ألف شخص إلى مناطق ليست مناطقهم وخلال أسبوع أو أسبوعين، من دون أن تحدث مشاكل كبيرة. وهذا أمر لم أكن أتوقّعه صراحة، إذ كان من المقدّر أن لا نرى تلك الإيجابيّة وأن نرى نسبة أكبر من النازحين متروكة على الطرقات.

وفي النهاية، فحزب الله هو الورطة الكبرى للطائفة لكن إنهاءه ليس بالأمر السهل. قد يحدث ذلك مع الوقت لكنه لن يكون وقتًا قصيرًا، وبالتالي فإن الرؤية المستقبلية للشيعة لا يمكن تحديد وجهتها طالما أن وحدة الحال مع حزب الله لم تُفكّ، وبالتالي فالطائفة لن تعود إلى لبنانيتها طالما أن ولاء الحزب هو لقوى خارجية ولعقيدة لا تعبأ أو لا تعترف بفكرة الوطن ولا بواقع الحدود. هذا من أكثر ما يحرّض على إعادة النظر.

السيّد علي الأمين

لبنان يجمعنا والدولة مرجعنا



العلّامة السيّد علي الأمين، أستاذ في علم الفقه والأصول، تخرّج على يديه الكثير من أهل العلم والفضلاء؛ عالم لبناني عضو مجلس حكماء المسلمين؛ شغل منصب مفتي صور وجبل عامل سابقًا، واشتهر بمواقفه الجريئة المعارضة لولاية الفقيه؛ أُبعِد من مدينة صور بقوة السلاح غير الشرعي لمعارضته اجتياح بيروت خلال أحداث ٧ أيار ٢٠٠٨، لكنه واصل النضال بفكره ومواقفه من أجل مستقبل أفضل للطائفة الشيعية وقيام دولة المؤسسات والقانون في لبنان؛ يُعرف بإيمانه العميق بالحوار والعدالة الاجتماعية، وبجرأته في مواجهة التحديات لتعزيز العيش المشترك والوحدة الوطنية والقيَم الإنسانية و الدّينيّة.

ولأجل الاطلاع على موقفه مما يجري الآن على الساحتين الشيعية واللبنانية، كان للـ«فان رقم ٤» هذا اللقاء معه.

كيف تصفون الواقع الذي كان سائدًا قبل الحرب الأخيرة في لبنان، إن على المستوى السياسي اللبناني بشكل عام أو على مستوى الطائفة الشيعية ومؤسساتها الدِّينية بشكل خاص؟

- الوضع في لبنان قبل الحرب الأخيرة لم يكن جيدًا على مستويات عديدة، وقد وصل إلى مرحلة لا يُحسد عليها في السنوات الأخيرة؛ فعلى المستوى السياسي حصل الشلل في مؤسساته الدستورية: فراغ في رئاسة الجمهورية بسبب عدم قيام المجلس النيابي بواجبه في انتخاب رئيس، وشلل حكومي بسبب استقالة الحكومة وقيامها بتصريف الأعمال، واقتصاد متدهور. هذا الوضع الذي وصلت إليه البلاد، والمستمر حتى اليوم، لم يكن خاصًّا بالطائفة الشيعية، بل هو شمل كل الطوائف في لبنان ومناطقه. وقد حصل هذا في عهد ما يُسمى (الثنائي الشيعي) باعتباره القيادة السياسية المهيمنة بقوة السلاح على الطائفة الشيعية، بل على كل لبنان. كانت الطائفة الشيعية في لبنان أسوأ حالًا من غيرها على مستوى إدارتها الداخلية، حيث غابت عنها التعددية السياسية والثقافية بسبب القمع وفرض الرأي السياسي الواحد عليها والتوجه الفكري والدِّيني الذي يخدم سياسة الثنائي وارتباطاته الخارجية. ولذلك لا يمكن الحديث عن دور ناجح للمؤسّسات الدِّينية للطائفة سياسيًّا ودينيًّا واجتماعيًّا في ظلّ التبعية والانقياد لتلك الهيمنة المُطبِقة عليها وعلى كل مؤسّسات الدولة التي جعلت من المسؤوليات والمناصب الدِّينية وغيرها تابعة لهوى القيادة السياسية للطائفة الشيعية، فكانت تلك المؤسّسات الدِّينية كغيرها من المؤسّسات الأخرى خاضعة لتوجُّهات ومصالح القيادة السياسية للطائفة.

ما هو تقييم السيّد بالنسبة إلى الحرب التي دخلنا مرحلة سرَيان وقف إطلاق النار فيها؟ كيف تنظرون إلى مسألة الدخول فيها؟ ما هي نتائجها وانعكاساتها على شيعة لبنان؟

- لقد عبّرنا عن رأينا في الدخول بهذه الحرب بعد اندلاعها في سنة ٢٠٢٣، وقلنا بأن هذه الحرب لن تنفع غزّة وستجلب الضرر إلى لبنان وتجعله في دائرة الخطر، وقلنا بأن لبنان هو جزء من العالم العربي، ولا يمكنه أن يدخل وحده في حرب غير متكافئة، ولا يجب عليه الدخول فيها، لأن التكليف بها فاقد لشرطِه، وهي القدرة والاستطاعة. وعلى كل حال فإن لبنان الدولة لم يكن له رأي في هذه الحرب ولا في ما سبقها من حروب.

وهذا الرأي لنا في رفض جرِّ لبنان إلى الحرب كان قد نُشر في عدة وسائل إعلامية، ولكن كما يقال في المثل العربي المشهور: «لو كان يُطاع لقصير رأي! »...

وأما سؤالكم عن النتائج لهذا الدخول في الحرب فقد كشفت عنه الوقائع والأحداث أثناء الحرب وبعد الاتفاق الساري على وقف إطلاق النار، فإن لبنان إذا كان قبل هذه الحرب في وضع لا يُحسد عليه فإنه بعد وقف إطلاق النار في هذه الحرب أصبح في وضع يُرثى له بما أصابه من المآسي والويلات بسبب الخسائر في الأرواح والتهجير للسكان والتدمير للممتلكات، مناظر لم تشهد الطائفة الشيعية مثيلًا لها من قبل. ونأمل أن تأخذ الطائفة

مما جرى دروسًا تُعينها على النهوض والتغيير وعلى عدم الوقوع مجدَّدًا في أتون الحروب وويلاتها.

ماذا عن واقع الشيعة اللبنانيين اليوم؟ وماذا عن مستقبل الطائفة الشيعية في لبنان، وكيف الخلاص من الأزمات المتتالية التي تقع فيها؟ وما الرأي بالنسبة إلى علاقتها الحالية بالنسبة إلى المكوّنات الطائفية الأخرى في لبنان؟ وكيف تنظرون إلى ماذا يجب أن تكون عليه؟ وهل الالتزام بلبنان كوطن نهائي والدولة اللبنانية كحاضن لمختلف المكوّنات، والشيعة ضمنهم، هو خيار يمكن أن يتماهى دينيًّا وفقهيًّا مع الأصول الدِّينية الشيعية، وهل هناك مُسند فقهي شيعي يتماهى مع الفكرة الوطنية؟

- لقد عبّرنا عن هذه التساؤلات في الرسالة الأخيرة التي أرسلناها إلى الشيعة اللبنانيين قبل صدور الاتفاق على وقف إطلاق النار في الحرب المفروضة على لبنان، وكانت تحت عنوان:

ما هو المطلوب من اللبنانيين الشيعة؟ وأوردنا فيها ما يلي:

تتوجه الأنظار إلى اللبنانيين الشيعة في هذه الفترة العصيبة التي تمرُّ على لبنان، كما توجّهت إليهم في فترة حرب تموز ٢٠٠٦، وقد أثيرت في حينها مجموعة من الأسئلة حول الدور والانتماء والمستقبل والمصير داخل الوطن والمحيط، ومن تلك الأسئلة التي يُعاد طرحها اليوم سؤال: ما هو المطلوب من الشيعة حاليًّا؟ والجواب على هذا السؤال اليوم هو ما قلناه في تلك الفترة: وهو لزوم توجيه هذا السؤال أولًا إلى الواجهة السياسية في الطائفة الشيعية التي امتلكت زمام القرار السياسي والعسكري في الجنوب منذ عقود، لأن عموم أبناء الطائفة الشيعية في لبنان لم يكن لهم رأي في الحروب التي وقَعت على أرضهم وفي وطنهم. وهم كانوا قد عبّروا عن آرائهم وتطلعاتهم منذ سبعينات وثمانينات القرن الماضي في محطات عديدة عندما اقتُطع الجنوب اللبناني من الدولة اللبنانية وصار تحت سلطة الأحزاب والتنظيمات المسلحة، ورغم الضغوط التي كانت تُمارس على أهل الجنوب في تلك الفترة كانت أصواتهم ترتفع مطالبة بمشروع الدولة وبسط سلطتها الكاملة على الجنوب اللبناني أسوةً بغيره من المناطق اللبنانية. وهم ـ أبناء الطائفة الشيعية ـ لم يختاروا قيادتهم السياسية والدِّينية إلّا لاعتقادهم أن هذه القيادات تعمل على تحقيق مشروع الدولة الواحدة التي تنتظم فيها جميع الطوائف اللبنانية، بما في ذلك الطائفة الشيعية، التي آمنت بالعيش المشترك مع سائر الطوائف والذي تنبثق منه مؤسّسة الدولة الواحدة التي ترعى الجميع وتكون هي المسؤولة وحدها عن الوطن والمواطن في مختلف نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية وغيرها من الحقول والميادين التي تتولّى شؤونها الدول في شعوبها وأوطانها.

إن دولة المؤسّسات والقانون ليست انعكاسًا لرؤية أيديولوجية خاصة بطائفة أو حزب أو جماعة خصوصًا في المجتمعات المختلطة والمتعدّدة كما هو الحال في لبنان البلد المتعدّد الطوائف الذي تنبثق منه فكرة الدولة وتنشأ من خلال عقد اجتماعي بين جميع الفئات تتكرّس ميثاقًا وطنيًّا يتجاوز الأطر الضيُقة والنظرات الأُحادية. وقد التزمت بهذا العقد الاجتماعي كل الطوائف اللبنانية على اختلاف مذاهبها وأديانها بما فيها الطائفة الشيعية منذ قيامة لبنان، ولا يزال هذا الأمر أساسًا يحظى بإجماع اللبنانيين من كل الطوائف، وهو اليوم أكثر رسوخًا وثَباتًا في نفوسهم وقناعاتهم، وهم اليوم أكثر تمسّكًا به كثابتة من ثوابت لبنان الوطن النهائي الذي لا يتبدّل مهما تغيّرت الظروف وتبدّلت الأحوال. وهذا الذي ذكرناه من مشروع الدولة، المسؤولة وحدها عن الشعب والوطن، كان جزءًا لا يتجزأ من مشروع الإمام موسى الصدر الذي أعطته الطائفة الشيعية التأييد على أساسه لما فيه من تأكيد للوحدة الوطنية التي تتعاظم قوّتها وتزدهر إمكاناتها من خلال مشروع الدولة الواحدة، ولذلك، قال في زمن انتشار السلاح بأيدي الأحزاب والتنظيمات الخارجة عن الدولة في مجلة «الحوادث» تاريخ ٣٠ تموز ١٩٧٨: «لا حلَّ للبنان إلّا في إقامة الشرعية ولا شرعية إلّا بتذويب الدويلات أيًّا كانت صيغتها وشكلها وفعلها»، وقد كان مشروعه في غاية الوضوح في شأن الانتماء الوطني والعربي للشيعة اللبنانيين والاندماج الكلّي في مشروع الدولة الواحدة. والمطلوب من الذين يقودون الطائفة الشيعية اليوم أن يُعلنوا حالًا عن اعتمادهم الدولة اللبنانية مرجعيةً وحيدة والتخلّي عن كل ما يتنافى مع سيادتها ويمنع من قيامها بكامل مسؤولياتها على كل أراضيها.

ويُوجّه هذا السؤال ثانيًا إلى أبناء الطائفة الشيعية، فإنه

علـى رغـم الجـراح النازفـة والنـزوح مـن الديـار والتهجيـر والدمـار يجـب عليهـم مطالبـة الذيـن يقودونهـم وسـؤالهم عـن أسـباب الانهيـار الـذي أوصلوهـم وأوصلـوا لبنـان الوطـن إليـه فـي عهدهـم وأمـام أعينهـم. فبـدون المطالبـة والاعتـراض منكـم سـوف تتكـرَّر المآسـي، وبـدون النقـد لـن يتحقـق إصـلاح.

قولـوا لقياداتكـم السياسـية ليـس المطلـوب تذكيرنـا فـي المناسـبات بأقـوال الإمـام الصـدر ومواقفـه، المطلـوب هـو الإعلان اليـوم عـن بـدء العمـل الجـادّ بمشـروعه؛ فالإمـام أراد مـن كلامـه الـذي نقلنـاه عنـه عـودة الجنـوب إلـى أحضـان الدولـة اللبنانيـة التـي تشـكِّل المرجعيـة الوحيـدة للبـلاد فـي مختلـف الشـؤون والمجـالات وهـي الحَكَـمُ فـي فصـل الخلافـات والمصـدر الوحيـد فـي اتخـاذ القـرارات خصوصًـا تلـك المتعلقـة بالسـلم والحـرب.

ونتمنّـى علـى المرجعيـة الدِّينية فـي العراق ونناشـدها أن تنظر إلـى مـا وصـل إليـه حـال المواطنيـن الشـيعة فـي لبنـان وأن تُصـدر توجيهاتهـا إلـى قياداتهـم السياسـية وأحزابهـم باعتمـاد الدولـة اللبنانيـة كمسـؤولةً وحدهـا عـن الأمـن والدفـاع مثـل مـا توجَهـت بـه المرجعيـة قبـل فتـرة وجيـزة إلـى الأحـزاب والتنظيمـات المسـلحة فـي العـراق بضـرورة الرجـوع إلـى الدولـة العراقيـة. وبتنفيـذ تلـك التوجيهـات يتحقّـق مشـروع الإمـام الصـدر المتمثّل بالدولة الواحـدة التـي ينضـوي جميـع اللبنانييـن تحـت لوائهـا، ويتـمّ التأسـيس لخـروج لبنـان مـن محنتـه وقيـام دولتـه المسـؤولة وحدهـا عـن الشـعب والوطـن، وننطلـق جميعًـا بالعمـل مـن أجـل تحقيـق الأهـداف لأهلنـا الصابريـن وشـعبنا الصامـد الـذي يسـتحق الحيـاة الآمنـة والمزدهـرة.

هـل ولايـة الفقيـه، بمـا يجسّـده مشـروع الثـورة الإسـلامية فـي إيـران، هـي فـي أصـل الدِّيـن والعقيـدة أم أنهـا خيـار ويمكـن للمقلِّـد الشـيعي اتّبـاع خيـارات أخـرى ضمـن الطائفـة دون أن يكفـر أو يخـرج عـن الملّـة؟

- مسـألة ولايـة الفقيـه تُعـدُّ مـن مسـائل الفـروع الفقهيـة فـي علـم الفقـه، وليسـت ولاية الفقيـه مـن المسـائل العقائدية عند المسـلمين الشـيعة، فالمسـائل التـي تكتسـب صفـة (واجبـة الاعتقـاد) هـي المسـائل المتّفـق عليهـا فـي أمـور العقيـدة سـواء فـي أمـور أصـول الدِّيـن، أو فـي أمـور فـروع الدِّيـن، بينمـا ولايـة الفقيـه ليسـت مـن أصـول الدِّيـن المعروفـة عنـد الشـيعة، وليسـت أيضًـا مـن فـروع الدِّيـن المتفـق عليهـا عنـد علمائهـم، فهـي مسـألة خلافيـة، والمسـألة الخلافيـة ليـس لهـا صفـة (العقائديـة) لأن المسـألة العقائديـة لهـا صفـة الاتفـاق وصفـة الضـرورة والمسـلّمات. فمثـلًا الإمامـة عنـد الشـيعة هـي مـن المسـائل الثابتـة والمتفـق عليهـا عندهـم، فـلا يمكـن لشـيعي أن يؤمـن بهـا ولآخَـر أن لا يؤمـن بهـا ويبقـى شـيعيًّا، لأن الإمامـة مـن العقائـد عنـد الشـيعة، أو لا يمكـن لشـيعي أن يقـول أنـا أؤمـن بوجـوب الصـلاة ولشـيعي آخـرأن يقـول أنـا لا أؤمـن بذلـك، لأن وجـوب الصـلاة مـن المعتقـدات والمسـلّمات المجمَـع عليهـا عنـد المسـلمين، فـإذن المسـألة العقائديـة هـي التـي تكتسـب صفـة الثبـات والمسـلّمات وهـي مـن مسـائل الاتفـاق.

وقـد تكلّـم العلمـاء والفقهـاء مـن المذهـب الشـيعي فـي مسـألة ولايـة الفقيـه، وقـد رفضهـا الكثيـر منهـم، ولذلـك هـي لا تُعتبـر مـن مسـائل العقيـدة عنـد الشـيعة، وقـد رأينـا فـي إيـران إبّـان مـا سُـمي بـ«الحركـة الخضـراء» خـروج الملاييـن مُعلنيـن عـن عـدم قبولهـم بـرأي الولـي الفقيـه ومنهـم علمـاء، فهـل هـؤلاء ليسـوا شـيعة! بلـى، هـم مسـلمون شـيعة، وهـم لـم يرتكبـوا شـيئًا خـلاف العقيـدة الشـيعية عندمـا رفضـوا رأي الولـي الفقيـه.

فالبحـث فـي علـم الفقـه عـن ولايـة الفقهـاء فـي الأصـل كان بعيـدًا عـن السـلطة السياسـية علـى الأفـراد والجماعـات والأنظمـة والحكومـات، وقـد تعـرّض الفقهـاء للبحـث عنهـا فـي كتبهـم وأبحاثهـم الفقهيـة نفيًـا وإثباتًـا فـي موضوعـات الأحـوال الشـخصية للأشـخاص الفاقديـن لأهليـة إجـراء العقـود والمعامـلات بسـبب اختـلال بعـض الشـروط المعتبَـرة عنـد العقـلاء والشـرع فـي نفـوذ معاملاتهـم وعقودهـم والتزاماتهـم كالبلـوغ والعقـل والرُّشـد فـإذا فقَـد الشـخص شـرطًا مـن هـذه الشـروط أو غيرهـا ممـا هـو مُعتبـر فقـد أصبـح هـذا الشـخص فاقـدًا لأهليـة إجـراء المعامـلات والعقـود ولـو أوقـع عقـدًا فـي هـذه الحالـة لـم يكـن نافـذًا في حقـه ولا تترتـب عليـه الآثـار والالتزامـات ولا يكـون مشـمولًا بقاعـدة نفوذ العقود المسـتدلّ عليهـا عنـد الفقهـاء بقولـه تعالـى: ﴿أوفـوا بالعقـود﴾، فهـو شـخص مسـلوب العبـارة علـى حـدّ مـا ورد علـى ألسـنة علمـاء الفقـه والأصـول. ولذلـك يكـون الفاقـد لهـا كلًا أو بعضًـا، قاصـرًا يحتـاج إلـى الولـيّ الـذي يتدبّـر أمـوره ويَرعـى شـؤونه وينظـر إلـى المصلحـة فـي معاملاتـه وعقـوده.

وهذا يعني أن الدراسة كانت لمسألة ولاية الفقيه تقع في إطار البحث الفقهي عن ولاية الأب والجدّ على الصغير وولاية عدول المؤمنين على الذي فقَد وليّه، كاليتيم والغائب وغيرهما ممن يحتاج إلى مَن يقوم مقامه في معاملاته الشخصية واقتصرت ولاية الفقيه على هذه الموارد وأشباهها.

ولذلك أُسس الفقهاء قاعدة فقهية بشأن هذه الولاية استنادًا إلى النصوص الشرعية والروايات مفادها أن الفقيه هو «وليُّ مَنْ لا وليَّ له»، فتكون ولايته متأخِّرة ـ على تقدير ثبوتها ـ عن ولاية الأبوَين ولا تكون ثابتة في الأصل ولا شاملة للشخص الذي يكون وليًّا لنفسه وعلى نفسه لاكتمال عناصر شخصيته الحقوقية بتوفُّر الشروط المعتبَرة في نفوذ معاملاته وتصرّفاته.

وبهذا المعنى تكون الولاية المُشار إليها ليس لها علاقة بالمعنى السياسي المتداوَل عن السلطة السياسية على الإطلاق.

والخلاصة، أن مسألة ولاية الفقيه لم تكن في الأساس مسألة سياسية. والبحث عنها في الفقه الشيعي كان سابقًا في إطار الولاية على الإفتاء بمعنى الأهلية العلمية والدِّينية لإصدار الفتوى، وعلى ما تقدَّم ذكره مما يسمّى بالوصاية، كطلاق الغائب والولاية على الصغار والقاصرين وعلى فاقدي الأهلية، لإدارة شؤونهم الإنسانية والاجتماعية، كما بيّناه. وقد أخذت الطابع السياسي بداية في إيران في أوائل القرن التاسع عشر، حين نشب صراع بين بعض العلماء ومُقلّديهم المؤيِّدين لتقييد صلاحيات الشاه الحاكم، وقد أُطلق عليهم اسم فريق المشروطة وبين بعض آخر من العلماء ومقلِّديهم الرافضين لذلك، وقد أُطلق عليهم اسم فريق المُسْتَبِدَّة. وأعطيت في عصرنا من جديد ولاية الفقيه البُعد السياسي في أواخر القرن العشرين مع قيام الثورة الإسلامية في إيران من أجل إعطاء الفقيه القائد صلاحيات دينية واسعة في قيادة الثورة والدولة بعد ذلك لمنع الاعتراض عليه باسم الدِّين. هذا موجز عن نظرية ولاية الفقيه ومَن أراد التوسُّع فليرجع إلى كتابنا المطبوع تحت عنوان «ولاية الدولة ودولة الفقيه».

هل في الإمكان تبَلوُر مشروع وطني لشيعة لبنان يعتمد على الأصول الدِّينية كخَيار وطني لبناني شيعي بموازاة



منزل متضرر في قلاوويه، المدى

المشاريع الموجودة حاليًّا إن كان مشروع «حزب الله» أو مشروع «حركة المحرومين - أمل» اللذين أوصلا الطائفة إلى حالة الانهيار الحالية؟

- لا يوجد مانع من قيام رؤية سياسية جديدة للطائفة الشيعية في لبنان على أساس الثوابت الوطنية من العيش المشترَك بين جميع الطوائف اللبنانية والولاء للبنان الوطن النهائي لجميع أبنائه والمرجعية الوحيدة لدولة المؤسسات والقانون، ونحن لسنا مع الوصاية على الطائفة الشيعية، ولا مع الوكالة الحصرية في تمثيلها لأي حزب أو تنظيم أو زعيم؛ فالطائفة أكبر من كل الأحزاب والتنظيمات والزعامات، وهذا الأمر يعتمد على رأي أبناء الطائفة وخياراتهم بعد الاستفادة من التجارب التي مرّت بها الطائفة عبر عقود من الزمن أوصلتهم إلى الأوضاع الحالية.

والذي أراه أن الأحزاب يجب أن تقوم على المشاريع الوطنية التي تنطلق من حاجات المواطنين في وطنهم، وليس من خلال انتماءاتهم الطائفية والمذهبية، لأن قيام الأحزاب السياسية على أُسس طائفية أو دينية يساهم في زعزعة الوحدة الوطنية، لأنه يؤدّي في النهاية إلى الفرز الطائفي والدِّيني داخل الشعب الواحد والوطن الواحد، بل ينعكس ذلك على الطائفة الواحدة، حيث إنه يصنّف المواطنين بين مؤمنين منتسبين إليه وغير مؤمنين لا ينتسبون إليه، وقد قدَّمت تصوُّرًا عن لبنان الذي نريد قبل سنوات عديدة، وجاء فيه: «منذ عهود مضت ولبنان كان واحة للحرية في العالم العربي؛ وقد شكل نموذجًا حضاريًّا في العيش المشترك القائم على الانفتاح والتّسامح بين مختلف الطوائف اللبنانية وأعطى بذلك مثالًا على تجربة إنسانية ناجحة في احترام الآخر و القبول به ونبذ

التعصّب الـذي يشـكّل سِـمةً من سِمات الجهـل والتخلّف؛ وقد بقـي ربـاط العيـش المشـترك يجمـع اللبنانييـن المتمسّـكين بوطنهـم لبنـان بالرّغـم مـن كلّ مـا حصـل علـى أرضـه مـن حـروب ونزاعـات لا يتحمّـل الشـعب اللبنانـي المسـؤولية عنهـا وإنّمـا كانـت حـروب الآخريـن الذيـن اسـتفادوا مـن ضعـف الدولـة اللبنانيـة فـي تلـك المرحلـة ليُقيمـوا دويـلات الشـوارع و الزواريـب والمناطـق. واللبنانيـون اليـوم كمـا فـي الأمـس كانـوا ولا يزالـون متمسـكين بلبنـان الواحـد ومشـروع الدولـة الواحـدة التـي تشـكّل مرجعيّـة لـكل اللبنانييـن فـي مختلـف الحقـول والميادين مـن خـلال نظـام سياسـي يجعـل منهـا دولـة الإنسـان التـي تحتـرم مختلـف العقائـد والمذاهـب والأديـان مـن دون أن يكـون هنـاك امتيـازات فـي الحقـوق لطائفـة علـى أخـرى ولا لفـردٍ علـى آخـر مـن خـلال الانتمـاء الديّنـي للطوائـف والأفـراد الذيـن يجـب أن يكونـوا متسـاوين أمـام القانـون فـي الحقـوق والواجبـات؛ وقـد اسـتجاب اتفـاق الطائـف لمعظـم طموحـات الشـعب اللبنانـي فـي إرسـاء دعائـم دولـة المؤسسـات والقانـون.

ونحـن نتطلّـع إلـى اليـوم الـذي تصبـح فيـه الدولـة اللبنانيـة هـي المسـؤولة وحدهـا عـن الأمـن والدفـاع وعـن السياسـة والاقتصـاد وعـن سـائر المهـام التـي تقـوم بهـا الـدول حيـال شـعوبها وأوطانهـا وأن تكـون الدولـة التـي ينخـرط فيهـا الجميـع وينضـوي تحـت لوائهـا الجميـع وأن تكـون وحدهـا، مـن خـلال مؤسسـاتها، صاحبـة القـرار ومرجعيـة الحلـول عنـد حصـول الاختـلاف بحيـث يقبـل الجميـع بأحكامهـا وتنفيـذ قراراتهـا بـدون اسـتثناء علـى قاعـدة أن يكـون الـولاء للوطـن والدولـة، وليـس للطائفـة أو الحـزب أو الزعيـم السياسـي أو الدّينـي. ولتحقيـق هـذه الغايـة يجـب إدخـال مجموعـة مـن الإصلاحـات وإعـادة النظـر فـي بعـض السياسـات الإداريـة المعتمَـدة لفتـرة طويلـة مـن الزمـن والتـي جعلـت ولاء المواطـن لطائفتـه أو لزعيمهـا الطائفـي، لأن تلـك السياسـات التـي توافَـق عليهـا السياسـيون جعلـت مـن الزعيـم مصـدَرًا لـكل الخدمـات التـي تُقـدّمُ إلـى أبنـاء طائفتـه بحيـث أصبـح فـي نظـر أبنـاء طائفتـه هـو المُعطـي والمانـع؛ وهـو الدولـة بنظـر أصحابـه وأتباعـه؛ وهـو القانـون والنّظـام. ولذلـك يجـب أن يبقـى فـي السـلطة علـى الـدوام وإن أسـاء إليهـا أو خـرج عنهـا، وليـس المُعطـي هـو المؤسّسـات التابعـة للدولـة والمنبثقـة عنهـا، ولذلـك يجـب إخـراج الخدمـات مـن أيـدي الأحـزاب والزعامـات وجعلهـا محصـورة بالدولـة اللبنانيـة ومؤسّسـاتها وليـس بالأشـخاص والأفـراد، وبذلـك يُصبـح ارتبـاط المواطـن بدولتـه التـي تضمَـن لـه حقوقـه وليـس بالحـزب وزعيـم الطائفـة الـذي يجعـل منهـا سـلاحًا يُضعـفّ الدولـة ومؤسّسـاتها عندمـا يشـاء خدمـةً لأغراضـه الشـخصية أو وفـاءً لارتباطاتـه الخارجيـة. ومـن الإصلاحـات التـي نتطلّـع إليهـا فـي وطننـا لبنـان والتـي تُخـرج شـعبه عـن دائـرة الفـرز الطائفـي والتطـرّف الدِّينـي والمذهبـي أمـور متعـددة؛ منهـا: إعـادة النظـر فـي مناهـج التعليـم والبرامـج التربويـة والعمـل علـى توحيدهـا فـي مختلـف المراحـل والقطاعـات الخاصـة والعامـة وإلغـاء التعليـم الدِّينـي مـن المـدارس التـي يجـب أن تنحصـر مهمتهـا فـي التربيـة والتعليـم والتنشـئة الوطنيـة، أمـا التعليـم الدِّينـي فهـو مهمـة الكنائـس والمسـاجد ورجـال السـلك الدِّيني الـذي يحتـاج بـدوره إلـى الإعـداد والتنظيـم بمـا ينسـجم مـع روح العصـر والعيـش المشـترك الـذي يسـتدعي ثقافـة الانفتـاح والتسـامح.

ومنهـا أيضًـا، إعـادة النظـر فـي تشـكيل الأحـزاب السياسـية ومنـع قيامهـا علـى أُسـس دينيـة وطائفيـة بـل يجـب تشـكيلها وقيامهـا علـى أسـاس البرامـج السياسـية والاجتماعيـة التـي تهـمّ كل المواطنيـن ليُصبـح التمثيـل للمواطنيـن تمثيلًا سياسـيًّا واجتماعيًّـا وثقافيًّـا وليـس تمثيـلًا طائفيًّـا ودينيًّـا، وبذلـك نؤسِّـس لمجلـس نيابـي يقـوم اختيـار المواطنيـن لأعضائـه علـى أسـاس مـن المشـاريع الوطنيـة السياسـية والبرامـج الاقتصاديـة والإصلاحـات الاجتماعيـة بعيـدًا عـن التعصُّـب المذهبـي والطائفـي وبذلـك نعـزِّز حالـة الانصهـار الوطنـي والتنافـس الديموقراطـي فـي عمليـة بنـاء لبنـان المسـتقبل، لبنـان الاسـتقرار والازدهـار، ليعـود لبنـان لؤلـؤة الشـرق ونموذجًـا حضاريًّـا فـي أرقـى وأسـمى العلاقـات الانسـانية فـي المنطقـة والعالـم.

عباس جعفر الحسيني

غالبية الطائفة الشيعية ستعيش على تُراث «السيد» «نحن أمام نوعٍ من كانتون مستقلّ لجبل عامل بحماية أميركية»

محلِّل للاستطلاعات السياسية والانتخابية، مدير ومؤسِّس مكتب «ماينرز» للدراسات والأبحاث.

عباس جعفر الحسيني، تردَّد اسمه دائمًا كصاحب مواقف جريئة وخيارات على مستوى الوطن، يعمل في الأبحاث التنموية والسياسية والاجتماعية. ولديه إصدارات عدّة في مجال الإحصاءات والأبحاث والتاريخ والأدب.

في هذا الحوار يتحدّث الحسيني عن واقع الطائفة الشيعية ورؤيتها المستقبلية.

مَن هو عباس جعفر الحسيني ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟



كنت أسكُن في الشياح، على طريق المطاحن. ثم سكَنت في بيروت وكان معظم رفاقي من البيارتة، السنّة، فغلبت على لهجتي اللكنة البيروتية. درستُ في مدارس مسيحية، وأكملتُ دراستي لاحقًا في الاتحاد السوفياتي، فنشأ عندي هذا المزيج من الثقافات. لكن برغم ولادتي في بيروت فإنّي لم أنقطعْ عن جبل عامل أبدًا، بل وجدتُ أن جبل عامل هو الباب الذي نلِج منه إلى كل هذه الثقافات. قد أبدو مغرورًا أو منحازًا، لكن لو لم تكن عامليًّا لما كان لديك هذا الانفتاح على الثقافات الأخرى. وبعد أن تخرَّجت من الجامعة ودخلت إلى ميدان العمل، فضَّلت أن أعود إلى جبل عامل في ما يُشبه الهجرة المعاكسة إلى الريف. استغربَ أصدقائي قُدرتي على التخلّي عن حياة بيروت وكل ما فيها من جنون الحياة الذي عِشته حتى آخره. حين عُدت إلى الجنوب، كنتُ في الثلاثين من عمري، وأثَرت استياء البعض بسبب لكنَتي البيروتية. فأوَّلُ ما عملت عليه هو إعادة تشكيل الوعي عندي بكل ما يتعلّق بالجنوب وأهمها إعادة لكنَتي الجنوبية والعودة إلى ذاك التراث. احتجت إلى وقت كي أحقّق ذلك؛ وقت جالستُ فيه كبار السن والنساء على وجه الخصوص، لأن النسوة هنَّ أكثر مَن يعطي اللهجة طيبتَها ورقتَها وحنانَها.

حين عُدت إلى قريتي النميرية كنت أملك منزلَين؛ شقة في مبنى سكني، وبيت أثَري قريب لبيت جدي في الحيّ الذي ترعرعت فيه. عِشقي لمنزل جدي جعلني أشتري هذا البيت القديم الملاصق له وقد كان البيت مملوكًا لحوالى سبعين وارث، فاستغرقني الأمر سنوات كي أُنجز استملاكه وأُعيد ترميمه بما يليق بالبيت العاملي الأثري القديم. كل من زارني في هذا البيت كان يقول لي: «نحن نشمُّ رائحة أمهاتنا وجدّاتِنا في بيتك». الروح العاملية موجودة في هذا البيت، وأنا أردت أن أصنع منه بيتًا من أجل الحضارة؛ من أجل جبل عامل. أحيانًا أقول لنفسي ليتَ لي أن أسجِّله بشكل يبقى متحفًا أثريًّا خالدًا، وقد كلّفني الكثير. أعتقد أني استطعت أن أترك في هذا البيت روحَ جبل عامل.

كيف أثَّرت الحرب الأهلية والحروب الإسرائيلية على لبنان، عليك وعلى أماكن سكنك؟

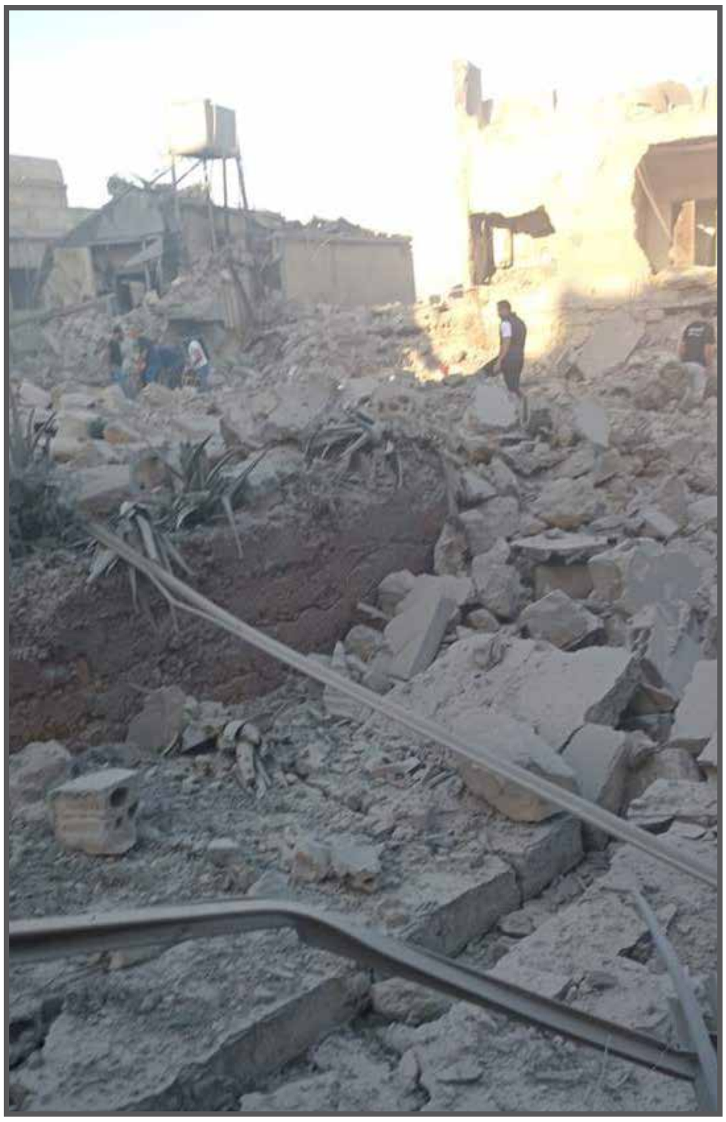
في الفترة الأولى من الحرب كنَّا في الشياح. هناك قُتل أخي وهو مواطن بريء كان يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة وعشرة أيام؛ قُتل قنصًا في ١ كانون الثاني ١٩٧٩. فأنا أعتقد أنّي ابن الحرب، وأكتب حاليًّا ما يشبه سيرة ذاتية في شكل رواية سأسمّيها «الحرب بيننا يا حياة»، وحياة هو اسم أمّي، أعرض فيها لاندلاع الحرب الأهلية وكيف عشناها ونحنُ على خط التماس في الشياح وأدّت في نهاية الأمر إلى مقتل أخي نبيل وانهيار البيت الأُسري برمّته. بعد هذه الحادثة باعَ أخي البيت وانتقلنا إلى كاراكاس في رأس بيروت. فالحربُ أخذت منَّا شقيقنا الكبير وغرقت أمّي في الحزن القاتل، ثم

وقَع الطلاق بينها وبين أبي، واهتزّت أركان البيت بسبب الحادثة. أستطيع أن أقول إننا عيّنة من العائلات التي اهتزّت وضربها الزلزال بفعل الحرب الأهلية. لا أزال أقول لإخوتي، نحن سبعة غير نبيل، إنَّ نبيل هو حزننا الأبدي لأنه ترَك في داخلنا حرقة جعلتنا لا نتحدّث عنه طيلة الفترة التي كانت أمّي فيها حيّة. لكن بعد وفاتها صرنا نسأل أمورًا كثيرة.

في العام ٢٠٠٦ بقيتُ مع زوجتي في الجنوب، لم يكن عندنا أطفال بعدُ. لم أغادر جبل عامل إلّا في الأيّام الأخيرة بعد أن انتكست صحيًّا. كان الوضع مختلفًا جدًّا عما هو اليوم. أما في حرب العام ٢٠٢٤ فقد قمت بإبعاد العائلة منذ اليوم الأول، وبقيت أنا لمدة عشرة أيام لا تُنسى. يوم الاثنين ٢٣ أيلول أسمَيته «اليوم المجنون» لأنه كان مجنونًا فعلًا. كنت أتنقّل من سطح منزلي إلى سطح منزل آخر لنتابع القصف الذي تعرّضت له بلدتي، النميرية. لم نغادر لأننا كنّا مقتنعين بأن هناك ردّ وبأننا نملك قوّة ردعٍ كما قيلَ لنا وكما وُعِدنا. فكنَّا نقول إنها ستكون حربًا تدميرية للطرَفين، لكننا صُدمنا. أنا من الأشخاص الذين صُعقوا نتيجة هول الغارات والبيوت التي تساقطت فوق رؤوس الناس. استشهد في قريتي في ذلك اليوم حوالى ثلاثين شخصًا، عشرة سوريين والباقي من أبناء بلدتي، خلال الساعات الثلاث التي قُصفنا فيها. هذا يوم لا أنساه، واعتبرتُ في لحظتها أن الحرب قد انتهت؛ أي بالنتيجة التي وصلنا إليها الآن. أثّرت الحرب على منزلي ببعض الأضرار الطفيفة، كالزجاج والأبواب. وكنت أصلّي ليلًا ونهارًا وأتمنى إن كان لا بدّ أن أخسَر بيتًا من البيتَين فلأخسر الشقة وليس البيت الأثري.

من وجهة نظرك؛ ماذا خسرت الطائفة الشيعية في هذه الحرب؟ وإذا كان ثمّة مكاسب، فما هي؟

نعيشُ اليوم جدالًا عقيمًا حول تسميات النصر والهزيمة، وبات يتمّ تقييم الناس؛ مَن يقول إنه منتصر فهو مع المقاومة، ومَن يقول إنها هزيمة فهو معارض للمقاومة. لن أدخل في التسميات ولن أتبنّى أيًّا منها، لكنني أقول إني يوم الاثنين ٢٣ أيلول أدركت أننا سنصل إلى ما وصلنا إليه، وسأدَع الآخرين يقيّمون. في ذلك اليوم



النميرية بعد سلسلة غارات، الجديد

فقدْت الإيمان بالردع، وإن كان المقاومون الذين أسمَيتهم بالتوّابين، خاصة بعد استشهاد السيد حسن نصر الله، قاموا بصمودٍ أسطوري أمام آلة المحو والهدم والقتل والتوحُّش، ولكن برغم ذلك قد وصلنا إلى ما وصلنا إليه. نحن نحتاج إلى دراسات وأبحاث كثيرة لتقييم الوضع الذي نحن فيه ولنعرف ماذا يسمَّى اتفاق وقف إطلاق النار وعلى ماذا ينصّ. أعتقد أن الأمور ستتبلوَر بعد مرور الأيام الستين وتطبيقه كليًّا في المستقبل، آنذاك نستطيع أن نعرف ما آلت إليه الأمور.

ماذا عن مستقبل الطائفة الشيعية؟ وكيف ستُعيد ترتيب بيتها الداخلي؟

أولًا أعتقد أننا نختبئ وراء إصبعنا إن لم نقل إن نسبة كبيرة من هذه الطائفة ستبقى تعيش على تراث السيد حسن نصر الله. ما هو مصيرها في المستقبل؟ لا أعرف

صراحــةً. لكــن هــي ســتعيش علــى هــذا التــراث إلــى أن تدخــل فــي الجــوّ الآخــر، وأعتقــد أن الأمــواج ســتتقاذفها فــي هــذه الفتــرة. الشــيعة ســوف يُؤخَــذون إلــى مــكان أو موقــع وهــم لا يــدرون إلــى أيــن يُؤخــذون. هــذا الأمــر يرتبــط بمــا وصلنــا إليــه مــن خــلال هــذا الاتفــاق. وهــم خســروا الرجــل الســاحر الجــذّاب الــذي كان يســتطيع أخذهــم حيــث يريــد وهــم فــي غايــة الامتنــان والســعادة. لكــن أيًّــا كان مــا ســيذهبون إليــه فهــم سيعيشــون علــى تــراث الســيد نصــر اللــه. وأعتقــد أننــا أمــام نــوعٍ مــن الكانتــون المســتقلّ لجبــل عامــل، ونــوع مــن الحمايــة الأميركيــة التــي ســتكون بهــذا المعنــى الواضــح؛ ســلِّموا ســلاحكم وأنــا أضمــن حمايتكــم وازدهاركــم. هــذا هــو الوضــع الــذي ســيذهبون إليــه، وربمــا بعــد عشــر أو خمــس عشــرة ســنة حيــنَ يجــدون أنفســهم فــي هــذا الوضــع ســيعتبرون أنفســهم مرتاحيــن ولكنهــم ســيبقون علــى امتنانهــم وولائهــم للســيد حســن.

مــا هــي الصــورة المتوقعــة لعلاقــة الطائفــة الشــيعية بالطوائــف الأخــرى فــي لبنــان؟

خلافًــا للجميــع، أعتقــد أن العلاقــة بيــن الشــيعة والطوائــف الأخــرى لــم تكــن متوتِّــرة. يقــول كريــم بقرادونــي فــي كتابــه «لعنــة وطــن»: «التعامــل مــع الطائفــة الشــيعية صعــب ومــن دونــه مســتحيل». أعتقــد أن الأمور ســتكون ســهلة، بل ســتكون ممتــازة لأن الشــيعة يتمتعــون بتلــك الــروح الموضوعيــة ولديهــم نــوع مــن الجاذبيــة تجــاه الآخريــن ولديهــم مــودّة ولطــف وكــرَم وشــهامة. لا أعتقــد أساسًــا أنهــا لــم تكــن علاقــة ممتــازة علــى المســتوى الفــردي أو الاجتماعــي، لكــن نعــم كان هنــاك توتّــر فــي بعــض نواحــي السياســة، وبالتحديــد فــي العلاقــة مــع حــزب اللــه، لكــن هــذه الأمــور ســتتغيَّر.

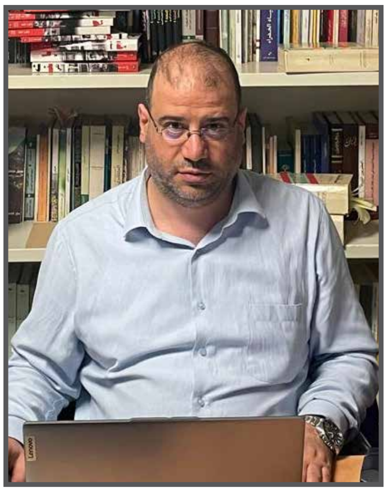
هــل ثمــة حاجــة لإعــادة النظــر، مــن قِبــل الطائفــة وأبنائهــا، بالرؤيــة المســتقبلية لهــا؟

لــن يكــون هنــاك مــن ســيقرّر مصيــر الطائفــة، حتــى مــن المثقفيــن المســتقلين والذيــن يدعمــون المقاومــة مــن إيديولوجيــات مختلفــة. هــؤلاء لــن يســتطيعوا تشــكيل نــواة القــوّة. عمــوم الطائفــة الشــيعية يعيــش علــى تــراث الســيد نصــر اللــه، ولــن يســتطيع أحــد فــي الســنوات العشــرين القادمــة أن يغــادر هــذا التــراث بســهولة. المســيحيون، حتــى اليــوم، لــم يغــادروا تــراث بشــير الجميــل. والســنَّة لــم يغــادروا تــراث رفيــق الحريــري. وكذلــك الشــيعة؛ حيــاة ونضــال واستشــهاد الســيد نصــر اللــه، ونحــن لــم نُقِــمْ لــه تشــييعًا مهيبًــا بعــدُ. وأي قــوة أو جهــة ســتعمل عكــس هــذا التيــار فستفشــل تلقائيًّــا. مــا ســيحصل هــو مــا حصــل فــي هــذا الاتفــاق والشــيعة ذاهبــون إلــى حيــث ســيأخذهم هــذا الاتفــاق.

عبّاس هدلا

لا شك أنه على أبناء الطائفة الشيعية، إعادة قراءة المرحلة وتقييمها، والتوجه نحو المنحى الوطني القائم على المصلحة الوطنية اللبنانية المشتركة، والعمل على تمكين الدولة وأجهزتها من إعادة فرض هيبتها وبسط سيادتها، وإنهاء كل أشكال الهيمنة والخروج عن القانون والنظام العام والدستور

مَن هو عباس هدلا؟ بينَ الولادة والطُّفولة والدِّراسة وأماكن النَّشأة؛ ماذا في الذَّاكرة من تلكَ الأيَّام؟



عباس هدلا، كبير الباحثين ومنسق الأرشيف في الجمعية اللبنانية للتعارف الفني والثقافي – «أمم للتوثيق والأبحاث»، من مواليد بلدة مشغرة في البقاع الغربي عام ١٩٨٠.

وُلدت في بلدة تتميز بمناخ طبيعي مثالي، وتتوفر فيها مختلف الخدمات العامة من مياه وكهرباء وطبابة ومدارس، فلم أشعر بالحرمان أو النقص. نشأت على تربية وطنية لبنانية مستمدة من أجواء المنزل والمدرسة، فلم يكن هناك شعور الجماعات والقبائل المستمد من فكرة التعايش ومحاولة التجانس بين المجموعات الطائفية. رفضت منهج التمييز والفرز وتخوين الآخر، وآثرت الخروج من هذه الأجواء بالانزواء برفقة الكتاب، فكان خير معلم وأنيس ومرجع لبناء الشخصية والرؤية.

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حروب ١٩٩٣ و١٩٩٦ وال ٢٠٠٦ واليوم في ٢٠٢٤؟

نحن جيل وُلد في خضم الحرب الأهلية، في مناطق تعرضت للاحتلال وكانت خطوط تماس، فنشأنا في ظلال عدم الأمان والاستقرار، ورافقنا الموت في كل لحظة. وأصبحت فكرة العيش بهدوء وأمان وسلام حلمًا نطمح لتحقيقه، لكن هل يتحقق ذلك؟

مع انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٩٠، اعتقدنا أن الحروب قد انتهت وأننا نسير نحو الخلاص، متناسين أن تشعبات الحروب وودائع الإقليم في لبنان لن تساعد في بناء وطن. فكان الاحتلالان الإسرائيلي والسوري، وكان الـ«ستاتكو» جنوب وشمال نهر الأولى خط التماس بين الاحتلالين، وما بينهما من رسائل بين الطرفين، والمسرح كانت الساحة اللبنانية وجنوبها، والأدوات والضحايا هم المواطنون اللبنانيون، ولا سيما الجنوبيون.

فكانت حرب الأيام السبعة عام ١٩٩٣، وعناقيد الغضب عام ٢٠٠٦، وغيرها من الاعتداءات الإسرائيلية، تذكيرًا بالدم للبنانيين ولأهل الجنوب أن الحرب مستمرة، وأن لبنان ساحة رسائل إقليمية ودولية، ولا خلاص ولا أمان حتى إشعار آخر.

لم تكن فترة الاستقرار الأمني المرحلي التي عاشها لبنان بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٥، أعوام خروج الاحتلالين الإسرائيلي والسوري، سوى هدنة ما لبثت أن انهارت في تموز ٢٠٠٦، ودخل لبنان جولة جديدة من الصراعات التي تمثلت في المشروع الإيراني، ودرة مشروع تصدير الثورة الإسلامية الإيرانية «حزب الله»، وإسرائيل. ورغم صدور القرار ١٧٠١، إلا أن تطبيقه لم يكن من أولويات الجميع، فدخل لبنان في فترة من التجاذب الإيراني-الإسرائيلي وصراعات في ساحات متعددة، وكان اللبناني، ولا سيما الشيعي، من يدفع ثمنها، وخاصة من خلال آلاف الشباب الشيعة الذين أصبحوا وقود تلك المعارك والصراعات.

وصلنا إلى العام ٢٠٢٤، حيث يبدو أن القرار قد اتُخذ بتقليم أظافر إيران، وتحجيم دورها، وضرب أدواتها وجماعاتها في منطقة الشرق الأوسط، وهذا ما نشهده من مفاهيم وتغيرات جديدة في كل المنطقة.

من وجهة نظرك؛ ماذا خسرت الطائفة الشيعية في حرب العام ٢٠٢٤؟ وإذا كان ثمّة أسباب، فما هي؟

لا شك أن الطائفة الشيعية، التي حصلت على اعتراف بحقوقها كطائفة مؤسسة لدولة لبنان الكبير عام ١٩٢٦، بعد قرون من الحرمان والإنكار خلال العصرين المملوكي والعثماني، انخرطت في الحياة اللبنانية بشكل عام

وتجانست مع غيرها من المجموعات. وقد مرت بعدة فترات، خاصة على الصعيد السياسي، من فترة الزعماء التقليديين، إلى فترة السيد موسى الصدر، وصولًا إلى مطلع الثمانينيات مع مشروع تصدير الثورة الإسلامية في إيران وما نتج عنه من جماعة «حزب الله»، التي تسيدت الساحة الشيعية وفرضت هيمنتها منذ عام ٢٠٠٠ بعد وفاة الرئيس السوري السابق حافظ الأسد.

فخسارة ٢٠٢٤ هي خسارة لهذه الجماعة ولمشروع ولاية الفقيه المطلقة، وليست خسارة للطائفة الشيعية. فهذه الطائفة، التي تعرضت للكثير من النكبات في تاريخها في لبنان والعالم، لن تنتهي بفعل خسارة طرف في عملية عسكرية أو تعرضه للتدمير، فالوجود الشيعي في لبنان متجذر ولا يعتمد على وجود أشخاص أو جماعات ليستمر أو يبقى.

كيف ترى مستقبل الطائفة الشيعية وكيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

لا شك أن الخيار الوطني لشيعة لبنان هو الطريق الأنسب والأسلم للحفاظ على الطائفة ومكتسباتها، وهذا الخيار نابع من أصول سياسية وفقهية وتراثية ومصلحية. فقد أعطى الوطن والكيان اللبناني الشيعة الاعتراف والحقوق والمشاركة منذ تكوينه عام ١٩٢٠، فبعد أن كانوا مهمشين ومضطهدين في العصور السابقة، أضحوا مع إعلان دولة لبنان الكبير مواطنين يتمتعون بالحقوق والواجبات كسائر المواطنين اللبنانيين.

كما أن الفقهاء اللبنانيين، ولا سيما الشيخ محمد مهدي شمس، دعوا إلى الالتزام بلبنان كوطن نهائي من خلال «الوصايا» و«ولاية الأمة على نفسها»، معتبرين أن هذا الكيان يحمي الشيعة ويجعلهم مستقرين وآمنين، وواجب على الشيعة حمايته والعمل على تطويره وتقدمه لما فيه مصلحة الجميع. وبهذا يحافظون على وجودهم واستقرارهم حتى قيام «القائم».

ماذا عن علاقة الطائفة الشيعية بغيرها من الطوائف اللبنانية؟

لم تكن للطائفة الشيعية في الماضي أية إشكالات مع الطوائف الأخرى، ولا مطامع، بسبب تعرضها الدائم للاضطهاد



غارة على مشغرة، أي ام ليبانون

من السلطة القائمة. ومع دخولها في دولة لبنان الكبير كطائفة مؤسسة لها حقوق وواجبات، كان التعايش السمة الأبرز في المناطق التي تواجدت فيها.

لكن مع دخول مشروع تصدير الثورة الإسلامية إلى لبنان عام ١٩٨٠، بدأت التباينات والصراعات، فظهرت صراعات شيعية-شيعية من خلال المواجهات مع حركة أمل والاغتيالات داخل الطائفة. ثم تحولت إلى صراعات مع الطوائف الأخرى، خاصة بعد اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري واتهام حزب الله بهذا الاغتيال، ثم إدانة عناصر منه من قبل المحكمة الدولية الخاصة بلبنان.

ولد ذلك نفورًا من الطوائف الأخرى ترسخ مع سعي حزب الله للهيمنة على القرار اللبناني. وبالتالي، فإن أفعال الجماعات لا تتحملها الطوائف، وإن سعت هذه الجماعات إلى اختزال الطائفة جمعاء بها وبمشروعها.

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، في رؤيتها المستقبلية، لها وللآخر؟

لا شك أنه على أبناء الطائفة الشيعية، إعادة قراءة المرحلة وتقييمها، والتوجه نحو المنحى الوطني القائم على المصلحة الوطنية اللبنانية المشتركة، والعمل على تمكين الدولة وأجهزتها من إعادة فرض هيبتها وبسط سيادتها، وإنهاء كل أشكال الهيمنة والخروج عن القانون والنظام العام والدستور، والعمل على الدفع نحو الشفافية والحوكمة ومفاهيم العدالة والمحاسبة، للتطور والتقدم في إعادة الحياة الى لبنان الوطن، وللعمل على ترسيخ دور جديد للبنان في هذه المرحلة المليئة بالتوترات والتقلبات.

علي الأمين

معادلة حزب الله حول «الحماية» سقطَت والخَيار بالعودة إلى الدولة

«ليست وظيفة الشيعة القتال... ولا أن يبقوا في موقع المُحارب»



صحافي ورئيس تحرير «موقع جنوبية». علي الأمين مواطن لبناني ابن بلدة شقرا الجنوبية، ينتمي إلى عائلة أنجبت العديد من العلماء والمفكّرين عبر التاريخ، وبسبب أدوارهم الاجتماعية والدِّينية ذاع صيتُهم في كل أنحاء لبنان والعالم العربي. لا يخجَل من المجاهرة بكونه شيعيًّا ولا يرفض الإجابة على كل سؤال يتعلّق بمستقبل الطائفة التي ينتمي إليها. حمل همومها في قلبه، وناضل في سبيل رفعتها من دون كلَل أو ملًل، وإن كان قد تعرَّض لمضايقات مختلفة، لكنه آثر الاستمرار في خوض المعركة بقلمه في سبيل مستقبل أفضل.

كان لـ«أمم» نصيب في لقاء الأمين، للحديث في شؤون الطائفة الشيعية وشجونها، انطلاقًا من الأحداث التي ألمّت بها، ومن تجربته الخاصة ورحلة انطلاقه بين المناطق لتجنُّب تداعيات الحرب، فكان معه هذا الحوار:

أين كنتَ تقيم خلال الحرب الأخيرة؟

أنا أساسًا من المُقيمين في ضاحية بيروت الجنوبية، لكن في الفترة الأخيرة كنت من سكّان حارة حريك، وأقول ذلك باعتبار أنني تنقّلت بين مناطق عدّة كمعوّض وبئر العبد. كنت لا أزال في حارة حريك وكان منزلي مقابلًا للمكان الذي اغتيل فيه مسؤول حزب الله فؤاد شكر، وكان الاغتيال بمثابة السبب المباشر لمغادرتي المنطقة والانتقال إلى عين الرمانة، علمًا أن منزلي ليس بعيدًا عن المكان الذي اغتيل فيه الأمين العام لحزب الله حسن نصرالله.

مكان اغتيال نصرالله، ماذا عنه؟

بصراحة تفاجأت وقتَها أن هناك بنايات تابعة للحزب موجودة في المنطقة. أقول ذلك لأن الطريقة التي شُيدت بها تمّت بطريقة مدروسة بحيث لا يمكن رؤيتها بسهولة من قِبل المارّة، فالمقر شُيّد خلف مجموعة من العمارات القديمة، ولم تكن مداخلُه واضحة ويمكن الولوج إليه من خلال عدد من الأزقّة. وعلى الرغم من السنوات التي قضيتها في المنطقة لم أنتبه لتفاصيل المقرّ، فالشارع القريب منه تشعر بأنه كئيب، لا محلات تجارية ولا زحمة مارّة ولا حتى مظاهر للحياة.

كيف تؤثّر الحروب على ارتباط الإنسان بالمكان؟

نحن من جيل الحرب في الأساس. بمعنى أننا نشأنا عليها مُذ تفتَّحت أعيننا. ففي العام ١٩٧٥ كنا في شقرا، ثم انتقلنا إلى صور في ١٩٧٦ وبعدها إلى ضاحية بيروت الجنوبية (معوّض)، وهناك لي ذكريات مع العمارة التي سكنّا فيها إذ كانت تحتوي على مكاتب جريدة «بيروت» وكذلك مركزًا لحزب البعث العراقي، وأذكر أنه حصلت معركة كبيرة عليها بين حركة أمل والبعث ما اضطُرنا للنزوح إلى صيدا، وقد سقطت البناية لاحقًا في يد أمل التي قامت بتدميرها. خلال الاجتياح الإسرائيلي ١٩٨٢ كنا لا نزال في صيدا، قبل أن ننتقل في ١٩٨٧ مجدَّدًا إلى بيروت التي لا أزال فيها إلى اليوم، في مختلف الانتقالات عاصرت أشكالًا متعدّدة للحرب، فكل المناطق التي سكنّاها كانت تعيش حالة معيّنة من المعارك، وكل ذلك يستقرّ في الذاكرة على شكل تأثيرات مختلفة وتنعكس على الإنسان نفسيًّا خصوصًا في مرحلة الطفولة، فالناشئ يكون عِرضة للتأثُّر من الكبير، وطبيعي أن يعيش انعكاسات الحرب وتداعياتها، تحديدًا على مستوى حالة عدم الاستقرار، ففي كل مكان يسكُنه الإنسان يحاول أن يتكيَّف معه،

وأن يبنـي صداقـات وعلاقـات اجتماعيـة، لكـن الانتقـال يفكّكهـا، فيُضطر عندهـا لأن يبـدأ مـن الصفـر مجـدَّدًا فـي كل منطقـة ينتقـل للإقامـة فيهـا.

إذا أردنـا الحديـث عـن تأثيـرات الحـروب التـي شـهِدها لبنـان علـى الطائفـة الشـيعية؟

أولًا، تأثيـرات الحـرب ليسـت محصـورة بالطائفـة الشـيعية، بـل هـي طالـت كل الطوائـف الأخـرى وعلـى امتـداد لبنـان. لكـن إذا أردنـا الحديـث عـن البيئـة الشـيعية، وبالأخـصّ خـلال الحـروب الإسـرائيلية، فـإن الكثيـر مـن أبنـاء الطائفـة يعيشـون فـي مناطـق التمـاس خصوصًـا فـي الجنـوب. وعليـه يمكـن الحديـث عـن بُعديـن للحـروب الإسـرائيلية؛ الأول، فـي مـكان مـا وربمـا، يمكـن القـول بأنـه إيجابـي والثانـي سـلبي، وبالنسـبة إلـى البُعـد الأول، فقـد دفَعـت تلـك الحـروب الكثيـر مـن أبنـاء الطائفـة الشـيعية فـي الجنـوب إلـى النـزوح ثـم الهجـرة، فمناطـق الجنـوب اللبنانـي شـهِدت نسـبة عاليـة للهجـرة وكانـت وجُهاتهـا مختلفـة بيـن أفريقيـا والخليـج العربـي والولايـات المتحـدة الأميركيـة وكنـدا وأوروبـا، وإلـى دول أخـرى عـدّة. هـذه الهجـرة أفـرزت نوعًـا مـن النهضـة، فمجـرّد هجـرة الإنسـان إلـى عالـم آخـر، يحقِّـق نوعًـا مـن التطـوّر علـى المسـتوى الاقتصـادي والمعيشـي بالدرجـة الأولـى، ويُصبـح لديـه الكثيـر مـن الفـرص، كذلـك يحظـى بمسـتوى أرفـع مـن التعليـم والارتقـاء الاجتماعـي. لكـن تلـك الهجـرة ارتبطـت بميـزة تمتَّـع بهـا الجنوبييـن، والمتعلّقـة بارتباطهـم بأرضهـم، فنحـن نلمَـس ذلـك بمجـرد رؤيتنـا للقصـور والفيـلّات والمنـازل التـي قـام المهاجـرون الجنوبيـون بتشـييدها، ولـم يسـكنوا فيهـا حتـى. وهـذا الأمـر يُعـدُّ إيجابيًـا لأنـه يعـزِّز الانتمـاء لـلأرض والتمسُّـك بهـا.

فـي المقابـل، فـإن البُعـد الثانـي، أي السـلبي للحـروب، فيتمثّـل فـي المـوت والقتـل والدمـار. كذلـك فـإن التدميـر الـذي شـهِدته مناطـق الجنـوب إثـر كل الحـروب الإسـرائيلية أدّى إلـى عـدم نشـوء أي مسـار تنمـوي فيهـا. وقـد أفـرز ذلـك نوعًـا مـن البطالـة المقنّعـة فـي تلـك المناطـق، والـذي أدّى أيضًـا إلـى جنـوح غالبيـة شـبّان الجنـوب نحـو الأحـزاب خصوصًـا حـزب اللـه الـذي عـزف علـى هـذا الوتَـر، واعتمـد صيغـة الاسـتقطاب بشـكل واضـح، فقسـم كبيـر مـن شـبان الجنـوب كانـوا يستسـهلون «التفـرُّغ» فـي الحـزب مقابـل ٥٠٠ أو ٦٠٠ دولار شـهريًّا، وهكـذا تحوّلـت إغـراءات الأحـزاب إلـى فرصـة عمـل بالنسـبة إلـى هـؤلاء وليسـت فرصـة نضـال، أو لنقُـل إن فرصـة العمـل تتقـدَّم علـى فرصـة النضـال، حتـى لا نظلـم الجميـع. وهـذا كلـه خلَـق نوعًـا مـن السُّـطوة العسـكرية للحـزب علـى الجنـوب فباتـت مناطقـه تفتقـر إلـى الحيويـة والتنـوُّع ولا وجـود للاختلافـات التـي يمكـن أن نراهـا فـي المناطـق اللبنانيـة الأخـرى التـي تعيـش حالـة مـن الاسـتقرار وتسـود فيهـا الحالـة المدنيـة لا العسـكرية. ودفـع ذلـك فـي النهايـة، أبنـاء الطائفـة الشـيعية إلـى التقوقـع عزّزهـا النمـط العسـكري والتخويـف مـن الآخـر.

مـاذا عـن إعـادة ترتيـب البيـت الداخلـي للطائفـة الشيعية بالاسـتناد إلـى حـرب ٢٠٢٤؟

فـي هـذا الإطـار، يمكـن الحديـث عـن المسـار الـذي قـد تتّجـه اليـه الأمـور، ثـم التـي مـن المفتـرض أن تتشـكّل علـى طُـرق المعالجـة. فالمسـار سـيكون مرتبطًـا بنتائـج الحـرب، فهـل سـتفرز تكريـس فاعليـة وتأثيـر حـزب اللـه والنفـوذ الإيرانـي فـي المعادلـة السياسـية اللبنانيـة، أم سـتنتهي إلـى خلاصـات مفادهـا تراجـع الـدَّور الإيرانـي وحـزب اللـه؟ بمعنـى هـل سـتفقد هـذه الحالـة الإيديولوجيـة، السياسـية والأمنيـة والعسـكرية حضورهـا وتتراجـع؟ هـذه أسـئلة جوهريـة فـي هـذا السـياق. فنحـن نسـمَع أنـه حتـى لـو تمكَّنـت إسـرائيل مـن ضـرب مواقـع وقُـدرات ومصـادر قـوة الحـزب فـي لبنـان، إلّا أنـه لـو بقيـت نُـواة موجـودة فقـد يُتـاح لهـا ظـروف خاصـة قـد تمكّنهـا مـن إعـادة النشـوء والتمـدُّد مسـتفيدة مـن الوضعيـة المتعلّقـة بكيفيـة انتهـاء الحـرب، وبالتالـي يمكنهـا أن تُعيـد بنـاء مـا تهـدّم عسـكريًّا وأمنيًّـا وإيديولوجيًـا وعليـه إعـادة السـيطرة. وهنـا لا بـدّ مـن الإشـارة إلـى أن إيقـاف الحـروب لا يكـون مـن خـلال وضعيـة الطائفـة الشـيعية وحدهـا والمعالجـة الداخليـة فقـط، بـل يتطلَّـب نوعًـا مـن المعـادلات الإقليميـة والدوليـة التـي تسـاعد علـى الخـروج مـن منطـق الحـروب. وهـذا يقودنـا إلـى جُملـة أسـئلة، انطلاقًـا ممّـا يمـرّ بـه لبنـان حاليًّـا، منهـا: هـل سـيكون حـزب اللـه وإيـران جـزءًا مـن تلـك المعـادلات أم خارجهـا؟ وبالمعنـى العسـكري الأمنـي، هـل سـيبقى حـزب اللـه يمتلـك السـلاح أم لا؟ وهكـذا فـإن كل نتيجـة للحـرب سـيكون لهـا ترتيبـات مختلفـة عـن الأخـرى.

من وجهة نظرك؟

اليوم نحن أمام سقوط تجربة لها علاقة بحزب الله. فمنذ العام ٢٠٠٠ عمل الحزب على ترسيخ معادلة القِدرة على حماية لبنان بالحد الأدنى وتحرير فلسطين بالحد الأقصى. لكن هذه المعادلة التي لم تكن وليدة مبادرة فردية، بل تمَّ تعزيز نفوذها بعوامل إقليمية وغطاء دولي أثبتت فشلها. وبالتفسير فإنه منذ ما بعد حرب ٢٠٠٦ حاول حزب الله القول دائمًا إنه يستطيع منع الاعتداءات الإسرائيلية وحماية لبنان، مصوِّرًا أن هذه هي معادلة القوة في هذا البلد الضعيف. لكن مع ما شهدناه في حرب الـ٢٠٢٤ فإن هذه المعادلة انهارت، وفي الوعي العام لم يعُد سلاح حزب الله يشكّل مصدر أمان للمجتمع اللبناني أو الشيعي، وفقَد ميزته في هذا المجال. فحزب الله الذي كان دائمًا يُوحي للجنوبيين بأنه لولا سلاحه لما تمكّنوا من البقاء في أراضيهم لم يعد قادرًا على إقناعهم بذلك بسهولة. وتجب الإشارة هنا أيضًا إلى أن حزب الله رسّخ فكرة الحماية مقابل الولاء، وأدّى ذلك إلى نوع من الطمأنينة لدى سكان الجنوب الذين كانوا على قناعة بأن وجود الحزب على طول الحدود يشكِّل مظلّة أمان. لكن كل هذه المعادلة انهارت وسقطت بسبب أن الذي تبيّن أن كل ما حاول حزب الله الترويج له لم يكن صحيحًا، بمعنى أن السلاح وحده لا يشكّل مصدر حماية.

بناء على كل ذلك نحن أمام السؤال: كيف ستكون عودة الجنوبيين إلى أراضيهم ووفقًا لأي شروط؟ وكيف ستتمّ إعادة الإعمار؟ اليوم يسود بين أبناء الطائفة الشيعية تنازُع لأفكارٍ مختلفة، منها ما يرتبط بأهمية وجود الدولة، ومنها ما يتعلّق بالاتجاه نحو المزيد من الانكفاء والتقوقُع، وأصحاب هذا التوجّه يفضّلون التمسّك بالسلاح باعتباره عنصر الحماية لأنهم يرون أن الخطر لا يتصل بإسرائيل فقط، بل يتعلّق بالطوائف الأخرى المستعدّة للانقضاض عليهم، كما يتعلّق بما يرونه خطرًا عربيًّا عبر سوريا بالوجهَين: نظام بشار الأسد الذي قد ينقلب عليهم في أي لحظة، والمجتمع السوري الذي يمكن أن يبتهج لما حصل. ويقابل هذه الأفكار خيار آخر يقوده تيار يشدِّد على إعادة الاعتبار للدولة واللجوء إلى حاضنتها. أنا شخصيًّا انا مع منطق الدولة، لأنني أعتقد أن هذا الخيار سيترسَّخ أكثر فأكثر في المرحلة المقبلة في ظلِّ الوعي بسوء المخاطر التي قد تُحدق بالطائفة الشيعية إن هي ذهبت في خيار التقوقع والتفرُّد والمغامرة. فإذا كان السلاح فشل في تحقيق الحماية فإن لمنطق الدولة إضافة جديدة، ذلك أن قوة الدول لا تكون عسكرية فقط، وهنا لا بدّ من التأكيد على أن تحقيق التوازن العسكري مع إسرائيل لا يمكن أن يتحقَّق، فمهما امتلكنا من أسلحة لن نُجاري إسرائيل التي تستند في قوتها على دعم دولي وأميركي غير محدود. إذًا، فإن عناصر القوة لا يمكن حصرها بالجانب العسكري فقط، نحن لا نقلِّل من أهمية هذا العنصر، لكنه ليس كافيًا. وبالاستناد إلى ما سبق فإن الدولة لها شرعية بخلاف الحزب أو الميليشيا. وهذه الشرعية في حدِّ ذاتها هي عنصر قوة. وهناك أمرٌ آخر يدخل في تشكيل القوة ويرتبط بالعلاقات العربية والدولية وفي طريقة بناء السياسة الخارجية. يُضاف إلى ذلك ما يتّصل بالداخل على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقضائي والأمني، ومدى تماسُك المجتمع وتوحُّده حول القضايا الوطنية. إن هذا يسخِّف السؤال الدائم الذي يطرحه البعض: ماذا فعلت لنا الدولة؟ أصلًا أن نكون دولة هو عنوان نضالي بحدِّ ذاته. وبالتالي فإن طريق الدولة هو الأفضل أو الأقل سوءًا من أن تتولّى جهة معيّنة أمور الدفاع وتُقاتل منفردة في ظلِّ غياب الشرعية.

كيف يمكن ترميم العلاقة مع الطوائف الأخرى؟

نعود لنقول إن هذا الأمر منشؤه منطق الدولة، إذ لا يمكننا أن نستمر بالاعتماد على المصالحات «الطوائفية»، بل يجب أن نعمل على إعادة الاعتبار للدولة والدستور والقانون والمؤسّسات. فهذا المدخل يشكِّل عنصر تفاعل مع الآخرين ويخلق مساحات مشتركة بينهم، ويُخرج الانقسام والاختلاف في المجتمع عن بُعده الطائفي ليتّخذ شكلًا آخر يتعلّق بالسياسة والاقتصاد والمصالح. وأرى أننا يجب أن نستفيد من كل التجارب السابقة التي أدّت إلى صراعات واستقطابات طائفية، والتي تُعدُّ إغواءً للكثير من القوى لأن تستثمر فيها لأنه يوفِّر لها الحماية خلال ممارستها للسرقة والعمالة للخارج

والمغامرة. لذا يجب أن يلتفت اللبنانيون جميعهم إلى هذا الخلل لمعالجته، من دون أن يعني ذلك إلغاء الطوائف، بل عدم بناء السياسات على أساس تحالفات طائفية يتحكّم بها حزب من هنا أو هناك، أو فرد من هنا أو هناك. فالتجارب التاريخية تُثبت كيف انجرَّت الطوائف إلى مغامرات سيّئة. لذلك فإن المخرَج لكل الطوائف هو الركون إلى الدولة على أن يكون الولاء لها أولًا لا إلى الطائفة أو المذهب أو الخارج.

ماذا عن حزب الله ضمن هذه العلاقات؟

حتى اليوم يرفض حزب الله أن يكون ضمن الأحزاب التي تحظى بالترخيص اللبناني. وكأنه بذلك يشكّك بهويته اللبنانية أو لا ينظر إليها باعتبارها المظلّة الأساسية التي يمكن أن ينضوي تحتها، فالحزب يمكن أن يكون له هوية شيعية أو حتى قومية لكن يجب أن تكون تحت المظلّة الوطنية. نحن لا نقول إن الحزب ليس لبنانيًّا، لكن التحدّي أمامه هو في كيفية إعادة الاعتبار لانتمائه اللبناني، لأن هذا الأمر من شأنه أن ينعكس عليه، وعلى مستقبل الطائفة الشيعية برمّتها، فهل هي مسلوخة عن البيئة اللبنانية ويشكّل ارتباطها بالعالم الشيعي الذي تقوده إيران مثلًا هو الأساس؟ وبالتالي فإننا نرى الأنسب هو في أن يكون الولاء للبنان ونظام مصالحه.

ذكرتَ إيران، ماذا عنها؟

عندما نشبت حرب الـ٢٠٢٤ شدَّدت إيران على أنها لن تذهب إلى حرب مع إسرائيل ولن تمنحها الذريعة لخوْض مثل هذه الحرب، وقد برز ذلك على لسان أكثر من مسؤول إيراني، حتى على لسان المرشد الأعلى للثورة الإسلامية، وذلك باعتبار أن المصالح الإيرانية لا ترى حاجة لمثل هذه الحرب. وهنا نقول إن الهوية الشيعية المشتركة وولاية الفقيه لم تشكّل إلزامًا لإيران لأن تشارك في حرب يُقتل فيها شيعة جنوب لبنان أو تابعين لولاية الفقيه فيه، لماذا؟ الجواب لأن الدولة الإيرانية رأت أن مصلحتها ونظامها لا يسمحان بدخول الحرب، وذلك على الرغم من أن ولاية الفقيه تتجاوز



موقع اغتيال الأمين العام لحزب الله، الشرق الأوسط

الحدود. برأيي أن النموذج الإيراني يجب أن يُطبّق في لبنان، ففي بعض الأحيان قد يكون لإيران مصلحة ما في الحرب ولبنان لا مصلحة له. وعليه فإن الحزب من موقع إعجابه بإيران يجب أن يتبع سلوكها في ما يرتبط بالمصلحة أي أن يقدِّم مصلحته ومصلحة لبنان على ولاية الفقيه أو الهوية المذهبية الشيعية. هذا الأمر يجب أن يأخذه الحزب في الاعتبار. فبعد كل هذه الحصيلة للحرب وفشل السلاح في منع الدمار وتحقيق الحماية فإنه لا بدّ من التفكير بطريقة مختلفة، لأن النهج المتّبع من قِبل الحزب أثبت أنه لم يحقّق المبتغى، لذلك لا يمكن تكراره وانتظار نتائج مختلفة منه.

كيف يكون الخلاص بالنسبة إلى الطائفة الشيعية... وماذا عن المستقبل؟

إن المسار المعتمَد قاد إلى ما وصلنا إليه اليوم. فالطائفة الشيعية اليوم أمام خطر إسرائيلي وداخلي، وأمام مخاطر الابتلاع من محيط عربي، لذا فإن وسيلة الدفاع الأولية يجب أن تكون بإعادة التشكّل والتكوّن ضمن مشروع الدولة بحيث لا يبقى هناك من يتصرّف منفردًا. وبالنسبة إلى السلاح، على افتراض أنه بقي بيَد الحزب، فلا بدّ أن يكون ضمن قرار الدولة إذ لا يمكن لهذا السلاح أن يبقى خارجها. ومن وجهة نظري، فإن هذا الأمر يجب أن يُحسم على المستوى الوطني وبمشاركة كل الأطراف، لأن النتيجة ستكون تحرير الشيعة من مسؤولية حماية الجنوب. فمَن قال إن الدفاع عن الجنوب هو مسؤولية الشيعة وحدهم؟

هـذا يجـب أن يكـون مسـؤولية وطنيـة عبـر الدولـة. ولمـن يزعمـون أن الدولـة ليسـت قـادرة علـى حمايـة الجنـوب عليـه أن يعـود إلـى الأضـرار التـي تسـبّبت بهـا إسـرائيل مـن سـنة ١٩٤٨ وحتـى ١٩٦٩ ومقارنتهـا بنظيرتهـا بيـن ١٩٦٩ و٢٠٠٠ ليكتشـف أن الدولـة قـادرة علـى الأقـل الحـدِّ مـن الأضـرار وإن كانـت عاجـزة عـن منعهـا بالمطلـق. لـذا فـإن الدولـة هـي مَـن تمثّـل الشـعب اللبنانـي وتتحـدّث باسـمه، واسـتنادًا إلـى التجـارب التاريخيـة فإنهـا الأقـدَر علـى الحـدِّ مـن الأضـرار الإسـرائيلية. وبالتالـي فـإن هـذا الخيـار يحـرِّر الشـيعة مـن عـبء القتـال والحـرب. ذلـك أنـه علـى الرغـم مـن أنهـا معنيّـة بالمعركـة مـع إسـرائيل إلّا أنهـا كانـت تتحـوّل إلـى أدوات فـي صـراع أوسـع يشـمل إيـران حينًـا وسـوريا حينًـا آخـر، أي بعنـوان أوسـع مـن العنـوان اللبنانـي. كمـا لاحظنـا فـي فتـرات سـابقة أن الجنـوب كان عُرضـة للعبـة مسـاومات إقليميـة ودوليـة لـم تصـبّ فـي مصلحـة اللبنانييـن أو الشـيعة.

إن كل مـا جـرى يجـب أن يمنحنـا دروسًـا للاسـتفادة منهـا، فمـن غيـر المنطقـي الاسـتمرار فـي جبهـة مفتوحـة، فليسـت وظيفـة أبنـاء الطائفـة الشـيعة أن يبقـوا حملـة سـلاح وأن تكـون وظيفتهـم القتـال، لأن ذلـك يتنافـى حتـى مـع تاريـخ الطائفـة الشـيعية التـي لـم تكـن علـى الـدوام فـي موقـع المحـارب.

د. علي خليفة

«الهزيمة العسكرية للشيعة ضرورة سياسية من أجل مداولة السلطة وانتظام أُطُرها وأدواتها في مجتمع الدولة»

الدكتور علي خليفة، لم تمنعه الإجازة في الرياضيات من أن يكون ناشطًا سياسيًّا واجتماعيًّا فدخل هذا المعترك إلى أن خاض غمار الانتخابات البرلمانية. خبير في التربية والديموقراطية وله وجهة نظره الخاصة في هذا المجال. جنوبي من بلدة قناريت، وبالولادة بيروتي، وفي المجمل لبناني يعمل من أجل الجميع من دون تمييز بين أبناء الوطن الواحد.

مَن هو علي خليفة؟



أنا من مواليد بيروت ١٩٨١، مُجاز في الرياضيات البحتة من جامعة القديس يوسف وحاصل على الدكتوراه في علوم التربية من جامعة جنيف في سويسرا، وحائز على رتبة أستاذ التعليم العالي في الجامعة اللبنانية، اختصاص التربية على المواطنية.

مؤسّس ومدير دار «ألف ياء للنشر والتوزيع»، ومركز «ألف ياء البيت الثقافي» في قناريت - جنوب لبنان. كذلك هو مؤسِّس في حركة «تحرّر» من أجل لبنان دولة حديثة ليبرالية.

ترشّح على الانتخابات النيابية، ومستشار وخبير في التربية والمواطنة الديموقراطية، له دور سابق في تطوير المناهج التربوية بالتعاون مع مؤسسات دولية.

بالنسبة إلى المكان الذي تسكنه، كيف أثّرت عليه الحروب التي شهدها لبنان؟

أثّرت الحرب على كل لبنان واللبنانيين وفي الجنوب تحديدًا. حيث كان قريتي هي أيضًا عُرضة لغارات متتالية وتدمّرت على إثرها مساكن ومحلات ونزح أهل القرية جميعًا. وبسبب الغارات قرب موقع «البيت الثقافي» في قناريت، حصلت أضرار في الداخل من تطايُر رفوف وتكسير زجاج نتيجة قوة عصف الغارات على الأماكن المجاورة.

ماذا عن الارتباط بين الإنسان والمكان؟

الناس لا يسكنون البيوت بل البيوت والأماكن تظلّ تسكن الناس من خلال ذكرياتهم ولحظاتٍ معيّنة تنطبع فيها الأحداث حتى لو غادروها. لذلك عندما تتهدَّم البيوت وتمّحي الأماكن بمعالمها، تتهدَّم معها ذاكرة الناس والأحداث. وهذا ما لا يمكن تعويضه.

ثم إن الجنوبيين ليسوا محكومين على الدوام بإعادة بناء ما تهدّم كمسلسل معاناة لا تنتهي فصوله.

قياسًا على نتائج الحرب الأخيرةفي الـ٢٠٢٤ ما هي مكاسب الطائفة الشيعية وخسائرها؟

شيعة حزب الله يخوضون الحرب تحت شعار «انتصار الدّم على السيف» وهو شعارٌ لحادثة تاريخية ذات رمزية، تستعيدها «الشيعية السياسية» عنوانًا لتاريخ من الحوادث اللاحقة والراهنة، فينجُم عن هذه الاستعادة مصادرة الوعي الضروري لملامح الواقع وصولًا إلى إنكاره، بحيث يُصبح الانتصار والهزيمة سيّان، والمعارضة والموالاة سيّان، والأكثرية والأقلية سيّان، فتبقى «الشيعية السياسية» بمنأى عن المحاسبة وتحمّل المسؤوليات سواء انتصرت أو انهزمت، سواء أكانت في المعارضة أم في الموالاة، سواء أكانت في عداد الأكثرية أم الأقلية. هذه التعمية رافقت حرب الـ٣٣ يومًا في تموز ٢٠٠٦، حين كانت الأيام والأحداث تمرّ على لبنان واللبنانيين كالسكّين على الجرح، ذهابًا مع قصف الطائرات الإسرائيلية وإيابًا مع خطابات حسن نصرالله. كان الإسرائيليون لا يعلمون أين وماذا يقصفون كثَورٍ هائج في «ساحة الكوريدا» بين متفرّجين عزّل، فامّحت مناطق وشوارع وسوّيَت أبنية بالأرض وقُطِّعت جسور وهُدِمت مرافق... وكان نصرالله لا يعلم هو الآخر، حيث نُقِل عن لسانه أنّه «لو كنتُ أعلم». فصار كلّ ليلة يستعيد قصصًا من التاريخ الديني أو يعِد المقاتلين بفرصٍ رابحة في السماء بعدما صارت جغرافيا البلاد أرضًا محروقة... ويتحدّث عن حيفا وما بعد بعد السكرة والفكرة.

ولـم يعـرف لبنـان نزوحًـا كمـا حصـل فـي ذلـك الوقـت، إذ تـرك سـكان الجنـوب بيوتهـم وزادَ أيامِهـم لقمـةً سـائغة فـي فـم النـار وآلـة التدميـر الإسـرائيلية وانعدمـت كل مقوّمـات الحيـاة. وانتهـت الحـرب ولـم تخسـر إسـرائيل سـوى بعـض الغطرسـة. ولـم يربـح الحـزب سـوى المزيـد مـن اللاعقلانيـة لإنـكار كل هـذا المـوت والخسـارة والخـراب؛ فـكان لا بـدّ مـن فكـرة لاعقلانيـة جديـدة تقـف بوجـه وعـي الهزيمـة: وكان إعـلان النصـر الإلهـي!

وفـي الحـرب المُعلَنـة عشـية طوفـان الأقصـى، تحـت عنـوان «المشـاغلة» لإسـرائيل، ثـم المسـاندة لغـزة، ثـم ادّعـاء الدفـاع عن لبنـان، ثـم منـع التوسُّـع الإسـرائيلي بشـكل اسـتباقي ثـم إيـلام إسـرائيل فـي الوقـت الـذي سـقط إنجـاز تحريـر العـام ٢٠٠٠، وتدمّـرت عشـرات القـرى، وتهجّـر كل الشـيعة فـي أسـوأ نكبـة تحـلّ بهـم نتيجـة خضـوع حـزب اللـه لإمـلاءات مشـغِّله الايرانـي فذهـب للانتحـار آخـذًا معـه الشـيعة وباقـي اللبنانييـن. والإيرانـي يسـتنفد ورقـة حـزب اللـه حتـى آخـر شـيعي وآخـر لبنانـي.

أرقـام الخسـائر فـي الأرواح والأعمـال والمـال والعسـكر والبُنـى الاجتماعيـة والاقتصـاد علـى مختلـف قطاعاتـه جـرّاء الحـرب لا يمكـن أن تعكـس واقـع «انتصـار إلهـي» بـل هزيمـة شـاملة.

كيـف سـترتِّب الطائفـة الشـيعية بيتهـا الداخلـي وعلاقاتهـا بالطوائـف الأخـرى؟ وهـل هنـاك حاجـة لإعـادة النظـر برؤيتهـا المسـتقبلية؟

العمـل السياسـي فـي البيئـة الشـيعية يتميّـز بتداخـل جدَلـي بيـن البُعـد الوطنـي والبُعـد الطائفـي. هـذا التداخـل يعكـس تعقيـدات الهويـة السياسـية للشـيعة، حيـث تتشـابك المصالـح الوطنيـة مـع الانتمـاءات الطائفيـة بطـرق تسـاهم فـي تشـكيل المشـهد السياسـي بشـكل مسـتمر. مـن هنـا، لا قيامة لأي مشـروع سياسـي بديـل للثنائـي الشـيعي إلّا مـع ضـرورة العمـل علـى مسـتويين: العـام الوطنـي والخـاص الموضعـي لمواجهـة وتخطّـي مـا يمكـن اصطلاحـه تحـت عنـوان «المسـألة الشـيعية» التـي تمثّـل أكثـر مـن حالـة طائفيـة كغيرهـا مـن الحـالات الطائفيـة التـي رافقـت التاريـخ السياسـي للبنـان.

«المسـألة الشـيعية» هـي محنـة الشـيعة ونكبَتُهـم. هـي مراكمـة الهزائـم مـع الإصـرار علـى الترويـج لهـا بوصفهـا انتصـارات إلهيـة باهـرة أو إرادة عُليـا قاهـرة. والخـروج مـن «المسـألة الشـيعية» يعنـي الاعتـراف بالهزائـم بوصفهـا الموضوعـي المجـرّد مـن شـحن العواطـف المسـتعادة مـن التاريـخ ومـن عمـى الإيديولوجيـا ومـن طمـوح الحُكـم. إن الهزيمـة العسـكرية للشـيعة ضـرورة سياسـية



غارة استهدفت أطراف صيدا

مـن أجـل مداولـة السـلطة وانتظـام أُطُرهـا وأدواتهـا فـي مجتمـع تقـوم فيـه الدولـة بأدوارهـا كافـة فـي الدفـاع والأمـن والاقتصـاد والمجتمـع، دون أي انحـراف أو خـروج عـن الصيغـة التـي غـدَت إنجـازًا إنسـانيًّا وحضاريًّـا فـي الحكَميـة وإدارة الشـأن العـام. وإن ضمـان الحريـات البديهيـة للفـرد ضـرورة وبدايـة مسـار تحقيـق متطلبـات الوعـي الفـردي عبـر تنميـة المهـارات والقُـدرات التـي تسـمح بالتفكيـر والتدخُّـل والتقييـم والنقـد وصـولًا إلـى المسـاءلة والمحاسـبة واعتبـار القضايـا العامـة وانتظامهـا مسـألة فـي صلـب وعـي المواطنيـة لا منطقـة نفـوذ خاضعـة لمتطلبـات «المسـألة الشـيعية». أفـق المشـروع الشـيعي البديـل وقُدرتـه علـى تخطّـي العناصـر المركّبـة للمسـألة الشـيعية ينبغـي أن يواجـه، بأدبيـات الشـيعة وأدواتهـم، مشـروع حـزب اللـه الإيديولوجـي ويكـون فـي الوقـت نفسـه جـزءًا مـن مشـهد وطنـي جامـع منسـجم مـع طبيعـة العقـد الاجتماعـي اللبنانـي القائـم علـى ائتـلاف الطوائـف الدينيـة ودون إنـكاره. إن مـا يمكـن اصطلاحـه تحـت مسـمّى «المسـألة الشـيعية» لا ينسـجم مـع العقـد الاجتماعـي اللبنانـي وتقتضـي مواجهتـه مـن خـارج مشـروع إلغـاء الطائفيـة السياسـية علـى وجـه الحصـر إذ إن مـا تُعانـي منـه الطائفـة الشـيعية على وجـه التحديد لا تُعانـي منـه باقـي الجماعـات الطائفيـة علـى وجـه الإجمـال. إن تجـارب الاعتـراض الشـيعي مسـتقلّة عـن مقاربـات اليسـار التـي تخـدم ببُنيتهـا القاعديـة إيديولوجيـا حـزب اللـه وعناصـر جـذب مشـروع الممانعـة، وحاضنـة العائـلات التقليديـة الشـيعية مهمّـة علـى صعيـد الواقـع الاجتماعـي القائـم ولكنهـا غيـر كافيـة للإطلالة علـى مشـروع سياسـي شـامل ومُنظّـم ومُسـتدام. كمـا ينبغـي مخاطبـة الفئـات الشـابة والالتقـاء مـع طروحـات الحداثـة ويكـون المشـروع السياسـي البديـل أكثـر جذريـة لناحيـة تبنّـي خيـار الحيـاد والسـلام كبديـل جـدّي لمشـروع حـزب اللـه القائـم علـى اسـتمرارية المواجهـة والحـرب.

د. علي مراد

الشيعية السياسية سقطت لكنها لم تنتهِ

«٢٠٢٤ هو عام نكبة الشيعة... وعليهم العودة إلى لبنانيتهم»

علي مراد، ابن بلدة عيترون الجنوبية الحدودية، وُلِد في صيدا ومنعَه الاحتلالُ الإسرائيليُّ لقريتِه من بناءِ ذكرياتٍ وعلاقةٍ ماديَّةٍ فيها ومعها. ناشطٌ سياسيٌّ وأستاذٌ جامعيٌّ استقرَّ في بيروت بعد عودته من فرنسا واهتمَّ بالشأن اللُّبناني العام، وبشؤون الطَّائفةِ الشِّيعيةِ.

بعدَ اندلاع الحرب الأخيرة على لُبنان في ٢٣ أيلول ٢٠٢٤، قامتْ «أُمم للتَّوثيق والأبحاث» بمُحاورةِ مراد في سبيلِ التَّداولِ في شؤون الطَّائفةِ الشِّيعيَّةِ على ضوءِ تجربتِه الشَّخصيَّةِ وذاكرتِه من جهةٍ، والأحداث التي حلّتْ بالطَّائفةِ من جهةٍ ثانيةٍ. وكان معه الحوارُ التَّالي:

مَن هو علي مراد ما بين الولادة والطفولة والعلاقة بالمكان؟



وُلدت في العام ١٩٨١ في صيدا ونشأتُ فيها، لكنِّي تلقيت تعليمي في بيروت. وبعدَ فترة سافرتُ إلى فرنسا لمتابعة دراستي وعُدت للإقامة في بيروت بعدَ عشرِ سنواتٍ تقريبًا. في الواقع، منذُ نشأتي في صيدا كان هُناك شعورٌ ضمنيٌّ بأنَّنا نعيشُ تهجيرًا قسريًّا. لعلَّه لا يُقالُ بهذا التَّعبير، لكنَّه كان كذلك. وهذا الشُّعور، رُبَّما، هو ما منعني في مرحلةٍ مُعيَّنةٍ منَ الانتماءِ بشكلٍ كاملٍ إلى صيدا؛ صيدا التي احتضنَتنا واحتضنَتْ أهلَ الجنوبِ وكُلَّ مَن عاشَ فيها بمُنتهى الكرم. لكنْ فكرةَ الاحتلال والتَّهجير القسري جعلتنا نشعرُ، على الدَّوام، أنَّنا لسنا في مكانِنا الطَّبيعيِّ؛ نحنُ لم نذهبْ للعيشِ هُناكَ باختيارِنا، بل كان انتقالًا قسريًّا من قريتي عيترون. هذا ما كُنَّا نعيشُه حقيقةً في المنزل حيثُ كُلُّ شيءٍ كانَ مؤجَّلًا، في مكانٍ، حتَّى العودة إلى عيترون؛ الأحلامُ الصَّغيرةُ للطِّفل، تلكَ الأحلامُ المرتبطة بالمكان؛ البحث عن ألعاب الطُّفولة؛ عنِ الحيوانات الأليفة؛ عن التَّواصُلِ مع الطَّبيعة؛ كُلُّ هذا كان مؤجَّلًا حتَّى التَّحرير. بيدَ أنِّي لم أعدْ إلى قريتي إلَّا يومَ كنتُ ابنَ عشرينَ سنة. في فترةِ الطُّفولةِ، وأعتقدُ أنَّ هذا حالُ مُعظم أهل الجنوب، تشكَّلَ لديَّ نوعٌ من التَّقديس لهذه القرية، قريتي، أعني أنَّها كانت علاقةً غيرَ ماديَّةٍ. كانت عِلاقةً مُجرَّدةً، والقريةُ كانت فكرةً أكثرَ منها حقيقةً ماديَّةً؛ فكانتِ القريةَ الأجملَ والأكثرَ اخضِرارًا دون أنْ أراها. قبلَ التَّحرير لم أَزُرْ عيترون سوى مرَّتَيْن ولفتراتٍ قصيرةٍ جدًّا، وقد بقيَ في ذاكرتي حينَها بعضُ روائحَ كُنتُ حينَ أشمُّها أتذكَّرُ قريةً لا أعرفُها. كانت علاقتي بعيترون علاقةً مع القريةِ المُستحيلةِ؛ مع القريةِ غيرِ المُتاحةِ! وعندما جاء التَّحريرُ عامَ ٢٠٠٠ لم تَعُدْ قريتي مستحيلة، واكتشفتُ بعدَ أنْ صارتْ قريتي مُتاحةً أنِّي لا أملِكُ فيها أيَّ ذكرياتٍ أو أيَّ علاقةٍ ماديَّةٍ. وبعدَ تقدُّمِ العُمر وتكوين عائلة أدركتُ فكرةَ الارتباطِ بالأرضِ وشعرتُ بها، فقرَّرتُ أنْ أمنحَ لأطفالي ما لم يُتَحْ لي يومَ كُنتُ طِفلًا؛ العلاقةَ بهذا المكان. من هُنا، كان القرارُ منذُ ولادة طِفلي الأوَّل، ومِنْ ثمَّ طفلتي، أنْ نكونَ في علاقةٍ مُباشرةٍ وتماسٍّ أسبوعيٍّ مع القرية. فشاركتُ مع العائلة في إعادة ترتيبِ المنزل بما يتناسبُ مع وجود الأطفال ويُوفِّرُ لهم مساحةً كافيةً. قُمنا بذلك، وانتهتْ عمليةُ تحسين المنزل قبلَ ما يَقْرُبُ من عشرةِ أيَّامٍ مِنِ اندلاع الحرب في ٧ تشرين الأوَّل ٢٠٢٣. وإذا بِنا، بعدَ سنةٍ تقريبًا، نُشاهدُ بأعيُنِنا كيف يقومُ العدوُّ بنَسفِ المنزل في عيترون. شاهدنا بأعيُنِنا كيف يتمُّ، بدمٍ باردٍ، نسفُ ذكرياتٍ بأكملِها، وحياةٍ بأكملِها!

ثمَّةَ أمور لا تُغادرُ الذَّاكرةَ أبدًا؛ كيف أثَّرت الحروبُ، بدءًا بالحربِ الأهليَّةِ وانتهاءً بحرب العام ٢٠٢٤، عليكَ وعلى مكانِ سكنِكَ؟

الحربُ الأهليَّةُ بالنِّسبةِ لأهلِ الجنوب، وربَّما لكُلِّ اللُّبنانيِّين، تَعني غيابَ المكانِ الجامع. أنا عشتُ الحربَ الأهليَّةَ في صيدا بينما أولاد عمِّي كانوا في الدوير، أولاد خالي في النَّبطيَّة وأولاد خالي الآخرون في بيروت.

بالنِّسبةِ للطِّفلِ الذي لا يُدركُ حقيقةً فكرةَ الخوفِ ولا يشعرُ بها بشكلٍ كامل، كان اندلاعُ إحدى المعاركِ في هذه المناطق يعني تهجيرًا لإحدى العائلات أو نزوحَنا نحنُ. لكن مدينة صيدا لم تشهدْ حروبًا قاسيةً كما في بيروت أو في بقيَّةِ مناطقِ الجنوب، لذلك كان يأتي بعضُ الأقرباء إلى منزلنا أو نذهبُ إليهم. كان هذا يعني انفراطَ كُلِّ القواعد وتوقُّفِ الدِّراسة. الحربُ الأهليَّةُ، في مكانٍ، هي ذاكرةُ وطفولةُ مَنْ وُلدوا بينَ مُنتصفِ السَّبعينات ومُنتصفِ التِّسعينات؛ هي ذاكرتُنا بكُلِّ ما تحملُ من خوفٍ وتدمير. أنا لم أعِشْ مآسي الاجتياح عام ١٩٨٢ ولكن أخواتي الثَّلاث عاشوها بشكلٍ قاسٍ بكُلِّ ما فيها من «تروما» وترهيب.

من جهةٍ ثانيةٍ، الحروبُ تقتلِعُ بسُرعةٍ كبيرةٍ ما يُبنى خِلال سنوات؛ أنتَ لا تستطيعُ أن تحملَ كُلَّ ذاكرتِكَ في الحقيبة. بعدَ ثلاثةِ أيَّامٍ على «طوفان الأقصى» خرجَتْ عائلتي من منزلنا في عيترون ولم تأخذْ معها ما له علاقةٌ بذاكرةِ العائلة وذكرياتِها؛ الأوراقَ الثَّمينةَ؛ الأشياءَ القريبةَ إلى القلب. في الحروبِ السَّابقةِ كان ثمَّةَ دائمًا حقيبةٌ تضمُّ الأشياءَ التي مِن غيرِ المقبولِ أن نخسَرَها. في هذه الحرب لم يَقُمْ أهلي بذلك لأنَّهم خرجوا وفي ذِهنهم أنَّها مسألةُ وقتٍ فقط. وخلال الأشهر الطَّويلةِ التي تلَتْ خروجَهم كانَ الدُّخولُ إلى القريةِ لم يزلْ مُتاحًا، فذهبوا لأخذِ الثِّيابِ مع اقترابِ دخول فصل الشِّتاء. لم تُفكِّرْ أُختي، وهي التي تعيشُ في المنزل وهي الحريصةُ والمؤتمَنةُ على ذاكرتِنا؛ على صوَرِنا ودفاترِ علاماتِنا؛ على أوراقِنا التي تعودُ إلى فترةِ طفولتِنا؛ والتي تحفظُها بقلبِها وروحِها، لم تشعرْ بأنْ ثمَّةَ حاجةٌ لإخراج هذه الأوراق من المنزل. وفي المراحلِ الأخيرةِ، أي حينَ اشتدَّ الخِناقُ وصارَ أهلُ الجنوبِ عامَّةً وأهلُ القُرى الأماميَّةِ خاصَّةً لا يزورون قُراهُم إلَّا عندَ دخولِ جنازةٍ إلى القريةِ حيثُ يكونُ أمامَهم أقلَّ من نصفِ ساعةٍ بينَ لحظةِ دخولِهم ولحظةِ خروجِهم، لم يَعُدْ لدى أُختي منَ الوقتِ ما يسمحُ لها بالدُّخولِ إلى المنزلِ وإخراجِ الأوراق. هذا الأمر لم نكنْ، أنا وباقي إخوتي، على عِلمٍ به. بدايةً افترضنا أنَّها قامتْ بأخذِ ألبومات الصُّوَر، وقامتْ حتمًا بأخذِ الكتابِ الغالي على قلوبِنا؛ هو نصٌّ لتفسير القُرآنِ أُهدِيَ إلى جدِّي الأكبر، وهو مُؤَرَّخٌ في العام ١١٠٤ للهجرة، أي أكثر من ثلاثمئةِ عامٍ والعائلةُ تتوارثُه جيلًا إثرَ جيل. كُنتُ أفترضُ أنَّها أخرجته. بعدَ نسفِ المنزلِ



جنود اسرائيليين في باحة منزل أحمد مراد في عيترون، المدن

سألتُها: هل أخرجتِ أشياءَ أُخرى غيرَ الألبوم والكتاب؟ قالتْ لي: «علي. قلبي محروق. لم أقمْ بإخراج أي شيء، لم أعرفْ أنَّنا سنحتاجُ لإخراجِها». تاليًا، هذا مؤشِّرٌ على أنَّ هذه الخسارةَ كبيرةٌ بقَدرِ ما كان الإحساسُ بعودةِ الخطرِ شبه معدومٍ.

في حرب العام ٢٠٢٤، مِن وجهةِ نظركَ، ماذا خسرتْ الطَّائفةُ الشِّيعيةُ وماذا ربحَتْ؟

إنَّ الشِّيعيَّة السِّياسيَّةَ التي تحكَّمتْ تدريجيًّا وعطَّلتْ؛ التي تجبَّرتْ وهيمنَتْ؛ التي قتلتْ وخوَّنتْ طيلةَ الفترة الممتدَّة بين العامَيْن ٢٠٠٦ و٢٠٢٤ قد انتهتْ. أنا لا أقولُ أنَّ الشِّيعيَّة السِّياسيَّةَ قد انتهتْ، وإنَّما هذا الطَّورُ منها قد انتهى. يجب أن لا ننتقل من وهْم «القوَّة المُفرطة» إلى وهم «الانهيار الكامل». بالتَّالي، ليسَ صحيحًا أنَّها بأحزابها وثنائيَّتِها قد رحَلتْ، فهي لم تخسرْ تمثيلَها بشكلٍ كامل، لكنَّها سقطتْ. ثمَّةَ بُنيانٌ عقائديٌّ قد انهار بأكملِه. وخطورةُ هذا البُنيانِ أنَّه احتكرَ التَّمثيلَ الشِّيعيَّ بشعاراتِه وأهدافِه احتكارًا لدرجةٍ مُخيفةٍ جعلتِ الطَّائفةَ كُلَّها تشعرُ أنَّها في خطرٍ إذا سقطتْ الأحزابُ التي تُمثِّلُها؛ الثُّنائي. وهُنا يدفعُ حزبُ الله ويقومُ بتحميلِ الطَّائفةِ بأكملِها عبءَ خياراتِه الإقليميَّةِ والدَّاخليَّةِ؛

عـبءَ عسـكرةِ الطَّائفـةِ وطريقـةِ خوضِـه لحروبِـه والتصاقِـه بالمشـروع الإيرانـي.

نحنُ الآن أمـام جماعـةٍ نازحـةٍ بشـكلٍ كُلّـيٍّ تقريبًـا، ومَـنْ لـم يُغـادرْ منزلَـه فهـو يسـتقبلُ فيـه عائـلاتٍ. نحـنُ أمـام جماعـةٍ إمَّـا مُهجَّـرةٍ أو مُسـتضيفةٍ. ليـسَ ثمَّـةَ حـالٌ ثالـث. وبهـذا المعنـى، إنَّ الـذي يعيشُـه الشِّـيعةُ اليـوم ليـسَ تغريبـةً، بـل نكبـةً! العـامُ ٢٠٢٤ هـو عـامُ نكبـةِ الشِّـيعة. تاليًـا، هُنـاك مَـن يجـبْ عليـه أن يتحمَّـلَ هـذه المسـؤوليَّةَ التَّاريخيَّـةَ بالمعنـى الفكـري والعقائـدي والتَّعبـوي. وهُنـاكَ مشـروعٌ سياسـيٌّ وعقيـدةٌ سياسـيَّةٌ ودينيَّـةٌ أدَّتْ، فـي نهايـةِ المطـاف، إلـى تحويـل ميليشـيا إلـى جيـش نِظامـي يَخـوضُ معركـةً مـع قـوَّةٍ نوويَّـةٍ وقـد أقنـعَ نفسَـه وأقنـعَ أهـل الطَّائفـةِ الشِّـيعيَّةِ وأقنـعَ الآخريـن، بالتَّرهيـبِ أو بالتَّرغيـب أو بالبروباغانـدا، أنَّـه يسـتطيعُ أن يكـونَ قـوَّةَ ردعٍ أمـام قـوَّةٍ نوويَّـةٍ. هـذا الوهْـم سـقطَ. والنَّـاسُ قـد خسـرتْ نسـيجَها الاجتماعـي؛ النَّسـيجُ الاجتماعـيُّ الشِّـيعيُّ، بثقلِـه الجنوبـيِّ وجُزئيًـا فـي البقـاع، قـد تفسَّـخ وانتهـى. القـرى والمُـدن الجنوبيَّـة اليـوم هـي مناطـقُ فارغـةٌ، والنَّـاسُ لـم يُهجَّـروا وحسـب، بـل تفسَّـخَ نسـيجُهم الاجتماعـي. نحـنُ نُـدركُ أنَّنـا نعيـشُ فـي منطقـةٍ سـيكونُ الاسـتثناءُ أنْ يعـودوا إلـى قُراهـم، بخاصَّـةٍ الجماعـاتِ التـي لا تنتمـي إلـى الأغلبيَّـات بالمعنـى الكبيـر. مَـنْ يتـرُكْ أرضَـه لا يعـودُ قريبًـا، وإذا عـادَ فـإنَّ النَّسـيجَ الاجتماعـي سـيكونُ، بشـكلٍ أو بآخـرٍ، قـد انفـرطَ عقـدُه.

مـاذا عـن ترتيـب البيـت الداخلـي للطائفـة الشـيعية؟ وهـل هنـاك حاجـة لإعـادة النظـر برؤيتهـا المسـتقبلية؟

إن مسـتقبل الشـيعة كجماعـة فـي لبنـان غيـر مهـدَّد بالمعنـى الوجـودي، فطبيعـة النظـام اللبنانـي وطبيعـة الشـيعة، أي وجودهـا كطائفـة مؤسَّسـة فـي لبنـان، يجعلهـا خـارج أي قلـق علـى الوجـود، وبالتالـي فـإن مـا يجـب العمـل عليـه هـو أن تعـود الأمـور إلـى نِصابهـا، وأن يعـود الشـيعة بأدائهـم السياسـي إلـى أن يكونـوا طائفـة كغيرهـم مـن الطوائـف، متسـاوين فـي الحقـوق والواجبـات وأن يتوقـف منطـق الهيمنـة ومنطـق التسـلُّط. وهـذه نقطـة أساسـية، بحيـث يتوجَّـب علـى الشـيعة أن يُدركـوا أن الوضـع الـذي كان قائمًـا فـي الفتـرات السـابقة هـو غيـر طبيعـي، ذلـك أن الوضـع الطبيعـي هـو المرحلـة المقبلـة حيـث يتسـاوى الجميـع ولا يكـون هنـاك سـلطة لأحـد علـى غيـره، وعليـه، أكبـر مثـال علـى ذلـك عندمـا عطّلـت الشـيعية السياسـية المتمثّلـة بحـزب اللـه وحركـة أمـل الانتخابـات الرئاسـية لثـلاث دورات متلاحقـة، ففـي هـذا نـوع مـن ممارسـة الطغيـان والهيمنـة علـى بقيـة الجماعـات فـي لبنـان. هـذا التحـدّي مطـروح ليـس فقـط علـى حـزب اللـه وحركـة أمـل، بمعـزل عـن تمثيلهـم فـي المرحلـة المقبلـة، لأن هنـاك نقـاش حقيقـي داخـل الطائفـة الشـيعية يجـب أن تُشـارك فيـه كل أطـراف الطائفـة بالمعنـى السياسـي وبالمعنـى الوطنـي، فمسـألة البيـت الداخلـي الشـيعي ليسـت مسـألة تعنـي الحـزب والحركـة فقـط، بـل هـي تعنـي كل الشـيعة ومرتبطـة بالعلاقـة مـع الأطـراف الأخـرى فـي البلـد، وأعتقـد أن التجربـة فـي السـنوات الماضيـة وتجربـة الحـرب الأهليـة ومـا ورثـه لبنـان يُظهـر بوضـوح أن النـاس في لبنـان لا يريدون الانتقـال مـن غلَبَـة إلـى أخـرى. لا أحـد يريـد هـذا الأمـر، لأن الـكل يُـدرك أن هـذا سـيولّد أزمـات أخـرى. المشـكلة أن الشـيعية السياسـية سـتتعامل مـع خسـارة مكتسـباتها أنهـا غلبـة عليهـا لكنهـا ليسـت غلبـة بـل هـي عـودة الأمـور إلـى نصابهـا وبالتالـي علـى الشـيعة اليـوم أن يعـودوا لبنانييـن، وأن يكـون مشـروعهم الوحيـد هـو الوطـن وأن ينحـازوا إلـى السياسـة وبنـاء الاقتصـاد لتحسـين الظـروف المعيشـية للنـاس والتوقُّـف عـن كونهـم وقـودًا لحـروب لا تعنيهـم ولا تعنـي مصالحهـم.

علي منصور

«الطائفة الشيعية تعرضت لنكبة لا يمكن التعافي منها إلّا بالخروج من دوّامة النِكران والاعتراف بالهزيمة»

علي منصور، ناشط سياسي واجتماعي، وُلد في ضاحية بيروت الجنوبية وترعرع فيها. ناشط في السياسة من خلفية يسارية، ثم تحوّل نشاطه السياسي باتجاه المجتمع المدني الذي اعتبره أقرب إلى القضايا العامة.

في هذا الحوار، يتحدّث منصور عن تجربته، ومعايشته للحروب التي شهدها لبنان، وكيف كان تأثيرها عليه وعلى مكان سكنه.

مَن هو علي منصور ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟



وُلدت وترَعْرعت في بلدة برج البراجنة، الواقعة في ساحل المتن الجنوبي، أو كما تُعرف اليوم بـ«الضاحية الجنوبية». بدأت رحلتي المدرسية من مدرسة الرائد في شارع عثمان في برج البراجنة، وصولًا لأتخصّص في الجامعة في مجال الإدارة المالية.

أُشغل حاليًا منصب المدير المالي والإداري لمؤسسة «أمم للتوثيق والأبحاث» والمسؤول عن مراقبة برامجها ومتابعتها.

تشكّل اهتمامي ونشاطي السياسي من خلال انضمامي إلى اتحاد الشباب الديموقراطي وقُربي من الحزب الشيوعي. في هذه المرحلة فقط، علِمت أن العالم أكبر من ضاحية وأكبر من طائفة، ولاحقًا أكبر من أي حزب أو إيديولوجيا. تطوّر اهتمامي ونشاطي السياسي ليكون أكثر شمولية ومتعدّد القضايا التي تحمل طابعًا إنسانيًا بحتًا، بغضّ النظر عن العنوان.

علاقتي مع الضاحية مرتبطة بالبدايات. بداية كل شيء الذي بدوره يكون نهاية شيء آخر، حيث غادرتها عن عمر يناهز الـ٣٤ عامًا، لذلك أعتبر أنني عايشت المكان بكل تحوّلاته الراديكالية خلال هذه السنوات من الحرب الأهلية والملاجئ وأكياس الرمل والانفجارات والاشتباكات، إلى اللعب في جلّ إدّه وجلّ الدكاش، حيث كانت أراضٍ زراعية مليئة بالخضار والحمضيات والمساحات الواسعة، وهناك شاهدنا تمركُز دبابات الجيش السوري فيها لقصف القصر الجمهوري، إلى تحوّلها تزامنًا مع ورشة إعادة إعمار وسط بيروت ودفع التعويضات الذي انعكس ازدهارًا ماليًّا وحوّلها إلى كُتلٍ إسمنتية ومجمّعات سكنية وخطوط نقلٍ وفانات. هي ذاكرتي في الطفولة والمراهقة والوعي وأصحاب الحيّ، هي مقياس عمري على عدد الحروب التي عايشتَها في الضاحية.

ثمّة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية (إذا كنت تذكُر) عليك وعلى مكان سكنك ثم في حروب ١٩٩٣ و١٩٩٦ والـ ٢٠٠٦ واليوم في الـ٢٠٢٤؟

يمكنني القول إنني عشت كل هذه الحروب، فمع التكرار تكتسب قدرة على التقييم والتقدير من دون أن تعرف مصدَرها، ولكن في ٢٠٠٦ كانت الحرب التي عشتها بكل تفاصيلها من خارج منزل العائلة، فكنّا قد غادرنا الضاحية في اليوم الخامس من بداية الحرب، تطوّعت مع النجدة الشعبية لتقديم الدعم للنازحين، وكانت المرة الأولى التي أتعامل فيها مع أشخاص لا أعرفهم خلال الحرب، فقد عشتُ الحروب السابقة مع الأهل والمقرَّبين والجيران والذين مع الوقت يتحوّلون إلى كتلة واحدة أرواحها متلاحمة. في ٢٠٢٤ كنت خارج لبنان، ولكن عشت الحرب بكامل تفاصيلها ويوميّاتها ومخاوفها، وجودك بعيدًا عن الأهل والأصدقاء والزملاء يخلق مشاعرَ مضاعفة من الخوف والغضب والشعور بالذنب.

انطلاقًا من حرب ٢٠٢٤ ما هي الخسائر التي لحِقت بالطائفة الشيعية، وهل هناك من مكاسب؟

تعرّضت الطائفة الشيعية إلى نكبة بكل ما للكلمة من معنى، نكبة على قياس النكبات التاريخية التي أدّت الى تحوُّل جَذري في مسار هذه الجماعة. لا يوجد مكسب من كل ما حصل غير أنها فرصة جديدة لإعادة تصويب هذه الجماعة لتكون جزءًا من وطن، وفرصة للدولة اللبنانية أن تتحمَّل مسؤولياتها وتمارس دورها تجاه مواطنيها. الشيعة اليوم خسروا امتيازات فائض القوة والهيمَنة، على الرغم أنه كان من الممكن أن تكون كلفة الخسارة أقل من ذلك لو كان مَن يتحكّم بقرار الجماعة أقلّ غرورًا.

لذلك، الشيعة اليوم خارج المشهد، فهم لم يستوعبوا حجم ما حصل بعد، ولم يُلملموا جراحهم وأجساد أبنائهم وبقايا منازلهم، فالاعتراض والتعبير والمطالبة بالنسبة لهم ترَف صعب المنال في الوقت الراهن. لكن للأسف هذا ما يستغلّه حزب الله لإعادة تصدير الوهم واحتكار المشهد الشيعي، ويسعى بكل إمكاناته إلى تصوير الشيعة بأبشع الأشكال بهدف تحويلهم إلى طائفة مرفوضة ومنبوذة من الجميع فيبقى هو الخيار الوحيد.

بالاستناد إلى ما حلّ بالطائفة الشيعية كيف يمكن لها أن تُعيد ترميم بيتها الداخلي؟

للشيعة تاريخ وتراث أعمق من حزب الله وأعمق من إيران ومحوَرها. قيمتُهم من صنع أيديهم وأيدي أسلافهم، يكفي شيعة لبنان أن يتذكَّروا مَن هم كي يتحرّروا من كل مَن باعهم الوهْم والخُرافة.

أولى خطوات العلاج تبدأ بالاعتراف بالمرض. عليهم اليوم الوقوف عند كل ما عايشوه واختبروه، والاعتراف بأنّه مرضٌ أفضى فقط إلى الكوارث والخراب؛ والاعتراف بحجمهم الفعلي وأنهم ليسوا فئة مستضعَفة وقدَرها القهر والألم ومكتوب عليها القتل والقتال كما تمَّ خداعهم وإقناعهم بهذه الصورة لسنين طويلة، فهُم مثل جميع الجماعات اللبنانية عاشوا النكبات وعاشوا السلطة وعاشوا الضعف



آثار الغارات في ،منطقة برج البراجنة، هنا لبنان

والقوة والتهجير وإعادة التموضُع، تُشبه مسار الجماعات اللبنانية إلى حدِّ التطابق هو ما جعل هذه الجغرافيا وطن لها.

ما حصل قد حصل، أي نظرة للخلف يجب أن يكون هدَفها المصالحة مع الماضي لبناء الحاضر والمستقبل.

وأرى أنه لا يمكن ترميم البيت الشيعي الداخلي، بمعزل عن ترميم البيت اللبناني كاملًا، بدءًا من مراجعة نظام الحكم وآلياته والتحوّل نحو المواطَنة، والتزام الدولة بمؤسّساتها بواجباتها تجاه جميع مواطنيها. المطلوب عودة الدولة لأبنائها وليس العكس. فالشيعة وباقي الجماعات لم يخرجوا يومًا من الدولة، لكنّ النظام اللبناني بتشكيله الطائفي وأسلوب المحاصصة المتّبع، يبتعد ويقترب من مواطنيه بحسب الحاجة والحالة الظرفية. وبالتالي فإن النكران لم يعُد وسيلة ذات جدوى أمام حجم الخسائر التي تكبَّدها اللبناني في مختلف قضاياه، فقد آن الأوان للسؤال والمحاسبة. آن الأوان لتحمُّل المسؤولية ومراجعة كل ما مضى. بناء الأوطان لا يمكن أن يتحقّق إلّا بمواجهة الحقائق والاعتراف بالأخطاء. وهذا يشمل أخطاء الجميع، فنحن منذ تاريخ إعلان دولة لبنان الكبير نعيش نكَبات متشابهة بكل شيء، فتارةً يجري الحديث عن عزْل المسيحيين وتهميشهم، وأخرى خوف الدروز، وإحباط السنّة، واليوم هزيمة الشيعة. لذلك فإن اعتبار مصدَر المشكلة طرف واحد والإيحاء بأن الحلّ لديه، هو إضاعة فرصة جديدة لبناء وطن بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، بل أيضًا جريمة سيكون مسارها إعادة إنتاج تجربة جديدة لتحكُم وتنهار بعد ربع قرن مثل سابقاتها.

هل هناك حاجة لإعادة النظر بمستقبل الطائفة الشيعية ونسْج علاقاتها مع الآخر من جديد؟

ليست مسؤوليتي، ولا مسؤولية أحد آخر، أن يقوم بهذه المهمة، فالمسؤولية هنا يجب أن تقع على عاتق الدولة، بما تعنيه من مؤسسات وقوانين ودستور، فهي القادرة على إعادة النظر ورسم حاضر اللبنانيين ومستقبلهم على اختلاف مشارِبهم الطائفية، لا الطائفة الشيعية حصرًا، وهنا فإن علاقة الجماعات الطائفية في ما بينها يجب أن تُنظّم وتُحفظ تحت عنوان المواطنية التي تضمن تحقيق العدالة، وفي الوقت نفسه المحاسبة والمساءلة، ومكافحة الفساد وأي محاولات للإفلات من العقاب، وصون حرية و كرامة وحقوق وأمن جميع اللبنانيين والمقيمين على الأراضي اللبنانية بشكل قانوني ومؤسّساتي ثابت ونهائي وليس انتقائي وظَرفي أو تحت الضغط أو التمنيات.

إن إقدام أي أحد من خارج الدولة ومؤسّساتها على إدارة علاقات الجماعات اللبنانية في ما بينها ومراجعتها وتنظيمها، هو محاولة لإنتاج زعامات جديدة تُمارس السلوك الزبائني السابق نفسه، ويؤدّي إلى النتيجة نفسها.

عمّار نعمة

على الطائفة الشيعية تغيير طبيعة مقاربتها للحالة السياسية العامة في لبنان

«يجب إعطاء الأولوية لاتفاق الطائف وتطمين الطوائف الأخرى والانفتاح على المسيحيين خاصة من بوّابة رئاسة الجمهورية»

يتحدَّر من مدينة صور الجنوبية، وُلد في العاصمة اللبنانية بيروت حيث نشأ وترعرع خلال مراحل الحرب الأهلية ثم السِّلم «الهشّ» بعدها.

عمار نعمه صحافي وكاتب سياسي، تأثَّر بالسياسة منذ الصغر إذ كان والده ياسر نعمه يعمل في جريدة «السفير» وقد خاض نضالًا سياسيًا ونقابيًا، جعل الابن يعيش مختلف الظروف السياسية التي كانت تعصف بالبلد في تلك الفترة.

في هذا الحوار يتحدّث نعمه عن الحروب التي شهدها لبنان على اختلاف أشكالها وطبيعتها وتأثيرها على المكان الذي نشأ فيه.



بداية، مَن هو عمار نعمه؟

تفتُّحي على السياسة نشأ تحديدًا منذ العام ١٩٨٢ خلال الاجتياح الإسرائيلي لبيروت في العام ١٩٨٢، انطلاقًا من الإيمان بالقضية الفلسطينية بصفتها قضية عربية وإنسانية عادلة. تشرَّبت أيضًا القضية الوطنية في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي والحُكم المضاد للحركة الوطنية اللبنانية؛ من هنا كان الإيمان بالمقاومة الوطنية التي انطلقت من العاصمة ذاك العام، فتفاعَلت عاطفيًّا مع عملياتها ضد الاحتلال كما ضد الأحلاف الغربية التي قدِمت إلى بيروت.

ثمّة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حرب الـ٢٠٠٦ واليوم في الـ٢٠٢٤؟

عاصرت التحرير الأول العام ١٩٨٥ ثم التحرير الثاني العام ٢٠٠٠. وبين هذين التاريخين تأثّرت بأحداث مفصلية منها إسقاط اتفاق ١٧ أيار الذي وُقع العام ١٩٨٣ بين لبنان وإسرائيل، مرورًا بمقارعة المقاومة للاحتلال خلال اعتداءات ١٩٩٣ و١٩٩٦ و٢٠٠٦ وصولًا إلى العدوان الأخير العام ٢٠٢٤.

الإيمان بالمقاومة بالنسبة لي لا يتّخذ منحًى دينيًّا، وقد قطنت، ولا أزال، في منطقة فردان المختلطة شيعيًّا وسنّيًّا ضمن نطاق ما عُرف سابقًا ببيروت الغربية، ونشأت في جوٍّ مدرسي في «الإنترناشيونال كولدج»، ضمن مناخ علماني حداثي، وكذلك الحال في الجامعة اللبنانية الأميركية، ثم خلال مناخ عملي في جريدة «السفير» طيلة ١٦ عامًا، واليوم في صحيفة «اللواء».

عائليًّا، لم يتأثّر استقرارنا بالأحداث اللبنانية، فكنّا في منطقة هادئة نسبيًّا نزحنا إليها العام ١٩٧٦ من منطقة بدارو المسيحية بداية الحرب الأهلية بسبب الظروف السياسية القائمة حينذاك واستهدافنا من قبل ميليشيا «التنظيم» التي كانت إلى أقصى اليمين اللبناني. كما نزحنا إلى الجنوب اللبناني في آب من العام ١٩٨٢ خلال الاجتياح الإسرائيلي وتوجّهنا نحو بلدة روم الجنوبية، وبعدها خلال ما عُرف بـ«حرب التحرير» العام ١٩٨٩ حين كان النزوح نحو مدينة صور ومنطقة الحوش في ضواحيها.

أما في الحربين الكُبريين، عدوان تموز ٢٠٠٦ وعدوان أيلول ٢٠٢٤، فلم يتأثَّر المسكن بل إنني استضفت في ٢٠٠٦ عوائل عدّة في منزلي الحالي وفي منزل العائلة الكائن في الشارع نفسه، لذا لم أواجه تحدّي الهجرة على غرار الكثير من العوائل الجنوبية التي كانت تُضطر للنزوح في كل حرب.

في حرب الـ ٢٠٢٤... من وجهة نظرك، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية؟ وهل كان هناك من مكاسب؟

أولًا لا بدَّ من القول إنه في حرب الـ٢٠٢٤، أرى أن ما حصل كان يمكن تجنّبه بسهولة لولا ما سُمي بـ«وحدة الساحات» أو «حرب الإسناد» التي حمّلت لبنان أكثر من

طاقته، ناهيك عن تحميلها الساحة الجنوبية والشيعية في الجنوب، كما في مناطق الانتشار الشيعي، ما لا تُطيقه.

لقد وجّهت الحرب، عند اتخاذها طابعها الكبير منذ تاريخ ٢٣ أيلول ٢٠٢٤، ضربات كبيرة للطائفة الشيعية التي تهجَّر أبناؤها ودُمِّرت ممتلكاتهم واستشهد كثير منهم وجُرحوا وذُلّوا، من دون هدف سياسي واضح سوى دعم قطاع غزة في حرب الإبادة عليه وهو الهدف الذي لم تُسهم حرب الإسناد ووحدة الساحات في وقفه أو حتى في تحجيمه جديًّا، وها هي المقاومة قد وعَت خطيئة ما حصل واقتنعت بمبدأ فصل الساحات ووقف جبهة الإسناد ما يطرح مصداقية التساؤلات التي طُرحت حول جبهة الإسناد.

على صعيد المكاسب فهي لا تُقارَن بالخسائر، وإن كانت موجودة، سيّما في الحرب البرية، مع إشعار إسرائيل بأن المقاومة جاهزة لتكبيد الاحتلال الخسائر وصدّه في أحيان كثيرة، ولو تمكَّن الأخير من التوغّل كونها معركة لامتناظرة تعتمد أساسًا، وسط عدم التكافؤ في موازين القوى، على حرب العصابات... كما أفهمت الحرب إسرائيل بأنها ستتكبّد خسائر كبيرة بشريًّا واقتصاديًّا وسيتمّ تعطيل الحياة في الشمال والوسط لديها واستهداف كامل مساحتها الجغرافية، في حال وسّعت الحرب، وغيرها من إيجابيات لا مجال لذكرها الآن.

لكن تلك المكاسب لم تكُن تحتاج الى اختبار، فالجهوزية العسكرية للمقاومة كانت معروفة عند الإسرائيلي، واليوم باتت المقاومة تفتقد إلى عنصر الغموض الردعي الذي ميّزها سابقًا. لكن قوة حزب الله التسلّحية ستبقى موجودة إلى حدٍّ كبير حتى بعد الحرب ولو تطلّب الأمر وقتًا واتّخذ شكلًا مختلفًا، ما سيعتمد على الظروف الجغرافية والسياسية المحيطة وخاصة موقع النظام الإيراني في المنطقة. هذا مع العلم بأن المواجهة لن تنتهي بين حزب الله وإسرائيل مستقبلًا وستتخذ أشكالًا أخرى مع الوقت.

ماذا عن مستقبل الطائفة، أي كيف سيرتّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

على صعيد مستقبل الطائفة وترتيب البيت الشيعي، لا أعتقد ان تغييرًا جوهريًّا سيطرأ على المشهد الشيعي في



آثار احدى الغارات التي استهدفت مدينة صور، وكالات

المدى المنظور، وسيبقى حزب الله الأكثر تمثيلًا علمًا أن هامشًا زمنيًّا ما زال يفصلنا عن الانتخابات النيابية العام ٢٠٢٦ إن حصلت في موعدها. وسيتمكّن الحزب من الحفاظ على موقعه نسبيًّا وسيعتمد بذلك على استماتة بيئته في الدفاع عن مواقفه، وطبعًا على قوة النظام في إيران واستمراره في رفد الحزب ماديًّا. وعلى الصعيد الانتخابي سيعتمد ذلك على تحالفات الحزب وانفتاحه على القوى السياسية في الطوائف الأخرى، وقد نلاحظ هامشًا أكبر لحركة أمل كون الرئيس نبيه بري سيكون في الواجهة أقلّه على المدى القريب، من دون استبعاد نشوب خلافات بين الجانبين لتناقض مصالحهما الاستراتيجية.

هنا ملحوظة تتعلّق بقوى التغيير في الطائفة. ستستفيد هذه القوى من مناخ الاستقرار المقبل لتثبيت حضورها وتعزيزه إعلاميًّا وخطابيًّا، مع الأخذ في عين الاعتبار أن عليها تعزيز تواجدها وما راكمته في السنوات الأخيرة خاصة منذ حراك تشرين ٢٠١٩، بعد خيبة أمل (قد تكون محقّة أو لا) عامة من أداء قوى التغيير في المجلس النيابي والتي لا يمكن لتغييريي الطائفة أن يتحمّلوا وزرها برأيي.

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، بالرؤية المستقبلية لها؟

في شكل عام على الطائفة الشيعية تغيير طبيعة مقاربتها للحالة السياسية العامة في لبنان، عبر إعطاء الأولوية لاتفاق الطائف، وتطمين الطوائف الأخرى والانفتاح على المسيحيين خاصة من بوابة رئاسة الجمهورية، في بلد لا يقوم سوى على التعايش وتقبُّل الآخر والمشاركة. أيضًا عليها الشروع في حوار جاد

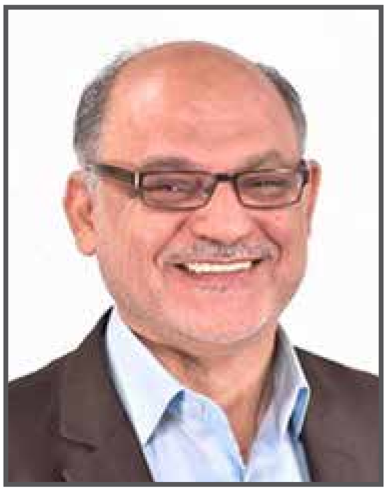
وصادق مع الطوائف الأخرى لمعالجة هواجسها، وأيضًا لطرح الهواجس الشيعية المقابلة التي ستتمخّض عن الحرب الحالية.

الدعوة إلى تطبيق اتفاق الطائف جدّيًا تتأتّى من كونه الملاذ الأول للطائفة وشكّلت بنوده مطلبًا لها في أواخر الحرب الأهلية، خاصة طرْح تشكيل الهيئة الوطنية لإلغاء الطائفية السياسية، وبات لزامًا عليها التخلّي فورًا عن خلق أعراف جديدة لصالح الشيعة مثل التمسُّك بوزارة المالية أو التوقيع الثالث، الذي بُحث في الطائف لكنه لم يُقرُّ أبدًا، والذي عطّل الدولة وحوّلها إلى دولة برؤوس عديدة.

في الختام تكمُن مصلحة الشيعة في حفظ النظام وليس الانقلاب عليه، وفي الصعود التدرّجي في النظام بدءًا من التمسّك بالطائف ثم الاعتماد على مقوّمات الطائفة ديموغرافيًّا واقتصاديًّا وبشريًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، وأيضًا على قِدرة الطائفة في الدفاع عن لبنان عبر سلاح الحزب لكن ضمن استراتيجية دفاعية ضمن الدولة، تستثمر مكامن قوة لبنان ومِنعته.

قاسم قصير

هناك محاولة لتدمير البُنية التحتية للطائفة الشيعية



قاسم قصير، صحافي وكاتب، وُلد في وطى المصيطبة في بيروت. تعود أصوله إلى بلدة دير قانون النهر في جنوب لبنان، عاش طفولته في بيروت وتابَع دراسته في ثانوية طريق الجديدة، ولاحقًا انتقل إلى برج أبي حيدر، وبعد زواجه عاش في ضاحية بيروت الجنوبية.

خلال الحرب الأخيرة كان قصير يُقيم في حارة حريك في الضاحية الجنوبية، وقد تعرّضت المنطقة للتفجير، ما اضطُره للانتقال إلى بيروت.

كسواه من اللبنانيين، عاش قصير خلال الحرب الأهلية أهوال الحرب من قصف وخطف وموت وحصار. وفي حرب تموز انتقل إلى بيروت مؤقتًا، وفي العام ٢٠٢٤ عاش أهوال الحرب يوميًّا من قصف وتدمير وقتل.

بالنسبة إلى قصير فإن خسارة الأمكنة أمر مؤلم لأن المنزل يضمّ الذكريات والتفاصيل اليومية.

يعتبر قصير أن هناك محاولة لتدمير البنية التحتية للطائفة الشيعية والخسارة كبيرة، لكنه يؤمن بأن يتمّ التعويض وإعادة البناء مجدّدًا كما حصل بعد حرب العام ٢٠٠٦.

يؤكّد قصير أن علاقة الطائفة الشيعية مع الطوائف الأخرى جيّدة لأن هذه الطوائف احتضنت أبناء الطائفة برغم بعض الأحداث السلبية المحدودة.

ويختم: «نحن نعيش في وطن ولكن أيضًا هناك عدو إسرائيلي يدمِّر بلدنا والمطلوب ايجاد رؤية مشتركة لمواجهة العدو».

كامل جابر

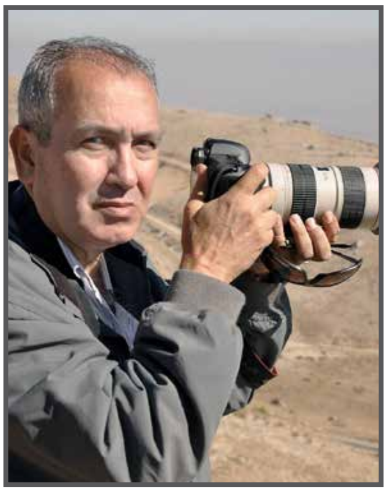
نحن دخلنا الحرب وحدنا والعالم ينظُر إلينا من موقع «المعتدي» على إسرائيل

لبنان «يحتاج» إلى طاقات الطائفة الشيعية ومستقبلها

يجب أن يكون ضمن سياق وطني

كامل جابر، وُلد في النبطية شتاء العام ١٩٦٣ وتعلّم في مدرستها الرسمية. أجبرته الحرب الأهلية من جهة والقصف الإسرائيلي من جهة أخرى على التَّنقُّل بين النبطية ومغدوشة وصيدا. أنهى سنتين من دراسة الفيزياء في الجامعة اللبنانية ثم انتقل إلى عالم الصحافة فعمل كمصوِّر وصحافي واكَب الحروب التي جرَت في لبنان بدءًا بالحرب الأهلية وانتهاءً بحرب العام ٢٠٢٤.

مَن هو كامل جابر؟ بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؛ كيف تستذكر تلك المرحلة؟



أنا كامل صبحي جابر، وُلدت في حي البيّاض في النبطية بتاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩٦٣ بحسب ما هو مذكور في هويّتي. عائلتي تتكوّن من أختَين وأربعة إخوة إضافة إلى أبي وأمّي. أبي كان سائق سيارة، فكنّا نسبيًّا مرتاحين، لكنه لم يكن يجمع المال. درست في المدرسة الرسمية في وسط النبطية والتي تبعُد عن بيتنا حوالى كيلومترين؛ فكنت أقطع هذه المسافة صباحًا وأعود إلى البيت ظهرًا من أجل تناول الغداء ثم أعود إلى المدرسة لإكمال الحصص الدراسية. بقينا بهذا الانتظام إلى مطلع السبعينات. وفي العام ١٩٧٣، أو ١٩٧٤، شعرت بالخوف للمرة الأولى من حجم الطائرات التي قصفت مخيّم النبطية. في المرة الأولى كنت في المنزل ورأيت كيف يسقط الصاروخ من الطائرة وينفجر، وفي الثانية كنت في المدرسة وهرب جميع من كان فيها وركضت أنا تلك المسافة إلى البيت. كنت طفلًا طبعًا، بعمر العشر سنوات تقريبًا. وبدأ يتشكّل عندي هاجس وخوف من الإسرائيليين الذين يقصفون بطائرات كبيرة ويدمِّرون بيوتًا وأحياء. ثم في ١٢ تشرين الأول ١٩٧٤ قصفوا النبطية من الداخل الإسرائيلي واستشهد أحد أصدقاء إخوتي وحزنّا عليه كثيرًا. وبدأت تتعرّض النبطية للقصف تدريجيًّا في الوقت الذي بدأت فيه الحرب الأهلية، فكنّا نعيش رُعبًا من أخبار بيروت ورُعبًا آخر من الجنوب، فالنبطية قريبة على الحدود وكنا نسمع القصف الذي تتعرّض له مناطق الشريط الحدودي والعرقوب. وشهدنا أكثر من مرة تصارُع الطائرات الحربية الإسرائيلية والسورية في الأجواء وسقوط بعض الطائرات. فأستطيع أن أقول إننا كنّا ننشأ في طفولة خائفة؛ لا نستطيع الذهاب إلى بيروت بسبب الحرب الأهلية، والخوف من القصف الإسرائيلي، سواء بالطائرات أو بالمدفعية. أذكر مرة قصف الإسرائيليون المخيّم فهربنا إلى سهل الميدنة واختبأنا تحت الشجر.

ثمّة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة؛ كيف أثّرت الحروب في لبنان، بدءًا بالحرب الأهلية وصولًا إلى حرب العام ٢٠٢٤ وما بينهما من حروب، عليك وعلى مكان سكنك؟

بعد المرحلة الابتدائية انتقلت إلى المرحلة التكميلية في النبطية. لم نتعلّم في العام ١٩٧٦ لأن المدرسة أُقفلت نهائيًّا بسبب الحرب والإضرابات وقِدرة الأساتذة على الحضور، فضاعت هذه السنة. ثم انتقلت إلى مغدوشة ثم عُدت إلى ثانوية النبطية ثم التحقت بالمدرسة المهنية في صيدا حيث أنهيت ثلاث سنوات ميكانيك عام. لكن تبيّن لاحقًا أن هذا لا يخوّلك أن تتسجّل في الجامعة إلّا سنتين فيزياء. تسجَّلت في الجامعة لكن لم أحضر في السنة الأولى لأني تسجّلت في بيروت أيضًا ولم تتيسَّر أموري للذهاب إلى بيروت.

بعد ذلك مرَرنا بعدة حروب؛ أذكر حرب العام ١٩٧٨ كيف تعرّضت المنطقة للقصف وكان الفلسطينيون متواجدين في المنطقة حينها، ثم السيطرة الإسرائيلية

على المنطقة منذ العام ١٩٨٢ حيث أصبحنا تحت الاحتلال المباشر؛ شاهدت المسلّحين حين كانوا يهربون ثم شاهدت الدبابات الإسرائيلية تدخل إلى النبطية إلى أن انسحبوا وتمركزوا في التلال المشرفة على النبطية وكفررمان وكانوا يقصفون قُتِل أحد معارفنا أو أصدقائنا. كنّا نعيش حالة خوف مستمرّة تكبر تدريجيًّا. أنهيت سنتين في الجامعة ثم ذهبت إلى عالم الصحافة. في هذه الفترة، ١٩٨٦ تحديدًا، بدأت في عملي الصحافي وبدأت أشعر أكثر بحجم العدوانية الإسرائيلية وبمعاناة الناس الذين قرّبتني الصحافة منهم أكثر. كنت أرى قرى ليس فيها ملجأً أو مكانًا آمنًا يحمي الناس من القصف؛ أشخاصُ كنت تتحدث إليهم اليوم تسمع في الغد أنهم استشهدوا. الصحافة عرّفتني إلى أناس كثيرين كنت أحزن عليهم حين أراهم يقتلون جرّاء الإجرام الإسرائيلي. لكن في الوقت نفسه صار لديّ رسالة مهنية تتمثّل في الوقوف إلى جانب الناس في معاناتهم ومآسيهم على صعيد العدوان الإسرائيلي من جهة، وعلى صعيد الإهمال من جهة أخرى. وللأسف بعد العام ١٩٨٢ تغيّرت الظروف السياسية في المنطقة، وسيطرت الكثير من الميليشيات عليها وكانت تُعامل الناس بنوع من الفوقية وتُصادر قرارهم، مثل تعيين مدير مدرسة مكان آخر وملاحقة أشخاص وأحزاب؛ فمررنا في مرحلة بشعة من الفوضى كنت أتلمّسها كصحافي. وقد تعرّضت بسبب مواقفي الوطنية إلى تهديدات بالسجن عند إحدى الميليشيات وبوقفي عن العمل وإبعادي إلى صيدا وغير ذلك، وفبركوا لي تهمة بأني شيوعي. وكلما كتبت عن إهمال الدولة كانوا يعتبرون أن الأمر موجَّه ضدهم. عانيت فترة من هذا إلى أن جاء عدوان الـ١٩٩٣ وبعده ١٩٩٦ وما كانت تمرّ فيه المنطقة إلى تحرير الـ٢٠٠٠ الذي فرحتُ به واعتبرته نوعًا من الفرَج. كنت أنظر إلى التلال التي كانت تتمركز فيها القوات الإسرائيلية وتقصفنا منها وأقول الحمد لله إننا انتهينا. لكن جاء العام ٢٠٠٦ وكانت حربًا شرسة، واكبتُها كصحافي وكان مركز عملي الأساسي في النبطية لكني كنت أتنقل من منطقة إلى أخرى لتصوير الغارات وما إلى ذلك، قبلَها عملت في مراسلًا لجريدة «السفير» في منطقة مرجعيون والمنطقة الحدودية بين الناقورة ومرجعيون وصولًا أحيانًا إلى منطقة العرقوب. فحرب العام ٢٠٠٦ كانت عدوانًا كبيرًا طبعًا لكنها لم تكن بحجم العدوان الأخير في العام ٢٠٢٤.

في العدوان الأخير قرّرت عدم التنقّل بين القرى لأن ذلك بات صعبًا بسبب الإضافات التكنولوجية على الحرب؛ بات هناك مسيَّرات تراقِب وترصد وتقتل. بقيت فترة شهر في النبطية لجأت فيها إلى الكتابة التحليلية، بخاصة أن التطوّر التكنولوجي جعل من كل الناس صحافيين وإعلاميين، فبدَل أن تقطع مسافة عشرين كيلومترًا لتصوير آثار الغارة على منزل، بعد دقيقتين تصلك الصورة، ولم يعُد هناك داعٍ لوجودك كمصوِّر بالكاميرا. حتى إننا رأينا المحطات التلفزيونية العالمية والعربية والمحلية بدأت تستعين بصوِر تبثّها الناس على وسائل الاتصال الاجتماعي. في هذه الحرب عندما كنت أُضطر إلى الذهاب إلى صيدا مثلًا، وفي خلال طريق ذهابي وعودتي كنت أقول إنني قد لا أعود، إذ إن المسيّرات في الجو كانت تستهدف مدنيين أحيانًا وتستهدف مُسعِفين سواء الصليب الأحمر أو كشافة الرسالة أو الهيئة الصحية وغيرها.

من وجهة نظرك؛ ماذا خسرت الطائفة الشيعية في الحرب الأخيرة؟ وإذا كان ثمّة مكاسب فما هي؟

رغم حماستنا منذ الصغر للموضوع الفلسطيني لكنني أعتقد أننا ينطبق علينا المثل القائل: «ما في بالميدان إلا حديدان». نحن في الجنوب نريد أن نناصر فلسطين وندافع عنها وهذا حقّ علينا لكن هذا الحقّ لا تستطيع أن تقوم به بمفردك في عالم يحيط بالعدو الإسرائيلي من كل النواحي ولا يتخذ موقفًا مما يجري وإنما يراقب فقط. إذًا، في هذا العالم الذي لا يدعمك فيه أحد، صُوِّر للعالم أن حزب الله في الجنوب هو المعتدي وأن إسرائيل لم تكن تهدِّد حزب الله. فوقعت الحرب وكانت حربًا شرسة دفعنا ثمنها. هل نستطيع القول إن إسرائيل لم تكن ستعتدي علينا؟ كلا، كان الممكن في أي وقت أن تعتدي علينا، لكن حين كانت تفعل ذلك كنا نقول إن إسرائيل تعتدي علينا. اليوم، خضنا مواجهة ضد إسرائيل وحدنا، وفي النهاية أُلزمنا، كما في كل مرة، على وقف إطلاق النار ببعض الشروط التي لم نزل ندفع ثمنها إلى اليوم، أي قبل مرور الأيام الستين، ولا ندري بعد انتهاء مهلة الستين يومًا إلى أين سنذهب.

المجتمع الشيعي دفع ثمنًا كبيرًا على كافة المستويات وفي كل الأماكن التي يتواجد فيها في البلد، حتى في المناطق التي نزحوا إليها، إذ كانوا مستهدفين لأنهم يشكلون البيئة الحاضنة لهذا الطرف الحزبي والسياسي والعسكري والأمني الذي يُقاتل العدو الإسرائيلي.

نحن خسرنا خيرة شبابنا، سواء الذين استُشهدوا في أماكن سكنهم ونزوحهم أو في المواجهة. فكان منهم أطباء ومهندسين ومتعلّمين ومثقفين ومن كل الطاقات، وأيضًا من الأشخاص العاديين الذين يحقّ لهم أن يعيشوا إلى جانب عائلاتهم بدل أن تُباد عائلات بأكملها. دفعنا ثمنًا غاليًا. والطائفة الشيعية تدفع ثمنًا آخر أيضًا في سوريا، حتى لو كانوا من أفراد حزب الله، إذ تبيَّن أن نضالهم في سوريا لمنع سيطرة القوى المتطرِّفة على سوريا ذهب في عشرة أيام، بعد تضحيات الحزب لمدة عشر سنوات هناك، وتبيّن أن كل الذي ناضلوا من أجله انتهي بتسوية ما.

المكاسب هي أننا لم نخسر الحرب كلها. بمعنى أن هذه المواجهة التي بقي فيها الحزب حتى النهاية؛ أي أن وقف إطلاق النار تمّ من قِبل الطرفين، رغم أن الإسرائيليون لم يزالوا يعربدون ويقتلون. لكن بالحد الأدنى ثمة طرفان أوقفا إطلاق النار. الآن سننتظر انتهاء المهلة القانونية ونرى إذا كانت إسرائيل ستلتزم أم ستبقى تقدّم حججًا لتبرير عدم التزامها. والحجج موجودة، فبقاء مسائل مزارع شبعا والغجر والنقاط الثلاث عشرة المتنازَع عليها دون حلّ يعني أن الذي بينك وبين العدو لم ينته بعد، إضافة إلى التمدُّد الإسرائيلي داخل الأراضي السورية، الأمر الذي يؤثِّر علينا. كما أن السؤال الذي يحكُم الفترة الراهنة هو إلى أين تذهب المنطقة؟ فثمّة شيء أكبر من لبنان يجري فيها، كأن العصر الإسرائيلي يكبُر والعصر الأميركي يسيطر على المنطقة أكثر.

ماذا عن مستقبل الطائفة الشيعية؟ كيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي من جهة وعلاقتهم بالطوائف الأخرى من جهة ثانية؟

الجميع يلوم الشيعة ويقول لهم: يجب أن تنخرطوا في الدولة. نحن منخرطون في الدولة، لكن مع الأسف أن الشيعة مُختَزلون بحزب الله وحركة أمل؛ فهما من يُوصل نوابه إلى البرلمان وهما من يُسيطر



اثار غارة استهدفت حيّ البياض في النبطية، جنوبية

على البلديات. للأسف ليس هناك تنوّع في الطائفة، ليس هناك سوى هاتين المرجعيّتين وهما من يحتكر حصة الشيعة في التمثيل وغير ذلك. فالجزء الأكبر من الطائفة الشيعية مغيَّب تقريبًا ولا يُركن إليه فبغضّ النظر عن مستواك المهني والتعليمي، لن يكون لك دور إذا كنت خارج حزب الله وحركة أمل. فلا بد أن نبدأ من بيتنا الداخلي وأن نقول إن هذه الطائفة لديها طاقات وأنا يهمّني المدير الناجح وليس الموالي لهذا الحزب أو ذاك. أعطي مثالًا مدرسة يُحمر، كانت تضمُّ في وقت من الاوقات ٥٥٠ تلميذًا، لكن في الفترة الأخيرة صارت تضمّ فقط ٢١ تلميذًا و٢٨ أستاذًا فاضطُروا لإغلاقها. هذا لأنهم استبعدوا الإنسان الناجح ووضعوا مكانه مَن لا يستحق. وهذا يسري على كافة المواقع التي يجب أن تشغلها الكفاءات الشيعية حيث يجب أن يكون كل شخص في مكانه الصحيح والمناسب. إذا بدأنا من هنا نستطيع أن نبدأ مع الطوائف الأخرى على هذه القاعدة.

نحن نقول في خطابنا أن لبنان يتكامل بطوائفه وبعناصره الحزبية والمذهبية وغير ذلك، فلا بدّ أن نكون متعاونين. وهذه الحرب مع العدو الإسرائيلي يجب أن نخوضها على الصعيد الوطني. كان الخطاب أن الدولة غير موجودة ونحن ندافع؛ دافعنا في أيام الفلسطينيين والحركة الوطنية، ثم دافعنا في فترة حزب الله وإلى اليوم ندافع في مواجهة العدو الإسرائيلي، لكن هذا الدفاع هو واجب وطني. فعلينا أن ننخرط أكثر في الدولة ونقول لها تحمّلي مسؤوليتك تجاه هذه الأمور؛ نحن نريد من الدولة أن تحمينا بدل أن نذهب نحن ونقدِّم خيرة شبابنا إلى المجهول ويأتي العدو فيدمِّر

منازلنا وجسورنا وحياتنا وما إلى ذلك. هذا ليس خطابًا انهزاميًّا، لكن فلنُجرِّب هذه المرة أن نُقاتل من خلال الدولة وأن نكون كغيرنا. الطوائف الأخرى تتّهمنا بأخذ البلد إلى المجهول. نحن لسنا مع التطبيع والسلام مع العدو طالما هناك أرض لنا محتلة. لكن فلنبقَ نحنُ آخر الدول التي ترى وجود ضرورة لتكون الحدود مع العدو آمنة من خلال تنسيق وضمن المواثيق الدولية والوطنية وضمن السقف الوطني وليس ضمن الانهزام والاستسلام. من وجهة نظري، هكذا يجب أن نكون.

البلد يحتاج إلى الطائفة الشيعية بطاقاتها ومثقّفيها ومعلِّميها وشعرائها وأُدبائها وغير ذلك. ثمّة الكثير من الطاقات الشيعية الكبيرة التي تهاجر وتموت في الخارج لأنهم ليس لهم دور في الوطن. الطائفة الشيعية بات لديها مقدَّرات اقتصادية وعلمية كبيرة يحتاجها البلد، وأعتقد أنه سيكون لها مستقبل إذا أرادت أن تكون منخرطة ضمن السياق العام للوطن، طبعًا ليس في دولة مفكّكة كما هو الحال اليوم وأيضًا ليس في تقاسُم الحصص والغنائم.

د. ليلى شمس الدين

«الطائفة الشيعية ستتمكّن من إعادة التموضع ضمن إطار وطني»

ليلى شمس الدين، دكتورة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، وأستاذة جامعيّة. مستشارة إعلامية، باحثة، كاتبة ومدرّبة في مجالات الإعداد والإنتاج التلفزيوني كما في المجال الاجتماعي والعائلي، ومدرّبة أيضًا على المهارات الحياتية وفي فنون التواصل والتميّز.

في هذا الحوار تروي شمس الدين جوانب من شخصيتها، انطلاقًا من كونها امرأة نشأت في كنَف عائلة شيعية ملتزمة دينيًّا، وبالتالي لديها نظرتها الخاصة إلى الدِّين والطائفة، ورأيها الخاص، في عملية ترتيب البيت الداخلي للطائفة الشيعية، وحول مستقبلها...

مَن هي ليلى شمس الدين، ما بين الولادة والطفولة والدراسة والذات؟



في منزل عامر بالمحبّة وكرَم الضيافة واحترام الجميع... في منزل يشرّع أبوابه على مصراعيه مع كلّ حقبة وموقف، وفي منزل بُنيَتْ أنفاسه على المحبّة وُلِدتّ.

أبصرتُ النور في كنَف عائلة ملتزمة دينيًّا. ولكنّها بشهادة كلّ مَن عرفها، منفتحة فكريًّا وإنسانيًّا... ومن نِعم الله علينا، أنّ عائلتي لأبي كما لأمّي، كانت ولا تزال عاشقة للعلم والتعلّم، وكان شعار جدّي لأمّي رحمه الله «أنا ما بدّي ورّث أولادي أرض، بدّي ورّثهم علم» وهذا ما كان.

تربّيت وترعرعت وسط علماء دين يعرفهم القاصي والداني، بينهم عمّي الأكبر سماحة الإمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين، رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان، وهو غنيّ عن التعريف، وخالي الأكبر الدكتور محمّد شمس الدين، وهو من الدفعة الأولى التي نالت شهادة الدكتوراه من أبناء الطائفة الشيعيّة في لبنان، إن لم يكن أوّلهم بحسب ما أخبرني منذ سنوات ليست بالقليلة، الدكتور محمّد مهنا مؤّسس ورئيس «مؤسّسة عامل».

في عائلتي الصغيرة والممتدّة على السواء، لم يحدث أن شعرت يومًا بفارق في التربية، أو فارق في التعامل بين الصبي والفتاة. ولم يحدث أن حُدّدت علاقاتنا الاجتماعيّة بعناوين مذهبيّة أو طائفيّة أو عرقيّة وما إلى ذلك... عائلتي الممتدّة ضمّت أهلًا وأحبّة من كل الوطن، وأصدقاؤنا الكُثُر انتموا إلى كل بقعة من بقاع لبناننا الحبيب، أو هكذا يتراءى لي!!

قبل أن أُكمل عامي التاسع، اندلعت الحرب الأهليّة في لبنان في العام ١٩٧٥، وكانت مرحلة صعبة وقاسية ومؤلمة، ترَكت لا شك آثارها وتبِعاتها، ولا تزال، على عائلات كثيرة في لبنان. ولكنّها في الوقت عينه، وعلى الرغم من المرارة التي رافقَتها، لم تترك هذه الفترة المؤلمة في ذاكرتي، إلاّ سعَة في محبّة الناس، والعمل لبناء علاقات صادقة معهم مهما كانت انتماءاتهم ومشاربهم.

هكذا كانت تربيتنا ونشأتنا التي درَجنا عليها، والتي بالتأكيد تركَت بصماتها واضحة في بناء علاقاتنا وتعاملاتنا في جميع شؤون حياتنا ومحطّاتها. ولعلّها البصمة الأهمّ التي طبعت شخصياتِنا. أقول لعلّها كذلك، وتبقى الكلمة الفصل لمن يعرفنا أو تسنح لنا الفرصة لنتعامل معه.

ما بين الحرب والترحال من منطقة إلى أخرى، قضيتُ سنوات طفولتي التي حفلت بذكريات تجْوالنا في غير منطقة من لبنان، جنوبًا وشمالًا كما في البقاع والوسط، ما أتاح لنا التعرّف على بعض خصائص مناطق وطننا وجمال طبيعته وناسه.

تزوّجتُ ولم أُكمل عامي السابع عشر بعد. ولم تكن نتائج امتحانات دراستي الثانويّة قد صدَرت. سافرت مع زوجي خارج وطني الذي أُحبّ وأعشق. قبل هذه المرحلة من حياتي، كانت دراسة الطبّ مَقصدي وغايتي، ولكنّ زواجي أجهض هذا الهدف، فتحوّلت اهتماماتي إلى اتّجاهات مغايرة بحسب المستجدّات التي وضعتُ نفسي في خضمّها.

بدأتْ سنون الغُربة، غُربة عن الأهل والوطن، وأحيانًا غُربة عن الذات. غُربة حالت دون تحقيق أحد أحلامي في هذه الحياة باستكمال تعليمي الجامعيّ. مرحلة لم تكن سهلة

علـى الإطـلاق، لوجـودي فـي بلـد لا يسـمح لغيـر أبنائـه بالتعلّـم فـي الجامعـات الموجـودة علـى أرضـه، وهـذا مـا صعّـب المهمّة علـيَّ أكثـر.

بعـد انقضـاء عقْـدٍ مـن الزمـن، عُـدتُ مـع أسـرتي إلـى لبنـان، وحينهـا قـرّرت بعـد تفكيـر ليـس بالطويـل، وبعـد انقطـاع عـن التعلّـم لظروفـي التـي أوردْت، قـرّرت أن أختـار الـدور الـذي أوَدّتـه أن يكـون لـي. وبـدأت رحلـة البحـث عـن ليلـى؛ ليلـى فـي ذاتهـا وليـس فقـط ليلـى فـي الـدور الـذي وُجـدت فيـه.

وسـألتُ نفسـي أكثـر مـن سـؤال عمّـا تريـده ليلـى؛ هـل هـي زوجـة؟ أم سـيّدة منـزل، أم هـي أُمّ؟ أم مـن هـي؟ ومـاذا أريدهـا أن تكـون؟ وقـرّرت فـي لحظـة مـن لحظـات حياتـي، أن أكـون ليلـى المتعلّمـة، العاملـة خـارج المنـزل، الحاملـة لـدور مـا والعاملـة فـي إطـار مهمّـة أو مهمّـات مجتمعيّـة إضافـة إلـى مهمّاتـي الأُسـريّة.

اتّخـذت قـراري هـذا متحدّيـة كلّ الظـروف التـي أحاطـت بـي. ولأجـل ذلـك، خضـتُ غمـار المواجهـات التـي لـم تكـن بالسَّـهلة علـى الإطـلاق. ويبـدو أنّـي نجحـت فـي خـوض هـذا الغمـار بشـهادة المتابعيـن والعارفيـن. بنَيـت هـذه المسـيرة بعـد أن قـرّرت أن أكـون سـيّدة نفسـي ومسـؤولة عنهـا، بمقاييـس وضعتُهـا مرتكـزة علـى قناعتـي بإمكاناتـي وبماهيّـة دور الأنثـى الإنسـانة قبـل أن تحمـل أي دور إضافـي فـي هـذه الحيـاة.

كثيـرون ممّـن يتعاملـون معـي أو يروننـي، لا يعرفـون أنّنـي أرتكـز فـي شـخصيتي علـى أربـع ركائـز متوازيـة، بـدءًا مـن ليلـى كشـخص بِكَيانـي وكيْنونتـي، ومـن ثـمّ أنـا ليلـى الزوجـة، فليلـى الأم وليلـى الجـدّة. وكلّ منهـا تُسـعد بالأخـرى، وتحـاول أن تنفصـل عنهـا لتُنجـز مشـروعًا مـن المشـاريع التـي ترسـمها.

خـلال مسـيرتي المتواضعـة التـي وفّقنـي اللـه إليهـا، اختُـرْت لأكـون عضـوًا فـي غيـر تكتُّـل، كمـا حصلـتُ علـى أكثـر مـن جائـزة عربيـة وعالميـة عـن أعمالـي الإعلاميـة ومسـاهماتي الاجتماعيـة، وأكثرهـا تأثيـرًا ومكانـةً عنـدي، كان ولا زال طبعًـا، اختيـاري لأكـون عضـوًا فـي أكاديميـة الإنسـان للتلاقـي والحـوار، التـي نالـت الموافقـة بإجمـاع ١٦٥ صوتًـا علـى ١٦٧ صوتًـا مـن الجمعيـة العامّـة للأمـم المتّحـدة تحـت رقـم ٣٤٤١٧٣ بتاريخ ١٦ حزيـران٢٠١٩. إضافـة إلـى حصولـي علـى درْع التميّـز الذهبـي فـي مجـال «المسـؤولية الاجتماعيّـة» مـن «المنظمـة العربيـة للمسـؤولية الاجتماعيـة»، ربمـا لأنّهـا مـرآة لقناعتـي وتصرّفاتـي قبـل أن تكـون جائـزة لمخرَجـات عملـي. ومـع كلِّ رسـالة اسـتلمتُها، أعلمتنـي بحصولـي علـى جائـزة مـا، أو دعـوة لتكريم، كنـت أزداد إصـرارًا وعزيمـةً علـى الاسـتمرار، محاولـةً تجـاوُز العوائـق التـي تعترضنـي بغيـر طريقـة، علّنـي أُدرك بعضًـا مـن مخطّطاتـي المتعـدّدة فـي غيـر ميـدان. إلاّ أنّ الصـورة تبدّلـت، وغـدَت المسـؤولية أكبـر وأعمـق عندمـا بـدأتُ مرحلـة التعليـم الجامعـيّ.

لـن أُفشـي سـرًّا إذا مـا قلـت، أنّنـي مـا كنـت لأتمكّـن ربمـا مـن السـير فـي هـذه الطريـق لـولا إحاطتـي بتربيـة معيّنـة، وبدعـاء والـديَّ، وبمسـيرة غيـر قصيـرة مـع شـريك حيـاة واعٍ ومتفهّـم، وبأبنـاء أغلـى مـن روحـي، وطبعًـا بمحبـة أصدقـاء غـدوا بمثابـة أخـوة وأحبّـة.

كان شـعاري فـي هـذه الحيـاة ولـم يـزَل، بضـرورة «التعلُّـم المسـتمر» مـن القاصـي والدانـي، ومـن الصغيـر والكبيـر، ومـن المحـبّ كمـا مـن غيـر الـودود، ومـن كلّ شـخص يدلـو بدَلـوِه الجميـل فـي هـذه الحيـاة.

مـا يهـمّ فـي رأيـي، هـو أن نعـرف، ونقـرّر، ونبـدأ؛ فليـس المهـم كيـف ومتـى ومـن أيـن نبـدأ، بقـدر مـا أعتقـد أنّ الأهمّيـة تكمُـن فـي وضـع أُفـق لأحلامنـا، ونسـعى لتحقيقهـا وبلوغهـا. هـذه بعـضٌ مـن ملامـح قصّتـي، وبضعـة من أسـطر حياتـي التي أعتقـد أنّهـا شـكّلت حضـوري وصورتـي المرسـومة علـى مُحيّـاي، ومسـيرتي التـي تُخبِـر عـن قناعتـي ويقينـي بأنّنـا نسـتطيع مـا دمنـا نريـد ذلـك.

المكان الذي كنتِ تسكنين فيه هل تأثر بالحروب؟

مُـذ عُـدت إلـى لبنـان فـي تسـعينات القـرن الماضـي، سـكنتُ فـي منطقـة حـارة حريـك، فـي شـارع مـوازٍ لطريـق المطـار، وبالقـرب مـن مستشـفى السـاحل. ومنـذ ذلـك الوقـت لـم أغـادره إلاّ رغمًـا عنـي، فـي أوقـات الحـروب التـي فُرضـت علينـا مـن العـدو الإسـرائيلي، وهـي ليسـت بالقليلـة علـى الإطـلاق بـدءًا مـن ١٩٩٦ مـع مـا سُـمي بـ«عناقيـد الغضـب»، وصـولًا إلـى عـدوان تمّـوز ٢٠٠٦، وانتهـاء بالعـدوان الأخيـر علـى لبنـان منـذ «طوَفـان الأقصـى». وبعدهـا فـي هـذا السـياق، تركـتُ منزلـي بشـكل نهائـي، لـم أعُـد أسـكن فيـه، منـذ ٣٠ تمـوز ٢٠٢٤ ولغاية تاريخـه.

أسـكُن اليـوم فـي منطقـة الحمـراء فـي بيـروت، مـع أنّ منزلي لم يتعـرّض للهـدم بسـبب الاعتـداءات الأخيـرة، وإنّمـا أصابتـه بعض الأضـرار. علمًـا أنّ المنطقـة المحيطـة بـه، قـد تعرّضـت لتدميـر

مباشر لأبنية تكاد تكون ملاصقة للمبنى الذي أسكن فيه. لذلك فإنّ محيط المبنى يحتاج إلى وقت لرفع الأنقاض، وهدْم بعض الأبنية من حواليه، أو طوابق من أبنية، أو إلى تدعيم وترميم، وغير ذلك.

ثمّة أمورٌ لا تغادر الذاكرة بسهولة... ماذا عن الحروب وتشكيلها للذاكرة المكانية في سياق الحروب؟

الإجابة على هذا السؤال تُعيدني إلى مرحلة الطفولة التي تسكنُني كما أسكنُها. تعود بي الذاكرة إلى العام ١٩٧٣ عندما اضطُررنا أن نغادر منزل أهلي في منطقة الشياح، مع اندلاع المواجهة بين الجيش اللبناني والفصائل الفلسطينية، وبعدها وخلال الحرب الأهلية منذ ١٩٧٥، ولغاية ١٩٨٣. كان أهلي حينها يقطنون في شارع أسعد الأسعد في منطقة الشياح. كانت هذه المنطقة مسرحًا للحرب الأهلية، وكم من ليلة بِتنا فيها على أدراج المبنى، أو لجأنا إلى بيوت جيراننا، في الطوابق السفلية باحثين عن ملجأ آمن، فقد كان بيت أهلي في الطابق الأخير من المبنى. وكم من يوم اضطررنا إلى الهروب إلى بيت خالة أو عمّة لنتّقي رصاص القنص والقذائف المنهمرة على منازلنا وأحيائنا. ناهيك عن رحلتنا اليومية إلى المدرسة من خلف المتاريس الرملية التي شهِدت سقوط أشخاص مضرّجين بدمائهم على الطرقات أمام أعيننا، وعلى مقربة منّا.

وكم من مرّة خلال هذه الفترة، كنّا في المدرسة، واندلع صوت «زمّور الخطر» ليُخبرنا عن وجود غارة جوّية من العدو الإسرائيلي على المخيّمات الفلسطينية القريبة من منطقتنا، وكنّا حينها نختبئ تحت المقاعد اتّقاء غارة محتملة قريبة من مكان تواجدنا.

هي إذًا، طفولة مليئة بذكريات الحرب والقتل والتدمير وكل ما يُمكن أن يسبّب أذًى معنويًا وخوفًا من موت يتربّص بنا مع كل مفصل من مفاصل حياتنا.

كل ذلك لا يشبه البتّة ما حصل في العام ٢٠٠٦، لقد كان اعتداء من نوع آخر، لم نشهَد له مثيلًا من قبل. فقد أنذر العدو الصهيوني مناطقنا السكنية، وأنا التي أقطن في منطقة حارة حريك، من خلال مناشير ألقاها من الجو يطلب منّا مغادرة المنطقة. كنت حينها مسؤولة عن اثنين من أولادي نظرًا لوجود زوجي وابني البَكر خارج البلاد. لم يكن القرار بمغادرة المنزل سهلًا، وإنّما لجأت إليه تحسّبًا لأي تصعيد محتمَل، آملة في الوقت نفسه أن يتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر خلال يومين أو أكثر بقليل على أبعد تقدير.

بقينا خارج المنطقة طيلة ٣٣ يومًا شهِدنا خلالها اعتداءات ومجازرَ وحشية، وتدمير منازل وبلدات، واعتداءات على سيارات الإسعاف وعلى مناطق مأهولة يُفترض أن تكون آمنة. نزحنا هرَبًا إلى بيروت، وسكنّا في الأيام الأولى في فندق في منطقة الحمراء، لننتقل بعدها إلى منزل قدّمه لنا صاحبه قرب سيّار الدرك في شارع فردان (رشيد كرامي)، طيلة الفترة المتبقية حتى انتهاء الحرب.

أذكر عندما بدأت أختي رحلة البحث عن شقة نسكنها جميعنا، كان جواب إحداهن «نحنا ما بنأجّر مهجّرين». وأذكر كيف كنا نُعامل في بعض مراكز البيع في بيروت عندما كان البعض ينظر إلينا نظرة ازدراء ويُصرّح بالعلن بأنّه غير مرغوب بنا، وغيرها وغيرها من المواقف المؤلمة في هذه الظروف الصعبة والقاسية... ونحن من سكنّا في الفنادق والمنازل ودفعنا الأموال لتأمين حاجياتنا، فكيف بمن أُرغِم لظروف قسرية على البقاء في الأماكن العامّة، أو في المدارس وما شابه.

ومع ذلك، ومع تقطّع الأوصال بين بعض من أفراد عائلتنا الكبيرة وبيننا، ومع تدمير العدو الصهيوني لأربعة منازل من أصل ستة هي مجموع منازل عائلتنا الكبيرة، ومع تهجيرنا القسري من منازلنا بسبب الاعتداءات الوحشية على مناطق سكننا، ومع كل ما صادفنا من تحدّيات، إلاّ أنّ مشاعر العزّة والكرامة والإصرار على الصمود والمواجهة التي طبَعت تلك الفترة كانت هي الطاغية على كل ما عداها.

في العام ٢٠٢٤ تعرّضنا لذات الموقف الذي دعانا لترك منازلنا ومنطقة سكننا قسرًا، فالاعتداءات الجوّية طالت حيًّا قريبًا من مكان سكننا، وهو ما دفع بنا لترك المنطقة، وعدم العودة إليها للسكن حتى تاريخه. وبالتالي ومع كل اعتداء صهيوني على بلدنا تهدّد الضاحية الجنوبية لبيروت، ونعيش الشعور ذاته، وتجربة التهجير القسري تتكرّر.

انطلاقًا من حرب ٢٠٢٤، ما هي خسائر الطائفة الشيعية ومكاسبها؟

في الاعتداءات الإسرائيلية التي طالَت بلدنا خلال العام ٢٠٢٤، والتي بدأت منذ ٨ تشرين الأوّل من العام ٢٠٢٣،

ولا تـزال تداعياتهـا مسـتمرة، لذلـك مـن المُبكـر إعطـاء أرقـام دقيقـة، فقـد حصـدت حتـى تاريـخ ٢٠٢٤/١٢/٥ سـقوط ٤٠٤٧ شـهيدًا بينهـم ٣١٦ طفـلًا و١٦٦٣٨ جريحًـا، واسـتهدف العـدوان ٦٧ مستشـفًى، بحسـب وزارة الصحّـة. كمـا أعلـن وزيـر الاقتصـاد أميـن سـلام أن الخسـائر الاقتصاديـة والعمرانيـة تبلـغ ٢٠ مليـار دولار. بينمـا دمَّـر العـدوان الإسـرائيلي بالكامـل أربعيـن قريـة جنوبيـة لـم تعُـد صالحـة للسـكن وللحيـاة، وتـمّ تهجيـر مليـون ونصـف مليـون مواطـن. وفـي هـذه الحـرب الوحشـية التـي انتهَكـت فيهـا إسـرائيل كل المبـادئ والقوانيـن، فكانـت حـرب قتـل وتدميـر وإبـادة، كان نصيـب الضاحيـة الجنوبيـة منهـا حوالـى ١٢ ألـف غـارة علـى المبانـي السـكنية... وحـدّث ولا حـرج... ناهيـك عـن الاعتـداءات التـي لاحقـت اللبنانييـن فـي كل المناطـق مـن عاصمـة لبنـان بيـروت إلـى شـماله وجبلـه وبقاعه وجـروده ولـم تسـلَم أي منطقـة مـن جرائمـه.

إذًا هـي مقدّمـة للقـول إنّ المسـتهدف الأوّل كان الطائفـة الشـيعية التـي تُعتبـر البيئـة الحاضنـة للمقاومـة، ومـع ذلـك ومـع كل مـا حصـل مـن تدميـر وتهجيـر، واغتيـالات طالـت قائـد محـور المقاومـة، وتصفيـة العديـد مـن القـادة العسـكريين والأمنييـن والسياسـيين وحتـى المسـؤول الإعلامـي للمقاومـة... والمسـتهدَف أيضًـا كان هـو كل مواطـن غيـر شـيعي وغيـر محسـوب علـى بيئـة المقاومـة، ولكـن مـا حصـل بالفعـل هـو العكـس تمامًـا. بالرغـم مـن بعـض الأصـوات التـي نـادت فـي بعـض وسـائل الإعـلام بعـدم اسـتقبال المهجّريـن قسـرًا إلـى مناطقهـم، إلاّ أنّ المشـهد الطاغـي كان الاحتضـان، وبـرزت صـورة لبنـان الصامـد والإنسـاني المتماسِـك وليـس الممسـوك بلُحمـة أبنائـه ومـدّ يـد العـون للجميـع.

وعلـى الرغـم مـن عـدم تهافـت المنظّمـات الدوليـة لمسـاندة المهجّريـن قسـرًا والمسـاندة الإنسـانية المطلوبـة، وبالرغـم مـن هشاشـة أجهـزة الدولـة ومؤسّسـاتها، وشـبه الغيـاب لخطـط الحـرب الاسـتراتيجية، إلاّ أنّ التحـرّك الشـعبي، الفـردي والجماعي لاحتضـان المهجّريـن قسـرًا مـن أماكـن سـكنهم ومناطقهـم وأحيائهـم، كان لافتًـا للانتبـاه.

وبالرغـم ممـا حصـل مـن ألـم وحـزن وقهـر لا يُمكـن وصفـه إثـر الاغتيـالات والجرائـم التـي طالـت أبنـاء المقاومـة، بـدءًا مـن اغتيـال مهندسـي الاتصـالات، مـرورًا باغتيـالات القـادة الميدانييـن، ومـن ثـمّ القائـد العسـكري للمقاومـة، وجريمـة البايجـرز، واغتيـال قـادة الرضـوان... إلـخ، وعلـى رأس كل ذلـك اغتيـال القائـد والمُلهـم والمحـرّك لبيئـة المقاومـة السـيد حسـن



آثار الدمار في حارة حريك، أي ام ليبانون

نصـر اللـه، علـى الرغـم مـن كل هـذا الألـم الـذي رافقـه تدميـر وتهجيـر وتحدّيـات وتبِعـات ليـس أوّلهـا ولا آخرهـا خسـارة أهـل وأبنـاء وأقـارب وأصدقـاء ومعـارِف، إلاّ أنّ النبـض الأسـاس هـو التحمّـل والصبـر وكتْـم الجـراح والآهـات حفظًـا لخـط المقاومـة ووفـاء لقادتهـا وعناصرهـا ومسـيرتها، وهـو أمـر لافـت بـكل مـا للكلمـة مـن معنـى.

هنـا يُمكـن القـول باختصـار، لا يُمكـن مقارنـة حجـم الخسـائر المادّيـة بـكل تفرّعاتهـا، بمقـدار الصبـر والصمـود والثّبـات الـذي أظهرتـه هـذه البيئـة الحاضنـة تجـاه مسـيرتها وأصـل وبُعـد حضورهـا واسـتمرارها.

كيـف سـيرتِّب الشيعة بيتهـم الداخلـي وعلاقتهـم بالطوائـف الأخـرى؟

فـي ظـلّ الانقسـام المسـتمر والواضـح والـذي ارتفـع منسـوب التعبيـر عنـه بيـن القـوى المعارضـة لسياسـة حـزب اللـه فـي لبنـان، وبيـن خط المقاومـة، وفي ظلّ انكفاء وتراجع وانسحاب بعـض الشـخصيات السياسـية علَنًـا من نصرة «محـور المقاومة»، وفـي ظـلّ كل تبِعـات الحرب الأخيـرة بوَيلاتها وخسـائرها المادّية والبشـرية، وفـي ظـلّ إعـادة تشـكيل المنطقـة وِفـق خارطـة جديـدة تُلقـي بظلالهـا بقـوّة علـى وطننـا، لـن تكـون المهمّـة سـهلة، إلاّ أنّهـا ليسـت مسـتعصية أيضًـا، لإعـادة التموضـع الشـيعي المقـاوِم مـع الطوائـف الأخـرى كمـا فـي محيطـه الإقليمـي.

أمـام هـذا الواقـع المفـروض والمسـتجدّ، وأمـام هـذه التحـوّلات، ومـع وجـود حاضنـة سياسـية كبيـرة كهامَـة دولـة الرئيـس بـرّي، بحنكّتـه ومكانتـه وامتلاكـه للمهـارات السياسـية والدبلوماسـية اللازمـة والضروريـة لـكل المراحـل الصعبـة التـي تمـرُّ بهـا

الطائفــة الشــيعية كمــا الوطــن، ومــع وجــود أشــخاص فــي الطائفــة الشـيعية، وضمــن محــور المقاومــة تحديــدًا، سِــمتُهم العقلانيــة والوعــي، ودَيدَنهــم التموضــع فــي مفاصــل أساسـية منطلقيــن مــن قــراءة صحيحــة لواقــع يحفــظ خــط المقاومــة كمـا الوطـن. إذ أثبتـت التجـارب السـابقة قـدرة هؤلاء الأشـخاص علــى مــدِّ قنــوات الحــوار والتواصــل مــع الجهــات السياســية والمذهبيـة والمرجعيـات المتعـدّدة علـى اختلافهـا وتموضعهـا. لـذا وبغـضِّ النظـر عـن الفُقاعـات الإعلاميـة التـي وبـدون أدنـى شـك، سـتتمكّن الطائفـة مـن إعـادة التموضـع ضمن إطـار وطني مُنصهِــر فــي حفــظ الوطــن وأبنائــه ضمــن المســار المتحــوّل الـذي يلـفّ المنطقـة بأسـرها. وأعتقـد أنّ التاريـخ سيشـهد علـى مـا أقـول.

هـل هنـاك حاجـة لإعـادة النظـر بالرؤيـة المسـتقبلية للطائفـة مـن قِبـل أبنائهـا؟

فـي ظـل التطـوّرات والتحـوّلات الحاصلـة علـى صعيـد العالـم أجمـع تجـاه منطقتنـا، أعتقـد أنّ إعـادة القـراءة قـد بـدأت عنـد البعــض، ويُفتــرض أن تطــال الجميــع، لا ســيّما مَــن هــم فــي موقــع اتخــاذ القــرار، والتأثيــر علــى الــرأي العــام، وهــو أمــر لا شـك بحاجـة إلـى جهـد ووقـت وبُعـد نظـر. أمّـا عنـد الأشـخاص المنتميــن إلــى الطائفــة، فــلا زلنــا فــي ذات المســار، البعــض الـذي يرفـض سياسـة جبهـة المقاومـة، والبعـض الـذي سيشـمَت بمـا آل إليـه الوضـع عمومًـا، والبعـض الـذي سـينكفئ عـن هـذا الخـط، والبعـض الـذي سيتمسّـك بـه رغـم كل شـيء. إلاّ أنّ هـذا الأمـر لا يُمكـن التكهُّـن بتبِعاتـه النسـبية والكلّيـة، إلاّ مـع مـرور الوقــت. وســيبقى الثابــت الوحيــد، والمعيــار الأوحــد يتمحــوَر حـول الهـدف الوجـودي الأسـمى، ولـكل منّـا خياراتـه فـي هـذا الاتجـاه.

وباعتقـادي أنّ السـاحة مفتوحـة الآن أكثـر مـن أي وقـت مضـى للمواجهــة، ولشــدِّ الحبــال، ومحــاولات التوهيــن والتأثيــر فــي كل الاتجاهـات، فالحـرب النفسـية مسـتمرة ومسـتعِرة، والعبـرة سـتكون بمَـن يعمـل بعقلانيـة، موجّهًـا البوصلـة نحـو الهـدف الأســمى وهــو حفــظ الوطــن وصــوْن كرامــة أبنائــه، والتمسّــك بمعتقداتــه وقيَمــه وأهدافــه، وإن اختلفــت أدوات المواجهــة الآنيـة والمسـتقبلية.

ختامًــا، أرى أنهــا معركــة مســتمرّة لتقريــر المصيــر، نخوضهــا بجـولات وصَـوْلات لا حـدَّ لتعدادهـا، ومَـن يقـرأ ويفهـم جيّـدًا التاريــخ الشــيعي وتأثيراتــه علــى مــرِّ العصــور والدهــور، مــن رسـالة نبـي الإسـلام، مـرورًا بحكمـة أئمّتـه، ومسـيرتهم المتعدّدة والمتشـعّبة علـى اختـلاف العصـور والمراحـل السياسـية، المبنيّة علـى حفـظ هـذا الخـط الـذي يُمكـن أن نختصـره بالاسـتفادة مـن كل حالـة للوصـول إلـى الانتصـار مهمـا بلغـت التضحيـات. عندهــا يُــدرك هــذا الســرّ المكْنــون فــي هــذا الشــعب الــذي يتمكّـن مـن القفـز فـوق الجـراح، وينتفـض برغـم كل التضحيات والتحدّيـات والمآسـي لينتصـر.

لينا حمدان

لا يمكن تحميل الطائفة ككل خطايا البعض، ومن هنا تأتي الحاجة إلى العودة إلى أفضل العلاقات بين اللبنانيين، ضمن إطار الدستور. ويجب التعاون في مختلف المجالات بهدف تثبيت السلم الأهلي، تحت سقف القانون.

مَن هي لينا حمدان بينَ الولادة والطُّفولة والدِّراسة وأماكن النَّشأة؛ ماذا في الذَّاكرة من تلكَ الأيَّام؟



ولدت في بيروت ونشأت في عائلة مثقفة وفاعلة في المجتمع؛ والدي محمد علي حمدان (أبو فيصل) كان من مؤسسي الجمعية العاملية ورفيق درب المرحوم رشيد بيضون، وقد درس الحقوق وكان من أوائل المنادين بالزواج المدني وبقانون مدني للأحوال الشخصية. والدتي هي ابنة أحمد اليوسف، أحد تجار سوق المعرض وصاحب مكتبة الاتحاد. لي ثلاثة إخوة: فيصل (مهندس)، فادي (طبيب مقيم في اليونان)، وفراس (طبيب قلب في الولايات المتحدة).

تلقيت تعليمي في البعثة العلمانية الفرنسية (الليسيه)، وحصلت على إجازة في الأدب الفرنسي، وماجستير في اللغات الحية والترجمة، وماجستير في إدارة الأعمال من جامعة ESCP في باريس، إلى جانب دبلوم في الترجمة من جامعة السوربون، وأنا مترجمة محلفة لدى محكمة الاستئناف في باريس.

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حروب١٩٩٣ ، ١٩٩٦ والـ ٢٠٠٦ واليوم في ٢٠٢٤ ؟

لا شك أن الحرب الأهلية اللبنانية التي عايشناها بكل مآسيها وأيامها، والحروب التي مر بها لبنان بعد اتفاق الطائف، كانت مراحل سوداء ونماذج لحروب عبثية.

كأننا دمى في ملعب تحركها أيادٍ خفية، وكان المواطن هو الضحية الحقيقية لهذه الحروب والألعاب، مسلوب الإرادة، تُفرض عليه التسويات، وهو كبش محرقة يعاني من الأزمات، يتحول في أفضل الأحوال إلى مهاجر يتغرب عن وطنه، ويحيا على أمل دائم بالعودة من بلاد الاغتراب.

لقد هجرت الحروب التي مرت على لبنان الطاقات الشبابية، وأضحينا دولة بلا موارد بشرية فاعلة، وطاقات شبابية طموحة، تسودها الفساد والاستنسابية في كل قطاعاتها، وتسيطر عليها هيمنة حزب الله وسلاحه.

أضحينا دولة فاشلة بكل المعايير.

من وجهة نظرك؛ ماذا خسرت الطائفة الشيعية في حرب العام ٢٠٢٤؟

خسرت الطائفة الشيعية هويتها اللبنانية وقدراتها الاقتصادية بفعل الدمار والتهجير، وضعفت إمكانياتها في التحصيل العلمي بالمستوى المطلوب لمواجهة تحديات السنوات المقبلة.

كما فقدت مكانتها الحضارية في عالم يتحدث بلغة التكنولوجيا، في حين لا يزال بعض أفرادها متعلقين بالأوهام والشعارات.

وإذا كان ثمّة أسباب، فما هي؟

دخلت ثقافة غريبة على النسيج الاجتماعي والوطني للطائفة الشيعية، ترافق ذلك مع عملية تسلّط على قرارها الحر، وهيمنة على نمط عيشها الذي كان مماثلًا لبقية مكونات الوطن، وارتبط لاحقًا بثقافة فارسية هجينة.

أدى هذا الأمر إلى جرّ الطائفة الشيعية بدايةً، ثم الدولة اللبنانية، إلى سياسة ولاية الفقيه والمرشد الأعلى، وأضحى لبنان كله رهينة سياسة نظام الملالي في إيران.

استغل حزب الله تشتت لبنان إلى مجموعات طائفية، فلعب على التوازنات وناصر فئة على أخرى، ما أكسبه القدرة على الهيمنة والسيطرة.

كيف ترين مستقبل الطائفة الشيعية وكيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

المستقبل الوحيد يكمن في العودة إلى حضن الدولة، وتغيير الخطاب المرتهن للخارج، والتخلّي عن وعود «تحرير القدس» في وقت لا نستطيع فيه تحرير كفركلا والعديسة وسواهما.

ولا بد أن يبدأ الحل من داخل الطائفة الشيعية، وأن يتم تظهير الخيار الوطني الذي يناقض مفهوم الاستئثار والهيمنة المتبع من قبل الثنائي.

هذا الخيار يتجسد في المساواة بين اللبنانيين، وتغليب خيار الدولة القوية والسيدة ذات الهيبة، القادرة على بسط سلطاتها على كامل الأراضي اللبنانية، وسحب سلاح الميليشيات اللبنانية، بما فيها سلاح حزب الله والسلاح الفلسطيني، والتأكيد على احترام الدستور اللبناني واتفاق الطائف، وتحقيق العدالة لجميع اللبنانيين دون استثناء.

ماذا عن علاقة الطائفة الشيعية بغيرها من الطوائف اللبنانية؟

لا شك أن ممارسات الهيمنة والفرض التي اتبعها الثنائي، وممارسات حزب الله، ساهمت في تحميل الطائفة الشيعية تبعات هذه الأعمال، وأدت إلى نفور من قبل المجموعات اللبنانية الأخرى.

ولكن، من حيث المبدأ، لا يمكن تحميل الطائفة ككل خطايا البعض، ومن هنا تأتي الحاجة إلى العودة إلى أفضل العلاقات بين اللبنانيين، ضمن إطار الدستور. ويجب التعاون في مختلف المجالات بهدف تثبيت السلم الأهلي، تحت سقف القانون.



الدمار في ضاحية بيروت الجنوبية

هل هناك حاجة لإعادة النظر، من قِبل الطائفة وأبنائها، في رؤيتها المستقبلية، لها وللآخر؟

لا شك أن على أبناء الطائفة الشيعية في لبنان أن يقوموا بمراجعة شاملة لما جرى خلال السنوات الماضية، والتوجّه نحو إطار ورؤية مستقبلية تقوم على خطة وطنية شاملة، تهدف إلى النهوض بالمجتمع اللبناني ككل، وتنمية المناطق، سواء البعيدة أو القريبة، ونشر شبكة أمان اجتماعي تضمن كرامة كل مواطن لبناني، وفقًا للدستور الذي لا يميّز بين طائفة وأخرى.

ولا ينبغي أن ننسى أننا، كلبنانيين شيعة، حصلنا على حقوقنا مع إعلان دولة لبنان الكبير، حيث تم الاعتراف بنا كمجموعة لبنانية مؤسسة لهذا الوطن، بعد قرون من الاضطهاد والتهميش والإنكار.

فنهضنا بلبنان، ولبنان نهض بنا.

ويجب اليوم أن نتمسك بهذا الوطن كوطن نهائي لنا، وأن نقدّم كل ما يلزم للحفاظ عليه، وعلى التعايش اللبناني، في ظل دستور مدني ودولة سيدة عادلة.

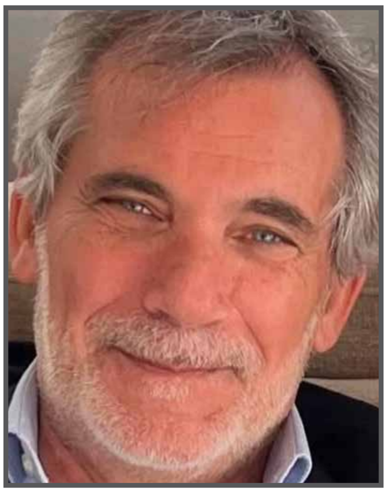
مالك مروة

لا خَيار أمام الشيعة سوى العودة إلى الدولة

«حزب الله فرَض ولاية الفقيه وجعلها مذهبًا جديدًا لم تعرفه الطائفة من قبل»

مالك مروة الناشر والصحافي والناشط السياسي، رئيس مجلس إدارة صحيفة «الدايلي ستار» التي تصدُر باللغة الإنكليزية، الرئيس الحالي لحركة التجدُّد الديموقراطي، ورئيس مؤسسة سمير قصير، من مؤسِّسي جماعة الديموقراطيين اللبنانيين وتجمُّع لبنان المدني.

بداية، مَن هو مالك مروة؟



أنا ابن كامل مروة، الصحافي وصاحب جريدة «الحياة»، والدي سكن في بيت مري، بعد أن قام بتشييد منزل هناك حيث وُلدت. درستُ في مدرسة إنجليزية، تابعة لمَن يسمُّونهم «الأصدقاء»، وهم من الإرساليات، التي تؤمِن بالسلام والانفتاح والمساعدة. هذه المدرسة كانت تضمّ تقريبًا ٨٠٠ شخص، منهم ٤٠٠ إلى ٥٠٠ في القسم الداخلي، وكانوا من كل أصقاع العالم، تقريبًا من ٥٠ إلى ٦٠ بلدًا، وتحديدًا إنكليز وإيرانيين وسويديين، وكان بينهم الكثير من العرب، من المملكة العربية السعودية، والخليج عمومًا. تلك المدرسة تُشبه مدارس الشويفات والـ«آي. سي.» (الإنترناشونال كولدج)، وبعد أن أنهيت دراستي الثانوية، التحقت بالجامعة الأميركية في بيروت وتخرّجت منها.

ماذا عن تأثيرات الحروب التي شهِدها لبنان، عليك وعلى مكان سكنك؟

أنا عشت طوال حياتي في بيت مري، تحدّرت من بلدة الزرارية في جنوب لبنان، لكن جدي كان من أوائل الذين غادروا إلى صيدا، وبالتالي فإن نفوسنا في صيدا. خلال الحرب الأهلية اللبنانية كنت في بيت مري، وعشت ظروف الحرب كما كل اللبنانيين، لكن المنطقة التي كان فيها بيتنا وتُدعى دير القلعة، كانت بعيدة إلى حدٍّ ما عن البلدة، وكان والدي معروفًا من الجميع من خلال عمله في الجريدة (الحياة)، حيث كان يقضي معظم أوقاته. لكن بيتنا كان بأهمية الجريدة، إذ كان يمضي مُعظم أوقاته في حديقة المنزل ويقوم بترتيبها؛ وعليه أنا عشت في تلك المنطقة، وفي بعض الأحيان لم تكن الأمور مريحة، باعتبار أننا مسلمين، أحيانًا تشعر بالغُربة في مكان إقامتك، لكنك تتأقلم في النهاية. لكن أن تسكن في منطقة غير منطقتك، فهذا يعني الانفتاح على الجميع، لكنني تعرّفت على عاداتنا وتقاليدنا ببُعدها الشيعي من جدتي الحجة أُم كامل تحديدًا، إذ كانت امرأة كلاسيكية ترتدي الحجاب، جنوبية بكل ما للكلمة من معنى، فكانت تمارس العادات الجنوبية بتفاصيلها، ولكَون والدي قد رحَل بعد مقتله، كنت قريبًا من جدتي. وإلى جانب ذلك، يأتي الشقّ المتعلق بالتاريخ الشيعي، وبالشيعة، والذي عرفته من المحيط، فقد كان يعمل في حديقة منزلنا عمّال «جنيناتية» من الزرارية، وكُنت حين أعود من المدرسة أجالسهم في الحديقة، كانوا أقرباء جدتي، وبالتالي تشرّبت الجو الشيعي منهم خصوصًا كوني آخر أبناء العائلة. كان يحدث ذلك بسبب انشغال والدتي بالجريدة بعد رحيل والدي. ثم كنت أمضي بعض العطل المتعلّقة بالأعياد في بلدتنا، حيث كنت أختلط بالبيئة الشيعية، وبالعادات والمشكِلات أيضًا، وأذكر أن الزرارية كانت في ذلك الوقت بلا كهرباء ولا ماء على الرغم من قُربها من نهر الليطاني، ذاكرتي في تلك الفترة أقرب للقرن الـ١٨، قبل تطوُّر البلدة أعني.

في الـ ٢٠٠٦ و٢٠٢٤، كنت لا أزال مستقرًّا في بيت مري، وأذكر أنه سنة ٢٠٠٦ استقبلت الكثير من النازحين بحدود ٣٠٠ شخص، وساهمتُ في إيوائهم، انطلاقًا من الوجع الداخلي تجاه ما يحدث. وفي الحرب الأخيرة ٢٠٢٤، كان عدد من آويناهم أقلّ. وهنا أقول إن عدم الاستقرار والنزوح الدائم يؤثّر على الجنوب والشيعة بطريقة مباشرة وكبيرة، والتأثير لا يتعلّق بالحرب فقط، بل بصعود حزب الله، منذ قرّر اتخاذ خَيار المقاومة وحوّلها إلى «مونوبولي»،

احتكرهـا، وأغلـق الحيّـز العـام وأوقـف تاريـخ جبـل عامـل، كنـا نـرى أن ولايـة الفقيـه إحـدى الاجتهـادات فـي المذهـب الشـيعي، لكنـه حوّلهـا إلـى مذهـب جديـد. فاليـوم عندمـا تـرى إحيـاء أحـد مجالـس العـزاء، قـد تسـأل أيـن الشـيعة، وهـذا لـم يكـن موجـودًا مـن قبـل، وشـخصيًّا كان لـديّ وعـي بهـذه الأمـور فـي مرحلـة مُبكـرة.

انطلاقًـا مـن حـرب الــ ٢٠٢٤، مـا هـي الخسـائر التـي مُنيـت بهـا الطائفـة الشـيعية، وهـل كان هنـاك مـن مكاسـب؟

ربمـا يكـون المكسـب الوحيـد، هـو أن تعـود الطائفـة إلـى عقلهـا وأصلهـا الحقيقـي، فالطائفـة مـع الثنائـي حركـة أمـل وحـزب اللـه، والأخيـر أكثـر، تحوّلـت إلـى طائفـة لا تفكّـر وبـات يوجـد مـن يفكّـر عنهـا، اليـوم أعتقـد أن هـذا الأمـر تراجَـع إلـى حـد مـا. لكـن لـو عدنـا إلـى السـنوات بيـن ١٩٦٠ و١٩٧٠، لرأينـا أن الطائفـة الشـيعية فـي ذلـك الوقـت، اسـتفادت بشـكل كبيـر مـن الدولـة، ونسـتدلّ علـى ذلـك مـن خـلال تبـدّل أحوالهـا بيـن فتـرات الأربعينـات والسـبعينات. فـي الفتـرات السـابقة، كان المسـيحيون علـى رأس القائمـة لكنهـم اسـتفادوا أقـلّ وفائدتهـم كانـت نابعـة مـن كونهـم تبـوؤوا المراكـز العليـا فـي الدولـة، والسـنّة كانـوا مسـتفيدين أيضًـا، لكـن الشـيعة حقّقـوا قفـزة كبيـرة جـدًّا، ورأينـا الازدهـار الثقافـي علـى مسـتويات الشـعر والمسـرح والأبحـاث والكتّـاب والصحافييـن. لكـن بعودتنـا إلـى آخـر ثلاثيـن سـنة مـن حيـاة هـذه الطائفـة، لرأينـا أن كل مـا تـمّ تحقيقـه تبخّـر ولـم يبـقَ منـه شـيئًا، وأكثـر مـن ذلـك صُـودر العقـل داخـل الطائفـة. لذلـك فـإن أكبـر مكسـب اليـوم يكـون فـي عـودة العقـل إلـى الطائفـة الشـيعية، وتعـود للانفتـاح علـى الآخـر، وتخـرج مـن عقليـة شـيطنة الآخـر وتدنيسـه، وعـدم التعامـل معـه بفوقيـة، بمعنـى تعـود الطائفـة إلـى لبنانيتهـا. ولـو حـدث ذلـك يعـدُ مكسـبًا فـي حـدّ ذاتـه. أمـا علـى صعيـد الخسـائر التـي حلّـت بالطائفـة فهـي كبيـرة جـدًّا، كونهـا لـم تخسـر الحـرب فقـط، بـل خسـرت قبـل ذلـك عندمـا تدنّـت ثقافتهـا وتراجعـت، فبعد أن كانـت خزّانًـا ثقافيًّـا، وأنتجـت مفكريـن وكتّابًـا وممثّليـن ورسّـامين، لقـد غُيِّـب هـؤلاء، ولا بـدَّ مـن عودتهـم. أمـا ماديًّـا فالخسـائر حـدّث ولا حـرج، وأقـول هنـا إن الطائفـة خسـرت إنسـانيتها والكثيـر مـن شـبابها، وقـد اكتشـفنا أن حـزب اللـه سـاقَ خيـرة شـبابها، والذيـن تبيّـن أن لديهـم قُـدرات هائلـة، إلـى المـوت، أولئـك الشـباب كانـوا خبـراء فـي التكنولوجيـا وبعضهـم يملـك فكـرًا وآخريـن محاربيـن متخصّصيـن فـي إطـلاق الصواريـخ. وهنـا الحـزن لأن كل هـذه القُـدرات لـم تسـخّر لأمـر يُفيـد الطائفـة أولًا ويُفيـد لبنـان. ألـم يكـن مـن الأفضـل لهـم ذلـك حتـى لا يموتـوا بالطريقـة التـي ماتـوا فيهـا؟

وبالإضافـة إلـى مـا سـبَق خسـرت الطائفـة علاقتهـا بمحيطهـا العربـي، وخسّـرت لبنـان معهـا علاقاتـه بمحيطـه، وأقصـد علـى سـبيل المثـال السـوريين الذيـن لـن ينسـوا مطلقًـا مـا فعلـه حـزب اللـه بهـم، هنـاك ثمـن سـيدفعه الحـزب وبدأنـا رؤيـة طلائـع ذلـك مـع سـقوط نظـام بشـار الأسـد فـي سـوريا. تخيَّـل أن إشـكالًا صغيـرًا بيـن عائلتيـن، علـى قضيـة تافهـة، قـد يسـتمر لسـنوات إلـى درجـة أن النـاس تنسـى أصـل المشـكل، فمـا بالـك بمـا جـرى فـي سـوريا؟ وأكـرِّر أن هنـاك ثمنًـا سـندفعه جميعنـا، علـى خلفيـة المواقـف التـي اتخذهـا حـزب اللـه وتبَعيتـه لإيـران وخروجـه عـن الوضـع الطبيعـي الـذي يجـب أن يكـون عليـه، فهـو فـي حربَـي ٢٠٠٦ و٢٠٢٤، أعـاد لبنـان ٣٠ سـنة إلـى الـوراء. كذلـك نحـن خسـرنا مـاذا تعنـي الكرامـة، والغريـب أن حـزب اللـه فـي خطابـه يتحـدّث دائمًـا عـن الكرامـة، لكـن أيـن هـي؟ هـل الكرامـة أن لا يبقـى شـيعي فـي قريتـه؟ هـل هـي فـي النـوم علـى الطرقـات واسـتجداء لقمـة العيـش لأولاده؟ إذا كانـت هـذه الكرامـة فهنـاك مشـكلة كبيـرة ولا بـد مـن شـرحها.

بنـاء علـى مـا قلتـه، كيـف يمكـن للطائفـة الشـيعية أن تُعيـد ترتيـب بيتهـا الداخلـي وترميـم علاقاتهـا بالآخريـن؟

بدايـةً لا بـدّ مـن الإشـارة إلـى أن الطائفـة الشـيعية اختُزلـت بحـزب اللـه وحركـة أمـل، طبعًـا نبيـه بـري «جيّـد بالسياسـة» وفعَـل الكثيـر للجنـوب، لكـن موقفـه السياسـي منـذ العـام ٢٠٠٠ وحتـى ٢٠٢٣ تماهـى مـع حـزب اللـه كليًّـا وبالتالـي مـع المشـروع الإمبراطـوري الإيرانـي؛ كان يخـرج منـه فـي بعـض المـرات لكـن فـي أخـرى لا، وعليـه فرَضـوا سـيطرتهم علـى الطائفـة والبلـد كلـه وحاولـوا أن يلغـوا كل حِـراك داخـل الطائفـة الشـيعية، لكـن بقيـت مجموعـات ونحـن منهـم، وليسـت قليلـة فـي قُدراتهـا الثقافيـة، أبقـت علـى العلاقـات مـع الآخـر مفتوحـة، ونسـجَت معـه علاقـات جيـدة وبينهـم

السنّة والمسيحيين والدروز، والعلاقات كان طابعها لبناني، فهذه المجموعات ترى نفسها لبنانية أولًا، وشيعية ثانيًا، وهذا الأمر يجب أن يكون عند كل الطوائف في لبنان. وهذه المجموعات موجودة، وإذا أحبّ حزب الله التواضع، والحديث معها لا بأس، لكنه يرفض الحديث مع أحد. ولطالما تعامَل مع تلك المجموعات بمنطق التخوين والعمالة، علمًا أننا نبّهنا كثيرًا من أن هذه المجموعات تظلّ صمّام أمان إذا ما حدَث أمر جلل، لكن الحزب كان يرفض دائمًا التقرُّب منها. اليوم نحن نتمنّى أن يعود الحزب إلى رُشده بعد الخسارة التي مُني بها، والتي لا يمكن تعويضها.

فإذا كان حزب الله صادقًا مع نفسه ومع غيره، ومُدركًا لما حلّ به، عليه أولًا أن ينفتح على الشيعة الآخرين داخل الطائفة، ليشرح لهم ماذا حدث، ويعترف بخطئه، ويُجري مراجعة أين أخطأ وأين أصاب. نحن لا نقول إنه مخطئ في كل شيء، لكن أخطأ في غالبية القضايا، وبالتالي المطلوب منه اليوم أن يُفسح المجال للتنوُّع داخل الطائفة الشيعية، ويتوقّف عن قمع المعارضين، وهذا أفضل له في المراحل المقبلة، فإذا أراد أخذ كل الطائفة معه، وهناك قرار دولي بتدميرها، فإنه سيقضي عليها كلها معه، لكن بانفتاحه على معارضيه فإنه قد يمنع ذلك. ومن جانب آخر، افتعل حزب الله عداءً مع السنّة في سوريا، ومن خلالهم امتدّ العداء إلى العالم العربي ودول الخليج، وهذا أمر ليس صائبًا، فكل الشيعة في لبنان مليون ونصف وقد يزيدون عن ذلك، لكنهم في محيط كله سنّي، وعليه إن الحزب بسياساته يحشُر الشيعة في الزاوية. وفي المقابل، عليه أن يُدرك السياسة الإيرانية بشكلها البراغماتي، لن تدافع عن الشيعة، لأنه من وجهة نظرها هي شكلت وكوّنت وسلّحت الحزب ثم تركته ليدافع عن نفسه. اليوم هناك ضغينة كبيرة على الحزب، لن تنتهي بيوم وليلة، ويمكن أن تتأزّم أكثر. لذلك على الحزب أن ينفتح على الآخرين، وأن ينخرط في مشروع لبناني، ولديه الفرصة، لأن الشيعة لا يمتلكون غير ذلك حاليًّا. فلا يجوز كره لبنان إلى هذه الدرجة من قِبل حزب يقول إنه يعمل وفق أجندة لبنانية. وإذا عُدنا إلى التاريخ، فإن الطائفة الشيعية هي من المؤسّسين للبنان، صحيح كانت ملحقة كالسُنّة، لأن الفكرة أساسًا كانت



بالونات حرارية فوق الزرارية

مسيحية درزية، لكنها مؤسِّسة ووضعَت مداميك كبيرة على صعيد وجود لبنان، وقادت غيرها، ولا أحد يحقّ له «تربيحها الجميل». فلو لم تدخل في لبنان، لكانت جزءًا من سوريا أو حتى إسرائيل، لكن الغلطة التاريخية وضعَتنا في مكان منفتح أكثر على محيطنا، أقصد لبنان، لكن لا بدّ من أن تتواضع الطائفة الشيعية وتراجِع نفسها، وتشكر ربّها على نعمة الحرية في هذا البلد. وهنا أسأل: لو لم يكن هناك حرية في لبنان، هل كان هناك مقاومة؟ هل كان ليجرؤ أحد على حمل السلاح أو رفعه؟ علينا كشيعة أن نقدّر كل ذلك، لا أن نأخذ الحرية ونقوم بكسرها!

هل هناك حاجة لإعادة النظر بالرؤية المستقبلية للطائفة الشيعية؟

لا خيار أمام الطائفة الشيعية سوى الانضمام بكل إمكانياتها الفكرية والثقافية والاقتصادية والعسكرية إلى الدولة. وهنا أقول إنه يجب أن يشرّف حزب الله ويُسلم سلاحه إلى الجيش اللبناني، بدلًا من أن تُصادره إسرائيل، التي كما رأينا حصلت على الكثير من السلاح في الحرب الأخيرة. على الشيعة أن ينزلوا عند طلب اللبنانيين الآخرين والعودة كمواطنين عاديين، وليس «مواطنين +»، والغريب أننا كنّا نتّهم الكتائب والمسيحيين بالتقسيم، لكن مَن الذي قسّم البلد فعليًّا؟ ومَن الذي أنشأ فيديرالية خاصة به؟ أليس حزب الله هو مَن فعل ذلك؟ ألا يملك جيشًا خاصًّا به وقوانينَ خاصة لا تطبَّق إلّا في مناطقه؟ على الحزب أن يراجع كل أفعاله، لأن الحوار مع الآخر مهمٌّ ويجب أن يشمل كل ما كان يقوم به. لذلك أرى أن الواجب

هو الانخراط بالدولة، خصوصًا من قِبل اللبنانيين الشيعة المستقلّين عن حزب الله، فهؤلاء لبنانيون أكثر من الجميع. وهنا نشير إلى الآلية التي اعتقد بعض حلفاء حزب الله من الطوائف الأخرى أن تحالفهم معه قد يلبننه، لكنهم كانوا مخطئين، فكيف يمكن لبننة حزب في عقيدته يقول إنه يريد بناء دولة إسلامية؟ وفيما الآخر يحاول إسعافه ويمدّه بالكهرباء والماء، يكافئه بتكسير الصرح على رأسه!

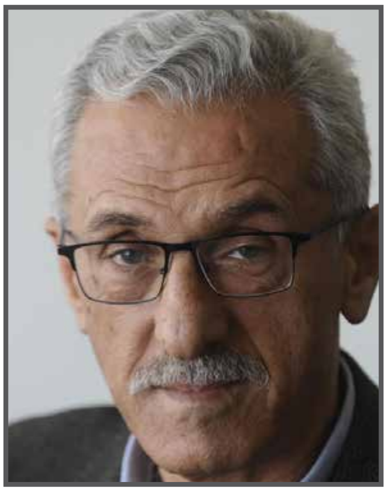
لذلك، بعد كل ما جرى، أن مستقبل الطائفة الشيعية هو في العودة إلى الدولة والمساهمة في تطوير مفهومها، لأن نظام ولاية الفقيه قد يكون مذهبًا آخر، وليس اجتهادًا، كما كنا نعتقد. فهذا المذهب لا يتقبّل الأوطان التي يتواجد فيها، فحزب الله في لبنان اشتغل على هذه الفكرة واستغلّها لمصالحه الخاصة ومصالح إيران، فمارس التهريب والتهرُّب من الضرائب طوال ٤٠ سنة تقريبًا، وتلقّى وهو يمارس أفعاله دعم النظام السوري الساقط، ودعم الإيرانيين. وبالتالي أنا أستصعب بعد كل هذا المسار، أن يتحوّل حزب الله من ولاية الفقيه ليكون حزبًا سياسيًّا. وأقول، إذا أراد حزب الله أن يتبع ولاية الفقيه بشقِّها الدِّيني فهو حرّ، لكن أن يفرضها على المجتمع الشيعي خصوصًا، واللبنانيين عمومًا، فهذا أمر ليس مقبولًا على الإطلاق.

وبما أن تجربة حزب الله فشلت أخيرًا، وتعرّض للهزيمة، سواء كان يعلم ذلك أم لا، فالعنجهية سقطَت ورفْع الإصبع في وجوهنا ووجوه السوريين، أعتقد ان زمنه انتهى، لذلك بعد كل المسخرة التي حدَثت، فإن الأفضل للشيعة أن يبنوا رؤيتهم المستقبلية على أساس العودة إلى الدولة بمفهومها الحقيقي.

محمد أبي سمرا

ولادة ثانية من كلماتٍ وملاك

فـي طفولتـي القصيّـة، الخرسـاء المنقطعـة، هنالـك فـي قريـة جرديّـة حدوديـة نائيـة فـي أقصـى جنـوب لبنـان الشـرقي، كنـتُ ابنًـا للقسـوة والنقمـة والرعـب، بعـد ولادتـي البيولوجيـة مـن عدمَيـن فـي مطالـع خمسـينات القـرن العشـرين.



ولـم يمنحْنـي القـدَر - قـدَري - سـوى كلمـاتٍ تشـبه التمائـم والتعاويـذ والرُّقـى، كوعـدٍ لخروجـي مـن العـدم والعمـاء. كلمـاتٌ رحـتُ أُسـقِط غموضهـا السـديمي علـى طفولتـي ومراهقتـي المديـدة فـي عقديـن قِيل إنهمـا عَقْـدا الوفـرة والسـعادة، وتفتّـح رغبـات الشـباب وأحلامهم فـي السـتينات والسـبعينات.

ففـي طفولتـي بتلـك القريـة الجرديـة النائيـة التـي لم تكـن تُدرك فـي أي بلـد تكـون - أفـي لبنان أم سـوريا أم فلسـطين؟ - لا شـيءَ ومـا مـن أحـدٍ إلّا كانـت تَبتُرنـي قسـوتُه وتتركنـي غريبًـا أبكـمَ. كأن لـم يكـن طفـلٌ غريـب سـواي هنـاك. حتـى أمّـي التاعسـة كانـت قسـوتُها ونقمتُهـا تشـلّانني، وتتركانني غريبًـا عنهـا وعنّـي.

وتشـبّثَ بـي رعـبٌ بدائـي قديـم وغامـض مـن البشـر الكبـار: من أشـيائهم. مـن أجسـامهم الكبيـرة. مـن فـؤوس نبَـرات أصواتهـم الصخريـة مثـل أعالـي الجُـرد. مـن قوّتهـم البدنيـة وقسـوتهم البدائيـة علـى أنفسـهم، فيمـا هـم يكِـدّون فـي حقولهـم وبسـاتينهم، فيتشـاتمون ويتشـاجرون، كأنمـا ضغينـة ونقمة على الحيـاة - حياتهـم - تلازمـان غريزتهـم البدائيـة. أخرَسـني رُعبـي الغامـض منهـم، سـحقَني تحـت أبصارهـم وأصواتهـم، فرحـتُ أُشـيحُ بصـري عنهـم وعـن الأشـياء مـن حولـي، وأجمِّـده طـوال النهـارات علـى عُشـبةٍ برّيـة مثلـي، نحيلـة بكْمـاء، فـي رجمـة حجـارة قُبالـة بيـت أهلـي.

وكان لـي جـدٌّ بـرِّيٌّ، وحيـدٌ وشـريد فـي شـبابه، تفـرّد فـي تفتيـت الصخـر لإنشـاء البسـاتين. وبعدمـا تـزوّج وأنجَـب، ظلَّ اليُتـمُ قرينـه فـي حياتـه كلهـا. علـى الـدروب مـن البيـت إلـى البسـاتين، كان يصطحبُنـي مـع حمـاره، فلا يكـفُّ عـن الصراخ عليـه. كانـت صرخاتـه وأصداؤهـا تمـلأ الـوادي الموحِـش. أحيانًـا كانـت تُكلّـم الحمـار. وغالبًـا يضربـه ويشـتمه كأنـه آدمـيٌّ مثلنـا، فأُشـفق علـى ذاك الحيـوان الأبكـم مثلـي. وفـي بعـض الأوقـات كان جـدي يغنّـي راكبًـا حمـاره، فتتسـاقط مـن عينيـه بعـض الدمـوع.

لـم يكـن جـدي يصلّـي. ولا يعلـم مـن الدِّيـن سـوى مـا يقذفـه علـى اللـه ودينـه وعرشـه ولحيتـه مـن شـتائم، كلمـا أدخَـل حمـاره إلـى باحـة المسـجد الخارجيـة ليشـرب مـن بركـة فـي وسـطها. وكان فـي كل فجـر يقـذف الشـتائم إياهـا علـى جدتي وبـدَن والدهـا، وبـدَن مـن باعَـهُ الحمـار.

أمـا ديـن أمّـي فـكان حكايـات ليليـة عـن المـوت والموتـى. عـن الصـراط المسـتقيم الممـدود كخـطٍّ الأفـق فـي السـماء، فينقطـع فيمـا يمشـي النـاس عليـه، ليسـقطوا فـي جنـة اللـه أو جهنّمِـه. عـن مَنكـر ونَكيـر ورُمـح أحدهمـا الطويـل المسـنّن مـن طرفـه الـذي يغرسـه فـي جثـة الميّـت المسـجّى فـي قبـره، كـي يوقظـه مـن موتـه ويحاسـبه حسـاب القبـر. وفـي النهـار كان يرعبُنـي قـذفُ أمّـي اللـهَ ولحيتـه وعرشـه بشـتائمها. فأُبصـر فـي مناماتـي أحذيـةً ضائعـة وجَمـلًا يجعـرُ أمـام بيت مَـن سـيموت فـي النهـار التالـي.

أخيـرًا عـن صـراط أمّـي المسـتقيم سـقطتُ أو ارتفعـتُ إلـى ضحكـة سـعاد المسـيحية التـي كشـفتْ لـي ضحكتُهـا النهاريـة عـن جمـال سـنّها الأماميـة الكبيـرة المكسـورة. سـقطتُ أو ارتفعـتُ إلـى تلـك الضحكـة الوضّـاءة مثـل رعفـة خجـل الثلج فـي النـور الصباحـي، حتـى صـرت طيفًـا. لكننـي استرسـلت في بُكمـي، بـلا ذلـك الرعـب المظلـم، رعـب الأم واللـه والدِّيـن وحسـاب القبـر الليلـي.

- ٢ -

تلبيـةً لنـداء المدينـة العاصـف فـي سـائر قـرى جنـوب لبنـان بيـن خمسـينات القـرن العشـرين وسـبعيناته، انتقلـتُ مـع والـديَّ وإخوتـي مطالـع السـتينات مـن القريـة الجرديـة

الحدودية النائية، إلى محلة الطيونة في شمال شرق ما صار يُسمى لاحقًا ضاحية بيروت الجنوبية. موجات مَن حملهم نداء المدينة (بيروت) إلى ضواحيها، ملأتْ تلك القرى الساحلية التي كانت تُسمى قرى ساحل المتن الجنوبي.

أخذَ عُمرانُ المهاجرين الفوضوي واجتماعُهم الكثيف، يمحوان عُمران الريف الساحلي واجتماع أهله. لكن ذاك المحو عفَّ عن أسماء تلك القرى التي ظلّت متداوَلة، وتختلط بأسماء أحياء المهاجرين الكثيرة، حتى بدأتْ تغيب تلك الأسماء كلها في الشطر الثاني من حروب لبنان (١٩٨٢ - ١٩٩٠) وتتوحّدُ في اسم واحد بلا صفة ولا إضافة، كأنه اسمٌ علم: الضاحية.

في سنوات طفولتي القاسية، الشقيّة التاعسة، في الطيونة، انهمر عليّ العنف والمهانة ممّن ولدتُ منهما ولادتي البيولوجية. وإلى رفقةِ صغارٍ أشرارٍ، قُساةٍ وتائهين مثلي في مدرسة ابتدائية، أهلية وشبه مجانية بائسة في الشياح، اندفعتُ هاربًا من قسوة والديّ الغريزية، البدنية والتعبيرية. من قسوةِ دينهما البدائي في الجرد. ومن مهانتهما ومهانتي، بُكمي وبُكمهما، في ضاحية بيروت.

في بدايات مراهقتي بمدرسة متوسطة في عين الرمانة، غير بعيد من الطيونة - وكان مدرّسوها ومعظم تلامذتها من المسيحيّين - لم أجد سوى الكلمات ملجأً لي في محاولتي إخفاء مهانتي ويُتمي المعنوي والعاطفي اللذين كانا يتشبّثان بي منذ ولادتي من عدَمَي ولادتي البيولوجية. ومن تلك الكلمات التي من العماء رفعتُ حواسي ومخيّلتي إلى سديمها، ولِدتُ ولادة أخرى، تُسمى ثقافية أو معنوية. وكانت في معظمها كلمات أغانٍ إذاعية ومجلات فنية شعبية عن نجوم الغناء والسينما وصوَرهم.

صوت فيروز، كلمات أغانيها، وكلمات جبران خليل جبران الكتابية وتهاويم صوَرها، كانت قوية التأثُّر والأثر، بل الأقوى في منحِيَ وسواي من أمثالي، عزاءً روحيًّا طهرانيًّا طوال مراهقتنا العاطفية القاحلة. وعَدتنا تلك الكلمات بأن تُخرجنا من العدم والعماء. من أننا نكِرات. فنُبصر وننطق ونصير مرئيين. وننزع النقمة والمهانات من أرواحنا، العنف وخدوشه عن جلودنا. لتخضرَّ جلودنا، كتبتُ مرة في قصائد مراهقتي.

أما أنا فزوّدتِ الكلماتُ مخَّيلتي صورًا ومشاعرَ وأحاسيسَ وانفعالات قوية غامضة، ظلّت حبيسةً في صدري، وعذّبني وعدُها إيّايَ وعْدًا صوفيًّا خلاصيًّا بأن أمتلك رِقَّة أنثوية ولّدت في روحي وبدَني توقًا أبكمَ أليمًا إلى غُرباء أُبصرُهم وأعرفهم. لكنني لا أعلم إن كانوا يُبصرونني. غرباء كنت أتوق إلى أن يلاطفني أيٌّ منهم، يلمسني ويهدّئ روعي ويتبنّاني.

- ٣ -

في كافيتيريا معهد العلوم الاجتماعية - الجامعة اللبنانية، وفي نهاية حرب السنتين (١٩٧٥ - ١٩٧٦)، مزّقت بطاقة انتسابي إلى واحدة من منظمات حروب لبنان الأهلية: مجموعة طلاب لبنانيين انشقّتْ عن «منظمة العمل الشيوعي» في أيار ١٩٧٣، وانضمَّتْ إلى إحدى ميليشيات حركة «فتح» الفلسطينية. أشعَرني انضوائي في تلك المجموعة بأنني وَجَدتُ أو صادفتُ أخيرًا مَن يتبنّاني ويخلّصني من يُتمي، نقمتي ومهانتي.

بصمتٍ يشوبه الضَّياع والعبث والنقمة، كرهتُ الحرب والحروب وكرِهَتني. ربما لأنني وُلدتُ قبلها ولادتي الثانية من كلماتٍ غريبة، ضد ولادتي الأولى البيولوجية. أما السلاح الذي نادرًا ما حملته، فكنت أشعر بمذلَّتي ومهانتي إذا أبصرني أيٌّ من الأهالي أحمله في شوارع الأحياء السكنية. لكنني لم أستعمل السلاح قط، إلّا حينما خطأً أطلقتُ رصاصةً من بندقية مازحتُ بها جدتي الخرِفة في بيتنا. ومن ألطاف القدَر أن الرصاصة لم تُصبْ لا جدتي ولا مَن كان في غرفة الجلوس من أهلي.

نحن بعض من جيل الشبّان اليساريين في حرب السنتين، امتلأت صدورنا باليأس والقنوط من تلك الحرب، فخرَجنا منها وانكفأنا على أنفسنا، مشغوفين بتكوين شلّة طلاب جامعيين نصرّف فيها صحراءنا العاطفية وتيهَنا العاطفي. وأثناء صحبتنا شبه الصوفيّة في تلك الشلّة، رحتُ أداوي يُتْمي، مهانتي وخرَسي العُصابي المزمن، واختناق الكلمات والمشاعر والانفعالات في صدري. وبالمصادفة وبإصرارٍ «سيزيفي» كتبتُ الشعر، كما امتهنتُ الصحافة. ثم هجرني الشعر وهجرته. وبعد حِدادٍ، صرت كاتبًا وروائيًّا.

- ٤ -

لكن سنواتٍ ضوئية كانت قد مرّت من عمري البيولوجي والعاطفي القاحل، حين عثرتُ، بمحض المصادفة في بيروت، على تلك الملاك الغريبة عن لبنان. الملاك التي راحت تلاطفُني وتلمسُ بيَدها السّمراء كالبخور والتوابل والعطور والأدْعية القديمة، مواضع الرقّة في روحي، فتربّيها بتلك الابتسامة الجانبية، المشعّة الساحرة التي تطلع من روحها، منطوية على شيء من خوف تكتمه في قلبها.

ومن تلك المواضع في روحي وروحها بدأنا نتبادل كلماتٍ حسّية أليفة، كمنتهى الليل، كخدرِ كَسلِ ما قبل اليقظة، كرذاذٍ في نور صبح، كعسل قفائر النحل في وادي السَّيل البعيدة. وكنا بتلك الكلمات نتَراوى ساعاتٍ وساعات حكايات حياتنا الماضية. وكان كلٌ منا يتهجّى تلك الحياة - حياته السابقة على لقائنا وتعارُفنا - ويؤلّف كلماتها كظلال في مرايا نعمة حضور الآخر. وقُبيل الفجر كان يأخذنا نُعاس، فنغفو ثم نصحو مبتسمَين على ما سمّيناه تسمية ساخرة غامضة: فجر المنتحرين.

كنا في تلك الساعات والأيام نوقِفُ الزمن والوقت. وكغريبَين يحتفلان بمعجزة لقائهما على طرف العالم، رحنا نسوح في أماكن وأزمنة ولهجات وطقوس وشعائر وتواريخ وذكريات وحوادث وأفكار ومدن وقرى وجبال ومقاه وشوارع وكنائس... فنتكلم ونتكلم عنها، كأنما شخص آخر جديد في كلٍّ منا يتكلمُ من ماضيه ومن حاضره راويًا لنفسه وللآخر ما يؤلّفه ويرويه عن تلك العوالم.

وفي تلك الأوقات كان كلانا يُدرك أن انسياب الكلام وأُنسه وَليدا غبطة كلٍّ منّا بنفسه في حضور الآخر. وهذا ما أزالَ تلك الكآبة المزمنة المتجمِّدة في روحي وعلى وجهي، ودفعها عنّي كسيلٍ في تلك الوادي البعيدة. الوادي التي لا تتوقف ملاكي عن ذكْر اسمها، كلما قالت لي إن إقامتها في بيروت هي أجمل سنوات حياتها.

لكن حضور طيْف تلك الجثة التي كانت مترسِّبةً في حياتي وسمّمتها، سمّمت براءة ملاكي وكلماتها وبعضًا من جمال حياتها في بيروت. وهي حزينة غادرت بيروت، فيما كان شبان لبنان يحيون احتفالًا أو كرنفالًا لوداع بلدهم ابتداءً من ١٧ تشرين ٢٠١٩.



احدى القرى الجنوبية مدمرة

- ٥ -

وفيما أكتبُ هذه الكلمات سجينًا في جثة بيروت ولبنان، فجأة هطَل المطرُ الليلةَ كطوفان نوح على المدينة - الجثة، فأزال طبقة القصدير والفوسفور والدخان والسُّخام، تلك التي يزرعها في سمائها توحّشُ إسرائيل البربري. وهي منذ منتصف أيلول ٢٠٢٤، تزرعُ الدمار والرعب والقتل في بلاد الجماعة الشيعيّة اللبنانية، لنعيش ونموت في أقسى حربٍ عرفها لبنان بلا منازع.

وهذا بعدما عاش فلسطينيو غزة ويعيشون، منذ سنة ونيّف، أهوال طوفان إبادتهم التي تتفرّج نخبُ السلطاتِ والحُكْم في العالم الغربي على صوَرها تشفِّيًا لمَقاتل اليهود القديمة في أوروبا. كأن أهل غزة وفلسطين وشيعة لبنان هم من أبادوا يهود أوروبا في أفران الغاز النازية.

لن أخرجَ من هذه الحرب بلا ارتجاجاتٍ وتصدُّعاتٍ نفسية وروحية لا شفاء منها. والأرجح أن هذه حال كل من اكتَهل وتجاوز طفرات تهاويم الشباب والغيْب والطوباويات الخَلاصية، وبنى حياته بناءً ذاتيًّا وشخصيًّا وعلى قلقٍ مُقيم، وتتدافع في روحه وصدره قوى الحياة الدنيويّة كتدافُعها في ملاك.

يؤلمني ندَمي على أنني لم أهجُر هذه البلاد، بلادي التي لم أتوقف يومًا عن كِرهها ونقمتي عليها. وهي البلادُ المصابَةُ جماعاتُها - كسواها من بلاد عربية كثيرة - بلعنة شِقاقها ومُنازعاتها وحروبها، كأنما هذه رياضتها «الوطنية» الدورية والقدَرية الوحيدة. وسبق لأحمد بيضون أن كتب في أهلها سنة ٢٠١٥ أن «أقلَّ ما يقالُ

فـي حالهـم أنهـم باتـوا معرّضيـن للطمـر فـي نفايـات نظامهـم وقـوى طوائفهـم».

وهــا قــد طَمــرت البربريــة التكنولوجيــة الإســرائيلية بــلادَ الجماعــة الشــيعية اللبنانيــة وأهلهــا فــي الــردم والــرُّكام، وجعلتها مقبـرة للقتلـى والأحيـاء، بعدمـا أنجـز حـزبُ الوعـود الخلاصيـة الأخرويـة تحويـل الجماعـات فـي لبنـان كتـلًا بشـرية تائهـة، مختنقـة بخَوفهـا مـن قوتـه العسـكرية الحربيـة.

وكان هــذا الحــزب قــد وحّــد لغــة جماعتــه، وقســر رؤيتهــا ومصيرهــا ومصيــر لبنــان علــى خلاصيّــة رؤيــاه الأخرويــة: شـؤون الحيـاة الدنيـا وشـجونها كلّهـا، محورُهـا وباعـثُ الـروح فيهـا، هـو الغيـب والحـرب والخطابـة الحربيـة.

وكانـت هـذه الرؤيـا القياميـة قـد جعلـت جماعـات لبنـان كتـلًا بشـرية ممزّقـة، يتنازعهـا الخـوف والتّيـه. لـذا تبـدو اليـوم غيـر معنيّــة بمــا تُنزلــه تكنولوجيــا الجيــش الإسـرائيلي البربريــة المتوحشــة مــن تدميــر وقتــل ومَحْــق وتشــريد بالجماعــة الشـيعية، إلّا مـن زاويـة قلـق كلٍّ منهـا وخوفهـا علـى مصيرهـا الغامـض.

وهــا هــي تقــف دون هــذا المصيــر، مشــلولة عــن أي قــولٍ وفعـل. وتنتظـر مفاوضـاتٍ دوليـة تُوقـف الحـرب التـي تمنِّـن إسـرائيلُ الغـربَ بأنهـا تخوضهـا عنـه. هـي لـن تسـفر علـى الأرجـح - حيـن تتوقّـف - إلّا عـن عالـم أشـدّ سـوادًا وظلامًـا.

عالــمٌ يحكُمــه رجــال ذكوريــون صفيقــون. محترفــو صفقــات فســاد ونهــب وأكاذيــب وازدراء الحــق والأخــلاق والحقيقــة. وهـم يعتبـرون هـذه الصفـات كلهـا بداهـات السياسـة والعمـل السياسـي، أمثـال نتانياهـو وترامـب وبوتيـن وخامنئـي وخيـرت شـيلدز وفيكتـور أوربـان... وأشـباهم كثيـرون. أولئـك الذيـن يسـتمدّون سـلطانهم مـن تيـارات شـعبوية يمينيـة، عميقـة ومتطرّفـة وعنصريـة، تجتـاح جهـات متزايـدة مـن عالـم تتراكـم أزَماتـه وتتناسـل فـي كل يـوم.

محمد بركات

أنا النازحُ... كيفما أدَرتُ وجهي



وُلِدتُ في ٢٧ آذار ١٩٨٤، بعد أسابيع قليلة من انتفاضة ٦ شباط، ضدّ الرئيس أمين الجميّل، لمنعه من توقيع اتفاق ١٧ أيّار، في مستشفى بخعازي بمنطقة كليمنصو. كان أهلي يسكنون منطقة الرملة البيضا. ودرستُ في «مار الياس بطينا» البعيدة مئات الأمتار عن منزلنا. وهي مدرسة أرثوذكسية خاصّة في منطقة الأونيسكو، كانت تضمّ أولاد الطبقة الوسطى.

في هذا المثلّث قضيتُ جزءًا كبيرًا من طفولتي، بين الرملة البيضا والروشة، وملاعب كرة القدم في الأونيسكو والكولا، وبيتَيْ جدَيّ في وادي أبو جميل. حيث كانوا يسكنون كـ«مهجّرين»، كما كنّا في مبنى مواجه للبحر تمامًا قرب مطعم العجمي في الرملة.

١٠ سنوات قضيناها في الرملة البيضا، قبل أن يقتلعنا «السلم الأهلي». في ١٩٩٣ قرّر المالكون استعادة بيوتهم، فخرجنا من ذلك المبنى، الذي ما زال فارغًا من السكّان بعد مرور ٣١ عامًا على خروجنا منه. خرجنا بتعويض هزيل جدًّا، لتبدأ رحلتنا الأولى إلى ضاحية بيروت الجنوبية. حيث تنقّلنا بين شارع عبد الكريم الخليل في الشيّاح، ثم بئر العبد، وبعدها صفير، ثم الحيّ الأبيض، وقرب جامع القائم، فإلى الكفاءات... ومن هناك تزوّجنا، نحن الأبناء، وتفرّقنا، بين عرمون وكفرشيما، قبل أن يلحق بنا الأهل إلى عرمون، لتنتهي علاقتنا السكنية بالضاحية في ٢٠٢٢.

٣٠ عامًا من التَّرحال الدائم...

في هذه التنقّلات الكثيرة تنقّلنا بين المدارس. دخول الضاحية أخذنا إلى مدارسها. إلى الفرير – المريجة، ثم رأس النبع الرسمية للبنين لعام واحد، بسبب شبه إفلاس عانيناه، وعُدنا بعدها إلى مدرسة خاصّة وهامشية في عين الرمانة. ومن هناك توجّهت إلى الجامعة اللبنانية، المجانية، لأدرس الصحافة المكتوبة في ٢٠٠١.

كثرة التنقّل، جعلت العلاقة بالمكان مرتبكة وملتبسة. فلا زملاء دراسة ثابتون. ولا جيران دائمون. ولا «حيّ» تتوطّد علاقتي به... كنّا ننتقل بمعدّل مرّة كلّ ٣ سنوات. ينتهي عقد الإيجار، ويقرّر المالك عدم التجديد، فنحمل الأثاث و«نتغرّب». مرّةً بعد مرّةٍ بعد مرّة.

بدا ذلك امتدادًا لهجرة «بيت جديّ»، واحد من ميس الجبل، وآخر من رُبثلاثين، بعد الاجتياح الإسرائيلي لقرى جنوب لبنان في ١٩٧٨. فوالديّ تزوّجا في ١٩٨٢، قبل اجتياح بيروت. وكانا نازحَين، جارَين. لهذا كنت أزور بيتي جدّيَّ في طبقة واحدة. أخرج من باب وأدخل في الباب الآخر، في وادي أبو جميل.

نازحٌ ونازحةٌ أحبّا بعضهما من على شرفتَيْن مبنيّتين في خمسينات القرن الماضي لأثرياء بيروت. كانت بيوت وادي أبو جميل شديدة الجمال. قصور بديعة، سكَنها النازحون بما يشبه «الاحتلال». وفي منزلَين متجاورين، كانت قصّة الحبّ التي أنجبت شقيقي في بداية ١٩٨٣، وأنا في بداية ١٩٨٤. زواج سريعٌ وسرعةٌ أكبر في الإنجاب. فبيني وبين شقيقي بهاء ١٥ شهرًا فقط لا غير. لأمٍّ تزوّجت في عامها الـ١٩، وفي عامها الـ٢١ كانت تحمل طفلين، تُسكِنُهُما في منزلٍ «محتلٍّ» أيضًا.

كانت تلك معضلة لم أُشفَ منها إلى اليوم. الجدّ المهجّر، بسبب الاحتلال الإسرائيلي، والأهل النازحين مع أهلهم، يحتلّون بيوتًا في أحلى مناطق بيروت ووسطها. ويعيشون فيها، ويتزوّجون ويُنجبون، حتّى قبل أن يفكّروا في «السكن». والنتيجة: تَرحال مستمرّ، طيلة ٤٠ عامًا من الزواج.

الضاحية وقبرص و«عاشورا»

ولأنّ الرملة البيضا لم تكن خطّ تماس، كانت ظلال الحرب الأهلية هامشية في طفولتنا. أذكُر على سبيل المثال أنّني

كنتُ أشارك «شباب البناية» في تجميع الدواليب وقطع الأثاث والخشب المرمية في البساتين المجاورة، ونقلها إلى الطريق البحري الملاصق للمبنى، كي نحرقها ونقطع الطريق بها. في ما علمتُ لاحقًا أنّه «ثورة» ضدّ الرئيس عمر كرامي.

لم أكن أعلم أنّني شاركتُ في مجيء الرئيس رفيق الحريري إلى السلطة. لكنّ مجيئه، و«عودة الدولة"، كانت سببًا في رحيلي عن المنزل الوحيد الذي أحمل له ذكريات كثيرة وجميلة إلى اليوم، وهو منزل الرملة البيضا.

نقلتني الضاحية إلى هويّة لم أكن أعرف عنها الكثير. كان والداي يجلسان على شرفتنا الكبيرة، بعرض ٣ أمتار وطول ١٠ أمتار أو أكثر، ويستمعان إلى رجل يبكي، ويبكيان معه في «عاشورا». ولم أكن أعرف أكثر من هذا. لعشرة أيّام يبكي والداي على «الحُسين». وعلى الشرفة نفسها، نجلس على الحصيرة مع والدي أيّام الأحد، ليأكل الكبّة النيّة ويشرب العرق ظهرًا. وفي ليالٍ أخرى يأتي أصدقاؤه ويشربون العرق ليلًا على الشرفة نفسها. من هناك كان يدلّنا والدي إلى قبرص: «ماذا هناك في آخر البحر يا بابا؟». فيجيب: «قبرص». وعبثًا أحاول رؤيتها.

في الضاحية صارت «عاشورا» طقسًا آخر. صُرنا نمشي في «العاشر»، ونأكل البسكوت والراحة المرصوصة على طاولاتٍ إلى جانب الطريق. ونهتُف بفخر ونضحك: «خيبر خيبر يا يهود، جيشُ مُحمّد سوف يعود». وصُرنا نستمع إلى خطابات لا نسمع منها شيئًا. نجلس بعيدين، ونسمع صراخًا وكلامًا غير مفهوم. وننتظر «الفلّة»، كي نمشي ونأكل البسكوت. أطفالٌ أعمارنا بين ١٠ و١٢ عامًا، نزرع المنطقة بأرجُلنا ونذوب في الزحام الكبير. وأحيانًا، لنشارك في البكاء، كان يقترح أحدنا أن نأخذ معنا بعض البصل، ونشمّه خلال المسير.

كانت «عاشورا» مختلفة في الرملة البيضا. تقتصر على الوالدين. وفيها دموعٌ قريبة. وكان صوت المتحدّث واضحًا في الراديو الذي يُجلسه أبي على طاولة صغيرة أمامه. في الضاحية، صارت زحامًا، و«مغامرة»، تأخذنا إلى خارج «الحيّ»، وإلى مسافاتٍ بعيدة، لنرى وجوهًا جديدة... وقد أخذَت كثيرين من أبناء قريتي ومدرستي وجيلي، إلى مسافاتٍ بعيدة جدًّا جدًّا.

٢٠٠٠ - ٢٠٠٦: نزوحٌ مستمرّ ودمارٌ متكرّر

بعد تحرير العام ٢٠٠٠، توجّهنا إلى ربثلاثين المُحرّرة. كان بيت جدّي ما زال سقفُه يحضن الأرض منذ ١٩٧٨. ٢٢ عامًا ولم يكنس أحدٌ الركام. وكان المنزل شبه سليم. قيل لي حينها، أنا ابن الـ١٦ عامًا، إنّ الجرّافات الإسرائيلية هدَّمتهُ انتقامًا من جدّي «المُختار»، أبو أحمد (محمد جواد بركات)، الذي كان «فاتح البيت للمقاومة الفلسطينية». وكان والدي، منذ بداية السبعينات، مسؤول التثقيف السياسي في حزب البعث بالمنطقة، بين الضيعة والضِّيع المُجاورة. أما والدتي، فكانت في "الاتحاد الاشتراكي العربي".

عروبيّان، مزّقهما اجتياح ١٩٧٨، وأحبّا بعضهما على شُرفة النزوح في ١٩٨٢.

حين تحرّر الجنوب، كانت الفرحة هائلة. كتبتُ يومها عددًا من القصائد، الموزونة والمُقفّاة. وكنتُ أحبّ قراءة الشعر وكتابته. لكنّ مشهد البيت المهدّم هو ما سيبقى. تبخّرت أناشيد الفرح التلفزيونية حين اكتشفتُ أن لا مكان لنَبات ليلتنا في ربثلاثين. وعُدنا مساءً في ما يُشبه «النزوح» الجديد، باتجاه بيروت. ٣ أو ٤ ساعات صعودًا، وأقلّ منها بقليل هبوطًا إلى بيروت، في يومٍ واحد.

ولم أرَ القرية منذ ذلك الحين عشر سنوات تقريبًا. عرفتُ أنّ كثيرين قبضوا تعويضاتٍ لإعادة بناء بيوتهم، لكن نحن لا. لم يكن أبي يحبّ حزب الله ولا حركة أمل. كان عروبيًّا يكره التنظيمات المذهبية. عروبته لم تسمح له بالتجاوب مع إغراءات الانضمام إلى الحزب أو الحركة. لكنّه كان يحتفظ بعلاقة شخصية، نسجَها جدّي مع الرئيس نبيه برّي. ويكنّ له احترامًا شخصيًّا. وفي الانتخابات، كان يكتب على الورقة التي كنتُ أقرأها: «نبيه برّي، بهية الحريري».

في ٢٠٠٦، غادرنا البيت قرب مسجد القائم في حيّ الأبيض. تفرّقنا، بعضنا في طرابلس، وآخرون في المصيطبة. وأنا سكنتُ ٤ أسابيع في منتجع سياحي بمدينة عاليه، مع أصدقاء ورفاق في «حركة اليسار الديموقراطي». أمضيتُ الأسابيع الثلاثة أدخل الضاحية بشكل شبه يومي، مع صحافيين وأصدقاء، وأكتب عنها في جريدة «البلد»، عن الأحياء التي تدمّرت والأخرى التي ظلّت على حالها.

لم تكن هذه الأسابيع الأربعة طويلة، ولا شعرتُ ماذا يعني



المشهد من شرفة المنزل في بعبدا – الريحانية. وتبدو الضاحية إلى يسار الصورة، وبقيّة بيروت من الوسط إلى اليمين، وصولاً إلى مرفأ بيروت

النـزوح، حتّـى عُـدتُ إلـى منـزل الأهـل، وقـد قُصـف مبنًـى مواجـه لمـكان سـكننا. فدمّـرت قـوّة العصـف الأثـاث والزجـاج والألمنيـوم والسـجّاد... وجـاء مندوبـو الحـزب ليدفعـوا لوالـدي ٦٣٠ دولارًا بـدل أضـرار. فرفـض اسـتلامها وطرَدهـم. وبدأنـا رحلـة ، فـي مـا يشـبه «الورشـة» التـي نفتتحهـا كلّمـا بدّلنـا منزلًا بمنـزلٍ. والتـي كلّفـت أكثـر مـن ١٠ آلاف دولار فـي حينهـا.

فـي ربثلاثيـن، لـم يكـن لدينـا غيـر بعـض الأعمـدة. لـم نكـن قـد اسـتطعنا إلـى صـبّ السـقف سـبيلًا. فالبيـت لـم ننتـهِ مـن بنائـه إلّا فـي ٢٠١٠، ليصيـر قابـلًا للسـكن، مـع جُـدرانٍ وسـقف. ولـم ننتـهِ مـن بنائـه كامـلًا إلّا فـي ٢٠١٨. وذلـك بسـب الحرمـان مـن التعويـض، الـذي فرَضـه علينـا موقـف والـدي، ثـم موقفـي، السياسـي.

أيضًـا تعـرّض المنـزل لصـاروخ ذهَـب ببعـض الأعمـدة. وتضـرّرت الأساسـات قليـلًا. وجـاء مندوبـو الحـزب، بوقاحـة، إلـى منـزل عمّتـي، ودفعـوا ٨٢٠ دولارًا. فطلـب والـدي منهـا أن ترمـي المبلـغ فـي وجوههـم وأن تطردهـم مـن المنـزل. بعصبيـة قـال لهـا: «زعبيهـم».

كانـت تلـك طريقـة القيّميـن علـى الحـزب فـي قريتنـا، للانتقـام مـن بيتنـا. فجـدّي كان مختـار القريـة. وكان وجيههـا والناطـق باسـمها. ومعظـم مَـن لملمهـم الحزب فـي القرى، خـلال بداياتها، هـم المنبـوذون مـن العائـلات الصغيـرة، وذوي الفَقـر الشـديد، الذيـن يحملـون أحقـادًا فـي العـادة علـى الوُجهـاء. وكانـت تلـك طريقتهـم فـي محاولـة ممارسـة نـوع مـن الفوقيـة الانتقاميـة بمفعـول رجعـيّ: أن يحرمونـا مـن التعويضـات الرسـمية فـي مجلـس الجنـوب، وأن يأتـوا إلينـا بفُتـات الـدولارات. وكان طردُهـم يجعلنـا متعادليـن معنويًـا، ويجعلهـم متفوّقيـن ماليًـا.

هـذا الحصـار المالـي كان متزامنًـا مـع حصـار اجتماعـي. فـلا يجـرؤ أحـدٌ علـى طـرق بابنـا. وقليلـون يزورونـا مـن الأقـارب. نذهـب فـي نهايـات الأسـابيع ونصطحـب معنـا أصدقاءنـا مـن بيـروت والقـرى الأخـرى، ونحضّـر اللحـم لنشـويه، وزجاجـات الويسـكي، ونحـاول أن نبنـي علاقـةً مسـتحيلة مع هـذه المنطقة التـي فيهـا جـذور أجدادنـا.

وأنـا لـم أرَ مـن الحـرب فـي ٢٠٠٦ أو فـي ٢٠٢٤ غيـر النـزوح و«الشمشـطة»، وبعـده صـرف المدّخـرات لإصلاح البيـوت. ثـم يأتـي مَـن يريـد أن يُقنعنـا أنّـه "نصـرٌ إلهـيّ".

هـي علاقـة معقّـدة. فهـذه القريـة لا هـي اسـتقبلتني، ولا اسـتطعتُ إليهـا سـبيلًا إلّا بعـد ١٠ سـنوات مـن تحريرهـا. و٨ سـنوات أخـرى حتّـى صـار لـي فيهـا مكانًـا مسـتقلًّا فـي طبقـة ثانيـة بنَيناهـا فـوق بيـت الأهـل. رغـم ذلـك، يدفعُنـا إصـرارٌ غريـبٌ علـى أن نبنـي المنـزل، مـرّة تلـو أخـرى. وأن نزورهـا أسـبوعيًّا. وأن نختـرع علاقـة بينهـا وبيـن أولادنـا.

فـي ذلـك الزمـن، شـهِدت ربثلاثيـن المسـكينة، مثـل عشـرات قـرى جنـوب نهـر الليطانـي، سـرقة ١٠٠ ألـف دونـم مـن المشـاعات. فـي ضيعتـي سـرَق أبنـاء الحـزب ٢٠٠٠ دونـم. وزّعوهـا علـى بعضهـم البعـض. سـرقة تفـوق قيمتهـا ٢٠ مليون دولار. حتّـى أنّـه حيـن قـرّرت البلديـة أن تبنـي مسـتوصفًا، وأن توسّـع المقبـرة، راحـت تشـتري الأراضـي، لأنّ الألفـي دونـم سُـرقت بأختـام المخاتيـر وتواطـؤ المسّـاحين العقارييـن، وشـراكة الموظفيـن فـي الدوائـر العقاريـة المعنيـة.

فـي نهايـة ٢٠٢١، وقبـل أشـهر مـن الانتخابـات النيابيـة، انتظر شـخصان مجهـولان، مـن خـارج القريـة، انتظرا انتصـاف الليـل،

وخروج آخر الزوّار من بيت عمّتي، ليدخلا عليها ويقول أحدهما لها: «المرحلة فيها دمّ، خلّي محمد ينتبه».

عمّتي التي تحبّ الحزب وتُناصره، اقتنَعَت بضرورة الذهاب إلى القضاء في مدينة النبطية، لتقديم شكوى. وروَت الحادثة الموثّقة أمام المحقّقين. لكنّها، بعد أشهر، في انتخابات أيّار ٢٠٢٢ النيابية، اختارت أن تصوّت للحزب.

لم يكن الجنوب أكثر وضوحًا بالنسبة لي من هذه العلاقة. إذ تُديره مجموعات متخصّصة في سرقة الأموال والأراضي، وفي تهديد الصحافيين والناشطين المستقلّين بالقتل والدم، أيّام السلم، حين لا يكون لهؤلاء الشباب من عمل في «تحرير القدس» أو «إسناد غزّة» أو «حماية المقامات» في سوريا أو القتال في اليمن والعراق أو «تحرير مكّة» أو تحضير الانقلابات في البحرين والكويت والمملكة العربية السعودية.

٢٠٢٤: الهزيمة الإلهية

في حرب ٢٠٢٤، تبلّغنا خلال الحرب بأنّ البيت الذي تعِبنا ١٨ عامًا في بنائه، قد سوّي بالأرض. لكن بعد وقف إطلاق النار، جاء من يُخبرنا أنّه متضرّر بشكل كبير وآيل للسقوط، لكنّه "صامد".

لكن هذه المرّة كنّا قد «حفظنا الدرس»: لا أحد من أفراد عائلتي يسكن في الضاحية أو الجنوب. وقد شاهدنا الحرب من بيوتنا المُستأجَرَة في عرمون وكفرشيما وبعبدا. هذه المرّة كان دور أختي كي تفقد منزلها في الجاموس، وبيتها المؤلّف من ٣ طبقات في بلدة حولا الحدودية.

وزوجتي فقَدت بيت أهلها في ساعات الحرب الأخيرة، بمنطقة صفير. هناك حيث في واحدة من محطّاتنا الكثيرة، رأيتها على شرفة منزلها، ووقعتُ في غرامها، من الطبقة الثالثة في المبنى المواجِه، إلى «سطَيحة» بيتهم في الطبقة الأولى. ولم أنهض إلى اليوم.

الهبّارية والزواج... والنزوح أيضًا

زوجتي تهجّر أهلها في العام ١٩٧٨ من قرية الهبّارية على الحدود الجنوبية أيضًا. واحدة من قرى العرقوب المحاذية لفلسطين المحتلّة، والقريبة من مزارع شبعا ومن الجولان السوري. ومثلي سكَن أهلَها في وادي أبو جميل خلال الثمانينات. وتزوّجا وأنجباها في «الوادي»، قبل أن ينتقلوا إلى الضاحية.

وكما يُليقُ بنازحٍ ونازحة، تعارَفنا وتحاببنا في ٢٠٠٧، وتزوّجنا في ٢٠١١، وأنجبنا كريم في ١٣ كانون الثاني ٢٠١٣. وأذكر حين عرفت بقصف منزلهم الذي عاشت نصف عمرها فيه، بكَت وقالت: «لو خلّونا ناخد صوَرنا نحنا وزغار بسّ».

يمكنني تلخيص حرب ٢٠٢٤ بهذه الجملة العادية إلى حدّ الحكمة. والبسيطة إلى حدّ البلاغة. والصادقة إلى حدّ الوجع. فالصدق موجعٌ دائمًا. وهذه الحرب أخذت من الناس أرواحها وأعصابها وعقولها وتوازنها، لكنّها أخذت منها أيضًا الذكريات وما لا يمكن تعويضه بأموال الدنيا كلّها.

خلال الحرب، كان ولَداي كريم وجود يلهوان بأصوات القصف. فمنزلنا يطلّ على بيروت والضاحية. وكان الولدان يشاهدان الصواريخ وهي تدمّر المباني في الضاحية. فترتفع سحب الدخان. وننتقل إلى التلفزيون لنتابع المشاهد المتواترة كي نعرف حجم الأضرار وأماكنها. وبالنسبة إليهما، كان اختصار معضلة الحرب، وغرابتها، وظلمها للمدنيين غير الموافقين عليها، يتلخّص في السؤال الذي طرحه كريم حين عرف بتدمير بيت جدّه: «شو عملت تيتا لإسرائيل حتّى يدمّروا بيتها؟».

حين تبلّغنا تدمير المنزل في ربثلاثين، حزن الولدان. لأنّهما كانا يقضيان أوقاتًا جميلة، في نهايات الأسبوع والصيف، خلال الأعوام الأخيرة، مع أولاد عمّيهما. وكان المنزل يعني لهما العائلة الكبيرة المجتمعة. وبالطبع يكون الطفل في سنواته الأولى مصنع ذكرياتٍ متنقّل.

فلسطين... ما أبعد الفكرة

حين كان الأمين العام السابق للحزب السيد حسن نصر الله يحدّثنا عن اقتراب تحرير فلسطين، ويقول إنّه هو شخصيًا سيصلّي في القدس فاتحًا ومُنتصرًا، كانت تبدو الفكرة قريبة. وكانت المسافة أصلًا قريبة. قريتي، ربثلاثين،

تبعُد مئاتٍ قليلة من الأمتار عن الحدود مع فلسطين المحتلّة. وحين ذهب شبّان من حزب الله في ٢١ أيّار ٢٠٢٣ إلى بلدة عرمتى، شمال نهر الليطاني، ونفّذوا مناورة تُحاكي «احتلال الجليل»، فرح أنصار الحزب وهلّلوا.

ما كانوا يعرفون أنّ هذه المناورة ستكون سببًا في احتلال قرانا مرّة أخرى، بحجّة منع الحزب من احتلال الجليل أو مهاجمته. وهي التي ستتسبّب في قتل وجرح أكثر من ٢٠ ألف لبنانيّ، خلال شهرين، بحسب وزارة الصحّة اللبنانية، ودمار بقيمة تفوق ٨,٥ مليار دولار، بحسب تقرير البنك الدولي (صدَر في ١٤ تشرين الثاني ٢٠٢٤).

نحن الذين وُلدنا في بيروت، لا نحمل ذكرياتٍ عن الجنوب مثل أولادنا الذين تعلّقوا بهذا المنزل. وهو الآن مدمّر تقريبًا. ما نحمله هو الغضب من الذين قرّروا أن نعيش هذه الحرب، مرّةً تلو مرّةٍ تلو مرّة. من ٢٠٠٦ وحجّة تحرير سمير القنطار، الذي قُتل في سوريا بعد سنواتٍ من تحريره، إلى ٢٠٢٣ و٢٠٢٤ ومهمّة تحرير القدس، التي ألقاها نظام الملالي في إيران على ظهورنا. نحن القلّة القليلة من شيعة جبل عامل. وقرانا هي، منذ الخمسينات والستينات تدفع فاتورة فلسطين والفلسطينيين.

في نقاشات مع أقارب وأصدقاء من محبّي الحزب، بدا أنّهم هذه المرّة سئموا من الحرب وما عادوا يريدون تكرارها. فأنا من جيل شهِد نصف الحرب الأهلية في الثمانينات، وحروبًا كثيرة مع إسرائيل، أبرزها في ١٩٩٣ وفي ١٩٩٦ وفي ٢٠٠٦ وفي ٢٠٢٤. وهذا الجيل بات يعرف أنّها ليست حربنا. وأنّ قرانا كانت محرّرة حين قرّرنا «تحرير فلسطين» في معركة «إسناد غزّة».

اليوم أحتفظ ببعض الأصدقاء من «مدرسة مار الياس بطينا». من طوائف مختلفة. وهم في معظمهم سلَكوا مساراتٍ في حياتهم. بعضهم هاجر للعمل أو الدراسة ولم يعُد. بعضهم في لبنان. منهم من تزوّج، أو بقي عازبًا، أو حتّى توفّي... لكنّني الوحيد بينهم الذي كان نازحًا حين تعرّف إليهم، قبل ٣٥ عامًا، وما زال إلى اليوم، نازحًا، يحاول العثور على منزل يستأجره في العاصمة، ويحاول ترميم منزله في ربثلاثين.

ما أقرب المسافة... ما أبعد الفكرة.

محمد عثمان

لا مناص للشيعي اليوم إلا أن يدخل في كنف الدولة اللبنانية، ولا مكان له اليوم إلا تحت مظلة لبنانية رسمية تمثلها دولة المواطنة التي ترعاه وتحميه وتبدد هواجسه. فإذا استمررنا على هذا النحو، فلن نبقَ.

مَن هو محمد عثمان؟ بينَ الولادة والطُّفولة والدِّراسة وأماكن النَّشأة؛ ماذا في الذَّاكرة من تلكَ الأيَّام؟



أنا محمد ديب عثمان، شاب لبناني وُلدت في منزل متواضع في مدينة بعلبك. ونظراً لنشأتي في عائلة غير طائفية ولدراستي في مدرسة راهبات القلبين الأقدسين، لم أتطرق يوماً إلى مذهبي، ولم يخطر لي أبداً سؤال في داخلي عن انتمائي أو انتماء أصدقائي لأي فئة أو جهة أو طائفة كانت.

بدأت أكبر على هذا النحو في بعلبك، التي لم أفرق فيها يوماً بين مآذن مساجدها وأجراس كنائسها.

ثمة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حروب ١٩٩٣ و١٩٩٦ وال ٢٠٠٦ واليوم في ٢٠٢٤؟

شهدت في طفولتي حربين مع إسرائيل في عامي ١٩٩٣ و١٩٩٦، ولا أذكر منهما سوى بعض المشاهد السوداء التي أثارت ذعراً في قلب الطفل داخلي، مثل مجزرة قانا. كما شهدت في بداية مراهقتي انسحاب الجيش السوري من لبنان بعد اغتيال الرئيس الحريري، وكنت مسروراً بهذا الانسحاب رغم صغر سني، ولكن مصدر فرحي كان استذكاري دوماً للأحاديث التي سمعتها من أبي عن بطش وظلم نظام الأسد في لبنان، مع بعض الشهادات الحية.

ثم أتت حرب عام ٢٠٠٦ بين حزب الله وإسرائيل وكنت



غارة قريبة من قلعة بعلبك، تيار دون اورغ

في الخامسة عشرة من عمري. أذكر مشهد نزوحنا مع أمي وإخوتي من بعلبك، وبقاء أبي في المنزل، وهواجسنا ومخاوفنا التي عشناها لأكثر من شهر عند سماعنا أي خبر عن غارة على المدينة.

إذا أتينا إلى الحرب الأخيرة بكل تفاصيلها ومضامينها (أيلول ٢٠٢٤)، كان وقعها مؤثرًا جدًا عليّ، خصوصًا أنني لم أفارق منزلي في مدينة بعلبك طوال الحرب، فأُرهقت من الناحية الجسدية والنفسية. وأظن أن كل الطائفة الشيعية أرهقتها مشاهد الحروب والدمار وروائح الدم والبارود. كما أعتقد أيضًا أنه آن لهذه الطائفة أن تستريح، وهذه الراحة لن تتحقق إلا بالحياد عن الاصطفافات الإقليمية والابتعاد عن لعبة المحاور الخاسرة.

كيف ترى مستقبل الطائفة الشيعية وكيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

لا مناص للشيعي اليوم إلا أن يدخل في كنف الدولة اللبنانية، ولا مكان له اليوم إلا تحت مظلة لبنانية رسمية تمثلها دولة المواطنة التي ترعاه وتحميه وتبدد هواجسه. فإذا استمررنا على هذا النحو، فلن نبقَ.

محمود حمادي

«الطائفة الشيعية تعرّضت لكارثة على مستوى البشر والحجر»

محمود حمادي، ابن بلدة الشهابية الجنوبية، ترعْرع في بيروت من دون أن ينفصل عن جذوره. تخرّج من الجامعة اللبنانية في اختصاصَي الفلسفة والعلوم السياسية. هو اليوم ناشط في «أمم للأبحاث والتوثيق» في مجالات مرتبطة بالأبحاث والدراسات.

يتحدّث حمادي في هذا الحوار عن ذكريات الزمان والمكان، والانتقال من منطقة إلى أخرى، ويشرح هنا رؤيته لمستقبل الطائفة الشيعية، بعد الحرب الأخيرة (٢٠٢٤) التي شهِدها لبنان.

لو أردْنا التعريف عن هويّتك، مَن هو محمود حمادي ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان، أين أنت منها؟



محمود حمادي، أتحدَّر من قرية الشهابية في جنوب لبنان، ترعْرعت في بيروت، أولًا في منطقة الكولا، وبعدها في منطقة البسطا حيث كان المكان الذي قضيت فيه فترة طويلة، فتابعت دراستي الابتدائية والمتوسطة والثانوية ما بين مدارس رأس النبع والبسطا. درست في الجامعة اللبنانية اختصاصَي الفلسفة والعلوم السياسية، أساهم حاليًا مع «أمم» في مجالات مرتبطة بالأبحاث وتحديدًا حول الطائفة الشيعية وتاريخها وما إلى ذلك. أصف دومًا علاقتي بالمكان بأنها علاقة شعور بالإحساس بالفِقدان، تظهر بالدرجة الأولى عندما تتركه وتعود إليه لاحقًا بزيارة خاطفة أو ما شابه. فالمكان الذي تعيش فيه لا تشعر به كثيرًا كونك بالأساس منشغلًا بما هو موجود فيه من عمل ودراسة واهتمامات ولقاءات وانتظارات، فهو ليس موضوع تفكيرك في لحظة انغماسك به، بقدَر ما هو وعاء أشياء التفكير. ولهذا الأمر علاقة بتجربتي الأخيرة مع هذه الحرب.

المكان الذي تقطنه حاليًّا أين صار وهل تأثّر جرّاء الحرب؟

سكنت في الفترة الأولى من الحرب وقبل توسُّعها في منطقة الشويفات التي تُعتبر حاليًّا امتدادًا للضاحية الجنوبية، مع إني كنت أشعر دائمًا بأنه من الخطر أن يسكن الإنسان في مكان قد يكون مستهدفًا في أي لحظة. وهذا ما دفعَني إلى البحث عن مكان سكن أكثر أمانًا منذ الأيام الأولى للحرب، إذ استأجرت شقة في منطقة مختلطة سكانيًّا إلّا أنني لم أعِش فيها، فمن الصعب تبديل المكان بسهولة إذا لم يكن هناك أمرٌ طارئ يستدعي ذلك، فكانت الشقة المستأجرة لفترة شهر مثلها مثل الحقيبة، التي يمكن تسميتها حقيبة الطوارئ، والتي تركتها مركونة في زاوية من زوايا المنزل منذ ٩ تشرين الأول ٢٠٢٤. فذكريات الحرب الأهلية والتهجير، تدفعنا دائمًا لأخذ الخَيار الطبيعي والبحث عن أماكن أكثر أمانًا للسكن فيها. أمّا في فترة توسُّع الحرب، فقد عشت لأول مرة شعور الخوف الحقيقي منها بكل ما تعنيه الكلمة من تهجير وتبديل أماكن، بين عكار والبسطا وطريق الجديدة. وفي المخيّلة دائمًا الشعور بإمكانية ألّا يكون هناك عودة إلى الضاحية ولا إلى الجنوب أيضًا. وبالعودة إلى تجربة المكان فقد كان الشعور بالانتماء إلى المكان والحنين إليه في أعلى مستوياته. هذا المكان الذي لا نشعر بوجوده في أعلى مرتباته إلاّ حين يكون هناك إمكانية عدم العودة.

ثمّة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة. كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك خلالها ثم في حرب الـ٢٠٠٦ واليوم في الـ٢٠٢٤، وما هي التحديات المتعلّقة بالوجود المكاني خلال هذه الحروب؟

كما قلت سابقًا فإن شعور التهجير والحرب بشكل عام، وتغيير السكن لم أشعر به إلّا في هذه الحرب. في الحرب السابقة أي في حرب ٢٠٠٦ لم يكن هناك أي خطر خارج الضاحية الجنوبية، وكانت احتمالات العودة إلى الجنوب عالية، أما في هذه الحرب فكان هناك شعور بالاقتلاع. بعدم إمكانية العودة.

في حرب الـ٢٠٢٤... من وجهة نظرك، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية؟ وهل هناك مكاسب؟

للحديث عن هذا الأمر، لا بدّ من العودة إلى الحالة التي كانت عليها الطائفة الشيعية قبل هذه الحرب، طبعًا من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن هذا الأمر يحمل تعميمًا قد يكون ظالمًا بحق مجموعة كبيرة تنتمي إلى الطائفة الشيعية، لكنها كانت تشعر بعدم الرضا من السياسات التي يتبعها ثنائي حزب الله وأمل في كافة الملفّات اللبنانية.

على العموم كان هناك شعور بالتفوُّق عمِل حزب الله بالدرجة الأولى على بثّه، بدءًا بالعلاقة داخل الطائفة ذاتها، تجاه الذين يحملون آراء مختلفة عن آرائه، فعمِل على إقصاء المعارضين له والتنكيل بهم، وصولًا إلى الدائرة الأوسع، حيث عمل الحزب ومعه حركة أمل، بدرجة أو بأخرى، على تعميم صورة المتفوِّق الذي لا يتوانى في أي وقت من الأوقات عن استخدام كامل قوته العسكرية بوجه معارضيه في السياسة إذا شعر أنه يتعرَّض إلى تهديد ما، كما حدث في ٧ أيار مثَلًا، أو عندما يهدِّد باستخدام كامل قوته إذا لزم الأمر. وقد عبّر شعوره بالتفوّق إلى ما وراء الحدود، إلى سوريا واليمن وغيرهما، وكان يمارس وظيفته. يضاف إلى ذلك تعميم الثقة العمياء بكل ما يصدر عن الحزب وتصديق لسياساته وتعليمات أمينه العام. فكان العمل على تحويل الطائفة الشيعية إلى طائفة متأطِّرة في دولة على هامش الدولة. وبطبيعة الحال فإنه لا يمكن إنكار العوامل الموضوعية التي تساهم في هذا الشعور الذي تغذَّى من الإحساس بالخطر أساسًا. وتلعب الجغرافيا دورًا محوريًّا لناحية وقوع المنطقة التي يقطنها الشيعة في جنوب لبنان على تماسٍّ مع إسرائيل والخطر الداهم والدائم المحيط بهم.

بالإضافة إلى الجغرافيا هناك الواقع الطاغي للنظام اللبناني الطائفي الذي يفرز المَيل إلى البحث عمّن يُصارع الآخرين وينتزع منهم المكاسب. يظهر هذا الأمر في أصغر تفصيل مرتبط بالدولة والوظائف. طبعًا، وهذا أمر جوهري فإن هناك اختلافًا نوعيًا في شكل التغلُّب والصراع عليه شكّله حزب الله لناحية أنه حزبٌ شموليٌّ بكل ما للكلمة من معنى، وهذا ما جعله يقضي على كل احتمالات التنوُّع والاختلاف داخل الطائفة بالدرجة الأولى، ويمارس بطشه، داخلها وخارجها، وجعل القرارات المصيرية التي يمكن أن يكون لها تأثير على كل الناس متروكة لتقديرات خارج



اثار غارة استهدفت منطقة البسطا في بيروت، الشرق الأوسط

حدود الدولة وفي سياق فكري مرتبط بمعطيات عقائدية، كأن تكون مصلحة ولاية الفقيه في مقدّمها. ومن هذا المنطلق يمكن النظر إلى الحرب الأخيرة، ويمكن التأسيس من أجل ذلك على الشعور بحالة الانكسار. هناك شعور شيعي عام اليوم بالانكسار والخسارة، ويكفي هذا الأمر للقول بأنهم خسروا شيئًا ما، وشعور الانكسار جاء نتيجة الشعور بالتفوق التام والشامل وهنا فداحته. هذا على مستوى الشعور؛ أمّا على المستوى المادي فهناك كارثة مركَّزة على مجموعة بشرية محدَّدة، طبعًا هناك تفاوت في حجم الخسارة بدءًا بحزب الله ذاته، والدوائر القريبة منه والأبعد حتى، لكن بشكل عام هناك خسائر مادية كبيرة، اقتصاد طائفة تعرّض بالكامل للعطب؛ أما على مستوى الخسائر البشرية، فهناك نكبة طالَت قرى بأكملها، لناحية أعداد كبيرة جدًّا من الضحايا، المقاتلين منهم والمدنيين، بالإضافة إلى الجرحى، هذا إذا لم نتكلّم عن التهجير والذُّل الذي عاناه أهلنا في الجنوب. كل هذا لا يمكن التغاضي عنه، ولا يمكن اعتبار أنه لم يكن. ويمكن أيضًا تلمّس شعور الخذلان عند الناس، وبأن الحرب كانت أكثر من قُدرتها على التحمُّل. ولذا فإنه يمكن الوصول إلى نتيجة أن هذه الحرب كانت كارثية على المستويات كافة. بالإضافة إلى العطب الهائل الذي أصاب حزب الله.

ماذا عن مستقبل الطائفة، أي كيف سيرتب الشيعة بيتهم الداخلي؟ وما هي الصورة المتوقَّعة لعلاقتها بالطوائف الأخرى؟ وهل هناك حاجة لإعادة النظر من قِبل الطائفة وأبنائها حول الرؤية المستقبلية لها؟

بالنسبة إلى الرؤيا المستقبلية، فإنه رغم بداهة الخَيار

علـى المسـتوى النظـري، كأن ينظـر الشـيعة إلـى أنفسـهم وإلـى لبنـان بصفتـه بلـدًا، يجـب أن يتعايشـوا فيـه مـع باقـي الطوائـف فـي إطـار عقْـد اجتماعـي، يحـدّد لـكل فـرد فيـه حقوقـه وواجباتـه فـي إطـار مـن المواطَنـة الجامعـة لـكل الاختلافـات فيـه فـلا غالـب ولا مغلـوب. رغـم بداهـة هـذا الخيـار إلّا أنـه لـم يتـمّ إلـى اليـوم السـير بـه والعمـل علـى هدْيـه، لا بـل علـى العكـس مـن ذلـك، والأمـر لا ينطبـق حصـرًا علـى الطائفـة الشـيعية، إنمـا علـى كل المجموعـات الطائفيـة فيـه، وإن كانـت الغلَبـة فـي الفتـرة الأخيـرة، مـا قبـل الحـرب، كانـت للشـيعة، أو لحـزبٍ مهيْمِـن علـى غيـره. وهـذا يجـب أن يُحيلنـا إلـى التفكيـر فـي النظـام القائـم ككل، فـي العمـل علـى أسـباب توجّـه المجموعـات الطائفيـة والحزبيـة فيـه إلـى الاسـتقواء علـى بعضهـا البعـض والاسـتعانة بالخـارج. فالحـل لا يكـون برأيـي فقـط علـى مسـتوى مجموعـة مـن المجموعـات إنمـا فـي التفكيـر فـي عقْـد اجتماعـي يحفـظ للجميـع حقوقـه وخصوصيّاتـه.

محمود شعيب

خسارة الطائفة الشيعية لم تكن خسارة استراتيجية بقدر ما هي خسارة مادية فقط، والخاسر الأكبر هم أذرع إيران وتحالف المافيا مع الميليشيا.

مَن هو محمود شعيب؟ بينَ الولادة والطُّفولة والدِّراسة وأماكن النَّشأة؛ ماذا في الذَّاكرة من تلكَ الأيَّام؟



كاتب وناشط سياسي متمرد. نشأت في مدرسة داخلية تعنى بالأيتام، وهي «مبرة الإمام الخوئي». دراستي الأكاديمية توقفت عند مرحلة الثانوية، لكنني تابعت نظامًا دراسيًا خاصًا وحصلت على عدة شهادات ودراسات عليا، منها في الدراسات السياسية والتحليل والمنطق.

نشأت في بيروت، ثم انتقلت إلى أوروبا وأفريقيا، حيث عملت في التجارة، خاصة في مجال الأجهزة الهاتفية، ثم المجوهرات والألماس، وحاليًا أعمل في تجارة الأدوات المنزلية الكهربائية.

كان هناك تأثير سلبي بالطبع، لكن التأثير الإيجابي كان أكبر، حيث بدأت منذ وقت مبكر بالاهتمام بالشأن العام، فأصبحت المناضلين الطامحين لبناء دولة عادلة تُحكم بالقوانين، ورفضت كل الطرق التي تعتمد العنف لحل أي خلاف أو نزاع.

أدركت مبكرًا أنه في لبنان لم تكن هناك مقاومة حقيقية، بل كان هناك فصيل مكلف من إيران باحتكار المقاومة لأغراض سياسية، منها المشروع التوسعي والنووي، تحت شعار كاذب وهو القضية الفلسطينية ونصرة المستضعفين.



غارة على ضاحية بيروت الجنوبية

من وجهة نظرك؛ ماذا خسرت الطائفة الشيعية في حرب العام ٢٠٢٤؟ وإذا كان ثمّة أسباب، فما هي؟

أعتقد أن خسارة الطائفة الشيعية لم تكن خسارة استراتيجية بقدر ما هي خسارة مادية فقط، والخاسر الأكبر هم أذرع إيران وتحالف المافيا مع الميليشيا.

كيف ترى مستقبل الطائفة الشيعية وكيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

إذا استطعنا خلق قوة شيعية ثالثة ذات أبعاد وطنية، نستطيع أن نعبر بالطائفة الشيعية نحو الدولة المدنية، وخاصة بعد وفاة نبيه بري.

العلاقات السياسية للطائفة الشيعية سيئة مع أفراد الطوائف الأخرى، كما أعتقد أن علاقة زعماء الطوائف ببعضهم ليست بهذا السوء.

ترتيب البيت الداخلي للطائفة يبدأ باستعادة دورها الوطني من خلال بناء شراكات مع باقي المكونات اللبنانية والدولية، وطبعا هناك ضرورة لخوض الانتخابات البرلمانية بغض النظر عن النتائج.

من الضروري جدًا إعادة النظر والتقييم لأفراد الطائفة، وخاصة النخب والمثقفين، بغية بناء استراتيجية تضمن بقاء الطائفة الشيعية ببعدها الوطني، وكطائفة مؤسسة للكيان اللبناني، مع جدية الحديث لإبرام اتفاقيات سلام.

منى فيَّاض

لا أعتقد أن علاقة حزب الله بالطوائف الأخرى على ما يُرام

«إيران قد لا تستطيع التعويض على الشيعة... وخسائر الطائفة أكبر من أن تحصى»



الدكتورة منى فياض، ناشطة سياسيَّة وأستاذة جامعيَّة من جنوب لبنان. عُرفتْ في مواقفها المُعارضة لسياسات حزب الله ومبادئه، بخاصَّةٍ خلال حرب تمُّوز في العام ٢٠٠٦، وقد تعرَّضتْ للكثير من الاضطهاد بسبب مواقفها السِّياسيَّة.

ثمَّةَ ما لا يُغادرُ الذَّاكرةَ أبدًا: كيف ترتَسِمُ في ذاكرتُكِ العلاقةُ مع المكان وتحدّياتِها خلال الحرب الأهليَّة اللُّبنانيَّة والحروب الإسرائيليَّة على لُبنان؟

في ما يتعلَّق بالسَّكَن، عشتُ في صِغري بضعَ سنين في بلدتي أنصار، ثم سكنّا إلى بيروت، واضطُرْنا إلى مغادرة بيروت خلال الحرب الأهليَّة وذهبنا إلى قرية المروانية في الجنوب، ثمَّ عُدنا إلى بيروت بعد أن هدأت حدة المعارك. خلال الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٨٢ تركنا بيروت مجدّدًا واستأجرنا بيتًا في بحمدون لفترة قصيرة. لكن لم يكن هناك تحديات كبيرة بالنسبة لمكان السَّكن لأننا في كل مرَّةٍ كُنَّا نُهجَّر من مكانٍ، كُنا نذهبُ إلى بيوتٍ نملكُها في مناطقَ أخرى أكثر أمانًا، لم نسكُن عندَ أحدٍ. وبالتالي لم يكن لها تأثير مباشر عليَّ، لكن بالنسبة إلى الآخرين فقد كانت الأوضاعُ تعيسةً وغير مقبولة. طبعًا كان هُناك بعض التأثيرات المهمَّة لكنِّي أُفضِّلُ أن أحتفظَ بها لنفسي.

هل تأثَّر بيتُكِ في الجنوب خلال هذه الحرب؟

لا أعلم ماذا حلَّ ببيتِ أهلي في أنصار، ولا ماذا حلَّ ببيتي الذي بَنَتْه عائلتي الصغيرة على مدخل البلدة. لكن ما أعرفه هو أن البلدة تعرَّضت للقصف ما دفع بالكثير من أقربائي إلى النزوح.

كيف تقرأين حرب الـ٢٠٠٦ وكيف واكبتِ أحداثها وما تَلاها؟

في حرب الـ٢٠٠٦ كنتُ غاضبةً من هذه الحرب. منذُ ذلكَ الوقت ربطتُ بينها وبين الملف النَّووي الإيراني، وكتبتُ مقالًا في ذلكَ الوقت، وقد تبيَّنتْ صحَّةُ هذا الرَّبط رغمَ أنَّهم يُنكرونَه. حينَها اضطُهِدتُ وتلقَّيْتُ رسائلَ تهديدٍ وسرقوا لي بريدي عدَّة مرَّات، وتعرَّضتُ للاضطهاد في الجامعة أيضًا، حيث كنت أُدرِّس. حرب العام ٢٠٠٦، وبعدَ استخدام حزب الله لسلاحه الإيراني بوجه اللُّبنانيِّين في ٧ أيَّار ٢٠٠٨ وعلى إثرها كان كافيًا أن يُرهبوننا بـ«القمصان السُّود». ووقَّعوا اتّفاق الدوحة ووضعوا يدَهم رسميًّا على السُّلطة في لبنان عبر ما عُرف بـ«الثُّلث المُعطّل» الذي يُخبرُ اسمُه عنه، وقاموا بتبديل الدستور اللُّبناني.

النِّظامُ اللُّبنانيُّ نظامٌ برلمانيٌّ أكثريٌّ نتيجتُه توافقيَّة. هذا بحسب آرنت ليبهارت، وهو أهمّ وأعمق وأوّل من تحدَّث عن النِّظام التَّوافقي، ولا يرى أنَّ لُبنان نظامٌ توافقيٌّ أبدًا. يقول إنَّ هذا نظامٌ برلمانيٌّ أكثريٌّ، طريقةُ صياغتِه؛ أي أنَّ الشَّخص يدخل إلى البرلمان كمُمثِّل لطائفته، لكن مُجرَّد أن يدخلَ البرلمان يُصبحُ ممثِّلًا لكُلِّ لبنان، نتيجةُ هذا النِّظام الانتخابي الذي أطلقوا عليه «نظام ١٩٦٠» التوافقيَّ، لكنَّهم نسَفوه من أساسِه. ثمَّة فرقٌ كبيرٌ بين أن تكون نتيجة النِّظام توافقيَّة وبين أن يكونَ النِّظامُ نفسُه توافقيًّا، أي أن تأخذ كُلُّ طائفةٍ حصَّتها، كما صار عليه الحال في لبنان، ولا يسيرُ شيءٌ في البلد دون توافقهم جميعًا عليه. وتحوَّلتْ الحكومة إلى برلمان مُصغَّر وتعطَّل البلد. هذا كُلُّه نتيجة حرب الـ٢٠٠٦ وأحداث ٧ أيَّار ومؤتمر الدوحة وتغيير النِّظام من الدَّاخل عبرَ «الثلث المُعطِّل». لاحقًا «استحوا» وقالوا إنه ثلثٌ ضامن. ضمانٌ لمَنْ؟ هو مُعطِّلٌ حقيقةً وليس ضامنًا لكُلِّ اللُّبنانيِّين وإنَّما لهم فقط.

مـن وجهـة نظـرك: مـا هـي الخسـائر التـي مُنِيَـتْ بهـا الطَّائفـة الشِّـيعيَّة خـلال حـرب العـام ٢٠٢٤؟

هـي أكبـر مـن أن تُحصـى. وقـعَ تشـريدٌ وتهجيـرٌ لـم تتَّضِـحْ نتائجُـه بعـد. بـدأتْ بـوادرُ هـذه النَّتائج تظهـر، لكـن إذا اسـتمرَّ التَّهجيـرُ أكثـر وإذا اسـتمرَّ التَّهديـمُ فـي الجنـوب بالطَّريقـةِ التـي تحـدثُ الآن فالنَّتائـجُ سـتكونُ كارثيَّـةً ولا نعـرفُ كيـف ستنتهي وكيـف ستؤثِّر علـى الشِّـيعة. ليسَـت البيـوت وحدَهـا مـا يُهـدَمُ، بـل يُقـالُ إنَّ أربعيـنَ قريـةً مهدَّمةٌ جزئيًّـا أو كليًّـا، عـدا الخسـائر فـي الأحـراش وانعكاسـها علـى البيئـة، وتاليًـا هـي غيـرُ صالحـةٍ للعيـش. وأؤكِّـدُ أنَّ الإسـرائيليين يسـتعملون اليورانيـوم المُنضَّـب فـي أسـلحتهم، وهـو يتـركُ أثـرًا طويـل المـدى علـى الأرض وعلـى صحَّـةِ السُّـكَّان فـي مـا لـو عـادوا إلـى قراهـم؛ ثانيًـا الفوسـفور الأبيـض يُحـرقُ الشَّـجر، والأرضُ تُصبـحُ غيـر صالحـةٍ للـزرع لمـدة عشـر سـنواتٍ علـى الأقـل. وعليـه، حيـنَ يعـودُ الجنوبـيُّ سـيكونُ قـد فقَـدَ بيتَـه وبيئتَـه أيضًـا. حتَّـى الآن، أصبحـتْ خمسـة كيلومتـراتٍ غيـرَ قابلـةٍ للسَّـكن.

علـى الجِهـةِ الأخـرى، المُهجَّـرون عانـوا مـن عـددٍ كبيـرٍ مـن المشـكلات. وقـد رأينـا فـي أكثـر مـن حادثـة أنَّ بعـض العائـلات المهجَّـرة التـي سـكنت بيتًـا واحـدًا، ووصـل الأمـرُ أحيانًـا إلـى حـدِّ إشـهار السِّـلاح ضـدَّ بعضهـم البعـض. ونعرفُ أيضًـا أنَّ نوعًـا مـن الاحتـكاك حـدث مـع البيئـة التـي هُجِّـروا إليهـا، أكان الاحتـكاك عـن سـوء نيَّـة أم عـن حُسـنِها وصُدفـةً أو ليـسَ بصدفـةٍ، ورأينـا أنـه بسـبب عوامـل موضوعيـة احتكّـوا بالبيئـة التـي تواجَـدوا فيهـا. لأنَّ الثقافـة أو نمـط الوجـود أو حتَّـى اللَّهجـة تتغيَّـر بيـن قريـةٍ وأخـرى، فكيـف إذا كان بيـن منطقـةٍ وأخـرى وطائفـةٍ وأخـرى، بخاصَّـةٍ بعـدَ كُلِّ هـذه الانقسـامات التـي وقعـت، وبعـدَ غسـيل الدِّمـاغ الـذي أُجـريَ للشِّـيعةِ طيلـةَ أربعيـن سـنةٍ مـن حـزب اللـه والثَّقافـةِ الإيرانيَّـةِ. ثمَّـةَ ثقافـةٌ جديـدةٌ أُدخلـت علـى عقـول الشِّـيعة وأقنعتهـم أنَّهـم أشـرف النَّـاس وأحسـنهم، وأغدَقـت عليهـم مـن الأمـوال فـي الفتـرة الأخيـرةِ مـا جعلَهـم يعتـادونَ نمطًـا معيشـيًّا معيَّنًـا. وتاليًـا، فـإنَّ اقتلاعَهـم الآنَ بهـذه الطَّريقـة يجعـلُ جُـزءًا منهـم يعيـشُ حالـةَ إنـكارٍ ويتصـرَّف كأنَّـه لـم يـزل فـي المرحلـة السَّـابقة؛ يسـخرُ مـن الآخريـن ويُهدِّدُهـم ويشـعرُ بتفـوُّقٍ عليهـم. هـذا الجُـزءُ مـن النَّـاسِ لـم يسـتوعِبْ بعـدُ الكارثـةَ التـي حصلـتْ لـه، ولا كارثـةَ اغتيـال (أميـن عـام حـزب اللـه) حسـن نصـر اللـه عليهـم، وهـو الـذي كان يُطمئنهـم بخطاباتـه بشـكل دائـم. بعضُهـم لـم يـزَل ينتظـرُ المهـدي أو نصـر اللـه، هـؤلاءِ الذيـن يملكـون عقيـدةً إيمانيَّـةً لا شـيءَ يجعلُهـم يُغيِّـرون مـن عقيدتِهـم. وعليـه، لا يُؤمَـلُ أن يتأقلمـوا مـع الواقـع الجديـد إلَّا بعـدَ فتـرةٍ طويلـةٍ شـرطَ أن تتغيَّـرَ الظُّـروفُ جدّيًّـا، وإلَّا سـيظلُّون يُسـبِّبون نوعًـا مـن النِّزاعـات ضمـنَ بيئتهـم أو مـع البيئـات الأخـرى.



آثار القصف الاسرائيلي على أنصار، المدى

ثمَّـةَ جُـزءٌ مـنَ النَّـاس ينتقـدُ لكنَّـه يخـاف؛ يخـافُ كثيـرًا إذا انتقدَهـم ألَّا يحصـل علـى مسـاعدات، بخاصَّـةٍ أنَّ الدَّولـة التـي يُفتـرضُ أنْ تُقـدِّم المساعدات تحكمُهـا سـلطةٌ فاسـدةٌ وحاكمـةٌ بواسـطةِ تحالفِهـا مـع حـزب اللـه والسِّـلاح. فهـذه السُّـلطة لـن تعطيهـم أيَّ حقـوق، لـذا مُعظمُهـم خائفـون أن يتركـوا الحـزب الآن. ومؤخَّـرًا سـمعنا أنَّ إيـرانَ تُقـدِّمُ لهـم ٣٠٠ دولار لـكُل عائلـة، يعنـي أنهـا تُحـاولُ أن تشـتريهم وتُطمئنَهـم وتُبقيهـم مرتبطيـن بهـا.

فـي المُحصِّلـة، الـذي حـدث للشِّـيعةِ كبيـرٌ جـدًا وآثـارُه لـم تظهـرْ بعـدُ، والـ٣٠٠ دولار لـن تُعيـدَ إليهـم بيوتَهـم، إلَّا إذا اسـتطاعتْ إيـران أن تعـوِّضَ عليهـم ماديًّـا حقيقـةً بمليـارات الـدولارات. لكـن نحـنُ نـرى أنَّ إيـران حاليًّـا أمامَهـا تحدِّيـات كبيـرة مـن النِّظـام الأميركـي، وهنـاك سياسـةٌ أميركيَّـة جديـدةٌ ممكـنٌ أن تضغـطَ أكثـرَ علـى إيـران كـي تُقلِّـصَ نفوذَهـا الإقليمـي بسـبب تحالـف أميـركا مـع إسـرائيل. فالأرجـح أن تـزداد الضُّغوطـات علـى إيران ولا أعـرفُ كـم تسـتطيعُ إيـران أن تُلبِّـي مصالـحَ الشِّـيعةِ أو أن تُعـوِّضَ عليهـم خسـائرَهم الفعليَّـة.

فـي هـذا الوقـتِ يُفتـرضُ أن تتصـرَّفَ البيئـةُ الحاضنـةُ للمُهجَّريـن معهـم بوعـيٍ. وفـي الواقـع لقـد عاملَتهـم بشـكلٍ ممتـازٍ رغـمَ أنَّهـم كانـوا يُخوِّنونهـا ويتَّهمونَهـا بالعمالـة

فـي حيـن تبيَّـنَ أنَّ العمالـةَ هـي فـي حـزب اللـه نفسِـه. وقـد انكشـفَ الحـزبُ بعـدَ دخولِـه الحـربَ السُّـوريَّة وتعريـض نفسِـه للمخاطـر، فقـد صـاروا مكشـوفينَ علنًـا عبـر فيديوهـات يرسـلُها المُقاتلـون وعبـر الإعـلام الـذي كان فخـورًا أنَّـه يقاتـلُ الشَّـعبَ السُّـوري لمصلحـةَ النِّظـام السُّـوري، وهـذا جعلهـم مكشـوفين لـكل أجهـزة المخابـرات. نحـنُ نعـرفُ أنَّ سـوريا فيهـا كُلُّ أنـواع المخابـرات، وهـي مُقسَّـمةٌ والنِّظـامُ أضعـفُ مـن قبـلُ بكثيـر. إضافـةً إلـى أنَّ النِّظـام نفسَـه يبيـعُ ويشـتري؛ أساسًـا هـو بـاع واشـترى فـي شـعبِه وقتلَـه الكثيـر منهـم، هـل سـيُحافظُ علـى حـزب اللـه الآن؟!

أيضًـا تجـارة المخـدِّرات عنـدَ حـزب اللـه؛ أذكـرُ الفيلـم الوثائقـي الـذي شـاركت صوفيـا عمـارة فـي إخراجِـه، لـم أعـد أذكُـر علـى أيِّ وسـيلةٍ إعلاميَّـةٍ نُشـرَ، لكنَّـه بيَّـنَ بالوثائـق كيـف يقـوم حـزب اللـه بتجـارة المخـدِّرات وكيـف قامـت إدارة أوبامـا بحمايتِـه حيـنَ أوقفـتِ المُلاحقـات، إذ كانـت الــCIA والــFBI قـد أعدَّتـا مـن المعلومـات مـا يُدينُـه. لكـن جميـعَ النَّـاس تعـرفُ أنَّهـم يتاجـرون بالمُخـدِّرات والأسـلحة ومنتشـرين فـي كل العالَـم، وقـد قامـوا بعمليَّـات إرهـاب ضـدَّ معظـم الـدُّول العربيَّـة ولـم يتركـوا صديقًـا للشِّـيعة. إلـى اليـوم هُنـاكَ تقليـصٌ للوجـود الشِّـيعي واللُّبنانـي بشـكلٍ عـام فـي الخليـج وفـي أماكـن أخـرى، وهـذا كلُّـه يؤثِّـرُ علـى البيئـة.

مـاذا عـن العلاقـة بالطوائـف الأخـرى؟ وأيُّ مسـتقبلٍ ينتظـرُ الشِّـيعة؟

فـي بدايـة هـذه الحـرب، كانَ السُّـنَّةُ بشـكلٍ عـام مـع التَّضامُـن مـع فلسـطين. لكـن بعـدَ أن شـاهدوا مجريـات الأحـداث الأخيـرة أنَّ هـذا التّضامـن لـم ينفـعْ وجلَـب الدَّمـار علـى لبنـان، بـدأ حـزب اللـه فـي محاولـة مـدّ يـدِه إلـى السُّـنَّة. لكـن لا أعتقـدُ أنَّـه سـينجحُ كثيـرًا، بخاصَّـةٍ مـع مُلاحقـةِ إسـرائيل للإسـلام السِّياسـيِّ الـذي كان يتضامـن مـع حـزب اللـه، والإسـلام السِّياسـي لا يسـتطيعُ أن يبيـع ويشـتري مـع السُّـنَّة نسـبيًّا لأنَّهـم محصَّنيـن. وكمـا رأينـا أنَّ وليـد جنبـلاط بـدأ يأخـذ حـذَره فـي العلاقـة معـه، فـلا أعتقـد أن علاقـة الحـزب مـع الطَّوائـف الأخـرى علـى أحسـن مـا يُـرام.

أمَّـا البيئـة والشِّـيعة المنتشـرون فـكُلٌّ حسـب سـلوكِه؛ بعضُهـم متأقلـمٌ مـع البيئـة التـي هُجِّـروا إليهـا وبعضُهـم ينتقـدُ حـزب اللـه ضمنًـا أو علنًـا، بالعمـوم هـم مقبولـون. أمَّـا الذيـن لـم يزالـوا يسـتقوون علـى الآخريـن فيجـب أن يُقلِّلـوا مـن غلوائهـم ويتواضعـوا. أمَّـا المؤمنيـن العقائدييـن فليـسَ واضحًـا عنـدي كيـف سيكون مسـتقبلُهم، لكنَّـه ليـسَ مُسـتقبلًا مُريحًـا إلـى الآن. وثمَّـة خـوفٌ كبيـرٌ إذا اسـتمرَّت الحـربُ لأنْ ثمَّـةَ ١٠ - ٢٠٪ رافضيـن لوجودِهـم ويُظهـرون هـذا الرفـض بطـرق مختلفـة. فـإذا اسـتمرَّت إسـرائيل فـي اسـتعمال سـلاح التهجيـر وسـلاح الضـرب بعمـقٍ أكبـر تحـت شـعار ضـرب حـزب اللـه، وبهـذا يُثيـر البيئـة التـي تسـتقبلُ المهجَّريـن، مـن الممكـن أن يتغيَّـر سـلوكها وتصعِّـد مـن انتقاداتهـا. فهـذا كلُّـه مؤشِّـر لعنـف أهلـي بخاصَّـةٍ إذا كان ثمَّـة دولٌ تريـد حربًـا أهليَّـةً، فمـنَ الممكـن أن يتحقَّـق هـذا الشَّـيء. إلَّا إذا كانـت إدارة ترمـب القادمـة قـد نجحـت فعـلًا فـي الضَّغـطِ علـى إسـرائيل، لأنَّهـا أعطـتْ نتنياهـو شـهرين يُخـرِّبُ فيهمـا. لا أدري مـا الـذي سـيحدثُ خـلال هذَيْـن الشـهرين، لكـن إذا أكملـتْ إسـرائيل حربَهـا فالوضـع سـيكونُ خطيـرًا جـدًّا ولا أدري مـاذا سـوف يكـونُ عليـه المسـتقبلُ فعـلًا.

منير يونس

على الشيعة أن يخلعوا عباءة المحارِب ويتَجهوا نحو الإصلاح

«حزب الله قد يطرح المثالثة إذا زادت حدَّة الهجمة عليه»

منير يونس، كاتب وصحافي اقتصادي، له كتابات كثيرة في عدد من وسائل الإعلام المحلية والعربية. هو ابن بلدة النبي رشاد في البقاع. تنقَّل بين مختلف مناطق بيروت والضواحي، ليستقر أخيرًا في منطقة الحازمية.

يتحدّث يونس في هذا الحوار، عن تجربته الشخصية، وعن الحرب الإسرائيلية الأخيرة على لبنان ومدى انعكاسها على البلد.

بداية، مَن هو منير يونس؟



أنا من بلدة اسمها النبي رشاد، في قضاء بعلبك. درست في كلية الإعلام والتوثيق، الجامعة اللبنانية، وبمساعدة الدكتور نادر سراج من مؤسسة الحريري التربوية، تسنّت لي فرصة إكمال تعليمي في فرنسا، وهناك أنهيت دراسة الماجستير في الإعلام والألسنُيات. ثمّ تسجّلت لنيل الدكتوراه، لكنني ملَلت منها، وقرّرت أن أحصل على ماجستير في إدارة الأعمال، وكان ذلك أواخر الثمانينات. في تلك الفترة كانت الحرب الأهلية قد أشرفت على نهايتها، وفي أوائل التسعينات ترأس الرئيس الراحل رفيق الحريري الحكومة، وكنت واحدًا من الذين آمنوا بالعودة إلى الوطن، وهكذا كان. عملت في تلك المرحلة في مؤسسات إعلامية عدّة، بينها جريدة «السفير» ومجموعة «الاقتصاد والأعمال»، بعدها سافرت إلى الإمارات العربية المتحدة حيث عملت في جريدتي «الخليج» و«الاتحاد». وعندما أسّس الحريري جريدة «المستقبل» عُدت وعملت فيها لمدة سنتين، سافرت بعدها إلى الكويت وتحديدًا في العام ٢٠٠٢ وبقيت إلى العام ٢٠٢٠، حيث عملت في جريدة «القبس»، كرئيس لقسم الاقتصاد، ثم تدرّجت فيها إلى استلام إدارة تحريرها. وعندما حلّت جائحة كورونا، حدثت تطورات وتعقيدات في الجريدة إداريًّا وماليًّا أورثت تبايُنات وإشكالات لا جدوى من ذكرها هنا، فاضطررت لترك الجريدة ومغادرة الكويت. عُدت إلى لبنان في ٢٠٢٠، وساهمت في موقع «١٨٠ بوست» بجملة تحاليل اقتصادية ومالية، ثمّ في جريدة «نداء الوطن»، حيث كنت مشرفًا على ومُعدًّا لملحق اقتصادي أسبوعي، وبعدها صرت مسؤولًا عن الصفحات الاقتصادية يوميًّا وأسبوعيًّا. واستمر الأمر كذلك إلى سنة ٢٠٢٤، حيث انتقلَت ملكية الجريدة، ففضّلت الانسحاب، والتحقت بجريدة «لوريون لو جور» الناطقة باللغة الفرنسية، ولا أزال فيها إلى اليوم.

بالنسبة إلى الحروب التي شهِدها لبنان، من الحرب الأهلية إلى الحروب الإسرائيلية المتكرّرة، كيف كان تأثيرها عليك، وعلى مكان سكنك؟

بالنسبة إلى الحرب الأهلية، لم تؤثر مباشرة على بلدتي البقاعية التي كانت بعيدة إلى حدٍّ ما عن ساحات المعارك، لكن عندما انتقلت منها إلى بيروت لمتابعة دراستي الجامعية، شعرت بذلك التأثير، وأذكر هنا حرب المخيّمات التي كانت طاحنة. في تلك الفترة، لم أكن أعرف أين سأسكن، وتنقّلت بين الضاحية وبيروت. وسريعًا ظهرت مشكلة مع السكن ومحيطه، وهذه المشكلة تصبح أكبر مع شخص مثلي، لا ينتمي حزبيًّا أو طائفيًّا. عادة، مَن يكون لديه انتماء يمكنه اختيار مكان سكنه بسهولة أكبر، فهو يختار المحيط الذي يتماهى معه ويعتقد أنه يشبهه! أما أنا فعِشت معاناة نسبية في رحلة البحث عن مكان السكن، خصوصًا في الثمانينات.

لاحقًا، وعندما أنهيت دراستي في فرنسا وعُدت، اخترت الضاحية الجنوبية، ليس لأي سبب سوى أن الإيجارات فيها وتكلفة المعيشة كانت أرخص من سواها آنذاك، وأنا كنت في بداية رحلتي المهنية، فكانت مناسِبة لي. لكنني سرعان ما اكتشفت أن الضاحية، هي عالم قائم بحدٍّ ذاته، لا أقول ذلك سلبًا ولا إيجابًا. فعندما تسكن فيها تكتشف سريعًا

أنك في عالم مختلف نسبيًّا، من حيث الديموغرافيا، والحياة الاجتماعية والمعيشية والبنية التحتية. فمثلًا الرمل العالي والأوزاعي، كانتا تختلفان عن صورتهما الحالية. لكن باختلاف الزمن، فإن تلك المناطق يُنظر اليها على أنها عبارة عن عشوائيات، تعود لسببين، الفقر الشيعي التاريخي، والحرب الأهلية، التي هجّرت بعض الشيعة من عدّة مناطق، ليجتمعوا في هذه البقعة التي بعضها على شكل عشوائي بلا أي تنظيم مُدني.

سكنت في الضاحية، ولا أقول إنها تشبهني أو لا تشبهني، فأنا كنت قادمًا من فرنسا حديثًا، وكان الواضح بالنسبة إليّ أن هذا المكان لا يُشبه إلا نفسه. وفي مرحلة لاحقة، انتقلت إلى شارع مار الياس في بيروت، كانت تلك المنطقة مريحة نسبيًّا وفيها فئات مختلفة من المجتمع. وعند عودتي من الكويت، اخترت الحازمية كمكان إقامة، وهذه المنطقة مختلطة. وكان لديّ أعمامٌ ضباط في الجيش، وكلمة الحازمية كانت تتردّد على مسامعي كثيرًا في صغري، لكونها قريبة من المدرسة الحربية في الفياضية. وعندما عُدت إلى لبنان، وجدت البعض من أصحابي يسكنون في تلك المنطقة، وهكذا اعتبرتها المكان الأمثل، فالحازمية لا فرزَ فيها إلى حدٍّ ما، طائفيًّا أو مناطقيًّا.

عمومًا، وربما لأنني غير منتمٍ سياسيًّا وعشت معظم حياتي خارج لبنان، فإن تأثير تلك الحروب لم يكن مباشرًا كثيرًا عليّ وعلى معتقداتي. لكن بالشكل المعيشي واللوجستي تأثّرت حتمًا.

انطلاقًا من حرب ٢٠٢٤ ما هي الخسائر التي مُنيَت بها الطائفة الشيعية، وهل كان هناك من مكاسب؟

أوّلًا، أودّ أن أوضح أن العام ٢٠٠٠ كان يعدُّ مفصلًا جيّدًا، وهو عام تحرير الجنوب، كان يمكن للطائفة الشيعية أن تستثمر في ذلك الإنجاز، حتى لا تصل إلى ما وصلت إليه اليوم. قال البعض إن إسرائيل لم تنسحب كليًّا، ولديها أطماع، وبقيَت نقاط خلافية، لكن برغم كل ذلك كان هناك فرصة للمقاومة وحليفتها حركة أمل، ومن معهما، للعبور بالبلد إلى مرحلة أخرى، خصوصًا أن لبنان وصل إلى العام ٢٠٠٠ منهَك اقتصاديًّا وماليًّا، بعد إنهاكات عسكرية وأمنية كانت وليدة الحرب الأهلية والحروب الإسرائيلية التي عاشها البلد طوال سنوات كثيرة. ولم نكن في العام ٢٠٠١ بحاجة إلى دليل على إنهاك لبنان ماليًّا، فيكفي انعقاد مؤتمر باريس في ذلك الوقت، لإنقاذ البلاد من الإفلاس.

أعتقد أنه في العام ٢٠٠٠ كان هناك فرصة لإنقاذ لبنان، فإسرائيل كانت قد انسحبت، وباتت خَيارات البلد الاقتصادية أكثر وضوحًا بعد تجارب خائبة في التسعينات، وبالتالي كان لبنان بحاجة إلى تصحيح مالي واقتصادي وإداري جذري.

ولأن المقاومة لم تقتنِص الفرصة، حدَثت حرب الـ٢٠٠٦. ومن وجهة نظري، وعلى الرغم من كل ما قيل عن أنها كانت في مصلحة حزب الله، إلّا أنها أعطته، نشوة فائض قوة بين ٢٠٠٦ و٢٠٢٣ في جزء كبير منه كان وهميًّا، لأسباب عدة، واتضح ذلك في حرب ٢٠٢٤.

اليوم أنهكت الحرب اللبنانيين عمومًا والشيعة خصوصًا. فالصورة العامة الآن، هي تحوُّل الطائفة الشيعية، من فائض القوة إلى طائفة تشعر بالضعف حتى لو أنكر قادتها وبعض أهلها ذلك، بالإضافة الى إحساس كبير بأنها مستهدَفة ومستضعَفة. وبدأ هذا الإحساس، من خلال استهداف قاسٍ جدًّا لقيادات الحزب وعناصره وبُناه التحتية والفوقية، بالإضافة إلى ما حدث في الجنوب والبقاع من دمار. وبالتالي انتقلت الطائفة من فائض القوة، الذي كما قلنا كان وهميًّا في جزء كبير منه، إلى الواقع. وماذا يقول الواقع؟ يقول إن إسرائيل على حدودك وهناك حدود للعبة مع إسرائيل عسكريًّا وأمنيًّا، والواضح أنه لا يمكنك التمادي بالقُدرات والإمكانيات والتحالفات القائمة. لا يمكنك التمادي، فللُّعبة حدود. ثم إن الشيعة خسروا بشكل إضافي لأنهم يعيشون حاليًّا أزمة ثقة مع الآخرين. لا نُقيِّم هنا إذا كان الآخرون على حق أم لا، بل أقدّم توصيفًا. فأزمة الثقة هذه واضحة بين جزء كبير من أبناء الطائفة الشيعية، ولبنانيين آخرين، خصوصًا الذين أصبح بعضهم أكثر شراسة في استهداف الطائفة عمومًا، ولا يميّزون بين الشيعة ككل والحزب، وذلك لأسباب كثيرة يطول شرحها. إذًا هناك أزمة ثقة تحتاج الطائفة للخروج منها.

هنا أعود إلى السؤال، لا أعتقد ان هناك مكاسب، بل خسائر، علمًا أنني لا أستخدم مصطلح انتصار وانكسار. لنقل خسائر كبيرة، فالحرب أفرزت خسائر مادية تقدّر بـ١٠ مليارات دولار، ومعنويًّا أنتجت اتفاقًا لوقف النار غير مريح للحزب، هو عبارة عن سيف مصْلَت على رقبة

لبنـان، مهمـا حاولـوا التلاعـب بالمفـردات. فمَـن يقـرأ بنـود الاتفـاق الـذي علـى أساسـه تـمَّ وقـف إطـلاق النـار، يجـد خسـارة صافيـة. ثـم هنـاك الخسـائر فـي الأرواح، والمعروفـة للجميـع. إن مجـرد انتقـال الطائفـة مـن فائـض القـوة، الوهمـي ببعـض أجزائـه، والـذي كان يتـمّ صرفُـه داخليًّـا وفـي بعـض دول المنطقـة، خصوصًـا سـوريا، إلـى الوضـع الحالـي، فهـذا بحـدِّ ذاتـه خسـارة إضافيـة. أمـا عـن القـول بأنـه لا أحـد يمكنـه كسـر الطائفـة الشـيعية ديموغرافيًّـا، فهـذا المنطـق يسـتفزُّني، لأن ذلـك يميـل إلـى تكريـس المنطـق الطائفـي العـدَدي. فالتاريخ اللبنانـي زاخـر بالمحطات الدمويـة طائفيًّا التـي ليسـت وليـدة الأمـس القريـب بـل منـذ ١٨٤٠، والغريـب أن البعـض ينسـى ذلـك التاريـخ، أمـا الجيـل الجديـد فيسـمع ببعـض التعقيـدات الخطـرة ويظنُّهـا حديثـة فيمـا هـي قديمـة جـدًّا وعاشـها اللبنانيـون قبـلًا.

كيـف يمكـن للطائفـة الشـيعية أن تعيـد ترتيـب بيتهـا الداخلـي، وأن ترمـم علاقاتهـا بالطوائـف الأخـرى؟

الصـورة العامـة التـي تكوّنـت عـن الشـيعة لـدى بعـض اللبنانييـن، هـي أنهـم ينقسـمون بيـن حرامـي وفاسـد وشـهيد، هـذا هـو الانطبـاع فـي البلـد، وإن كان يمكننـا أن نميّـز علميًّـا، وبطريقـة مُغايـرة. فهنـاك مـن رأى فـي الطائفـة أنهـا مارسـت القـوة والسـطوَة علـى البلـد، علمًـا أن أطرافًـا أخـرى، وبحكـم التوزيـع الطائفـي، تُهيمـن نسـبيًّا أيضًـا. فهنـاك دولـة عميقـة تتقاسَـمها أطـراف عـدّة، وهـي موزَّعة علـى الاقتصاد والسياسـة والقضـاء والأمـن وقطاعـات أخـرى لا سـيما التربويـة منهـا حيـث لـكل طائفـة مدارسـها وجامعاتهـا. وعلميًّـا هنـا، الشـيعي نـالَ حصتـه، مثلمـا نـال الآخـرون حصصهـم. لكـن علـى الرغـم مـن ذلـك، يبقـى الانطبـاع السـائد، أن الشـيعي مهيمـن، لمـاذا؟ لأنـه يملـك السـلاح، ولأن رئيـس مجلـس النـواب نبيـه بـري، أدار ويديـر المجلـس علـى طريقتـه، وليـس وفقًـا للأصـول الدسـتورية والقانونيـة. وقـد تحـوَّل الشـيعة بنظَـر كثيريـن إلـى قـوة تعطيـل فـي مرحلـة معيّنـة. فتكـوّن بذلـك انطبـاع لـدى بعـض اللبنانييـن بـأن الطائفـة الشـيعية مُسـيطرة علـى الدولـة، ومهيمِنـة، أو تمـارس «البلطجـة»... الـخ. هـذا الواقـع الـذي نحـن فيـه اليـوم عبـارة عـن مـأزق ليـس سـهلًا الخـروج منـه. صحيـح لسـنا فـي وارد الذهـاب الحتمـي إلـى حـرب أهليـة، لكـن المـأزق السياسـي الطائفـي كبيـر جـدًّا. هنـاك أزمـة ثقـة بيـن اللبنانييـن عمومًـا ولترميمهـا نحـن فـي حاجـة إلـى وقـت طويـل، فعـدم الثقـة تعمّـق وتجـذّر وترسّـخ علـى أسـس طائفيـة أيضًـا. لسـنا أمـام مجـرّد نقـاش سياسـي وطنـي فقـط، ففقـدان الثقـة لـم يحـدُث بنـاء علـى اختـلاف المواقـف بتجـرُّد بـل لسـبب طائفـي غرائـزي، وهنـا نعـرف أننـا لا نـزال فـي أزمـة النظـام ككل. ومـن ناحيـة ثانيـة، هنـاك مشـكلة سـلاح حـزب اللـه أو مـا تبقّـى منـه، فمـاذا سـيكون مصيـر هـذا السـلاح؟ لا أحـد فـي لبنـان يمتلـك جوابًـا نهائيًّـا علـى هـذا السـؤال، فهنـاك فريـق لبنانـي يقـول بـأن هـذا السـلاح جـرّ علينـا الويـلات ويجـب تسـليمه للدولـة فـورًا. وفـي المقابـل، هنـاك فريـق آخـر، هـو حـزب اللـه تحديـدًا يقـول إنـه سـلاح لا غنـى عنـه وممكـن أن يتـمّ تجميـد اللجـوء إليـه لوقـت معيـن، لكـن لا يمكـن الاسـتغناء عنـه كليًّـا. والحـزب يختلـق الأعـذار لذلـك، مثـال التذكيـر بشراسـة إسـرائيل وخطـر وجودهـا علـى الحـدود الجنوبيـة، وخطـر حـركات داعشـية يمكـن ان تأتـي مـن الشـرق، وغيرهـا مـن الأسـباب... فيمـا يـرد الطـرف الآخـر بالقـول إن السـلاح لـم يجلـب سـوى المشـكلات وقـوَّض سـلطة الدولـة ودمّـر الاقتصـاد.

إذًا، نحـن اليـوم فـي مـأزق مسـتمر، عنوانـه أنـه لا ثقـة بيـن اللبنانييـن، يُضـاف إلـى ذلـك حساسـية طائفيـة مرتفعـة، سـببها السـلاح نفسـه وشـكْل النظـام أيضًـا. وبالتالـي فإننـا أمـام مفترقـات مختلفـة: ثمّـة مـن يقـول نعـود إلـى اتفـاق الطائـف، لكـن مـا هـو واضـح لدينـا أن ذلـك الاتفـاق لـم يطبَّـق، فعمـره أكثـر مـن ٣٥ سـنة ومـع ذلـك لـم ينفَّـذ كمـا يجـب، ثـم إن الظـروف اختلفـت بيـن مرحلـة إقـرار الاتفـاق واليـوم، فـي وقتهـا كان مفهـوم الوفـاق شـيء واليـوم هـو شـيء آخـر؛ كذلك فـي تلـك الفتـرة كان السـوري موجـود بجيشـه فـي لبنـان، وكان هنـاك احتـلال إسـرائيلي لجنـوب لبنـان، وقتهـا تـمَّ إنجـاز الصيغـة التـي نـال فيهـا كل طـرف مـا يرضيـه نسـبيًّا ومرحليًّـا، لكـن الظـروف اليـوم مختلفـة كليًّـا، فإسـرائيل أظهـرت مـرة أخـرى العيـن الحمـراء بقـوة تدميريـة هائلـة، وهنـاك تغيُّـرات علـى مسـتوى الإدارة الأميركيـة، فدونالـد ترامـب المعـروف بسياسـاته غيـر التقليديـة والحَبلـى بالمفاجـآت عـاد ليـرأس أميـركا. لذلـك أعتبـر أن الحديـث عـن تطبيـق الطائـف اليـوم هـو نـوع مـن الوهـم، حتـى لـو أتـى مـن (أميـن عـام حـزب اللـه) الشـيخ نعيـم قاسـم، الـذي قـال: «نحـن تحـت سـقف الطائـف»، علمًـا أن أحـدًا لـم يتلقّفهـا، لأنـه لا ثقـة لديـه، فنعيـم قاسـم يُـدرك أن الطائـف كان يحمـي السـلاح، فـي سـرديّة الدفـاع عـن الأرض إذا كانـت محتلّـة، وكأنـه يقصـد بذلـك «عـودوا إلـى الطائـف فلـديّ الحقّ بالدفـاع عـن النفس

وإلّا قد أنسف الطائف». أنا أرى أن الطائف مات سريريًّا ويحتاج إلى مَن يدفنه. لذلك قامت النظريات الفيديرالية واللامركزية، خصوصًا اللامركزية المالية التي تُزعج الشيعة، لأن وزارة المال بَيدهم، فاللامركزية التي تسمَح بالجباية والإنفاق مناطقيًّا تحدُّ من وهْج مركزية القرار المالي الذي لدى الشيعة. في المقابل هناك ورقة لدى الشيعة، التي لا يتكلّمون فيها إلّا سرًّا الآن، وهي ورقة المثالثة. إذا سُئلوا عنها ينفونها، لكن بحُكم الحشد الطائفي المحتدِم، وبحُكم المرض الاستفزازي الجَماعي، قد يتحفَّز الشيعة لتجاوز عملية الحْشر التي يمارسها الآخرون، ويسألونهم: كم نسبتكم من السكان؟ وكم نسبتنا؟ أعتقد أن حزب الله وغيره من الشيعة يخفون هذه الورقة ولن يظهروها إلّا إذا اضطُروا لذلك. فالمحور (الممانعة) يعيش اليوم حالة انكسار، شئنا ذلك أم أبينا، «أكس» طهران - بنت جبيل انكسر، وعليه فإن حزب الله يحضِّر نفسه اليوم لمواجهة تصعيد من خصومه الذين يحاولون الاستثمار في خسائره ومعه خسارة الطائفة الشيعية. وبرأيي أن حزب الله سيرفع تلك الورقة، وسيقول لخصومه بما أن النظام طائفي فهذه الورقة هي التي ستغيُّر النظام. وأشير هنا إلى أنه سبَق أن حصل على شيءٍ من هذا القبيل في اتفاق الدوحة، وأتحدَّث هنا عن الثلث المُعطِّل في الحكومة. وبهذا الثلث المُعطِّل حاول أيضًا تكريس فكرة الرئيس الذي يحمي ظهر المقاومة، وكرّس أعرافًا كأنها مثالثة، من دون أن تكون كذلك في الصراحة المُعلنة.

هل يمكننا القول إن ترتيب البيت الداخلي للطائفة الشيعية سيكون انطلاقًا من هذه المثالثة، إذا زادت الهجمة على الشيعة؟

أنا وأنت نريد نظامًا علمانيًّا مدنيًّا، وهذا النظام يُبنى مِدماكًا فوق مِدماك، ويحتاج إلى مجهود نخبَوي فكري سياسي ثقافي وغيره... لكن طالما أن النظام في لبنان طائفي، ولا أحد من أطراف المنظومة يطرح بديلًا له لا بل يتشبّثون به، فالأمور ستتعقّد أكثر. فنحن منذ العام ١٨٤٠ «نخبّص» في صراعات وخلافات طائفية، واليوم نحن في الـ٢٠٢٥ وما زالت القيادات تصرّ على الممارسات نفسها. فما الذي يريدونه، أعني كل اللبنانيين، أن نظلّ ١٠٠ سنة إضافية على هذه الحال؟ لا عصا سحرية للخروج من هذا النظام اللعين. لكن إذا أردنا فعلًا الخروج منه، فإن الأمر



غارات اسرائيلية استهدفت البقاع، أل بي سي

يتمّ بالتدرُّج، مثال الاتجاه إلى تبنّي قانون للزواج المدني، الانتخاب حيث يُقيم اللبناني، نُجري تعديلات في قانون الأحوال الشخصية بحيث لا تبقى السلطات الدِّينية هي المتحكِّمة، نتبنّى مداورة تولّي الوزارات والإدارات، نستثمر في علمانية الأجيال المقبلة، ونحدِّد الهدف بأننا ذاهبون إلى النظام المدني العلماني، من خلال خطط تشريعية وتنفيذية خُمسية وعُشرية وربما أكثر، وحتى لو تطلّب هذا التغيير جيلًا كاملًا، يظلّ أفضل من تكرار المآسي نفسها التي بدأت قبل أكثر من ١٨٠ سنة.

على ذلك، هل الطائفة الشيعية بحاجة إلى إعادة بلورة رؤيتها المستقبلية؟

لا بد من التفريق بين الهوية والانتماء الطائفي، فالأمران مختلفان. فعند الهجوم على النظام الطائفي، يتبادَر إلى ذهن البعض أن الهجمة هي على هذه الطائفة أو تلك. الموضوع ليس كذلك على الإطلاق. عندما نتحدّث عن الموارنة أو الشيعة، فنحن لا نتحدّث عن دين، بل عن هوية مجموعة تاريخية سكَنت في هذا المكان أو ذاك، وتقاسمت العادات والتقاليد والتطلعات. لكن تجدر الإشارة هنا أيضًا، إلى أنه داخل كل طائفة هناك انقسامات واختلافات، وهي واضحة لا تحتاج إلى البحث كثيرًا عن أدلّة عليها، فليس كل أبناء هذه الطائفة أو تلك يعيشون بنفس الطريقة ويفكّرون بالأسلوب نفسه أو لديهم نفس التطلعات، هناك أنماط حياة مختلفة لديهم، القول بأنهم واحد هذا وهْم. وأريد ان ألفت النظر هنا، شخصيًّا أنا علماني مع فصل التأثير الدِّيني والطائفي عن الدولة ومؤسّساتها، وهذا أمر محسوم لديّ. لكن بما أنه محكوم

عليَّ أن أكون من الشيعة بنظر هذا النظام (!)، فأنا سأسمح لنفسي بأن أفكّر بالنيابة عنهم، لكنني في الوقت ذاته أقول إننا اليوم نعيش أزمة السلاح الذي صبغت صورة الطائفة الشيعية به، وهذا الأمر يحتاج إلى حلٍّ قبل كل شيء، وإلى جانب ذلك لا بدَّ من تخفيف الاحتقان مع الآخرين. واليوم هناك فكرة أنصحهم بتنبّيها وهي أن الشيعة يُفترض بهم أن يقودوا إصلاح النظام، وذلك على أساس أنهم سيقدِّمون تنازلات لا مُحالة، يمكنهم من جهة أخرى أن يكونوا «طليعيين» في طلب الإصلاحات داخل النظام. وليس بالمثالثة التي أشرنا إليها سابقًا، بل في قضايا أخرى ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الاقتصادي والإداري والقضائي والتربوي... لماذا لا يتصدّون مثلا لقضية الـ١٠٠ مليار دولار ودائع التي أُهدرت ونُهبت؟ وهنا أشير إلى أن ثمة من يقول، إن حزب الله ساهم بسرقة الودائع، وعليه تفنيد ذلك والردّ عليه وتبرير مشاركته الآخرين في سلطة انتهكت حقوق الناس. وهناك مَن يزعم أن الدولة هي التي أهدرت وسرقت الودائع، فهذا أيضًا غير صحيح، فالدولة تعني الكل، وليس الكل مَن سرق، لا بدّ من تدقيق جنائي لنكتشف فعلًا مَن سرق أموال الناس. فالقول إن الدولة فعلَتها، يضيِّع المسؤولية. ثمّة من حقّق الثراء على حساب الآخرين، وهذه الشريحة تضمُّ «البنكرجية» وأصحاب نفوذ وسلطة، والنظام الفاسد سهّل كل ذلك. هذه القضايا كلها تحتاج إلى إصلاح.

وهناك العديد من القضايا الأخرى التي تحتاج إلى إصلاحات، وبينها أيضًا الإعلام، فوسائل الإعلام تحوّلت إلى «متاريس» طائفية، بالإضافة إلى عدم امتثالها للقانون من ناحية التمويل. وكذلك هناك النقابات، التي تمّ فرط عقْدها في التسعينات... كل هذه الأمور تحتاج إلى الإصلاح.

إذا كان لا بد من أن أتحدّث هنا بلسان الشيعة، فعليهم أن يكونوا إصلاحيين، وإذا كانت العناوين السياسية عصيّة على الإصلاح حاليًّا، فالبدء يكون من مكان آخر، من كل القضايا التي تحدّثت عنها.

إضافة لذلك، فلنتحدّث عن النظام المصرفي مثلًا، هل صدفة استمراره كقوة ضغط قوية بعد كل الضرَبات التي تلقّاها؟ ولنأتِ إلى عنوان شامل لكل ما ذكرت، وهو المحاسبة والمساءلة، وهذا بتقديري يحتاج إلى قضاء مستقلّ وهو بدوره يحتاج إلى إصلاح جذري.

بغضِّ النظر عمّن سيقود عملية الإصلاح في لبنان، لكنني أرى أن الشيعة قد يصنعون الفرق على هذا الصعيد إذا أرادوا تبديد الانطباع أن أحد قادتهم البارزين هو رمز الفساد في لبنان. فطالما هم كانوا يدّعون الحرمان تاريخيًّا، ويعتبرون أنفسهم مُعتدى عليهم، ويزعمون أنهم لا يملكون سلطة توازي حضورهم ونفوذهم في النظام ككل، فلماذا لا يأخذون كل هذه العناوين الإصلاحية ويسيرون بها؟

اليوم، هناك العديد من المثقفين الشيعة على مسافة واسعة من الثنائي الشيعي، وأعتقد أن الثنائي أو الشيعة إذا خاضوا عملية الإصلاح فسيقرِّبون أولئك المثقّفين منهم. لذلك أرى أن أول ما يجب حلُّه هو موضوع السلاح، وبعد الانتهاء من ذلك، يبدأ السَّير بالعناوين الإصلاحية، والتي كما قلنا تتعلّق بالقطاع المصرفي، والإعلام، والقضاء، والمساءلة والمحاسبة، وتعزيز الاقتصاد الإنتاجي، وغيرها الكثير من العناوين التي يمكن العمل من خلالها، لتتحوّل بذلك الطائفة الشيعية من طائفة «محاربة» إلى طائفة إصلاحية.

مهنّد الحاج علي

وحدها العودة إلى الدولة وكسر هيمنة حزب الله ستولّد تفكيرًا بالرؤية المستقبلية وبالخيارات الاستراتيجية لـ«الشيعة»

مهنّد الحاج علي، صحافي وكاتب، عمل في مؤسسات إعلامية مختلفة. واكب منذ صغره الأحداث اللبنانية. وقد تركت الحرب الإسرائيلية على لبنان في ١٩٨٢ أثرًا مؤلمًا عليه تمثّل بإصابة في أُذنه لا يزال يعاني منها إلى اليوم.

للحاج علي ذكريات كثيرة حول الحرب ومآسيها، وكذلك له رؤيته حول مستقبل الطائفة الشيعية، ويوضح كل ذلك في هذا الحوار:

مَن هو مهنّد الحاج علي، ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟



وُلِدت في الاغتراب، والدي من النبطية ووالدتي من بيروت. توفي والدي وأنا في سن السادسة لهذا لم أعرفه سوى من خلال أصدقائه والأقارب. الحرب الأهلية شطَرت عائلة والدتي شطرين، إذ كان عندي خالان يسكنان في المنطقة الشرقية وكنّا نزورهما بشكل دائم، وأمضيت ساعات طويلة من عمري منتظرًا على المعابر. مدرستي في فردان كانت يسارية الهوى، وإدارتها فلسطينية، بما انعكس على أهوائنا السياسية في سنوات المراهقة. كنّا نزور النبطية في عطَل نهاية الأسبوع والصيف، علاوة على فترة «حرب التحرير» التي أمضينا عامًا دراسيًّا كاملًا خلالها في المدينة وجوارها. أنا من حيّ البياض في النبطية، المرتفع نسبيًّا عن بقية المدينة، ويطلّ على التلال المحيطة.

كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك، ثم في حرب الـ٢٠٠٦ واليوم في ٢٠٢٤؟

الحرب الأهلية انعكست على وضعي العائلي، إذ توفّي والدي مبكرًا نتيجة مرض في القلب فاقمت فيه ظروف الصراع والفوضى. سكنتُ مع والدتي في منطقة البسطة الفوقا، وكنت أمضي شهور الصيف كل سنة تقريبًا مع عائلة والدي في النبطية وبيروت وأينما اختاروا لتمضية عطلتهم. بقيت في لبنان حتى عام التحرير (٢٠٠٠) حين خدَمت لسنة في الجيش اللبناني، ومن ثم انتقلت للعمل في صحيفة «الحياة» في لندن.

ما هي التحديات المتعلّقة بالوجود المكاني خلال هذه الحروب؟

التحديات كانت غالبًا القصف وإيجاد مكان آمن للمكوث به والتنقُّل لتبضُّع حاجات المنزل من طعام وخلافه، والذهاب إلى المدرسة. القصف الإسرائيلي على بيروت في الثمانينات ترك فيّ وفي عائلتي أثرًا عميقًا، وتحديدًا القلق والخوف. على المستوى الصحي، أدّى القصف الإسرائيلي عام ١٩٨٢ إلى ضعف في سَمع أذني اليمنى ما زال يُلازمني حتى اليوم.

في حرب الـ٢٠٢٤... من وجهة نظرك، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية؟ وهل كان هناك من مكاسب؟

الخسائر الشيعية سابقة على الحرب، إذ إن حزب الله وكجزء من استراتيجيته القائمة على التأسيس لمجتمع مقاومٍ قادر على تحمُّل آلام الصراع الدائم، عمل على مستوى التعليم والثقافة العامة. هيمَن على الإعلام والإنتاج الثقافي الشيعي، ومنَع تنوُّع الآراء والأفكار داخل المجتمع بحجة تأمين حصانة ضد الاختراق الأمني الخارجي. كانت النتيجة طبعًا أن المجتمع الشيعي دفع ثمن هذه الهيمنة على مستوى الخيارات السياسية والثقافية، في حين أظهرت الحرب مستوى اختراق أمني إسرائيلي في صفوف حزب الله كان استثنائيًّا على المستوى العالمي. لهذا علينا حين ننظر إلى خسائر المجتمع الشيعي، أن نتأمّل أبعد من الدمار،

إلى حال الثقافة والتنوُّع. ذاك أن التنظيم كحال بقية الجماعات الإسلامية، يتبنّى مقاربة سلبية حَيال العالم، ويبني علاقات مع الآخر مبنيّة على السلبية والخوف من الهيمَنة، ولهذا تأثيرات على التعليم والثقافة العامة ودور الشيعة في النقاش العام، وعلاقتهم بالطوائف الأخرى والعالم الخارجي. مقاربة الهيمَنة لم تتوقف فقط على مجال الثقافة والتعليم والإعلام داخل المجتمع الشيعي، ولكن أيضًا على الحوزة العلمية حيث دأب التنظيم على محاربة الآخر، ولعب دور وزارة الأوقاف في الدول البعثية في وضع هوامش ضيِّقة في الخطاب الدِّيني.

هذه خسائر لمجتمع كان متنوِّعًا. الهيمَنة الحزب اللاهيّة ومن ضمن أدواتها فرض الأعراف المحافظة، كانت طاردة لأي تنوُّع ثقافي وديني في المجتمع الجنوبي. كل ذلك حصل باسم الحرب المقبلة قبل اندلاعها، وآثارها أكثر ديمومة وعمقًا من التدمير المادي للصراع نفسه.

اليوم انتهت الحرب بهذه النتيجة، لكن المجتمع الشيعي يفتقد العناصر والحراك الداخلي المطلوب لإعادة إنتاج نخبة سياسية جديدة. ما زال يعلِك الخطاب القديم نفسه لأن الحبْكة المؤسّساتية التي تقبُض على المجتمع بأسره، ما زالت على حالها وبتمويل خارجي. والإطباق على التجمُّعات وأي نشاط غير موالٍ للتنظيم، ما زال على حاله باسم حماية السلاح والمقاومة والتحضير للمواجهة المقبلة. الخسارة الأكبر للحرب في أنها تُعيد إنتاج عناصر ومقدّسات ومحاذير تخنُق أي محاولة لخرق الهيمنة الحزب اللاهيّة على الثقافة العامة.

كيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؟

هذا السؤال شقّان، الأول كيف سيرتِّب الشيعة بيتهم الداخلي؛ والثاني كيف يجب أن يفعلوا ذلك. في الأول، أعتقد بأننا غُداة التغيير السياسي في سوريا، نرى تفكّكًا للحافز الأساسي لسياسات العقْد الماضي، ألا وهو الخوف. كان هناك قلق وخوف من مجازر بحق المسيحيين والشيعة والعلويين على أيدي الإسلاميين، وتدمير المقامات الدينية الشيعية أو تدنيسها. في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، كان الخوف الخالي من أي حسابات منطقية، هو المتحكّم بالقرار وجعل الثقة بحزب الله عمياء لجهة اتخاذ قرارات الحرب والسلم والدخول في مواجهة من عدَمها. مجريات الوضع العام أظهرت عدم صحة كل هذا الكلام.

الواقع أن النظام السوري سقَط ورئيسه فرَّ إلى المنفى ومعه مليارات الدولارات، ولم تحصل مجازر بحق الناس، ولم تُسجل اعتداءات بحق المقامات. بل بالعكس، يشعر اللبنانيون ومنهم الشيعة اليوم بصدمة حيال مشاهد فتح السجون وتحرير السجناء من المعتقَلين فيها، والكشف عن تفاصيل عمليات التعذيب والإعدام الوحشية. اليوم، الطائفة الشيعية في صدمة حيال هذا الواقع. لماذا جُنّد آلاف الشباب وأُرسلوا للقتال والموت دفاعًا عن هذا النظام، إذا كان رئيسه تخلّى عن شعبه وهرب بهذه السرعة، سيما وأن خطر الإبادة والاعتداء والوحشية يأتي منه وليس من خصومه؟ هذا السؤال الصعب ليس يتيمًا عند اللبنانيين الشيعة، بل هم أيضًا يطرحون مثيله بما يتعلّق بخَيار الحروب المتواصلة مع إسرائيل. هل من المصلحة الشيعية فتح الجبهة الجنوبية بهذا الشكل المتكرّر، سيما وأن غزة لم تستفِد من القتال فيها والتضامن معها، بل استمرت الحرب؟

الافتراض هو أن هذه الأسئلة ستفتح الباب أمام تغيير في واقع الحال، والمقاربة السياسية. وهذا مطلوب ويجب أن يكون من عناصر التحفيز لتغيير في النهج السياسي. لكن المسار المنطقي للتغيير ودروس الماضي أمر، والواقع أمر آخر. ذلك أن حزب الله أسّس لمجتمع طيّع يرفض التغيير ويُقارب الاختلاف بالرأي بالشكّ والسلبية على أساس التخوين وتبسيط العالم من خلال تقسيمه لمعسكرَين، شر يتمثّل بالغرب وإسرائيل، وخير فيه إيران وحلفاؤها. تفكيك مفاهيم هذا المجتمع تحتاج إلى سنوات، ولا تستطيع خسارة الحروب والتوازنات السياسية وحدها إعادة صقلها، حتى لو تداعى حزب الله وخسر تمويله الإيراني كما يتوقّع كثيرون. لو حصل ذلك، سيخرج الشيعة من سجن كبير أعلى حزب الله جدرانه وقُضبانه من هذا التبسيط المفرَط لعالم مُعقد. فعل ذلك من خلال زرع غابات من الخوف لتطويع المجتمع. الشيعة يخشون الاختراق الإسرائيلي والغزو الثقافي الغربي، يخشون الآخر اللبناني بشبهة العمالة أو التآمر. حتى المقاربة السياسية باتت مملوءة بالخرافات، من الاعتقاد القاطع بالانتصار على الإسرائيليين في حرب ٢٠٢٤ برغم الدمار الهائل بين البشر والحجر، إلى الإيمان بقدُرات خارقة، وقد اتضح

فـي ساحات المعركـة أنهـا غيـر موجـودة. الجماعـات تتقوقَـع حيـن تكثُـر خرافاتهـا لحمايـة نفسـها.

لهـذا لا يكفـي سـقوط خيـار سياسـي للخـروج مـن هـذه القوقعـة، بـل مـن الضـروري إيجـاد سياسـات لدمـج مجتمـع حـزب اللـه مـع عمـوم اللبنانييـن، مـن قَبيـل مراقبـة المناهـج الدراسـية والإشـراف علـى المسـاجد والحسـينيّات ووسـائل الإعـلام ومحتواهـا والمؤسّسـات الخدميـة الحزبيـة التـي تلعـب دورًا تثقيفيًّا أيضًا. ذلـك أن التنظيـم يتـرك لنـا عشـرات آلاف الجرحـى ومئـات آلاف المصابيـن بمتلازمـات الحـروب كاضطرابـات الصدَمـات، ممـن أُهملـوا بدعـوى خرافـات القـدُرات الخارقـة للمجتمـع المقـاوم. لمثـل هـذه الحـالات عواقـب اجتماعيـة سـتبقى معنـا جيـل أو جيليـن متتالييـن.

والحـال أن الشـيعة اليـوم فـي وضـع اقتصـادي – اجتماعـي بالنسبة إلـى بقيـة الطوائـف اللبنانيـة، ليـس ببعيد عـن حالهم قبـل الحـرب الأهليـة. الإحصـاءات الاقتصاديـة تُبيـن واقعهـم الاجتماعـي، بعيـدًا مـن خرافـات الثنائـي وادّعاءاتهـم بالتطويـر والتنميـة. كان لـدى الطائفـة الشـيعية أمـل فـي إجـراء تغييـر بُنيـوي فـي واقعهـم الاقتصـادي الاجتماعـي نتيجـة الاغتـراب والتحـوّلات السياسـية فـي لبنـان، إلّا أن سياسـة الانخـراط فـي النزاعـات بعـد التحريـر فـي العـام ٢٠٠٠، جعلـت التنميـة نوعًا مـن الهرطقـة المثيـرة للضحـك. بحجـة المقاومـة، أُرجئـت كل مظاهـر الحيـاة، وباتـت ثانويـة.

مـا هـي الصـورة المتوقّعـة لعلاقـة الطائفـة الشـيعية بالطوائـف الأخـرى فـي الوطـن؟

الانخـراط فـي المشـروع الوطنـي اللبنانـي بـات ضـرورة ملحّة. والمصالحـة غالبًـا تبـدأ بالمصارحـة حيـال أخطـاء المرحلـة الماضيـة والخيـارات السياسـية التـي أضـرَت بلبنـان ككل. مثـل هـذه المقاربـة تفتـح بابًـا لمصالحـات لبنانيـة - لبنانيـة بعـد سـنوات القتـال فـي سـوريا والأزمـات الداخليـة المفتَعلـة لتجنُّـب السـؤال الملـحّ عـن دور الجيـش والدولـة واحتكارهـا



دمار هائل في منطقة البسطا، صيدا اونلاين

السـلاح بعـد التحـرُّر مـن الاحتـلال الإسـرائيلي. الالتـزام بدولـة المواطَنـة يفتـح البـاب أمـام علاقـة سـويّة، واندماج بالمشـروع اللبنانـي ليـس مـن بوابـة الحصـول علـى حصـة مـن الدولـة، بـل هيكليّتهـا ومؤسّسـاتها والالتـزام بمشـروعها الوطنـي بعيـدًا مـن كل الحسـابات الماضيـة العابـرة للحـدود.

هـل هنـاك حاجـة لإعـادة النظـر، مـن قِبـل الطائفـة وأبنائهـا، بالرؤيـة المسـتقبليّة لهـا؟

الضـرورة الأولـى هـي الفُـكاك مـن القبضـة الأمنيـة لحـزب اللـه. فـرض التنظيـم خـلال السـنوات الماضيـة وبحجـة الحفـاظ علـى أمـن المقاومـة وحمايتهـا، إجـراءات قمعيـة بحـقِّ أي حـراك سياسـي وشـعار مغايـر. لمـاذا تحصـل التجمُّعـات الشـيعية المعارضـة كمثـل النشـاطات الانتخابيـة خـارج مناطـق الطائفـة؟ ولمـاذا يتعـرَّض أي صـوت مُغايـر عـن الاجمـاع، للضـرب المبـرِّح وعلـى شاشـات الهواتـف لإذلال صاحبـه (فيديوهـات قبـل السحسـوح وبعـده)؟ لأن المواطـن الشـيعي مسـلوب الحقـوق فـي مجتمعـه نتيجـة قـرار سياسـي بذلـك. وحدَهـا عـودة الدولـة اللبنانيـة بالجيـش والقـوى الأمنيـة وكسْـر الهيمَنـة الحـزب اللاهيّـة، سـتولّد تفكيـرًا بالرؤية المسـتقبلية وبالخيـارات الاسـتراتيجية المتّخـذَة سـابقًا. أمـا اليـوم، لدينـا شـخصيات معارضـة غيـر قـادرة علـى مخاطبـة النـاس والتفاعـل معهـم بحريـة نتيجـة القبضـة الأمنيـة والثقافـة التخوينيـة التـي زرعهـا الحـزب.

نجاة شرف الدين

تحالفات الطوائف تؤسِّس لصراعات دائمة

«حرب الـ٢٠٢٤ خسارة كبيرة للشيعة وانكسار»

نجاة شرف الدين، إعلامية من بلدة الطيّبة الجنوبية. وُلدت في عائلة عصامية، من والدَين عملا بجهد لتأمين احتياجات أسرتهما المكوَّنة من سبعة أولاد، إذ كافحا معًا من أجل مواجهة صعوبات الحياة ومتطلّباتها.

تنقّلت شرف الدين في مؤسّسات إعلامية مختلفة أبرزها مجلة «الشراع» وتلفزيون «المستقبل». مارسَت مهنتِها بشغَف، مستندة إلى وعيها الثقافي والسياسي الذي تشكّل باكرًا، مترافقًا مع الحرب الأهلية في طفولتها.

تتحدّث شرف الدين في هذا الحوار عن تجربتها، ومواضيع أخرى أبرزها تأثر اللبنانيين جميعهم بالحروب، من دون أن تكون تلك الويلات، خاصة بطائفة بعينها.

بدايةً، مَن هي نجاة شرف الدين؟



أنا مواطنة عادية من عائلة عاملة من بلدة الطيّبة في جنوبي لبنان. وُلدت في منطقة الشياح في ضاحية بيروت الجنوبية، بعد أن استقرّ أهلي هناك. كان والدي موظفًا في شركة «طيران الشرق الأوسط»، ووالدتي تساعُده في العمل بمهنة الخياطة في المنزل، كوننا عائلة كبيرة نسبيًّا (سبعة أفراد، عدا الوالدين). درست هناك في المرحلة الإبتدائية، وفي المرحلة الثانوية التحقت بثانوية فخر الدين في منطقة النويري، ومن بعدها انتقلت إلى المرحلة الجامعية في الجامعة اللبنانية كلية الإعلام والتوثيق في منطقة الكولا.

كيف كان تأثير الحروب على مكان إقامتك؟ وماذا عن ارتباط المكان بالذاكرة؟

الشياح هي المنطقة التي أمضيت فيها طفولتي، عشت فيها أكثر من ثلاثين عامًا. وانتقلت منها في العام ٢٠٠٦ لفترة وجيزة إلى منطقة الحمرا، ثم في العام ٢٠٠٧ إلى الرملة البيضاء. الشياح، هي المنطقة التي عشت فيها طفولتي، التي تزامنت مع بدء الحرب الأهلية. وفي الشياح عين الرمانة، كانت مرحلة صعبة جدًّا ولّدت عندي موقفًا عدائيًّا للحرب، أُصيب والدي خلالها بقذيفة وعانى كثيرًا، كما عانينا من الهرَب خلال مرحلتين، الأولى في أواخر السبعينات إلى قريتنا الطيّبة ومن ثم في العام ١٩٨٢ عند الاجتياح الإسرائيلي أيضًا إلى الطيّبة. تغيّرت معالم الشياح كثيرًا مع مرور الزمن. في فترة الحرب، عانينا في الحيّ الذي كنا نقطنه بسبب ميولنا اليسارية، وتعرّضنا للعديد من المضايقات، بخاصة من قِبل قوى الأمر الواقع، ومن أبشع الذكريات يوم أُصيب والدي والمعاناة في الوصول إلى المستشفى واستكمال مرحلة العلاج. أيضًا عندما عُدنا إلى البيت وكان قد تعرّض للسرقة، وغيرها من الأمور التي تحدث في هكذا ظروف بشِعة ومؤذية.

في مرحلة الحرب بين المدرسة والجامعة، بدأ تشكُّل وعيي السياسي من خلال أصدقاء يساريين، وفي الجامعة التي التحقت بها في العام ١٩٨٦ وتخرَّجت منها في العام ١٩٩٠ مع نهاية الحرب، كانت أجواء الصراع السياسي تنعكس في داخل الجامعة من خلال نشاطات وندوات وأيضًا احتكاكات بين القوى السياسية.

الحرب الأهلية كان لها الأثر الأكبر لأنها رافقت طفولتي ومدرستي وجامعتي ومكان سكني، ومع نهاية الحرب شعرتُ بأن مرحلة جديدة تنتظرني خاصة أنني بدأت العمل في مجلة «الشراع»، وأذكر ان أولى التحقيقات التي أجريتها كانت عن حلِّ الميليشيات، ومن بعدها انتقلت للعمل في تلفزيون «المستقبل» مع بداية إنشائه في العام ١٩٩٣، وتولّد عندنا أمل مع وصول رفيق الحريري وما تبِعه من إعمار.

في حرب العام ٢٠٠٦ انتقلت إلى الحمرا وكنت أعمل في التلفزيون (المستقبل)، وكانت الأوضاع السياسية مختلفة، فقد كانت مرحلة ما بعد اغتيال الشهيد الرئيس رفيق الحريري. ورغم الموقف من حزب الله إلّا

أن الحرب طالت لبنان بكافة مناطقه، وكانت أيضًا مرحلة صعبة لكنها لم تطُل كثيرًا، (٣٣ يومًا)، والمواقف الدولية والعربية أيضًا كانت مختلفة وساهمت في وقف الحرب وإعادة الإعمار ولم يكن هناك أزمة مالية وسرقة أموال الناس في البنوك.

في أي حال، في تلك الحرب دُمِّر بيتنا في بلدة الطيّبة، وكنّا قد بنيناه بعد التحرير، فكان لهذه الحادثة أثرًا سلبيًا جدًا في حياتي لأن والدي بناه في ظروف صعبة وكان يعني له الكثير، ثم أعَدنا بناء المنزل بعد الحرب، واستغرق جهدًا كبيرًا لا سيما أن الدمار حفَر عميقًا في وجداننا.

في العام ٢٠٢٤ وأثناء الحرب كنت أعيش في منزلي في الرملة البيضاء، وكنا قد نقلنا والدتي من الشياح منذ سنتين لأنها لم تستطِع الصعود على الدرج، إلى بيروت. ولكن هذه الحرب كانت من أصعب الحروب، بسبب استباحة الأجواء وتفاصيلها كانت مُرعبة ويومياتها أيضًا مُرعبة جرّاء الأسلحة المستخدَمة إلى كسر جميع المحرَّمات، واللافت فيها استهداف مناطق معيّنة في الجنوب والبقاع والضاحية الجنوبية إضافة إلى بيروت الغربية وعدّة مناطق في لبنان. استخدمت فيها إسرائيل وسائل الإعلام للترهيب وأحدث ما توصّلت إليه التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي. وشعرت كأننا نعيش فيلمًا هوليووديًا وليس واقعًا. صراحة هذه المرة الأولى التي لم أتحمّل فيها ما يجري. غادرت لبنان لمدة شهر، ولكنني عُدت وعِشت الأسبوعين الأخيرين من هذه الحرب المدمّشرة، بشقّ النفْس.

انطلاقًا من حرب الـ٢٠٢٤، ما هي خسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية، وهل كان هناك من مكاسب؟

بالنسبة للحديث عن الطوائف، أنا لم أفكّر بها يومًا ولا تعنيني، أما ما خسرَته الطائفة الشيعية أو ربحته، بالطبع هي لم تربح شيئًا، بل خسرت الكثير وانكسرت، لا سيما بوجود نظام طائفي، كل طائفة فيه تنتظر خسارة الأخرى، لتُترجم ذلك في النفوذ والسلطة.

لكن على الرغم من كل ما جرى، أرى أنه من المبكِر الحديث عن تداعيات نتائج الحرب الأخيرة، لأننا لم نعرف حجم خسارتها الفعلي، وعلينا انتظار ما بعد الستين يومًا



دمار في بلدة الطيبة

لأن التدمير مستمر، وأنا لا أعرف مثلًا مصير منزلنا في الطيّبة لأنه غير مسموح حتى الآن زيارة القرية.

كيف ستقوم الطائفة بإعادة ترتيب بيتَها الداخلي؟ وهل يجب إعادة النظر بالرؤية المستقبلية لها من قِبل أبنائها؟

لا بد لي هنا من القول، إن لبنان كما عِشته وأعرفه، لم يستطِع، مع الأسف، بناء مواطَنة حقيقية، لذلك أعتقد أنه على كل الطوائف المراجعة ومحاولة خلق أحزاب وتيارات غير طائفية، لأن لبنان هو مجموعة أقليات وإذا ما قام في كل مرحلة تحالف بين طائفتين بمواجهة الطائفة الثالثة سيتمُّ التأسيس لصراعات دائمة.

وانطلاقًا من حرب الـ٢٠٢٤، فإنني أقول إن كل الحروب هي خسارات، والأخيرة كانت شديدة القسوة في الدمار والتهديم. وطبيعي أن ينعكس كل ما حدث على موقع الطائفة الشيعية ودورها، وأيضًا علاقتها بالآخرين. هناك ربما أزمات قادمة في الطائفة نفسها، وتحتاج إلى وقت لمعرفة على ما سترسو المنطقة، وهل هناك من مساحات للانخراط في نظام غير طائفي، أو أقرب إلى العلمانية، كي لا يكون هناك صراعات وحروب متكرِّرة؟

وأختم أنه لطالما كان أبناء الطائفة الشيعية ملتحقين في كل الأحزاب، قبل الحرب الأهلية وبعدها، من مؤيِّدين لحزب الأحرار إلى الكتائب إلى الحزب التقدمي الاشتراكي والحزب الشيوعي اللبناني ومنظمة العمل الشيوعي وكافة التيارات اليسارية إضافة. لكن أن يكونوا كلهم قوة واحدة كما حصل أخيرًا، فهذا شيء جديد في الحياة السياسية الشيعية، التي كانت قد اعتمدت في بداياتها السياسية على العائلات مثل: آل الأسعد، وعسيران، وحمادة وسواها، ثم الأحزاب القومية الأخرى.

هناء جابر

الشيعة في «تيه وتشتُّت» لأنهم خسروا سندَهم السياسي

«الطائفة تعرَّضت لصدمة لا يمكن التنبُّؤ بتداعياتها... وعليها الاعتراف بالهزيمة»

هناء جابر، ناشطة حقوقيَّة وباحثة في شؤون اللاجئين ودراسات الشرق الأوسط. تركت قريتها بنت جبيل لتسكُن في صيدا، وأجبَرتها الحرب الأهليَّة على مغادرة لبنان عام ١٩٨١. حصلت على ماجستير في الفلسفة وعملت في الصحافة والتعليم ثم حصلت على دكتوراه في دراسات الشرق الأوسط. اهتمّت بشؤون الثورة السورية وشجونها منذ اليوم الأول لبدايتها، وعادت إلى لبنان بعد اغتيال لقمان سليم.

في إطار سعيِها لدراسة شؤون الطائفة الشيعية، بخاصَّة بعد الحرب الأخيرة على لبنان، قامت «أمم للتوثيق والأبحاث» بإجراء هذه المقابلة مع هناء جابر، وكان معها هذا الحوار:

مَن هي هناء جابر ما بين الولادة والطفولة والدِّراسة والارتباط بالمكان؛ كيف ترتسمُ في ذاكرتك تلك المرحلة؟



وُلدتُ في بنت جبيل، في منتصف الستينات. في السبعينات انتقلنا من بنت جبيل إلى صيدا، لكن أبي وأمّي لم يتكيَّفا مع ذلك فعادا إلى بنت جبيل بعد سنة. في العام ١٩٨١، وبعد أن كثُرَ الحديث عن احتمال اجتياح إسرائيل للبنان، استبق أهلي الأمر وسافرَ من عائلتي الكبيرة من استطاع إلى ذلك سبيلًا. أنا سافرت إلى فرنسا، وأيضًا أمضَيتُ فترة طويلة في الأردن بإطار عملي كباحثة في شؤون اللاجئين. حصلتُ على ماجستير في الفلسفة وعملتُ في الصحافة والتعليم وعدّة مجالات مرتبطة باختصاصي، ثم انتقلت إلى البحث في شؤون الشرق الأوسط وحصلتُ على دكتوراه بدراسات الشرق الأوسط. أمضيتُ حوالى الأربعين سنة خارج لبنان ولم يكن لي علاقة واسعة بالشأن اللبناني أثناء تلك الفترة، إلى حين اغتيال لقمان سليم في ٣ شباط ٢٠٢١، عُدتُ من فرنسا وقرَّرتُ أن أهتمَّ بالشأن اللبناني أكثر.

أستطيعُ أن أرسم لك خريطة من ذاكرتي في بنت جبيل. خريطة تبدأ بمنزلنا، ثم أرضنا وطريق عيترون، الحيّ الذي يسكنُه أقاربُنا، منازل عمّاتي وخالاتي وجيراننا. أذكرُ كلَّ هذه الجغرافيا العائلية إذا جاز التعبير. أذكرُ شيئًا من سوق بنت جبيل، طريق عين إبل، طريق عيترون أذكرُه جيدًا.

ثمة ما لا يغادر الذاكرة بسهولة، كيف كانت تأثيرات الحروب التي شهدها لبنان على مكان إقامتك؟

نحن كنَّا في صيدا، أي تقريبًا كنَّا على هامش الحرب. أذكرُ فتيل الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ مع اغتيال معروف سعد، لكن في صيدا لم نعِش حرب السنتين، إذ كنَّا على الهامش. لكن، في الوقت نفسه، أهلي وإخوتي الذين يكبرونني كانوا يتعاطون الشأن العام وبيتُنا كان مفتوحًا على الدوام، فكان الحديث عن الحرب شأنًا يوميًّا؛ عبرَ قراءة الجرائد التي كانت تصلُنا يوميًّا، عبرَ التعليقات على الأحداث، عبرَ الأشخاص الذين كانوا يزوروننا. فعشتُ الحرب بهذا الإطار، لم أنخرط بها. كنتُ أهتمُّ طبعًا. أذكرُ حين كنتُ في الحادية عشرة من عمري، عام ١٩٧٦، ذهبتُ خِلسةً إلى دورة تسليح ينظِّمها الحزب الشيوعي، وكان أخي أحد المدرِّبين. حين رآني صُدمَ من وجودي هناك وأعادني إلى البيت لأنِّي كنتُ صغيرة. قبلَ ذلك أيضًا، صديقاتي في الحيّ كُنَّ يقُمن بنشاطات ضمن منظمة العمل الشيوعي ويأخذْنَني معهنَّ. أذكرُ في تلك الفترة، في صيدا القديمة، كان معنا شاب لم أعُد أذكر اسمَه يُدرِّبنا على القنبلة اليدويَّة، الرمَّانة. كانت تلك المرة الأولى التي أُمسك فيها سلاحًا. كان شعورًا عجيبًا، شعرتُ أنِّي في قلب الحدث. أذكرُ أيضًا في ذلك الوقت أنَّ جريدة «النداء» الناطقة باسم الحزب الشيوعي اللبناني، كانت تنشر صوَرًا للشباب الذين يستشهِدون وهم بعمر ١٤ و١٥ سنة، فكنتُ أريد أن أستشهد وتُنشَر صورتي. لاحقًا بدأت أتساءل: إذا تكلّموا عن «بطولاتي» بعد موتي فأنا لن أكون موجودة لأسمع ماذا يقولون، إذن «بلا هالموتة».

أبـي، رحمـه اللـه كان يخـاف علينـا كثيـرًا، وقـرَّر أنَّـه لا يريـد مـن أحـدٍ منَّـا أن يبقـى فـي البلـد. وكان يُبـرِّر ذلـك بأنَّـه ليـس فـي البلـد رجـل سياسـةٍ يسـتحقُّ أن نكـونَ معـه. لقـد كانـت لأبـي العديـد مـن المواقـف ووجهـات النظـر، لكنَّـه لـم يكـن مقتنعًـا بجـدوى الحـرب أبـدًا.

وأذكـر أيضًـا أنـه خـلال الحـرب الأهليـة لـم يتـأذّى بيتنـا فـي بنـت جبيـل باسـتثناء قذيفـة أصابـت البئـر. لكـن مـن العـام ١٩٨٧ وحتـى العـام ٢٠٠٠ لـم نكـن قادريـن علـى زيـارة البيت. فهُجِـرَ البيـت، لكنـه بقـي واقفًـا.

أمـا فـي العـام ٢٠٠٦ كان مـن المفتـرض أن أزور بنـت جبيـل، أنـا وابنـي وزوجـي فـي ذلـك الصيـف، وكنَّـا قـد حجَزنـا بطاقات السـفر وجهّزنـا أنفسـنا. فجـأةً جـاء زوجـي وقـال: لـن نذهـب، لأنَّـه فـي اليـوم نفسِـه الـذي كنَّـا سـنأتي فيـه تـمَّ خطـف الجندييـن الإسـرائيليين. لـم أصدّقْـه فـي البدايـة. كنَّـا فـي عمَّـان نتابـع الأخبـار، والتحـق بنـا أخـي مُنـذر وعائلتـه إلـى عمّـان. كان الانطبـاع العـام مأسـاوي؛ رأينـا زوجـة عمِّـي تخـرج مـن تحـت الـركام، وجارتَنـا أيضًـا، ورأينـا بيتَنـا مُدمَّـرًا. كنَّـا نـرى ذلـك علـى التلفزيونـات مباشـرة، «لايـف»، وكانـت مشـاهد صعبـةً جـدًا علينـا. فقـد رأيـت منزلنـا وقـد دمّـر بالكامـل. ثـم أعدنـا بنـاء المنـزل مجـدَّدًا بعـد انتهـاء الحـرب، ورفضنـا أخـذ التعويضـات مـن حـزب اللـه. قبِلنـا تعويضـات الحكومـة فقـط، أعتقـد أنَّ التعويضـات كانـت مـن قطـر. لكـن هنـاك أشـخاص أخـذوا تعويضـات مـن الحكومـة ومـن حـزب اللـه والـذي كان يملـك شـقة صـار يقـول أملـكُ شـقتين. نحـنُ رفضنـا تعويضـات حـزب اللـه كموقـف سياسـي، لكـن أخـي كان يقـول لهـم هناك محتاجـون أكثـر منَّـا. لكـنَّ الحقيقـة أنَّـه كان موقفًـا سياسـيًّا.

انطلاقًـا مـن الحـرب الأخيـرة علـى لبنـان، أي حـرب ٢٠٢٤: مـاذا خسـرت الطائفـة الشـيعية برأيـكِ؟ وكيـف تقرئيـن انعكاسـات الحـرب عليهـا؟

هـذه الحـرب كانـت علـى مرحلتيـن. طيلـة السـنة الماضيـة، وهنـا أتحـدَّث عـن الأجـواء التـي أعرفُهـا، كان هنـاك إجمـاع علـى رفـض الحـرب، إلّا فئـة مـن الشـيوعيين الشـيعة فـكان رأيهـم مؤيِّـد للدخـول فـي حـرب الإسـناد. كانـوا مؤيِّديـن طالمـا أنَّ الحـرب لـم تكـن تؤثِّـر علـى مصالحهـم. لكـن بعـدَ توسُّـع الحـرب فـي ٢٣ أيلـول ٢٠٢٤ لاحظـتُ تغيُّـرًا عنـد كل النـاس. ثمّـة فئـة مـن النـاس الذيـن لـم يعيشـوا الحـرب وليـس لديهـم مصالـح يخسـرونها فـي البلـد، هـؤلاء لـم يزالـوا مـع الموقـف الإيرانـي. فـي اليوميـن السـابقين لا أميّـز المواقـف، لأنَّ المواقـف تتبـدَّل بحسـب التدميـر. ثمّـة أنـاسٌ أراقبهـم وأتابعهـم؛ كانـوا يقولـون نـزفُّ الشـهيد الشـيوعي فـلان، لكـن عندمـا بـدأ القصـف علـى بنـت جبيـل صـاروا يقولـون لا نريـد الحـرب، وإلـى أيـن يجـب أن نذهـب؟ وإلـى أيـن تأخذوننـا؟

مـاذا خسـرت الطائفـة؟ أولًا، خسـرت انتماءَهـا اللبنانـي، أو بالأحـرى هـو سـؤالٌ بحثـيٌّ يجـب أن يُطـرح: هـل خسـرت انتماءَهـا اللبنانـي؟ أم أنهـا بـدأت تتنبّـه إلـى أنَّهـا ليـس لهـا حضـنٌ إلا لبنـان؟ النـاس لـم ينتبهـوا، إلَّا الآن، أنَّ الجميـع تخلَّـى عنهـم، بـدءًا بإيـران ولـم يبـقَ لهـم إلّا وطنهـم. أنـا منـذ زمـنٍ أقـول لهـم، علـى نهـج سـمير قصيـر، عـودوا إلـى لبنانيّتكـم تعـودون إلـى الوضـوح. أعتقـد أنَّهـم يسـألون الآن: مـاذا فعلنـا؟ ومـاذا حـلّ بنـا؟

هـل ما جرى هـو مسـؤوليُّتهم كطائفة؟ بالمعنى السوسـيولوجي: نعـم، هـم ظلُّـوا سـاكتين طيلـة الوقـت. حتـى أولئـك الذيـن يعيشـون فـي فرنسـا وأميـركا، لمـاذا لـم يقولـوا إنهـم لا يريـدون الحـرب؟ بـل يدّعـون إنَّ عامـل الخوف يمنعهـم. فإذًا لا نسـتطيع أن ننفـي وجـود بيئـة حاضنـة للحـزب الـذي أدخلَنـا فـي هـذه الحـرب. هـذه البيئـة بـدأت تتغيَّـر، وهـي لا تُريـدُ أن تدفـع الثمـن وحدَهـا. وهنـا يظهـر سـؤالٌ آخـر: لمـاذا يجـب علـى الشـيعة وحدَهـم أن يدفعـوا الثمـن؟ ثمَّـة مجموعـةٌ مـن الزُّعران الموجـودة فـي الحكومـة، مـن مسـيحيين وسـنّة ودروز، تواطأت مـع حـزب اللـه ومكَّنتـه مـن السـيطرة.

المسـألة الأخـرى المهمَّـة هـي أنَّ الشـيعة لـم يتنبّهـوا بعـدُ كـم هـم منكوبـون. الطائفـة الشـيعية حاليًّـا منكوبـة بالمعنـى الكامـل للكلمـة؛ تشـظُّوا جغرافيًّـا وليـس معروفًـا إن كانـوا سـيعودون إلـى بيوتهـم وقراهـم أم لا؛ ليـس معروفًـا أيُّ نـوع مـن العلاقـات الاجتماعيـة سـوف يؤسِّسـون ويبنـون مـن جديـد؛ ولا أيُّ تمثيـلٍ طائفـيٍّ سـيحصلون عليـه؛ ولا إن كان ثمّـة إعـادة إعمـار لمنازلهـم أم لا. خسـروا أرواحهـم، باعوهـا للشـيطان، وهـذا مؤسـفٌ جـدًا. طبعًـا المطلـوب أن نتعامـل بحـسٍّ وطنـي ونحضـن هـذه الطائفـة، لكـن لا أعـرف حقيقـةً كيـف يمكـن للواحـد منَّـا أن يحضـن هـذه الطائفـة المنكوبـة التـي لـم يعـد لديهـا هويّـة. لا إمكانيـة لإعـادة بنـاء الهويّـة القديمـة، لأن حـزب اللـه عمـل علـى ثلاثـةِ أجيـال وليـس جيـلًا واحـدًا. كيـف يمكـن أن تُقنـع شـابًّا بعمـر العشـرين أنَّنـا لـم نكـن هكـذا، وأنَّنـا نسـتطيع أن نعيـش بوعـيٍ سياسـيٍّ آخـر؟ لا أعـرف. بمعنـى معيَّـن، لقـد خسـروا أنفسَـهم فـي لبنـان، وأيضًـا صـار هنـاك الكثيـر مـن الصعوبـات التـي تواجـه الشـيعة

الذيـن يسـافرون إلـى البلـدان العربيـة، كمصـر والمغـرب. تـمَّ وسـمُهُم بالإرهـاب بسـبب حـزب اللـه، وهـذا مؤسـفٌ جـدًّا.

كيـف يُمكـن للطائفـة الشـيعية إعـادة ترتيـب بيتهـا الداخلـي وعلاقاتهـا بالطوائـف الأخـرى؟

بدايـةً الاعتـراف بالهزيمـة، وأن يُقـرّوا بأنَّهم لبنانيـون. النَّاس بدأت تتحـدَّث وتنتقـد أكثـر مـن قبـل. خسـارة حـزب الله أشـبه بصخرة كانـت علـى صـدْر الشـيعة وأُزيحـت، فالنـاس بـدأت تتحـدّث عن ذلـك بخفَـر. إلـى أي مـدى سـيذهبون فـي انتقاداتهـم، لسـتُ أدري. الآن لا يزالـون يـرون بيوتهـم المدمَّـرة مـن خـلال الصـور والفيديوهـات، لكـن حيـن سـيدخلون إلـى قراهـم ويـرون الدَّمار لا يمكننـا التنبُّـؤ بـردَّة فعلهـم. لكـن علينـا أن نتحضَّـر لحقيقـة أنَّنـا نريـد إعـادة إعمـار مـا تهـدَّم. ليـس ثمّـة خيـارٌ آخر. السـؤالُ هـو: هـل سـيعودون إلـى قُراهـم؟ ومـاذا سـيحلُّ بالقـرى التـي دُمِّـرت؟ هـذا كلُّـه لا نسـتطيعُ معرفتـه الآن. لكـن الشـيعة الذيـن سـيبقون فـي لبنـان هـم لبنانيـون، وبالتالـي كيـف سـيبنون أنفسَـهم كلبنانييـن؟

هنـاك ترومـا جماعيـة، صحيـح. العمل؟ الاعتـراف بأننا خسـرنا كل شـيء لكـن لـم نـزل أحيـاء. وتاليًـا كيـف يجـب أن نعيـش؟ نريـد أن نعيـش بكرامتنـا كمواطنيـن وكبشـر. لدينـا إمكانيـات سياسـية لنعيـش كمواطنيـن، وهنـا يأتـي دور النُّخبـة لتلعـب دورًا بفـرض المسـاواة فـي المواطنيـة، فكونُهـم نازحيـن لا يعنـي هـذا أنهـم مواطنـون درجـة ثانيـة. وهنـا ثمّـة إشـكالية قـد تحـدث وقـد تحوِّلُهـم إلـى محروميـن فعـلًا، أي عـودًا علـى بـدء. مـاذا يجـب أن نفعـل اقتصاديًّـا واجتماعيًّـا وجغرافيًّـا؟ إذا عـادوا إلـى قُراهـم فهـذا أقـلُّ خسـارةً لأنهـم يسـتطيعون أن يؤسِّسـوا حياتهـم مـن جديـد. وهُنـا يأتـي دور أغنيـاء الطائفـة والمانحيـن، لإعـادة بنـاء المـدارس والمؤسّسـات وإعـادة الدخـول فـي النسـيج الوطنـي. لا بُـدَّ مـن وضـع تصـوُّر كامـل عـن الخسـائر علـى كل المسـتويات. ومـن الممكـن أن نعتبرهـا فرصـة لإعـادة بنـاء البلـد ككُل؛ لـم يبـقَ فـي البلـد شـيئًا، فلنؤسِّـس مـن جديـد ونبنـي علـى أُسُـس جديـدة.

يمكـن أن يلجـأ الحـزب إلـى الارتـداد علـى الداخـل، مـن هنـا ليـس أمامنـا سـوى المطالبـة بدولـة ومؤسّسـات تحمـي الفـرد بغـضّ النظـر عـن رأيـه، وتفرض عليهـم أن يعـودوا إلـى لبنانيّتهم؛ فليُفكِّـروا كمـا يشـاؤون لكـن ممنـوعٌ أن يفرضـوا رأيهـم علـى أحـد. وبالمناسـبة، نحـن نتحـدّث عـن حـزب الله وننسـى جماعة حركـة أمـل المتغلغليـن فـي دوائـر الدولـة. هـؤلاء لا أعـرف مـاذا يمكـن أن تُعالَـج أوضاعهـم.



غارات استهدفت بنت جبيل، يا صور

علـى العمـوم نحـن بحاجـة إلـى وَرشـات عمـل ودراسـة تجارب حصلـت فـي أماكـن أخـرى مـن العالـم. لكـن يبقـى أن احتضان أي فئـة مكسـورة هـو الحـلّ، الاحتضـان وليـس الاسـتبعاد والنَّبذ والشـماتة. وأيضًـا مطلـوب وجـود قـوى وأجهـزة أمنيّـة تجعـل النـاس تشـعر بالأمـان بشـكلٍ كافٍ ليفرضـوا نـزع السـلاح وعـدم اسـتقواء فئـة علـى أخـرى، بخاصـة العقائدييـن، علـى باقـي الشـيعة غيـر العقائدييـن.

هـل الطائفـة الشـيعية قـادرة علـى الاندمـاج مجـدّدًا ضمـن النسـيج اللبنانـي؟

الطائفـة تعرَّضـت لصدمـة لا يمكـن التنبُّـؤ بتداعياتهـا. لـم يشـاهدوا قُراهـم ومنازلهـم بعـد؛ مـن سـيعوِّض عليهـم؟ كـم سـيُعوَّضُ عليهـم؟ هـل سـيناريو إعـادة التوطيـن فـي البقـاع سـيحدُث؟ هـل يسـتطيع البقـاع اسـتقبال أهـل الجنـوب؟

هـل هنـاك حاجـة لأبنـاء الطائفـة الشـيعية لإعـادة النظـر برؤيتهـا المسـتقبليّة؟

الشـيعة الآن دخلـوا فـي مرحلـة التّيـه لأنهـم لـم يبـقَ لديهـم سـنَد سياسـي يسـتندون عليـه. قبـل هـذه الحـرب، كانـت مرحلـة هجـرات، يذهبـون ويعـودون وكان مرجعهـم لبنـان أو حـزب اللـه. الآن انتهـت المرجعيـات فدخَلـوا فـي التّيـه. لـم يبـقَ مَعلـم يرجعـون إليـه؛ لا الطائفـة ولا الدولـة ولا البلـدة. وهـذه إحـدى إشـكاليات الدمـار؛ تدميـر المعالـم التـي قـد يعـودون إليهـا بذاكرتهـم. الآن فقـط دخلـوا فـي التّيـه، إذ قبلهـا كانـوا كغيرهـم مـن الطوائـف؛ المسـيحيون هاجـروا كثيـرًا لكنهـم عـادوا إلـى لبنـان، والسُّـنَّة أيضًـا ولكـن بدرجـة أقـل. مـن هُنـا إنَّ مفهـوم الدولـة يجـب أن يكـون هـو المرجـع الـذي يُخرجهـم مـن هـذا التّيـه.

واصف عواضة

على الطائفة الشيعية مغادرة العقلية التي تحكّمت بها في المرحلة الماضية وخصوصًا لدى الثنائي الشيعي

إعلامـي لبنـاني، كاتـب وصحافـي. إنـه واصـف عواضـة، عُـرف لـدى الكثيـر مـن اللبنانييـن مـن خـلال إطلالتـه عبـر «تلفزيـون لبنـان» مـن خـلال نشـرات الإخبـار. ابـن الجنـوب اللبنانـي وتحديـدًا الناقـورة. لـه كتابـات عـدّة تنـاول فيهـا الشـأن اللبنانـي مـن مختلـف جوانبـه.

فـي هـذا الحـوار المقتضَـب يشـرح عواضـة لـ«أُمـم» بعضًـا مـن جوانـب شـخصيته ورؤيتـه لمسـتقبل الطائفـة الشـيعية.

مَـن هـو واصـف عواضـة، مـا بيـن الـولادة والطفولـة والدراسـة والارتبـاط بالمـكان؟



أنـا ابـن بلـدة الناقـورة، أمضيـت طفولتـي ودراسـتي حتى المرحلة الثانويـة بينهـا وبيـن مدينـة صـور، انتقلـت إلـى بيـروت فـي العـام ١٩٧٦ وبـدأت دراسـتي الجامعيـة ثـم العمـل الصحافـي فـي العـام ١٩٧٧ ولا أزال.

ثمّـة أمـور لا تُغـادر الذاكـرة بسـهولة... كيـف كانـت تأثيـرات الحـرب الأهليـة عليـك وعلـى مـكان سـكنك ثـم فـي حـرب الـ٢٠٠٦ واليـوم فـي حـرب الـ٢٠٢٤؟

شـاركت فـي الحـرب الأهليـة فـي العـام ١٩٧٥ مـع الحركـة الوطنيـة. رافقـت مـن خـلال مهنتـي كل الوقائـع، وأصـدرت كتابًـا بعنـوان «ليـس كمثلِـه يـوم» عرَضـت فيـه معظـم مراحـل معايَشـتي لأزمـات الوطـن. فـي العـام ٢٠٠٦ تابعـت الحـرب عـن كثَـب مـن خـلال وجـودي فـي جريـدة



دمار كبير في الناقورة، النهار

«السـفير»، حيـث كنـت رئيسًـا لقسـم المحلّيـات السياسـية فيهـا، ومـن خـلال «تلفزيـون لبنـان» كمسـاعد للمديـر العام. وفـي العـام ٢٠٢٤ تابعـت الحـرب متنقّـلًا بيـن منزلـي فـي خلـدة والمجلـس الشـيعي الأعلـى فـي الحازميـة، كمستشـار إعلامـي لرئاسـة المجلـس، ورئيـس تحريـر موقـع «الحـوار نيـوز».

مـا هـي التحديـات المتعلّقـة بالوجـود المكانـي خـلال هـذه الحـروب؟

لـكل مـكان تحدّياتـه المختلفـة، مـن الخطـر إلـى التوتُّـر إلـى المسـؤوليات العائليـة وقـد عبرناهـا علـى خيـر والحمـد للـه.

فـي حـرب الـ٢٠٢٤... مـن وجهـة نظـرك، مـا هـي الخسـائر التـي مُنيـت بهـا الطائفـة الشـيعية؟ وهـل كان هنـاك مـن مكاسـب؟

الخسـائر كبيـرة ماديًّـا وبشـريًّا وسياسـيًّا، ولكـن لا يمكـن حصـر نتائجهـا السياسـية الآن قبـل تبلـوُر الوضـع فـي المنطقـة خصوصًـا مـا يجـري فـي سـوريا. صحيـح أن المقاومـة التـي تعبِّـر عـن الطائفـة لـم تنهـزم، ولكـن مـن المبالغـة الحديـث عـن انتصـارات.

مـاذا عـن مسـتقبل الطائفـة، أي كيـف سـيرتِّب الشـيعة بيتهـم الداخلـي؟

الأمـر يتطلَّـب مراجعـة صريحـة وواقعيـة ونقديـة للمرحلـة

الماضيـة، وقـراءةً لمسـتقبل المنطقـة، والانفتـاح علـى الداخـل، وإن لـم يحصـل ذلـك فـإن المصيـر سـيكون مقلقـا.

مـا هـي الصـورة المتوقَّعـة لعلاقة الطائفـة الشـيعية بالطوائف الأخـرى فـي الوطن؟

أرجِّـح أن تكـون علاقـة جيـدة، لأن الشـراكة الوطنيـة المتوازنـة هـي الخـلاص للطائفـة ولـكل لبنان. وللأسـف، ليس علـى قاعدة الطوائـف الضعيفـة. ولعـل الخَـلاص فـي دولـة المواطنـة.

هــل هنــاك حاجــة لإعــادة النظــر، مــن قِبــل الطائفــة وأبنائهــا، بالرؤيــة المســتقبلية لهــا؟

مــن دون شــك، وإن لــم يحصــل ذلــك فــلا قيامــة للطائفــة. وهــذا يحتــاج إلــى حديــث طويــل.

ولكــن يجــب مغــادرة العقليــة التــي تحكّمــت بالطائفــة خــلال المرحلــة الماضيــة، خاصــة لــدى الثنائــي الشــيعي وخصومهمــا معًــا.

وجيه قانصو

«حرب ٢٠٢٤ خلقت إرباكًا على مستوى البيئة المؤيّدة للحزب ودفعت الشيعة إلى إعادة التَّفكير»

وجيه قانصو، مفكّر لبناني، أكاديمي وباحث وأستاذ مادة الفلسفة في الجامعة اللبنانية. له العديد من المؤلّفات والمقالات حول اللاهوت الإسلامي، الفلسفة، التأويلات، إضافة إلى السياسة. هو ابن الجنوب وتحديدًا ابن قرية الريحان في قضاء جزين لكنه نشأ في ضاحية بيروت الجنوبية ما جعله على تماس مباشر مع بيئة حزب الله.

في هذا الحوار يربط قانصو الزمان بالمكان من خلال استذكار تأثيرات الحرب الأهلية اللبنانية على مكان إقامته، ويقدّم قراءة في واقع حزب الله وحروبه، سواء الخارجية منها أو الداخلية، متحدِثًا عن الطائفة الشيعية وما عانته من تلك الحروب وما لم تحقّقه.

مَن هو وجيه قانصو؟ وبينَ الولادة والطُّفولة والدّراسة؛ كيف تستعيدُ تلكَ المرحلةَ؟



وُلدتُ في قرية الرّيحان، قضاء جزين، ثم نشأتُ في الضَّاحية الجنوبية؛ في برج البراجنة تحديدًا، حيثُ انتقلَ والدي إليها للعمل. لذلكَ أقولُ أنِّي حملتُ ذكرياتٍ من الجانبَيْن؛ من جِهةٍ القريةُ التي توفِّرُ الخيالَ الجميل والطّبيعةَ المتنوّعة وطيبةَ النَّاس. ومن جهةٍ ثانيةٍ، ذكريات المدينة بتنوُّعاتها الثّقافيّة والاجتماعيَّة والدِّينيَّة. وهذا ما سمحَ لي أنْ أنشأَ كلُبنانيٍّ، تشرّبتُ الهويَّة اللُّبنانيَّةَ بجماليَّتِها؛ بأغانيها؛ بمروجِها الجميلةِ وبحرِها الجميل. أعشقُ هذا البلدَ، وقد بقيتُ مشدودًا إليه بعدَ أن سافرتُ إلى الولايات المتّحدة لأدرس، يومَ كُنتُ في السَّابعةَ عشرة من عُمري. دائمًا كانت لديَّ رغبةٌ بالعودة بعدَ انتهاء مهمَّتي العِلميَّة. أنهيتُ دراستي وعُدتُ إلى لبنان أستاذًا في الجامعة الأميركيَّة بعدما أنهيتُ مرحلةَ الدكتوراه في الهندسة، ثُمَّ انتقلتُ إلى الجامعة اللُّبنانية أستاذًا في كليَّة الهندسة. وأثناء هذه الفترة تسنَّى لي أن أدرسَ الفلسفة فأنجزتُ الدّكتوراه وانتقلتُ إلى كليَّة الآداب في الجامعة اللُّبنانيَّة، وأصبحتُ أستاذًا في كليَّتَيْ الهندسة والآداب.

ثمَّةَ ما لا يُغادرُ الذَّاكرةَ أبدًا؛ كيف تستذكرُ الحربَ الأهليَّةَ وتأثيراتِها عليكَ وعلى مكان سكنك؟

الحرب تركت دمغةً صعبةً ومؤلمة. الحربُ تُشعِرُ الإنسانَ بانعدام الاستقرار والأمان. اختبرتُ الحربَ الأهليَّة يومَ كنتُ في الثَّالثةَ عشرة أو الرَّابعةَ عشرة. اختبرتُ هذه الحرب، وكُنَّا نُضطَّرُ أحيانًا إلى الانتقال من مكانٍ إلى آخر، لكنَّ الألم وعدم الاستقرار وعدم الأمان ظلُّوا موجودين، ولعلَّ هذا الذي دفَعني إلى السَّفر في وقتٍ لاحق.

الحربُ هي تناقضاتٌ لم يكن في الإمكان حلُّها بالوسائل العقليَّة والمنطقيَّة والأخلاقيَّة؛ هي تراكم تناقضاتٍ، سواءٌ في بُنية الواقع اللُّبناني نفسُه، وفي بُنية الواقع العربي نفسُه، تناقضات القضيَّة العربيَّة نفسِها. كُنَّا نعيشُ هاجس القضيَّة الفلسطينيَّة والهوية العربيَّة، لكنَّ الحرب الأهليَّة بيَّنتْ كم هي المشاريعُ مُتناقضة وكم أنَّنا كُنَّا نقفُ على فوهةِ بُركان؛ بيَّنتْ تناقضاتِ المشروع العربي والمشروع القومي وهو مشروعٌ يُعاني ما يُعانيه، وقد كانَ طوباويَّاتٍ وأنظمةَ استبدادٍ تستعملُ القضيَّة الفلسطينيَّة والقضيَّة العربيَّة ذريعةً لها.

عِشتُ بعدَ ذلكَ وفي نفسي أملٌ أنَّ هذا البلدَ سينهض، لكنَّ تناقضاتٍ جديدةً كانت تدخلُ إلى الواقع؛ كُنَّا تحت مظلّة الوجود السُّوري، أو الوصاية السُّوريَّة المُبطّنة، وكان النُّفوذ الإيراني يتمدَّدُ بشكلٍ هادئ وغير مباشر. في ذلك الوقت، كانَ ممكنًا أن نُسوِّغَه بأنَّه لا بُدَّ من وجود مقاومةٍ لتحرير الأرض، لكن بعدَ التَّحرير عام ٢٠٠٠ تبيَّن أنَّ هُناكَ مسارٌ آخرٌ وترتيباتٌ أُخرى ونوايا مُختلفة لم تكن مُرتبطةً أساسًا بالمشروع الوطني، أو الفكرة الوطنيَّة اللُّبنانيَّة.

كيـف قـرأت علاقـة الشيعة بالطوائـف الأخـرى فـي لبنـان منـذ العـام ٢٠٠٠؟

إنَّ تعريـفَ حـزب اللـه بأنَّـه حركـةٌ جهاديَّـةٌ يوضِّـحُ المسـارَ الـذي سـارَ فيـه الحـزب. لـم يكـن هـذا المسـارُ واضحًـا فـي البِـدء، أو بالأحـرى لـم يكـنْ مُعلَنًـا. مـا كان مُعلَنًـا أنَّـه مسـارٌ سياسـيٌّ دخـلَ فيـه حـزبُ اللـه لعبـةَ الانتخابـاتِ، لكنَّـه كان يُريـدُ الإمسـاكَ بالقـرارِ الشِّـيعيِّ وقـد أخَـذَ الأمـرُ وقتًـا. كمـا أنَّ الحـزبَ لـم يعمـلْ فقـط علـى الإمسـاكِ بالقـرار الشِّـيعي، بـل عمـلَ علـى بنـاءِ ذهنيَّـاتٍ ونمـطِ تفكيـرٍ جديـد؛ حتَّـى التَّشـيُّع تـمَّ التَّرويـجُ لنمـطٍ مُـؤوَّلٍ ومؤدلَـجٍ منـه يهـدفُ إلـى خدمـةِ قضيَّـةٍ سياسيَّـةٍ وقضيَّـةٍ إيديولوجيـة. فحـزبُ اللـه بعـدَ العـام ٢٠٠٠ كان يسـيرُ فـي سـياقٍ آخـر؛ كان يعمـلُ علـى تجهيـزِ نفسِـه عسـكريًّا حيـثُ تحـوَّل مـن مجموعـة مقاوميـن إلـى جيـشٍ نظامـيٍّ ذي هيكليَّـة تامَّـة لديهـا مؤسسـاتٍ اجتماعيَّـةٍ واقتصاديَّـةٍ، ففعـلًا كان يَصـدُقُ عليـه أنَّـه دولـةٌ داخـل الدَّولـة، لأنَّ كل هـذه المؤسَّـسات كانـت خـارج رقابـة الدَّولـة وخـارج نظامِهـا الضَّريبـي. والسـلاحُ كان يدخـلُ بطريقـةٍ فوضويَّـةٍ وبأريحيَّـةٍ تامَّـة خـلال فتـرة الوصايـة السُّـورية.

ثـمَّ جـاءَ اغتيـالُ رفيـق الحريـري. وبغـضِّ النَّظـر عـن تفاصيـل أدائـه السِّياسـي، لكـن كانَـتْ لديـه رغبـة فـي أن يأخـذ لُبنـان حيِّزَه الواسـع فـي نهضتِـه الاقتصاديَّـة والسِّياسـيَّة. مقتَـلُ رفيـق الحريري كان الضَّربـةَ الأولـى الكبـرى، وجـاءتْ بعدَهـا حـرب العـام ٢٠٠٦ التـي كشـفت المسـار الـذي يسـيرُ فيـه حـزبُ اللـه. الحـروبُ دائمًـا تحمـلُ بداخلِهـا رسـائل، إذ تكشـفُ أشـياءَ كثيـرةً تكـونُ مُضمَـرةً. وبالفعـلِ فـي العـام ٢٠٠٦ أصبحنـا أمـام واقـعٍ جديـدٍ لـم يعُـدْ فيـه حـزبُ اللـه كمـا كُنَّـا نعرفُـه. لـم يعـدْ حـزبَ تحريـرِ مـا تبقَّـى مـن أرضِ شـبعا، هـذه المجموعـة الصغيـرة مـن القـرى ذاتِ المشـروعيَّة القانونيَّـة والدُّوليَّـة الضعيفـة والمُتهافتـة. الحـزبُ باتَ فـي مـكانٍ آخـر. جـاءتْ حـربُ العـام ٢٠٠٦ لتقـولَ لنـا إنَّ هـذا السِّـلاحَ، ووضعيَّتَـه فـي الدَّاخـل، غيـرُ قابـلٍ للنِّقـاش؛ وأنَّـه سـلاحٌ مُسـتقلٌّ فـي قـرارِه وإدارتـه وأولويَّاتِـه وطبيعـةِ نشـاطاتِه وعلينا أن نتعامـلَ معـه كأمـرٍ واقـعٍ. وبرغـمَ الجُهـد الـذي كان لفتـحِ النِّقـاش حولَـه اسـتمرَّ الحـزبُ فـي مسـارِه إلـى أن جـاءَ اتِّفـاق الدَّوحـةَ بعـدَ احتـلال بيـروت فـي ٧ أيَّـار ٢٠٠٨ ليؤكِّـدَ أنَّ سـلاحَه غيـرُ قابـلٍ للنِّقـاش، وخرجـوا علينـا بثلاثيَّـة «جيـش شـعب مقاومـة». اتِّفـاق الدَّوحـة كان بمثابـة استسـلام واضـح لقـوى ١٤ آذار للأمـر الواقـع، استسـلامٍ مُقابـل بعـضِ المناصـبِ والمواقـعِ السِّياسـيَّة. جماعـةُ ١٤ آذار كانـوا مشـغولين بلعبـة السُّـلطة ولـم يكونـوا جدِّيِّيـن فـي موضـوع السِّـيادة ومشـروع الدَّولـة، وحـزب اللـه الـذي وجَـدَ عندَهـم شـراهةَ السُّـلطة أعطاهُـم مـا يُريـدونَ وانتزعَ منهـم سـيادة لُبنـان. فثلاثيَّـة «جيـش شـعب مقاومـة» تتعامـلُ مع المقاومـة، أي سـلاح حـزب اللـه، كمؤسسـة قائمـة بذاتِها ومُسـتقلَّة عـن الشَّـعب؛ هـي تتحالـفُ مـعَ الشَّـعب وتتحالـفُ مـع الجيـش. وهـذه مقولـةٌ متناقضـةٌ منطقيًّـا لـكُلِّ تعريفـات الحُكـم والدَّولـة والسِّياسـة، لأنَّ الأسـاسَ المنطقـيَّ هـو أنَّ كُلَّ شـيءٍ ينبثـقُ مـنَ الشَّـعب؛ المُقاومـةُ تنبثـقُ مـن الشَّـعبِ، ومـنِ الشَّـعبِ تنبثـقُ الدَّولـةُ ومـنَ الدَّولـة ينبثـقُ العمـلُ المُسـلَّح. هـذه هي المسـارات الطبيعيـة والمنطقيَّـة لأي واقـعِ حُكـمٍ أو نِظـام. أمَّـا حـزبُ اللـه فقـدَّمَ مُعادلـةً غيـرَ منطقيَّـة، مُتناقضـةٌ منطقيًّـا، ليُرسِّـخ سـلاحَ الأمـر الواقـع. وسـلاحُ الأمـر الواقـع ليـسَ فقـط أنَّ حـزبَ اللـه يسـتطيعُ تنفيـذَ عمليَّـاتٍ عسـكريَّةٍ وأمنيَّـةٍ خـارجَ لُبنـان بالطَّريقـةِ التـي يُريدُهـا والتـي عبَّـر عنهـا أمينُـه العـام السَّـابق حسـن نصر اللـه حيـنَ قـال: «سـنكونُ حيـثُ يجـبُ أن نكـون». أي أنَّـه لا توجـد أيُّ اعتبـاراتٍ لمرجعيَّـات القانـون ومؤسّسـاتِه. إنَّما المسـألةُ مسـألةُ تقديـرٍ ذاتـيٍّ للأمـور، وهـذا عبـثٌ إذْ لا تسـيرُ أمـورُ الـدُّولِ ولا تُسـيَّرُ شـؤونُها بهـذه الطَّريقـة.

إذًا، هـذه الثُّلاثيَّـةُ مـع الثُّلـثِ المُعطِّـل، فتحـتْ الطَّريـقَ واسـعةً أمـام حـزب اللـه ليتحكَّـمَ بالسِّياسـةِ اللُّبنانيَّـة فـي الدَّاخـل؛ عطَّـل رئاسـةَ الجمهوريَّـة حتَّـى اسـتطاعَ فرضَ رئيـسٍ للجمهوريَّـة، ويُعطِّلُ الآن الانتخـابَ ليفـرضَ رئيسًـا يُريدُه، وتمكَّـن من التَّأثيرِ والسَّـيطرةِ علـى كُلِّ القـراراتِ السِّـياديَّةِ فـي الدَّولـة، وغطَّـى الفاسـدين الذين تسـبَّبوا بالانهيـار. فالحـربُ عـام ٢٠٠٦ هـي اللَّحظـةُ التَّاريخيَّـةُ بعدَ لحظـةِ العـام ٢٠٠٠. العـام ٢٠٠٠ كان فرصـةً للجميـع كـي ننشـغلَ فـي بنـاء الدَّولـة، ولحظـةُ الـ٢٠٠٦ وتداعياتُهـا هـي لحظـةُ انهيـارِ الدَّولـة بالكامـل والتَّحكُّـمِ الكامـل بمقـدِّراتِ الدَّولـة مـن قِبـلِ حـزب اللـه. فنحـنُ فعليًّـا كُنَّـا تحـتَ وصايـةٍ مُبطَّنـةٍ حينًـا وظاهـرةٍ حينًـا آخـرَ مـن قِبـل حـزب اللـه فـي واقعنـا السِّياسـيِّ اللُّبنانـي.

ماذا بعد حرب الـ٢٠٢٤؟

حـرب العـام ٢٠٢٤ مرحلـةٌ جديـدةٌ تُعبِّـرُ عـن وضعيَّـةٍ مُختلفـةٍ عـن وضعيَّـة العـام ٢٠٠٦. فـإذا كان غـرضُ حـرب تمُّـوز ٢٠٠٦ التَّأكيـدُ علـى أنَّ سـلاحَ حـزب اللـه هـو سـلاحُ الأمـر الواقـع ولا يُمكـنُ مسـاءلتُه عـن أيٍّ مـن نشـاطاتِه المحليَّـة والإقليميَّـة، فـإنَّ حـرب الـ٢٠٢٤ لهـا بُعـدٌ إقليمـيٌّ لا محلـيٌّ إذْ إنَّهـا حدَثـتْ فـي سـياقِ رسـمِ مُعادلـةٍ إقليميَّـةٍ يتـمُّ مـن خلالِهـا ترسـيخُ نـوعٍ مـن

جبهةٍ يُمكنُ أن تُسمَّى «جبهة مُمانعة». لكنَّ المايسترو في هذه الحرب كان واضحًا أنَّه الإيراني. حربُ العام ٢٠٠٦ كانت بإدارةٍ من حزب الله بهدف تأكيد قُدراتِه وكفاءاتِه القتاليَّة وترسيخ واقع أنَّه باتَ فوقَ النِّقاش، لكنَّ حرب الـ٢٠٢٤ جاءت لترسمَ مُعادلةً إقليميَّةً كان السَّيِّد نصر الله سيكون من أهمِّ أبطالِها وروَّادِها وهو الذي بدأ يبني لنفسِه نوعًا من تطلُّعاتٍ وطموحاتٍ إقليميَّة؛ سواءٌ أكانت له على مستوى القيادة أم على مستوى حزب الله ككُل. وهذا تجلَّى في وحدة السَّاحات.

ومن المُهمِّ ذكرُه أنَّ هذه الحرب يجب أن تُقرأ في ضوء كُلِّ السياقات التي سبقتْها؛ أعني توليدَ الجبهة التي تضمُّ اليمن، العراق، وانضمام حماس إليها بعدَ أنْ وجَدتْ جفاءً، ورفضًا أحيانًا، من الواقع العربي وتردُّدًا منَ الجانب التُّركي الذي لا يرغب في توريط نفسِه في مقامراتٍ قتاليَّةٍ. وحماس ذاتُ عقيدةٍ قتاليَّةٍ جهاديَّةٍ استشهاديَّة ليس لديها رؤية سياسية استراتيجيَّة في الملف الفلسطيني، إنَّما تُريدُ أن تُثبِّتَ واقعًا عسكريًّا أمنيًّا تقومُ لاحقًا باستثمارِه سياسيًّا في محاولةٍ منها لانتزاع الملف الفلسطيني من منظمة التَّحرير لتكونَ حماس واجهةَ هذا الملفِّ. أي أن يتمَّ التَّفاوضُ معها ليسَ على مصير غزَّة وحسب، بل على مصير فلسطين أيضًا. وهذا، برأيي، طموحٌ طوباويٌّ غيرُ واقعيٍّ، لكن كان واضحًا أنَّها تسيرُ في هذا المسار. وقد وجَدتْ في إيران المكان الذي، في الحدِّ الأدنى، يستجيبُ لهذا الطُّموح.

إيران، في المُقابل، تُريدُ أنْ يمتدَّ نفوذُها وتأثيرُها إلى الدَّاخل الفلسطيني بحيثُ يُصبحُ الواقعُ الفلسطينيُّ جُزءًا من الجبهة الإقليميَّة التي تُنشئها وعُنصرًا من عناصرِ الضَّغط على الدُّول، وبخاصَّةٍ أميركا والغرب، وتاليًا تكونُ هذه معركةً رابحةً بالنِّسبةِ لإيران. فكانَ واضحًا أنَّ مسارَ الحرب في غزَّة لم يكن في سياق أنَّ غزَّة اخترقت الحدود الإسرائيليَّة وأَسَرتْ وما إلى ذلك، بل كان مسارًا أكبر من هذا بكثير، والدَّليلُ كلمةُ «الطُّوفان» نفسُها. لم تكن، برأيي، كلمةً مُرتجلةً بل تُعبِّرُ عن وجود ترتيبٍ وتجهيزٍ مُؤدَّاهُ أن تقومَ حماس باختراق الحدود، ثمَّ يقومُ حزب الله بالهجوم على الجليل الأعلى وهذا ما كان يُردِّدُه حزبُ الله دائمًا حينَ يقولُ إنَّه بلحظةٍ خاطفةٍ نخطفُ الجليل الأعلى، وبالتَّالي تكونُ إسرائيل في وضعيَّةٍ مُحرجةٍ، يُضافُ إلى ذلكَ أن تقومَ اليمنُ والعراقُ بالضَّغط وتكونَ إيرانُ السَّنَدَ الأساسي عبرَ ترسانتها الصَّاروخيَّة. فكان واضحًا أنْ ثمَّة سيناريو إقليمي وحربٌ ذاتُ طابعٍ إقليميٍّ في مواجهة إسرائيل،



غارات عنيفة طالت مرتفعات الريحان

تحتَ إدارة إيران. لكنَّ الإيراني، حقيقةً، مشهورٌ بأنَّه مُبطِّنٌ وباطنيٌّ في طبيعتِه وشخصيَّتِه، وأنا أميلُ إلى أنَّ فكرة التقيَّة الشيعية ذاتُ أصولٍ فارسيَّةٍ وسُرِّبتْ إلى المذهب الشِّيعي.

على أيِّ حال، كان واضحًا من مساراتِ الأمور؛ حجم التَّدخُّل الأميركي غير المسبوق وغيرِ المتوقَّع؛ الرَّسائل القويَّة وشديدةُ اللَّهجة التي حذَّرت الإيراني من التوغُّل، كلُّ هذا فرضَ على إيران أن تتريَّث وتتمهَّلَ بعدَ أن كانت قد أعطتْ وعودًا لحماس، وقد ظهرَ هذا في تصريحات الحمساويِّين أنفسِهم أنَّ ما توقَّعوه هو أكبر من هذا بكثير. وضاحٌ إذًا أنَّه اتِّفاقًا مُسبقًا كان مع إيران وقد انسحبتْ منه وطلبت من حزب الله أن يكتفي بما سُمِّيَ «حرب الإسناد والمقاومة».

هكذا بدأتِ الحربُ كاستجابةٍ لمحاولةِ خلقِ معادلةٍ إقليميَّةٍ ليس للُبنان أيُّ دورٍ فيها. حاول الحزبُ أن يخلقَ سرديَّاتٍ تافهةٍ وساذجةٍ وغير دقيقة من قَبيل: الإسرائيلي كان سيبدأ الحرب لو لم نبدأها. هذا كلام لا أساس له من الصِّحَّة، هي لعبةٌ إقليميَّة قرَّرت إيران أن تدخُلَها وتُغامر فيها وانسحبتْ منها في اللَّحظةِ الأخيرة وتورَّط حزب الله في الفخ. والإيرانيُّون يتميَّزون بأنَّهم يُعدِّلون مساراتِهم بشكلٍ سريعٍ وخاطف، وليتَ اللُّبنانيِّين وحزب الله خاصَّةً يتعلَّمون هذا الأمر.

على أيِّ حال، جاءت الحربُ في اللَّحظةِ والظَّرف الخاطئيْن بالنِّسبة للُبنان؛ فهو مُنهكٌ اقتصاديًّا، مؤسساتُه الدُّستوريَّة معطَّلة، لا حكومة ولا رئيس جمهوريَّة والمجلس النِّيابي مُصادر. وأنا أشكُّ في أنَّ حزبَ الله أرادَ الدُّخولَ في حرب الإسناد، لكنَّه دخلَ بإيعازٍ إيراني إذ كان لا بدَّ من ردِّ اعتبارٍ معنويٍّ لغزَّة. فجبهة الجنوب كانت تأييدًا معنويًّا أو أخلاقيًّا أو دينيًّا، سمِّهِ ما شئت، لكنَّها لم تكن إسنادًا عسكريًّا لأنَّها لم تُقدِّم ولم تؤخِّرْ في مسار الحرب في غزَّة. وقد بدا واضحًا

أنَّ حـزبَ اللـه متـردِّدٌ فـي المُشـاركة واكتفـى بقواعـد اشـتباك محـدودة مـع إسـرائيل مُفترِضًـا أنَّ هـذا سـيؤدِّي إلـى اشـتباكات محـدودة علـى الحـدود وتاليًـا يُمكـنُ أن يحفـظَ باقـي النَّـاس. لكنَّهـا كانـت حسـاباتٍ خاسـرةً ورؤيـةً قاصـرةً فـي فَهـم مسـار الأمـور وفـي فَهـم العقليَّـة الإسـرائيليَّة. إسـرائيلُ تعتبـرُ تهجيـر مئة ألـف مسـتوطِن مـن الشَّـمالِ إعـلانَ حـربٍ وجوديَّـةٍ ضدَّهـا. طبعًـا جـرى حـراكٌ بهـدف فصـل جبهـة لُبنـان عـن غـزَّة لكـنَّ إصـرار حـزب اللـه وإيـران بقـيَ مـن أجـل أن تكـون لإيـران الكلمـةُ فـي مسـار حـرب غـزَّة والملـفِّ الفلسـطيني؛ أي أنَّهـا محاولـةٌ مـن إيـران لتثبيـت نفسِـها عبـرَ ربـطِ مسـار جبهـة الجنـوب بمسـار حـرب غـزَّة.

فـي المُقابـل، كانـت إسـرائيل تُجهِّـزُ نفسَـها لحـربٍ مُباغتـةٍ ضـدَّ حـزب اللـه، وأساسًـا لـم تلتـزم بقواعـد الاشـتباك التـي التـزمَ بهـا حـزب اللـه. وقـد ظـنَّ الحـزبُ أنَّ إسـرائيل لديهـا تـردُّدٌ فـي شـنِّ الحـرب، وأنَّـه يسـتطيعُ ببعـضِ التَّهديد بضـرب المنشـآت والمواقع العسـكريَّة وأنَّـه لـن يتـركَ مطـاراتٍ تهبطُ عليهـا الطَّائـرات الحربيَّة الإسـرائيليَّة؛ ظـنَّ أن هـذا التهديـد قـد يـردع إسـرائيل. فـي الواقـع ثمَّـة نـوعٌ مـنَ السَّـذاجةِ والبسـاطةِ فـي فهـم العقليَّـة العسـكريَّة الإسـرائيليَّة. الحـربُ كانـت وجوديَّـةً بالنِّسـبة لإسـرائيل. لـم تكـن قضيَّـة نتنياهـو ومزاجِـه وشـخصيَّته؛ أنـا أعطـي شـخصيَّة نتنياهـو هامـش ١٠ إلـى ١٥٪ مـن مسـارات الأمـور، إنَّمـا كان هُنـاك اعتبـاراتٍ وجوديَّـة يقـومُ عليهـا القرار العسـكري الإسـرائيلي. حزبُ اللـه أخطـأ فـي تقديـر مـزاج إسـرائيل وقُدراتهـا وقُدراتِـه أيضًـا، هـو لا يفهـم معنـى التَّكنولوجيـا ودورهـا وأثرَهـا، ولا يُـدركُ معنـى السِّـلاح الذَّكـي؛ كان واضحًـا أنَّ معلومـات حـزب اللـه فـي هـذا الشَّـأن لا تتجـاوزُ المراحـل البسـيطة الأوَّليَّـة. وقـعَ فـي فـخٍّ إسـاءة تقديـر دورِه وإسـاءةِ فهـم آلـة إسـرائيل وقُدراتِهـا. كُلُّ هـذا يُضـافُ إلـى الغطـاء الدُّولـي الكاسِـح الـذي حصلـت عليـه إسـرائيل، حتَّـى التَّوقُّعـات بانقسـامٍ دولـيٍّ وتعاطـفٍ صينـي وروسـي مـع لبنـان لم نلمسْـه حقيقـةً، بـل فـي بعـضِ المحطَّـاتِ كُنَّـا نلمـسُ ميلًا روسـيًّا إلـى إسـرائيل أكثـر منـه إلـى حـزب اللـه، مـن قَبيـل الاسـتعداد الرُّوسـي لضبـط الحـدود السُّـوريَّة وغيـر ذلـك.

إذًا، دخـل حـزب اللـه المعركـة مكشـوفَ الظَّهـر ورغمًـا عـن اللُّبنانيِّيـن وعـن الدَّولـة والحكومـة التـي يغلـبُ عليهـا أنْ تكـونَ حكومـة حـزب اللـه فـي تركيبتِهـا. البيئـةُ اللُّبنانيَّـةُ والشِّـيعيَّةُ خاصَّـةً لـم تكـن جاهـزةً ومُسـتعدةً للحـرب، وهـذا برأيـي أحـد عناصـر الضّعـف فـي هـذه المعركـة. والدَّولـةُ كانـت غائبـةً بـكُلِّ مؤسّسـاتِها؛ صحيـحٌ أنَّ نبيـه بـرِّي كان يُفـاوض لكـن ليـسَ بصفتِـه رئيسًـا لمجلـس النُّـوَّاب، بـل كان يُفـاوضُ بصفتِـه رئيس حركـة أمل. وقـد كشـفَتْ هـذه الحـربُ حجـمَ التَّململِ والانقسـام المُجتمعي، بـل يُمكـن القـولُ إنَّ المـزاج الشِّـيعي تجـاه هـذه الحـرب كان غيرَ مُتعاطـفٍ، وكان حـذِرًا جـدًّا وقلقًـا جـدًّا، لكـن كان هنـاك نـوعٌ من الارتبـاك داخـل البيئـة الشِّـيعية.

كيـف انعكـس كل مـا سـبَق علـى الطَّائفـة الشِّـيعيَّة؟ هـل كان هنـاك مـن مكاسـب وخسـائر؟

اسـتغلت إسـرائيل تـورُّطَ حـزب اللـه واسـتمرَّتْ بالتَّصعيـد التَّدريجـي وتصفيـة القيـادات علـى المسـتوى الأدنـى وصـولًا إلـى تفجيـر الـPagers الـذي كان بدايـةَ حـربٍ شـاملةٍ ضـدَّ حـزب اللـه. وأمـام هـذا الاسـتعداد الإسـرائيلي الكامـل، لـم يكـن ثمَّـةَ أيُّ اسـتعدادٍ مـن قِبـل حـزب اللـه، ولـم تكـن لديـه اسـتراتيجيَّة حيـنَ شـنَّت إسـرائيل الحـربَ عليـه، بـل وقَـع فـي صدمـةٍ وارتبـاكٍ؛ فقـدَ القيـادة، حـدثَ تضعضـعٌ وتشـتُّتٌ كان سـيؤدّي إلـى انهيـار حـزب اللـه بشـكلٍ كامـلٍ لـو لـم يتدخَّـلِ الإيرانيُّـون ويُعيـدوا تنظيـمَ الأمـور. وإسـرائيل أُعطيـتْ لهـا فرصـةٌ ثمينـةٌ للقضـاء علـى حـزب اللـه، ولعبـتْ لعبـةً ذكيَّـةً مـن جهتِهـا فقامـتْ باسـتهداف الشِّـيعة بشـكل أوَّلـي ومؤيِّـدي حـزب اللـه مـن بيئته بشـكلٍ مُركَّـز، فعزلتْ المكوِّنـات اللُّبنانيَّـة الأخـرى. عِلمًـا أنَّ هـذه المكوِّنـاتِ اعتبـرتْ نفسَـها غيـرَ معنيَّـةٍ بهـذه الحـرب لأنَّهـا حـربُ إيـران وحـزب اللـه وليسـتْ حربَهـم، وهـذه مـن أكبـر الثَّغـرات فـي المواجهـة التـي شـنَّها حـزب اللـه مُعتقِـدًا، بسـبب التضخُّـم فـي شـخصيَّته النَّرجسـيَّة، أنَّـه يسـتطيعُ المُضـيَّ دونَ دعـمٍ وغطـاءٍ داخليَّيْـن على المسـتوى المجتمعـي وعلـى مسـتوى الدَّولـة ومؤسَّسـاتِها التـي غيَّبوهـا بالكامـل، فـكان لُبنـان سـاحةَ جهـادٍ وحـربٍ ضـدَّ إسـرائيل.

ثمَّـةَ مُشـكلةٌ أخـرى علـى مسـتوى علاقـة حـزب اللـه بالشِّـيعة؛ كان هُنـاكَ نـوعٌ مـن اتِّفـاقٍ ضمنـيٍّ بيـن حـزب اللـه ومؤيِّديـه مـن الشِّـيعة: أنتـم ادعمـوا سـلاحي وكونـوا بيئـةً حاضنـةً لـي وأنـا أوفِّـرُ لكـم الأمـن والأمـان. لكـن فـي هـذه الحـرب حمَّـلَ حـزب اللـه مؤيِّديـه والشِّـيعةَ مـا لا يُطيقـون ومـا لـم يكـن فـي الحسـبان. لـم يكـنْ فـي نيَّـة أحـدٍ أن يذهـب إلـى دعـم غـزَّة عسـكريًّا. يدعمونَها معنويًّـا وماليًّـا، لكـن ليـس عسـكريًّا. تاليًـا، إنَّ حـزب اللـه نقـضَ هـذا العهـد الضِّمنـي الموجـود بينـه وبيـن بيئتـه الشِّـيعيَّة؛ الأمـن مقابـل التَّأييـد والـولاء. قـامَ بجرِّهـم إلـى سـاحات مواجهـة لا علاقة لهـا بأمـن الجنـوب ولا بأمـان أهلِـه. طبعًـا، حـاول الحـزبُ الالتفاف

علـى هـذه الفكـرة بسـرديَّة الحـرب الاسـتباقيَّة لتسـويغ حـرب الإسـناد.

فالحـربُ، إذًا، خلَقـتْ إربـاكًا علـى مسـتوى البيئة المؤيِّـدة للحزب، ودفعـت الشِّـيعة إلـى إعـادة التَّفكيـر. لكـن هـذا لـم يظهـر بعـدُ لأنَّ ظـروف الحـرب المأسـاويَّة تجعلُهـم ينشـغلون بأمـورٍ إنسـانيَّة، لكـن علـى المسـتوى الذِّهنـي ثمَّـةَ سـؤالٌ كبيـرٌ طُـرِحَ، ومـؤدَّاهُ: لمـاذا ورَّطَنـا حـزب اللـه فـي الحـرب؟ وسـؤالٌ عـن السَّـرديَّة التـي يدَّعيهـا لنفسِـه بأنَّـه هـو الـذي يحفـظُ تـوازنَ الرُّعـب ويُوفِّـرُ الأمـن لهـم ويضمـن لهـم بقاءَهـم فـي منازلهـم، تبيَّـن أنَّ كُلَّ هذه السَّـرديَّة كاذبـة. حـزب اللـه لـم يكـن متوهِّمًـا، بـل كان يُمـارسُ الكـذبَ علـى بيئتـه وعلينـا جميعًـا. وهـذا الأمـر دفـعَ بالنَّـاس إلـى طـرح الأسـئلة، لكـن فـي الجـوِّ المشـحون وفـي ظِـلِّ المأسـاةِ فإنَّـه مـن الصَّعـبِ أن يأخـذ مـداه فـي النِّقـاش العقلانـي. الأمـرُ يحتـاجُ إلـى وقـتٍ ونقـاشٍ مُسـتفيضٍ وآراء مُختلفـة. لكـن السُّـؤال قـد طُـرِحَ فعـلًا. علـى المسـتوى اللُّبنانـي أُعيـدَ طـرحُ ملـف حـزب الله وجـدوى الثُّلاثيَّـة وأنَّهـا لـم يعـد لهـا جـدوًى وأنَّ السِّـلاحَ المتفلِّـت والسِّـلاح الـذي يمـارس مهمّـات عسـكريَّة خـارج الدَّولـة قـد جلَـبَ الويـلَ والدَّمـارَ علـى لبنـان. فحـزبُ اللـه بـدلًا مـن أن يتقـدَّمَ فـي حـرب الــ٢٠٢٤ إلـى الأمـام، تراجـعَ إلـى مـا قبـل الــ٢٠٠٦؛ أي أنَّـه تمَّـتْ اسـتعادةُ الأسـئلة المشـروعة التـي كانـت تُطرحُ في السَّـاحةِ اللُّبنانيَّـة حـول جـدوى هـذا السِّـلاح علـى مسـتوى الحـرب ضـد إسـرائيل بعدمـا تبيَّـن أنَّهـا حـربٌ خاسـرةٌ وتبيَّـن الفـارقُ الهائلُ في التِّكنولوجيـا العسـكريَّة والقـدرة العسـكريَّة والتَّدميريَّـة، وبعدمـا تبيَّنـتْ هشاشـةُ حـزب اللـه كمُكـوِّن عسـكري مُقابـلَ إسـرائيل. يسـتطيعُ الصُّمـودَ بيـن البيـوت وفـي الخنـادق لفتـرة معيَّنـةٍ لكـنَّ السَّـرديَّة التـي كان يدَّعيهـا وأنَّـه يسـتطيعُ محاربةَ دولـةٍ وأنَّه يملكُ قُـدرةً تُعـادلُ قـدرة العـدوِّ الإسـرائيلي وأنَّـه يسـتطيعُ أن يُلحـقَ بـه حجـمَ الأذى نفسَـه؛ لكـن فـي الحقيقـةَ تبيَّـن وجـودُ فـارقٍ هائـلٍ فـي حجـم الدَّمـار عندَنـا وعنـدَ العـدو؛ فـرقٌ هائـلٌ فـي المبانـي، فـي عـدد القتلـى، فـي التَّعامـل مـع المهجَّريـن، وبالتَّالـي تبيَّـن أنَّ هنـاكَ خلـلٌ كبيـر، بـل هُنـاكَ فضيحـةٌ علـى مستوى السَّـرديَّة التي كان حـزبُ اللـه يـروِّجُ لهـا.

إذًا، صـار هنـاك جـرأة، علـى المسـتوى اللُّبنانـي، للقـول إن هـذا السِّـلاحَ مرفـوضٌ ولا بُـدَّ أن يُنتـزَعَ وأن تكـونَ الدَّولـةُ هـي المرجعيَّـة والجهـة الوحيـدة المعنيـة بحمايـة لبنـان وهـذا يتـمُّ بالتَّعـاون مـع الشَّـعب الـذي يُقـرِّرُ كيـف تكـونُ مقاومتُـه بـدلًا من أن تُقـرِّرَ إيـران عنـه وتأتـي بمُكـوِّنٍ تُسـمِّيه مقاومـة وتفرضُـه على اللُّبنانيِّيـن؛ أي لا بُـدَّ أن تعـودَ الأمـور إلـى مسـاراتِها الطَّبيعيَّـة. أمَّـا أنْ نجعـلَ المقاومـةَ رديفًـا للشَّـعبِ ورديفًـا للجيـش فهـذه بدعـةٌ لـم تحـدُث فـي تاريـخ وأشـكال النُّظم السياسـيَّة. وفـي الواقـع، إنَّ كُلَّ المطالـبِ هـي أن تعـودَ الأمـورُ إلـى نصابِهـا الطَّبيعـي وليـسَ الشَّـاذ وغيـر السَّـوي. نحـنُ اعتدَنـا فـي لُبنـان، بسـبب جـوِّ الرُّعـبِ الـذي كان، أنَّـه ممنـوعٌ أن نسـألَ الأسـئلةَ الطبيعيَّـة والمنطقيَّـة.

كيف تلقّى الوسط الشيعي كل ما جرى؟

أمَّـا علـى المسـتوى الشِّـيعي، فلـم يُطـرحِ السُّـؤالُ بشـكلٍ مُباشـرٍ. هُنـاكَ بعـضُ النُّخـبِ الشِّـيعيَّةِ التـي كانـت تتحـدَّثُ وتكتـبُ بشـكلٍ واضـحٍ، وأنـا مـن الذيـن كتبـوا فـي هـذا المجـال، لكـن لـم ترتـقِ هـذه الأمـورُ بعـدُ إلـى مسـتوى نقـاشٍ عـام، لأنَّ الحـزبَ لـم يـزل يملـكُ أدوات القمـعِ والتَّرهيـب لمَنـعِ النِّقـاشِ الشِّـيعي حـولَ سـلاحِه واحتـكارِ النِّقـاشِ الشِّـيعي حتَّـى يكـونَ هـو وحـدَه مصـدرَ المعلومـة والحقيقـة الوحيـد، وهـذه هـي طريقـةُ حـزب اللـه حتَّـى علـى المسـتوى الإعلامـي، حيـثُ يعتبـرُ أنَّ الشِّـيعةَ الذيـن يناقشـون ويتكلَّمـونَ عـن سـلاحِه ليسـوا شـيعةً.

ثمَّـةَ أيضًـا، فـي البيئـة الشِّـيعيَّةِ، نـوعٌ مـن الصَّدمـةِ والانذهـال ممَّـا يجـري. الدَّوائـر القريبـة جـدًّا مـن حـزب اللـه لـم تـزل تؤيِّـدُه لكـن باعتبـارٍ عقائـديٍّ غيبـيٍّ وليـسَ بالاعتبـار الوطنـي واعتبـارِ المصلحـة العامـة والمُفسِـدة. وحقيقـةً، ثمَّـة فـي تفكيرِهـم نـوعٌ مـن الانفعـال وردَّةِ الفعـل والتَّعبئـة العقائديَّـة وترويـجٌ لفكـرةِ أنَّ نـزعَ سـلاح حـزب اللـه يعنـي القضـاء علـى الشِّـيعة، لذلـكَ هنـاكَ أشـخاصٌ تتأثَّـر وتُعطـي ردَّة فعـلٍ مؤدَّاهـا أنَّنـا كشـيعةٍ لـم نُهـزمْ ولـم ننكسـرْ أمـام الطَّوائـف الأخـرى ولـم نـزَلْ أقويـاء.

ماذا عن الجماعات المعارضة لحزب الله؟

علـى مسـتوى الجماعـات المُعارضـة لحـزب اللـه والثُّنائـي عمومًـا، لـم تتضـحْ بعـدُ المسـاراتُ التـي ستسـلُكُها في إعـادة طرحِ مسـألة السِّـلاح ومشـروعيَّتِه علـى البيئـة الشِّـيعيَّة مـرَّةً أخرى. لكـن أعتقدُ أنَّ دائـرة المؤيِّديـن للسِّـلاح قـد تقلَّصـتْ إلـى حـدٍّ بعيـد. ثمَّـة مَن خـرجَ مـن دائـرةِ التأييـد، وثمَّـة جـزءٌ كبيـرٌ فـي حالـةِ تـردُّد فـي مسـاءلةِ ومناقشـة مـا جـرى. وهـذا يوضِّحُ لنا لمـاذا لجأ حـزب الله، بمُجـرَّد الإعـلان عـن وقـف إطـلاق النَّـار، إلـى اسـتعادة السَّـرديَّة الدَّاخليَّـة وإلـى التَّرويـج للانتصـار. ورغـمَ أنَّ هـذا التَّرويـجَ سـاذجٌ وفيـه الكثيـر مـن السَّـطحيَّة، ثمَّـة مـن يُصدِّقُـه. وبـدلًا مـن إعطـاء

الانتصار بُعدًا وطنيًّا، فإنَّه يُعطى بُعدًا عقائديًّا وغيبيًّا مفادُه أنَّنا ننصرُ الحُسين وأهل البيت، أي أنَّ الحزبَ بدأ بتكثيف المضمون الدِّيني والعقائدي على حساب المضمون الوطني عندَ تسويغِه هذه المعارك والحروب التي شنَّها. تاليًا، إنَّ السُّؤال الذي يجب أن يُطرحَ هو كيفَ لهذا الموضوع أن يُثارَ على مستوى الدَّائرةِ الشِّيعيَّة؟

حزب الله عطَّل الديناميَّة المجتمعيَّة داخل الطَّائفة؛ منع وجودَ حراكٍ ثقافيٍّ ومنابر ونقاشٍ عامٍّ وطرحَ أيِّ سؤالٍ داخل الطَّائفة، فأنتَ إمَّا موال وإمَّا مُعادٍ. المطلوبُ أن يكونَ هُناكَ نقاشٌ جدِّيٌّ وأن يُعادَ خلقُ هذه الدِّيناميَّة المجتمعيَّة، وأعتقدُ أنَّ الفرصةَ الآن أفضلُ من ذي قبل بسبب الإخفاقات التي مُنيَ بها حزب الله والتي يُحاولُ التَّغطيةَ عليها عبرَ الاستعانة بتفاصيل البطولات التي يُظهرُها المُقاتلون على الجبهة، وهذه لعبةٌ يلعبُها حزبُ الله بأنْ يُبيِّنَ بطولاتِ بعضِ المُجاهدين الذين لا أشكُّ بنواياهُم، ليُغطِّي على التَّرتيبات الأمنية والسياسيَّة التي يُمارسُها وليُسوِّغَ المغامرات التي ارتدَّتْ سلبًا علينا. فالمطلوبُ تحريكُ هذه الدِّيناميَّة على المستوى الثَّقافي والمجتمعي؛ فبدلًا من أن يكونَ الغرضُ هو الولاء لحزب الله، لا بُدَّ أن يكونَ الحزبُ نفسُه موضعَ النِّقاشِ والبحث ليسَ من موقعِ العداوةِ والتَّشفِّي وإنَّما من موقعِ إعادة دراسةِ خَياراتِنا. وأقولُ تحريكَها داخلَ الطَّائفةِ الشِّيعيَّة لأنَّ الشِّيعةَ يملكون لُغةً خاصَّةً يفهمونَها بين بعضهم. ففي المجال الشِّيعي يتداخلُ العُنوانُ الدِّينيُّ مع العناوين السِّياسيَّة والإيديولوجيَّة والتَّاريخيَّة، فهُناكَ لغةٌ خاصَّةٌ يتخاطبُ بها الشِّيعةُ في ما بينهم، وهذا لا يؤثِّرُ على مستوى المجال العام إذْ إنَّ البوصلةَ الأساسيَّة لا بُدَّ أن تكونَ واضحةً؛ الدَّولةُ أوَّلًا وأخيرًا.

وهُنا أريدُ أن أُميِّزَ بين الدَّولة والنِّظام. لا بُدَّ أن يكونَ الولاء المُطلقُ للدَّولة. نحنُ لا نُوالي رئيس الجمهوريَّة ولا الحكومة لأنَّ هؤلاء، في مفهوم الدَّولة، وُكلاءٌ. والولاء لا يكونُ للوكيل، إذْ إنَّه مؤتمنٌ على مهمَّةٍ عليه أن يُمارسَها.

ماذا عن ترتيب البيت الداخلي للطائفة الشيعية... وهل هناك من حاجة لإعادة النظر برؤيتها المستقبلية؟

على أيِّ حال، لا بُدَّ للشِّيعةِ من التأكيد على أنَّه لا خَيارَ لهم سوى الدَّولة والانتماء للوطنِ النِّهائي. ولا بُدَّ أن يُعادَ النَّظرُ في العلاقة مع إيران؛ التَّوغُّلُ والتَّغلغلُ الإيرانيُّ في حياتنا لا يقتصرُ على المستوي العسكري فقط، بل يتعدَّاه إلى المستوى الثقافي والسياسي وحتَّى الدِّيني. إيران موجودة في جميع مساجدنا وحسينيَّاتِنا وشوارعِنا وساحاتنا، فآنَ الأوانُ لأنْ نضعَ حدًّا لهذا التَّغلغُل المُخيف وأن نعملَ على تقليصِه. نُريدُ أن نبني علاقةً طبيعيَّةً مع إيران كغيرِها من الدُّول، وفقَ حسابات المصلحة والخسارة وليسَ علاقةً عضويَّةً لأنَّه لا علاقةَ عضويَّةً تجمعُنا بهم. ولا بُدَّ أيضًا أن يكونَ السِّلاحُ بإمرةِ الدَّولة، بل حتَّى فكرة المقاومة نفسِها يجب أن يُقرِّرَها كُلُّ اللُّبنانيِّين، ليسَ الشَّيعة فقط وليسَ أهل الجنوب فقط، وهذا يتمُّ عبر استفتاءات ونقاشاتٍ عامَّة، وبوضعِ هيكليَّة مُختلفةٍ للمُقاومةِ على فرضِ أنَّه لا بُدَّ منَ المقاومة، وهذا أمرٌ تُديرُه الدَّولة فقط، وكُلُّ ما يرشَحُ من أشكالٍ أمنيَّةٍ جديدةٍ يجب أن يكون تحتَ إمرتِها. فإذا كان لا بُدَّ من وجود كيانٍ رديفٍ للجيش، وليسَ بديلًا عنه، في المواجهة مع إسرائيل فلا بُدَّ أن يكونَ أحد الأجهزة الأمنية التابعة للدَّولة التي تستعين به عندَ الحاجة.

هذه لحظةٌ لعودة الأمور إلى مسارِها الطَّبيعي، فنحنُ لسنا نُفكِّرُ في خَياراتٍ جديدة. لا بُدَّ أن نكونَ جُزءًا من شعبٍ وليسَ طائفةً معزولةً لها خصوصيَّاتُها وولاءاتُها السِّياسيَّة الخاصَّة بمعَزلٍ عن باقي المكوِّنات. كلَّا، نحنُ جُزءٌ من هذا النَّسيج ومن هذه الحياة السِّياسيَّة؛ نختلفُ ونتعارَضُ ونتناقَضُ في ما بيننا، لكن بإطار سلميٍّ وبإطار النَّصِّ الدُّستوري المكتوب، وليسَ أن نخترعَ نصوصًا جديدةً ونضعَ سياقاتٍ رديفةً ودستورًا غيرَ مُدوَّنٍ ونصنع واقعًا سياسيًّا رديفًا لمنطق الدُّستور كما كان يفعلُ حزبُ الله.

بيَّنتْ حرب العام ٢٠٢٤ أنَّ خيار الدَّولة هو الأسلم والأكثر أمانًا وضمانًا لأهل الجنوب بصفتهم جُزءًا من الشَّعب اللُّبناني بكل ألوانِه. في المُحصِّلة؛ كان هُناكَ مسعًى لوضع الجنوب خارج الدَّولة وخارج الحياةِ اللُّبنانيَّة بأشمالِها الثقافية والاجتماعية والسياسية والدينية، ونُريدُ أن يعودَ هذا المكوِّنُ إلى بيئتِه الطبيعية ومكانِه الطَّبيعي فقط. أعتقدُ أنَّ هذه الوِجهة التي يجب أن نتوجَّه إليها وهي مسؤوليَّة كل المكوِّنات، الشِّيعيَّة وغير الشِّيعية، وهذه وجهة النِّقاش الذي يجب أن يُثار.

ياسر الحريري

الشيعة مكوّن أساسي في الكيان اللبناني وخيارها الأول هو الدولة

«لا يمكن للطائفة أن تعترف بإسرائيل عقائديًّا... لكنها يجب أن تكون جزءًا من نصرة فلسطين لا الكُلّ»

ياسر الحريري، كاتب وصحافي، درَس الإعلام في كلية الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية، جنوبي الهوى، علمًا أن نفوسه في بيروت. وُلد في أسرة من الطبقة الوسطى، في جو ثقافي يرى العلم أهمّ من الخبز.

عايَش الحرب اللبنانية بمختلف صوَرها وأشكالها، وعانى منها كبقية اللبنانية، يتحدّث في هذا الحوار عن الذكريات، وعن الطائفة الشيعية ودورها كمكوِّن أساسي للكيان اللبناني، مع وجهة نظر تقول بأنه ربما آن الأوان لترتاح هذه الطائفة قليلًا، وأن تكون الجزء وليس الكُّل، على طريق نُصرة القضية الفلسطينية.

بدايةً، مَن هو ياسر الحريري؟



أنا وُلدت في منزل من الطبقة الوسطى، إذ كان والدي موظفًا في القطاع العام، وراتبه يكفي لإعالة أُسرة، وكان يحب العلم والدراسة، وكل جهده وتعبه أنفقه على تعليمنا، لم يذهب باتجاه العقارات، كان يمكن له أن يشتري عقارات، وفي ذلك الوقت كان الموظف قادرًا على ذلك. عائلتنا مؤلفة من ست صبيان وفتاتين، الشيعة يُنجبون الكثير من الأولاد، غير الذين ماتوا وهم صغار. عمليًّا، كل ما جناه أنفقه على المدارس والجامعات، وكان هذا هدفه، فهو يحب العلم، وكان متعلّمًا أيضًا، علّم نفسه بنفسه، إلى أن تحوَّل إلى رجل يكتب الشعر والنثر، ويعتلي المنابر. وهكذا وُلدت في منزل فيه جو ثقافي، وتعلَّمت في بيروت في مدارس خاصة، إلى أن وقعَت الحرب الأهلية، فتهجَّرنا إلى الجنوب، في ما بعد أكملتُ دراستي في بيروت، وكنت مقيمًا في برج أبي حيدر، وسجلّ نفوسنا هناك أيضًا، لكنني أتردَّد كثيرًا على الجنوب، أنا تقريبًا جنوبي، جنوبيّ الهوى قلبي، وبين بيروت والجنوب أكملت دراستي في ظلِّ حرب أهلية صعبة. طبعًا أنا من الأشخاص الذين تعرَّضوا خلال سنواتهم الدراسية إلى القصف، وعانينا من الاشتباكات بين الميليشيات، وكان أهالينا يركضون خَلفنا لإحضارنا من المدارس عند اشتداد القصف، بمعنى، أن كل مآسي الحرب التي يمكن لشخص في لبنان أن يعيشها، عِشتها، لم أغادر لبنان لأن طبيعتي لا تُحب السفر، لذلك كل الحروب عِشتها منذ صغري في ١٩٧٥، ثم لاحقًا حروب الميليشيات والحروب الإسرائيلية، كلها طُبعَت في ذاكرتي. مع كل هذه الظروف الصعبة، وبما أنني الصغير في الأسرة، والوالد كبير في العمر، فكنت ابن الـ١٨ ووالدي في الثمانين تقريبًا، صُرت أخجَل أن أطلب منه مصروفي للذهاب إلى الجامعة، فاضطُررت للقيام بأي عمل. بدأت العمل في السادسة عشرة من عمري لأنني كنت أخجل أن أطلب مصروفي من والدي الكبير، علمًا أنه كان يُحاول أن يُعطيني، لكنني كنت أرفض وأقول له إنني أشتغل و«عم طلّع مصروفي»، برغم أنني عاطلًا من العمل في بعض الأحيان، كنت أحسُّ بالخجل، لأن راتبه التقاعدي يكاد يكفيه مع والدتي. دراستي كانت علمية، وكان المفترض أن أتخصَّص في هذا المجال، لكن ظروف الحرب لم تسمح لي، فاتجهت إلى دراسة الحقوق، ثم درست الإعلام، ونِلْت إجازة في كل منهما، وفي هذا الوقت كنت قد انخرطت في عالم الصحافة، وأنا على مقاعد الدراسة الجامعية، فحصلت على وظيفة في مجلة «الشراع» ثم «المجالس» الكويتية، ولاحقًا انتقلت إلى مكتب جريدة «السياسة» الكويتية في بيروت، ثم اشتغلت فترة في مكاتب جريدة «زهرة الخليج»، وجريدة «الاتحاد» الإماراتية. كان لي العديد من المقالات والموضوعات بطريقة الاستكتاب، إلى أن بدأت العمل في جريدة «الديار» ومكَثت فيها حوالى ٢٦ سنة.

ثمّة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة، كيف كانت تأثيرات الحروب المختلفة التي عاشها لبنان عليك وعلى مكان سكنك؟

في الحرب الأهلية عانيْنا كثيرًا، وأذكر أن اشتباكات كانت تحصل ونحن في الجامعة، وأكثر من مرة حوصرنا بداخلها، وكانت المعاناة في الشارع عندما لا نجد سيارات أُجرة، والاشتباكات تدور من حولنا بين شارع وشارع، خصوصًا معارك الميليشيات. حتى الحرب بين الشرقية والغربية، كانت مؤثِّرة جدًّا في حياتنا اليومية، لأننا كنا نذهب إلى مدارسنا وجامعاتنا، وفجأة تبدأ المعارك بين بيروت الشرقية والغربية، أو بين الميليشيات نفسها في كل منطقة، ولا تدري حينها كيف ستتابع دروسك الجامعية. عايشت تلك الفترات بكل تفاصيلها. ثم كان التهجير بسبب الاجتياحات الإسرائيلية، ١٩٧٢ و ١٩٨٢، ثم حروب التسعينات والمواجهات، عايشتها كلها، وعندما أصبحت صحافيًّا صُرت أتابع أكثر أدقّ التفاصيل. نحن جيل الحرب يتولّد لدينا انطباع أننا لم نعِش في هذا البلد حالة استقرار، أمني أو اجتماعي أو مالي أو اقتصادي، بل عشناها بصعوبة، ومَن يعرفني من محيطي على المستوى الشخصي والسياسي، يعلم أن علاقتي كانت مروحتها واسعة مع القوى السياسية في لبنان، ووعلى الأخصّ القوى الشيعية أكثر من سواها، ولديّ صداقات بين الوزراء والنواب والمدراء في الدولة ورجال الدِّين، لكنني لم أرغب أن أكون محسوبًا، بالشخصي، على أحد أو أكون تابعًا لأحد، هذا ليس من طبعي، ولا «تمسيح الجوخ» من طبعي أيضًا. لذلك، تعبت في بناء نفسي بنفسي، لدرجة أن السيد محمد حسين فضل الله قال لي يومًا: «أنت بنَيت نفسك بنفسك»؛ وهذا ما قاله لي أيضًا الشيخ محمد مهدي شمس الدين، بدليل أن جيلي من الصحافيين أوضاعهم المادية في حالة مرتاحة جدًّا، وأنا لا أزال إلى اليوم أتقاضى ما أعمل به، لا أقبل أن أقبض من أي جهة، لا سياسية ولا حزبية ولا حتى شخصية.

بالنسبة إلى تأثيرات الحرب على السكَن، فإذا كنت في الجنوب من الطبيعي أن تتهجَّر إلى بيروت، وإذا كنت في بيروت سوف تتهجَّر إلى الجنوب، وبالتالي عندما تكون في بيروت أو تسكن في الضاحية الجنوبية لبيروت، وعندما تقع هكذا حروب، أيضًا، سوف تتهجَّر وتترك مكانك وتذهب إلى أمكنة أكثر أمانًا. هذا من تداعيات الحرب، لكن الذين هم مثلنا، وكما يقولون «تمسَح» جلدنا على الحروب، فهو أصبح يعتبر الأمكنة مقرّات مؤقتة، حاليًّا، لأن بعض الأمكنة ستُضطر إلى مغادرتها إذا اندلعت الحرب، كحرب الـ٢٠٢٤، مَن كان في الضاحية اضطُر إلى ترك منزله وكل ما يعنيه، وتذهب إلى تأمين عائلتك في مطارح أخرى أكثر أمانًا واستقرارًا، وتتابع عملك. وأنا كصحافي قمت بمتابعة وتغطية أخبار الجنوب، إذ كانت كتاباتي، في «الديار» أو غيرها، واضحة، كنت أشبَه بالمراسل العسكري، وطبعًا لم آخذ النجاح كما يحدث للذين يعملون في التلفزيون، بحكم أنني لا أُطلّ عبر الشاشات إلّا كل ٣ أشهر أو شهرين مرّة، لست هاوي شاشات، علمًا أن الميديا والشهرة مهمّتان، كذلك لا أتصل بأحد واسأله لماذا لا يستضيفُني في برنامجه، كما يحصل مع العديد من الزملاء، فإذا اتصل بي أحدهم وكان لديّ الوقت أذهب، وإذا لم يفعل لا أُبادر للاتصال به.

أما بالنسبة إلى الحرب الأخيرة، فقد كانت قاسية علينا جميعًا، فهناك أحبّة استُشهدوا وهناك من جُرح منهم، أصدقاء، أهل، أقارب، هذه تأثيراتها كبيرة أهم جدًّا من تدمير بيت، أو تضرُّره. بالنسبة لنا كصحافيين نحن نعيش هذه الحالات لأننا نعيش الحروب، أحيانًا نغطيها ونرى الجثامين والجرحى، صحيح يقسى قلبنا مع الوقت لكن عمليًّا تحديات المكان في بلد مثل لبنان، حيث صار هناك فرز طائفي ومذهبي، وسكاني، من الطبيعي في مثل هذا الفرز الطائفي أن يؤثِّر المكان، خصوصًا على أبناء الضاحية الذين حُكم عليهم ترك بيوتهم وكذلك لم يتمكّنوا من العودة إلى بيوتهم في الجنوب، فهم مُضطرون أيضًا أن يتركوا بيوتهم هناك، وذلك لأن الاستهداف كان للبيئة الشيعية بشكل عام ومن دون تمييز، سواء كان الشيعي في حزب الله أو لم يكن، لأن المطلوب كان الضغط على هذه البيئة في هذه المرحلة. لكن هذه التأثيرات تبقى مادية وإن كان فيها شيء من المعنوي، تستطيع أن تتجاوزها مع الوقت، وأن تخرج منها، لكن الحقيقة أن هذا الفرز السكاني في لبنان هو المشكلة الأساسية والذي يمكن أن يكون من نتيجة المشاكل الطائفية والمذهبية فيه، وهي مشكلة أيضًا يتحمَّل مسؤوليتها أُمراء الحرب. ويمكن القول إنها من «أفضال» أمراء الحرب علينا في لبنان، الذين استطاعوا أن يأخذوا الطوائف إلى مناطق

منفصلة عن بعضها البعض! لكن في حرب الـ٢٠٢٤ تبيَّن أن الشعب اللبناني قادر على أن يتجانس ويتعايش، وكذلك الطوائف قادرة على التجانُس والعيش بعيدًا من ترَّهات الشاشات ومواقف السياسيين الحادة أحيانًا، والتي هي في الحقيقة حرب إعلامية على الشعب اللبناني. وأذكر أنه حتى في ١٩٧٥ عندما اندلعت الحرب الأهلية ورُفعت المتاريس، كان اللبنانيون يلتقون ويتحاوَرون، وتزاوروا وتزاوجوا وتبادلوا في التجارة والصناعة وغيرهما. اللبنانيون لديهم مقدرة عالية على التجانس وتجاوز اللحظة الصعبة. لكن مع الأسف إن المواقف السياسية هي التي تفرِّق بين الناس. تجربة الـ٢٠٢٤، أو ٢٠٠٦ كانت القدرة على التعاون من الناحية الإنسانية والوطنية والاجتماعية بين اللبنانيين عالية جدًا، وأعتقد أن هذا ما يميِّز لبنان، فمثلًا في سوريا لم نرَ ابن إدلب ذهب إلى حلب أو ابن حلب ذهب إلى حمص، أو دير الزور، وخلال الحرب السورية التي وقعت كان السوريون يخافون من بعضهم البعض، لكن في لبنان لم يحدُث ذلك، ففي حرب الإلغاء بين ميشال عون وسمير جعجع وعندما تهجَّر المسيحيون إلى مناطق المسلمين تمَّ استقبالهم، وفتحت لهم البيوت والمراكز، وأيضًا قُدّمت لهم المساعدات وكان ذلك في خضمِّ الحرب الأهلية، ونقول ذلك لإظهار مقدرة اللبناني على تجاوُز المسائل الباعثة على التفرقة. من هنا، بات المكان في لبنان، عنوان طائفي أكثر من كونه عنوانًا مذهبيًّا، لذلك لو توفّر للبنان إدارة سياسية وطنية فإن كل هذه الأمور الطائفية والمذهبية تسقط بدقائق.

كيف سترتّب الطائفة الشيعية بيتها الداخلي؟

أوّلًا هذا السؤال بحدِّ ذاته مُستهجن، فالطائفة الشيعية مؤسّسة للبنان، ووجودها يسبُق قيامه كدولة استقلال، عمر الطائفة قديم جدًا وقبل أي طوائف أخرى، هذا من حيث المبدأ، وبالتالي هي جزء من هذا الوطن، وهذه الدولة، وجزءٌ أساسي وفاعل في السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع، والاجتماع السياسي. الطائفة الشيعية في لبنان لا مشكلة لديها، ربما هي مشكلة عند الآخرين، لأنها وقَفت بصدق مع القضية الفلسطينية، منذ العام ١٩٤٨ ودفعت أثمانًا بشريّة وجغرافيّة، كونها موجودة على حدود فلسطين المحتلة، أما لو كانت كما غيرها من



غارة على منزل بين عبا وجبشيت، موقع بنت جبيل

الطوائف أو المسلمين أو العالم العربي، فهي في مكان آخر، مشكلتها الأساسية بالنسبة إلى الآخرين هي أنها ناصرت الحقّ الفلسطيني، وهذا هو بيت القصيد في كل ما يجري اليوم، وكل هذا الاستهداف لها هو فقط لأنها وقفت إلى جانب الحقّ الفلسطيني، بغضِّ النظر عما إذا كانت تمتلك القِدرة، أو لأن تأييدها كان يجب ألا يكون بهذا الشكل، مع أن توجد هناك أشكال أخرى يمكنها من خلالها أن تقف إلى جانب الحقّ الفلسطيني. وعليه فإن مستقبلها في لبنان، هو كأي طائفة لبنانية أخرى، وهي جزء من الدولة كما المكوّنات الأخرى، لا تملك مشروعًا خاصًّا، لا على هامش الدولة ولا خارجها، هي، كطائفة، مثلها مثل الطوائف الأخرى، تعيش في بلد توافقي متعدِّد الطوائف والمذاهب، يحدِّد توجهات الفرد منذ لحظة ولادته. في لبنان عندما يُولد الطفل، لا يُولد لبنانيًّا، بل يُولد مارونيًّا أو كاثوليكيًّا أو ارثوذكسيًّا أو شيعيًّا أو سنيًّا أو درزيًّا، وبعدها يصنَّف لبنانيًا، لذلك المشكلة في لبنان ليست كيف ستكون الطائفة الشيعية، بل كيف سيكون لبنان مع الطوائف، هل سيبقى بلد الطوائف والمذاهب وبالتالي يمكن استغلاله من القوى السياسية والطائفية والمذهبية، وأيضًا من القوى الإقليمية والدولية والدخول على خط التناقضات المذهبية والطائفية.

في رأيي أن الطائفة الشيعية في لبنان سيكون مستقبلها بأنها جزء من لبنان ومن حركة اللبنانيين، في الاجتماع السياسي والاقتصادي وما إلى هنالك، هكذا كانت عبر عقود طويلة وهكذا ستبقى. أما في ما يتعلق بترتيب البيت الداخلي فلا بدَّ للطائفة الشيعية أن تُعيد قراءة كل الأحداث خصوصًا بعد حرب ٢٠٢٤، في موضوع إسناد

غزة، ومن ثم العدوان الإسرائيلي الذي جرى على لبنان، وتحديدًا على البيئة الشيعية، يجب أن تقرأ الطائفة هذه المستجدات وتعيش حالة من الاستقرار المجتمعي، وأن تنخرط في قراءة معمَّقة لكل مُجريات الأحداث، التي تستطيع أن تحدِّد من خلالها مدى قِدرتها على التعاطي مع القضايا الاستراتيجية الكبرى، وفقًا للتوازنات الإقليمية والدولية، وهذا يجب أن يكون دائمًا ولا يجب أن يكون خارج السياق الوطني اللبناني، وأعتقد أن هذا بدأ فعلًا، إذ هناك نوع من الحديث والنقاش، في هذا الموضوع.

وإذا تطرّقنا إلى الحديث عن البيت الداخلي للطائفة الشيعية، فكما كل الطوائف اللبنانية الأخرى، هناك داخل كل طائفة ثنائيّات وثلاثيّات، هناك مرجعيّات طائفية ودينية، وبالتالي فإن الواقع الشيعي في لبنان، هو كأي واقع مذهبي طائفي آخر، لأن المتحكِّم في أمور الطوائف في لبنان، هي المجالس الملّية ثم القيادات الطائفية. وهنا لا بدّ من القول إنه لا يجب أن يتمّ التعامل مع الطائفة الشيعية على أنها طائفة مهزومة، لأنها من الداخل لا تعتبر نفسها هُزمت، وترى أن عددًا قليلًا من مُقاتليها صمدوا وقاوَموا هجمة إسرائيل التي تمتلك قُدرات تسليحية ومالية وتكنولوجية هائلة، ولديها دعم أميركي وغربي لا محدود، لذا هذا الصمود، بالنسبة إليها، هو نصر في حدِّ ذاته. فنحن لا نتحدَّث هنا عن جيشين يتقابلان ويتناظران ويتساويان، بل عن تنظيم مقاوِم مقابل دولة مدعومة من كل أنظمة العالم، والتي شنّت حربًا من أجل ضرب عُمق القضية الفلسطينية، ومن أجل تحييد الشيعة كي لا يقوموا بواجب الدفاع عن بلدهم أو نُصرة فلسطين. أنا أعتقد أن الطائفة الشيعية، منذ العام ١٩٤٨ وقبل ذلك، تدفع أثمانًا من أجل القضية الفلسطينية، وقد فرضت الجغرافيا عليها ذلك، لكونها قريبة من حدود فلسطين، بالإضافة إلى غياب الدولة، التي لا تمتلك جيشًا مسلّحًا ومجهّزًا للدفاع عن الحدود وحمايتها، وكلّنا يعلم، أن الجيش اللبناني ممنوع من امتلاك تجهيزات وأسلحة يمكنه عبرها من مواجهة إسرائيل، لذلك وجدت الطائفة الشيعية نفسها، مضطَرة، بحكم الجغرافيا وغياب الدولة منذ عقود طويلة، أن تتسلّح من أجل الدفاع عن أرضها وعن كرامتها وسيادتها. فعندما تستطيع الدولة اللبنانية حماية مواطنيها وحماية حدودها، فإن الأكيد هو أن الشيعة في لبنان لن يكونوا متقدِّمين عليها، لا بحمل السلاح، ولا بالقتال، ولا بالدفاع عن أنفسهم، لأن هذه مهمة الدولة وقواتها الشرعية، لكن مع الأسف هذه المهمة لم تتحقّق منذ العام ١٩٤٨ بل منذ العام ١٩٣٦، حتى وقتنا الحاضر.

ما هي الصورة المتوقَّعة لعلاقة الطائفة الشيعية بالطوائف الأخرى في الوطن؟ وهل هناك حاجة لإعادة النظر، برؤيتها المستقبليّة؟

المسألة ببساطة هي أن الشيعة لا يُمكنهم القول إن لإسرائيل الحقّ في فلسطين. نعم يمكنهم ألّا يتجهوا نحو الخَيارات العسكرية والقتالية، لكن لا يمكنهم من الناحية الدينية والعقائدية، كما يُفترض أن يكون كل المسلمين، وكل العالم من الناحيتين الإنسانية والقانونية، القول إن وجود إسرائيل شرعي وقائم، هذا أمر غير طبيعي، فإسرائيل جيء بها إلى أرض شعب آخر، وتقوم بطَرده وقتله منذ ما قبل العام ١٩٤٨، وبالتالي فإن الشيعة في لبنان وغير لبنان وككل المسلمين، لا يعتقدون أن لإسرائيل الحقّ في أرض فلسطين. وهنا نأتي إلى مقاربة الشيعة للقضية الفلسطينية، والتي أرى أنها يجب أن تكون واقعية ومنطقية ووفق التوازنات، بحيث لا يكونوا هم الطرف الأوحد في العالم الذي يواجه إسرائيل عسكريًّا، فيما باقي المسلمين والعرب لا يقومون بذلك، علمًا أن فلسطين قضيتهم وهي قضية محقّة طبعًا، وبالتالي فإن الشيعة يجب أن يكونوا، وهم كذلك، جزء من نصرة فلسطين، بأشكال وأساليب قد لا تقتصر على الشأن العسكري. وأرى أنه طالما أن الأمة، إذا كانت موجودة، عربية كانت أم إسلامية، تتعاطى مع هذا الملف بالشكل الذي نراه، فإنه ليس على عاتق الشيعة وحدهم في لبنان، ولا في العالم، تقع مسؤولية مقاتلة إسرائيل، بل مهمتهم أن يدافعوا عن أنفسهم أمام الاعتداءات الإسرائيلية، وهذا أمر يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار. وفي المقابل، وعمليًّا، لا يجب أن نقرأ الشيعة كقضية منفصلة في لبنان، ونصبح أمام ما يقوله البعض عن المسألة الشيعية في لبنان، كلا فالشيعة ليسوا كذلك، فهم أيضًا عانوا من النظام الطائفي، وعانوا الحرمان والفَقر، وعانوا في مستشفياتهم ومدارسهم وجامعاتهم وفي إنماء مناطقهم. فالنظام اللبناني الرسمي، لم يُنصف الشيعة تاريخيًّا، كذلك لم يُنصف معظم اللبنانيين السنّة، والدروز

أيضًا، وفي بعض الأحيان مسيحيي الأطراف... وهكذا. وهنا إذا أردنا النقاش في الرؤية المستقبلية للطائفة الشيعية في لبنان، فهي واضحة، فهم جزء من الدولة ومن الكيان اللبناني، وقد أعلنوا ذلك بشكل واضح وصريح، وهم تمسّكوا ويتمسّكون بالدولة وخَياراتها وباتفاق الطائف، وبالتالي لا خَيار لهم، ولا لأي طائفة أخرى، سوى التوافق والتعايش السلمي مع باقي الطوائف. وأشير في هذا السياق، إلى أن الشيعة في الماضي، ليسوا هم من بدأ الحرب الأهلية، بل بدأتها الطوائف الأخرى، وهم كانوا وقودًا في هذه الحرب، إذ لم يكن لديهم تنظيمات مسلّحة تقاتل في أعوام ١٩٧٥ و١٩٧٦ و١٩٧٧، فقد كان القتال فلسطيني - سنّي - مسيحي، إذا شئت، الحقيقة هي كذلك، وكانت الحركة الوطنية بإدارة درزية وبيَد كمال جنبلاط، وتحت الوصاية الفلسطينية التي يتزعّمها الراحل ياسر عرفات، وهذا يعني أن الشيعة عبر التاريخ لم يخوضوا حروبًا مذهبية وطائفية في لبنان، والآن هم لا يخوضون مثل هذه الحروب، لذلك هذه الأسئلة يجب أن تُطرح بأشكال أخرى، هل الشيعة يملكون خيارات خاصة؟ كلا، همّ لا يملكون، هل يملكون مشروعًا خاصًا، كلا هم لا يملكون، هل هم مع قيام دولة إسلامية في لبنان؟ كلا، فالشيعة ليسوا مع قيام مثل تلك الدولة في لبنان.

ويعلمون أنها لن تتحقق ولا هذه وظيفتهم، لا في السابق، في حقبة الثلاثينات والأربعينات والستينات ولا الآن ولا في المستقبل، لا بل بالعكس الشيعة يطمحون إلى دولة عادلة قادرة قوية، ويعلمون أن على حدودهم عدو إسرائيلي يخالف كل المواثيق والأعراف الدولية، وبالتالي هم بحاجة إلى دولة قوية تستطيع أن تدافع عنهم، ويكونوا جزءًا من هذا الدفاع عبر الجيش اللبناني، فليسلَّح الجيش اللبناني ويُعطى كل الإمكانيات الكبرى التي تستطيع أن تردع الاعتداءات الإسرائيلية. وأقول إنه ليس للشيعة هواية في التسلّح والقتل والاقتتال، هم شباب يحبّون الحياة، يحبّون أن يعيشوها، لكن يريدون أن يعيشوها بعزّة وعنفوان وكرامة، وبالتالي لن يقبلوا بالاعتداء عليهم لا في السابق ولا اليوم ولا في المستقبل. وهكذا أرى أن الشيعة في لبنان ليسوا تابعين لأحد، لا سياسيًّا ولا إقليميًّا ولا إيرانيًّا أو عراقيًّا أو غيره، بل على العكس، هم في الحقيقة جزء من المشروع الوطني اللبناني. لكن السؤال: هل لبنان بطوائفه ومسؤوليه الحاليين ينظرون إلى الآخرين، ومنهم الشيعة، بأنهم جزء من الكيان اللبناني؟ أعتقد أنه آن الأوان في لبنان أن نعمل على بناء عقد سياسي واجتماعي جديد، يُزيل المخاوف كافة، ويبني دولة قوية تدافع عن شعبها.

يوسف بزي

الشيعة أمام خياران: «استكمال الانتحار أو الدخول في مراجعة تؤدّي إلى مصالحة لبنان والعرب والعالم»

يوسف بزي، شاعر وكاتب دخَل إلى عالم الصحافة من باب دراسته لـ«الفلسفة». ابن الجنوب من أُسرة مختلطة دينيًّا وإثنيًّا، قضى طفولته بين الأشرفية والنبعة وبيروت، فكانت بيروت المدينة التي صقَلت تجربته، من الناحيتين الأدبية والسياسية، وعرّفته على أحد الأحزاب العلمانية الذي انتظم في صفوفه مشاركًا بالحرب الأهلية، قبل أن يخلع رداء الحزب والسلاح، وِفق قناعة سياسية جديدة، قوامها أولوية المواطَنة والسلم.

يتحدّث بزي، في هذا الحوار، عن الذات، عن تركيبة البلد، وعن الرؤية التي من خلالها يمكن بناء الوطن.

مَن هو يوسف بزي ما بين الولادة والطفولة والدراسة والارتباط بالمكان؟



وُلِدت في أسرة مختلطة دينيًّا، من أبٍ مسلمٍ شيعي وأُمٍّ مسيحية أرثوذكسية (هي أيضًا من أُسرة مختلطة إثنيّا، الأم أرمنية واللب لبناني). أمضيت طفولتي ما بين الأشرفية والنبعة وبيروت. انتميت أثناء مراهقتي وحتى مطلع شبابي لحزب علماني، وشاركت في الحرب الأهلية المشؤومة. في عمر ١٩ عامًا هاجرت لمدة عام إلى إفريقيا، تاركًا حزبيّتي وسلاحي وِفق قناعة سياسية جديدة، قوامها أولوية المواطَنة والسلم.

عُدت إلى لبنان عام ١٩٨٧، ملتحقًا بكلية الآداب في الجامعة اللبنانية لدراسة الفلسفة، وبدأت العمل الصحافي في الحقل الثقافي، انسجامًا مع انشغالي بكتابة الشعر.

أعتبر نفسي مواطنًا بيروتيًّا، ابن المدينة، بما تحمله من معانٍ في الخروج على الروابط الأهلية أو الطائفية أو الإثنية، إلى رحاب الاجتماع المديني، والاستقلالية الفردية، والهوية المركّبة والمتحوِّلة.

ثمّة أمور لا تُغادر الذاكرة بسهولة... كيف كانت تأثيرات الحرب الأهلية عليك وعلى مكان سكنك ثم في حربَي العامين ١٩٩٣ و ١٩٩٦ وأيضًا في الـ٢٠٠٦ واليوم في الـ٢٠٢٤؟

للأسف، اختبرت كل الحروب التي عاشها لبنان منذ العام ١٩٧٥. قُتل أبي في مطلع الحرب، وتهجّرت أُسرتي عام ١٩٧٦، من بيروت الشرقية إلى بيروت الغربية. لكن قبل ذلك، في العام ١٩٧٣، هُجّرت أُسرتي من الأشرفية، بسبب تأييد أبي للفلسطينيين، في لحظة صدامهم المسلّح مع الجيش اللبناني. ولتكتمل دائرة التهجير، اضطُررت أيضًا، في لحظة السلم عام ١٩٩٠، أن أهجر البيت الذي كنا نسكنه مع وأسرتي. ثم إني عام ١٩٩٣ اشتريت منزلًا في الضاحية الجنوبية، وكانت تجربة غير سارّة، ما اضطُرني لبيعه على عَجَل. ولأن الانقلاب الاقتصادي في بداية السلم كان عنيفًا وقاسيًا كالحرب، اضطُررت للهجرة إلى الخليج ثلاث سنوات تقريبًا، قبل العودة في نهاية التسعينات، لأتنقّل من بيت بالإيجار إلى آخر أربع مرات... إلى لحظة ٧ أيار ٢٠٠٨، حين هُجّرت، بسبب التهديدات، وانتقلت من بيروت الغربية إلى الأشرفية، قبل أن أستقرّ حاليًّا في فرن الشباك.

شاركت في معظم المعارك والحروب ما بين العامين ١٩٨١ و١٩٨٦. كانت أقساها تجربة الاجتياح الإسرائيلي وحصار بيروت.

اختبرت الحرب كمدنيٍّ في فترة «حرب التحرير» ١٩٨٨ - ١٩٨٩، تلك كانت المرة الأولى التي أختبئ فيها بملجأ مع النساء والأطفال. عرفت بشاعة الحرب ورُعبها في الملجأ، حيث عشنا أثناءها العَجز والخوف وكراهية المتقاتلين جميعهم.

مع حربَي ١٩٩٣ - ١٩٩٦، كنت شبه متفرّج، كَوني مقيمًا في بيروت. وأدركت حينها هشاشة السلم اللبناني بوجود الاحتلال الإسرائيلي، الذي – للمناسبة - حرَمني ٢٥ عامًا من زيارة بنت جبيل، مسقَط رأس أبي وبلدة عائلتي الكبيرة.

حرب العام ٢٠٠٦، صقَلت وعيي السياسي أكثر، كمعارِضٍ لتحوُّل المقاومة من وسيلة إلى هدف أو إلى سياسة

وحيدة تُلغي السياسة كلها، علاوة عن تحويل العداء لإسرائيل إلى تمويه لأهداف أخرى، قاتلة ومدمِّرة.

ما هي التحديات المتعلّقة بالوجود المكاني خلال الحروب؟

تجربة العيش في زمن الحرب، تُجبرك على تضييق جغرافية التنقّل. يتحوّل الحيّ الذي تُقيم فيه إلى منعزَل، ومجتمع مصغّر يحاول الاكتفاء الذاتي قدَر الإمكان. وهذا يُفقر الحياة الاجتماعية، فتتحوّل إلى مياه راكدة. كما أن العيش نفسه ينحصر بالبحث عن الأمان وتأمين الحاجيات الضرورية، والسعي إلى توفير بدائل عن غياب الخدَمات وخراب البُنى التحتية، بما أسميه «تقنيات البؤس».

فتضمُر الحياة المدنية وتتحوّل إلى نمَط بدائي متقشِّف، تطغى عليه أخلاقيات العُنف والقسوَة والخوف، علاوة عن انهيار الضوابط القانونية وطغيان منطق الميليشيات والقوة وتسلُّط السلاح.

في حرب العام ٢٠٢٤... من وجهة نظرك، ما هي الخسائر التي مُنيت بها الطائفة الشيعية؟ وهل كان هناك من مكاسب؟

الحرب الأخيرة، توَّجت مسارًا مدمِّرًا للكيان اللبناني ولأركان دولته، ابتدأ من حقبة الاغتيالات ولم ينتهِ بتفجير مرفأ بيروت، وما بينهما من كوارث متتالية، مادية ومعنوية، سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية.

هذه الحرب، تتويج لما اعتبرته تحويل المقاومة من وسيلة إلى هدف ونهج حياة، حيث الموت ينتصر على الحياة. بل إن الاحتفال بالموت بات غاية. وهذا يفوق مداركي ولا أراه قابلًا للعَقلنة.

لبنان كله مُني بخسائر هائلة، ستؤخِّر ما هو متأخِّر أصلًا: محاولات التعافي والإصلاح بعد الانهيار السحيق والمبتدئ عام ٢٠١٦ على الأقل. وأظن أن نتائج الحرب ستبقي لبنان لمدة طويلة في القاع.

أظنُّ أن «البيئة الحاضنة» (أي الشطر الأكبر من الشيعة اللبنانيين)، تلقّت هزيمة كبرى، كنت أتوقّعها شخصيًّا، منذ التورُّط غير المبرَّر وغير الأخلاقي في الحرب على الشعب السوري. فحينها وعلى عكس كل الإرث الشيعي،



أثار الغارات على بنت جبيل، موقع بنت جبيل

كان الوقوف إلى جانب الظالم وضد المظلومين. وهذا سيكون له تداعيات تاريخية من الصعب احتواؤها.

لقد شعَرَت البيئة الحاضنة بالعزلة، واشتدّ عندها الشعور بتكاثُر الأعداء ومخاطر الحصار، وراحت تُوغِل بالمكابرة والإنكار، وصارت مُقيمة على استنفار العصبية والغرائز، وحوّلت مخاوفها إلى تخويف وترهيب للآخرين. وهذا أنهك الحياة اللبنانية إلى حدٍّ لا يُطاق.

عدا ذلك، كان مشروع «الثنائي الشيعي» وعلى نحوٍ مكشوف، محصورًا بالهيمَنة الصلفة على الدولة وعلى وجهة لبنان كله، وعلى مقدّراته. وفي الوقت نفسه، كان مشروعًا فاشلًا منذ بدايته. فما الذي كان يقترحه هذا الثنائي في مسائل التحديث أو في تطوير الحياة الاجتماعية أو في التوجّه الاقتصادي أو التربوي (ماذا فعلوا بالجامعة اللبنانية مثلًا؟)، ناهيك عن الفشل الثقافي العميق، إن في الفنون أو الأدب أو الفكر أو القيَم. وهذا على الرغم من أن المثقفين الشيعة هم في طليعة الإنتاج الثقافي اللبناني، لكنهم بأغلبيتهم الساحقة هم من «المتمرِّدين» أو «المنشقّين»، أي خارج التبعيّة لهذا الثنائي، ومعارِضين له على الأغلب. الأنتلجنسيا الشيعية في مكانٍ مغايرٍ تمامًا. وبالمقارنة مع المشروع الماروني مثلًا، قبل الحرب، أو بمشروع الحريري بعد الحرب، لم يقدِّم الثنائي الشيعي ما يُغري به الآخرين. بل بالعكس، كان موضع نفور ورفض. عدا عن التصاق الانهيارات والكوارث وتفشّي الفساد والفوضى والانتهاك المستمر للدستور وللقوانين وتقهقُر الأمن وتفاقُم ضعف الدولة، وسيادة المافياوية، وتعميم أخلاق النهب والسلب، عن حق أو عن تحامل... بـ«الحقبة الشيعية» إن جاز التعبير، ما بين العامين ٢٠٠٦ و٢٠٢٤.

مـاذا عـن مسـتقبل الطائفـة، أي كيـف سـيرتِّب الشـيعة بيتهـم الداخلـي؟ مـا هـي الصـورة المتوقّعـة لعلاقـة الطائفـة الشـيعية بالطوائـف الأخـرى فـي الوطـن؟ وهـل هنـاك حاجـة لإعـادة النظـر، مـن قِبـل الطائفـة وأبنائهـا، بالرؤيـة المسـتقبلية لهـا؟

عنـد مفتـرق الطـرق هـذا، أمـام القيِّميـن علـى شـأن الطائفـة، خيـاران: اسـتكمال الانتحـار أو الدخـول فـي مراجعـة، تـؤدّي إلـى مصالحـة لبنـان والعـرب والعالـم.

أعتقـد أن النظـام الإيرانـي ذاهـب لا محالـة إلـى الإفـلاس، وعلـى نحـو قـد يكون أسـوأ مـن انهيـار الاتحـاد السـوفياتي أو ربمـا أشـبه بسـيناريوات الربيـع العربـي المتعـدِّدة والكارثيـة.

لا يمكـن تجاهُـل الهـوّة بيـن النظـام الإيرانـي وشـعبه. حدثت ثورتـان فـي عشـر سـنوات تـمّ قمعهمـا بالحديـد والنـار. لكـن هـذه المـرة، قـد لا ينفـع معهـا القمـع، خصوصًـا وأن الهزيمـة الإقليميـة المدوِّيـة، سـترتدُّ نحـو الداخـل فـي المسـتقبل القريـب.

ولـذا، علـى مَـن سـيقود الشـيعة تعبيـد الطريـق لعودتهـم إلـى الكيانيـة الوطنيـة، بـلا غلَبـة وبـلا مُكابـرة، والالتحـاق بلبنـان المنفتِـح الحدّاثـوي، الليبرالـي والديموقراطـي والحضـاري، حيـث التعدّديـة كنـز. وحيـث يحلـو العيـش والازدهـار بسـلام.

الخاتمة

قد تنتهي حوارات كثيرة، لكن النقاش سيظلّ قائمًا، بين أبناء طائفةً جُرّت تحت ستار العقيدة إلى نفق أوصلها إلى حيث ما لا تريد. لكنّها طائفة قد تنتكس ولا تموت. هكذا خلصت معظم الإجابات في الحوارات الذي تضمنها هذا الكتاب. فغالبية الذين تعاونا معهم في رحلة البحث عن بعض الإجابات، أجمعت على أن الطائفة الشيعية قدّمت للبنان الكثير، وبذلت تضحيات جسام، وعلى أكثر من صعيد. أما الخلاصة الأبرز لهذه الحوارات، فكان أن قلةً رأت أن الطائفة، حققت من خلال الحرب الأخيرة مكاسب تُذكر، بل على العكس تمامًا كانت خسائرها جسيمة وكبيرة وتفوق التوقعات، وهذه الفئة رأت أن حزب الله خدَع بيئته بالحديث عن فائض القوة، وقد أظهرت الحرب زَيْف هذا الادّعاء. أمّا الفكرة التي أجمع الكُلّ عليها تقريبًا، فتمثّلت بأن الطائفة الشيعية، يمكن أن تؤدّي دورها على أكمل وجه، إذا ما عادت إلى حضن الوطن عِبر بوابة دولة القانون والمؤسسات، وإن كان البعض قد رأى أن هذا الأمر لا يمكن أن يتحقّق إلّا بعد بناء الدولة الحقيقية، والمقصود بالدولة، دولة المؤسسات وتحديدًا المؤسسة العسكرية لتكون الضامن الوحيد لأبناء الطائفة بعدم تعرُّضهم للاعتداءات الإسرائيلية.

كذلك، فإن البعض ممّن أجابوا على هذه الأسئلة، رأوا أن منطق المقاومة، هو السبيل الوحيد حاليًّا لمواجهة التحديات الخارجية وعلى رأسها الخطر الإسرائيلي المتربِّص بنا من ناحية الحدود الجنوبية، وإن كانوا أكّدوا أن ذلك يمكن أن يتحقّق، ليس من خلال فئة بعينها، وإنما من خلال الدولة التي عليها أن تتصدّى للاعتداءات الخارجية من أي جهة أتت.

لكن في خصوص ترتيب البيت الداخلي للطائفة الشيعية، ورؤيتها المستقبلية، لم يجد الذين حاوَرناهم من حلٍّ إلّا بالعودة إلى حضن الدولة باعتبارها الجامع لكل مكوّنات المجتمع اللبناني، لكن بشرط أن تكون دولة حقيقية لا مجرّد هيكل قائم بذاته.